الأدب العربي
بين البادية والحضر

تأليف

الدكتور ابراهيم عوضين

وكيل كلية اللغة العربية بالمنصورة

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م


مطبعة السعادة
ت ٩٠٧٣٧٩
س.ت ١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إذا كانت دراسة الأدب من خلال العصور الأدبية تقدم تصوراً لمسيرته ، تتضح من النظر إليه أطواره .. فإن صورة الأدب تبدو فى هذه الأطوار باهتة ، تتطلب مزيداً من التحديد ، وتثير كثيراً من التساؤلات ، وكان من أبرز هذه التساؤلات ، تساؤل بعض الدارسين من العرب والمستشرقين عن السر فى تباين الأدب العربى فى الطور الواحد ، بحيث تواجه فى العصر الواحد بأدب سهل الألفاظ لينها ، لا خشونة فيه ولا توعر ، بل ولا جزالة ، كما تواجه فى العصر ذاته بأدب جزل الألفاظ قويها ، مع سهولة ووضوح ، أو مع خشونة ووعورة .. مما أثار أكثر من قضية كان من أهمها دعوى النحل والتزييف .

لذا كان على ـ وقد سبق أن قدمت دراسة للأدب العربى فى الجاهليـة وصدر الإسلام ـ أن أضم إليها دراسة أخرى للأدب العربى فى بيئاته المختلفة ، تحرص على تقديم صورة له فى البيئة المتقاربة الآثار زمانية ومكانية وثقافية ، بحيث تبدو الصورة متلائمة ، يمكن بها الإجابة على بعض تلك التساؤلات المثارة .

وذلك لأن العصر الجاهلى ـ مثلا ـ قد قام على بيئات عديدة ، منها البيئة ذات الحضارة المادية كما فى إمارتى الحيرة والشام ، والبيئة ذات الحضارة البدوية ، وهى البيئة البدوية التى وفدت إليها بعض المظاهر الحضاريه ، فأثرت فى أبنائها تأثيرا ما ، والبيئة ذات الحضارة الروحية والفكرية وهى البيئة البدوية التى جاءتها حضارة الإسلام الروحية والفكرية فهزت أبناءها هزا أسقط عنهم الكثير من موروثاتهم القديمة . أضف إلى هذه البيئات الثلاثة البيئة البدوية البادية التى حرص أبناؤها على بداوتهم بكل مافيها من خشونة وقوة .

فليس شك فى أن اجتماع هذه البيئات على أمة واحدة فى عصر زمانى واحـد ،

يجعل دارسى الأدب فى حيرة ؛ فهو أمام ظواهر أدبية لاتقل عن أربع ظواهر ، كل منها تختلف عن الأخريات فى آثارها .

من ثم رأيت أن أقدم دراسة فى الأدب العربى من خلال بيئاته ، لتكون مكملة لدراسته من خلال عصوره ، تتضح بهما معا صورة الأدب العربى وأطواره .

بيد أن دراسة النثر الجاهلى فى البادية والحاضرة لم تكن بالأمر الميسور ؛ لتعذر الوقوف على نصوص نثرية موثوق فى صحة نسبتها إلى قائلها . فكان أن تتبعت فنون النثر فى أطواره المختلفة وفقا للبيئة الزمانية فحسب ـ دون نظر إلى البيئة المكانية ـ لنتعرف على انعكاس الحضارة الإسلامية عليه ، وأثر ذلك فيه .

وأياما كان الجهد المبذول ، فهى خطوات على الطريق ، فى حاجة إلى ما يكملها ، فالمدى واسع ، والأحداث متشابكة ، وفقنا الله وسدد خطانا ، وهيأ لنا للصواب وهيأ الصواب لنا .

المؤلف

المنصورة فى ٦ من ذى القعدة ١٤٠٠ هـ

١٦ من سبتمبر ١٩٨٠ م

تمهيد

الفصل الأول

الأدب

من يتعرض لدراسة الأدب العربي يواجهه في أول أمره سؤال عن المقصود بكلمة « أدب » ، وأصل اشتقاقها ، وأطوار استعمالها منذ الفترة الزمنية التي يتيسر للدارس أن يطل على اللغة فيها حتى عصرنا الذي نعيش فيه .

ولا ريب في أن تلك الفترة الزمنية التي لا يستطيع الدارس أن يتجاوزها في إطلالة على اللغة العربية وآثارها هي ما تعارف عليه الدارسون باسم العصر الجاهلي ، وهو تلك الفترة الزمنية التي سبقت مجيء الإسلام ، وتمتد إلى نحو مائة وخمسين عاما قبل الإسلام .

مفهوم كلمة أدب :

الناظر في مأثور العرب في العصر الجاهلي يجد أن كلمة « أدب » ومادتها في استعمالات القوم نادرة ، وهي مع هذه الندرة – فيها وصلنا – لم تكن تستعمل بالمفهوم التعبيري الذي نعرفه اليوم ؛ فقد اجتازت في هذا السبيل أطواراً انتقلت فيها معنى إلى معنى ، شأن كلمات اللغة دائماً .

ولعل من أقدم استعمالات مادة « أدب » ما روى على لسان طرفة بن العبد المتوفى سنة ٥٦٩ :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر (١)

فالآدب هنا : الداعي إلى الطعام ، يقال : أدب يأدب أدبا – من باب ضرب – دعا إلى الطعام ؛ فالأدب – بسكون الدال – الدعاء إلى الطعام .

(١) انظر القصيدة (٥) بيت (٤٦) من ديوان طرفة ، طبعة آلوارد . والمشتاة : الشتاء ، والدعوة الجفلى : الدعوة العامة ، والآدب : الداعي إلى الطعام ، والانتقار : اختيار أناس دون أناس ، فالدعوة النقرى تقابل الدعوة الجفلى .

ثم ماروى على لسان أعشى قيس ، وهو شاعر مخضرم :

جروا على أدب منى بلا نزق ولا إذا شمرت حرب بأغمار(١)

وماجاء فى حديث عتبة بن ربيعة مع ابنته هند ، يصف أبا سفيان بن حرب حين خطبها قبيـل الإسلام : « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » ، وماجاء فى ردها عليه : « وسآخذه بأدب البعل مع لزوم قبتى وقلة تلفتى »(٢) .

يشير إلى أن الـكلمة انتقلت من المعنى الحسى السابق إلى المعنى الخلقى .

وقد يكون استعمالها فى المعنيين دون ترتيب ، لـكن لم يصلنا مايدل على ذلك .

حتى إذا جاء الإسلام استعملت الـكلمة فى الدلالة على المعنى التعليمى ، مثال ذلك ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخاطب وفود العرب على اختـلاف لهجاتهم ، فيفهم عنهم ويفهمهم ، فقال له على كرم الله وجهه : يارسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تـكلم الوفود بما لانفهم أكثره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »(٣) . ومثاله كذلك ماجاء فى قول كعب بن سعد الغنوى المتوفى فى السنة العاشرة قبل الهجرة :

حبيب إلى الزوار غشيان بيته جميل المحيا شب وهو أديب

ثم اطرد استعمالها فى العصر الأموى بهذه المعانى الثلاثة ، وكثر استعمالها فى الدلالة على ما كان يلقيه المعلم إلى طلبته من الشعر والقصص والأخبار والأنساب وكل مايهذب النفس ويثقفها من مختلف العلوم والمعارف . ومن ثم نشأت مهنة جديدة لجماعة من الناس أطلق عليهم « المؤدبون » ، وهم أولئك المتميزون فى العلم والأدب ، فـكانوا

---

(١) هذا البيت من قصيدة مشهورة تختلف روايتها بالزيادة والنقص ، والتقديم والتأخير ، فى الأغانى جـ ٨ ص ٧٩ ، ومجمع الأمثال جـ ٢ ص ٢٧٦ ، والبلدان جـ ١ ص ٨٦ ومابعدها ، وشعراء الجاهلية ص ٣٦١ ، والشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٦١ ، ص ٢٦٢ بتحقيق شاكر .

(٢) الأمالى جـ ٢ ص ١٠٤

(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير جـ١ ص٣ طبع القاهرة سنة ١٣١١ هـ .

موضع ثقة الخلفاء والأمراء فسعوا إليهم لتأديب أبنائهم وتهذيبهم ، وتلقينهم المأثور من ألوان التعبير ، وأخذ ألسنتهم بثقاف اللغة على اختلاف اتجاهاتها وفنونها .

ومن ثم اتسع مدلول كلمة أدب ومشتقاتها ، وأصبحت شاملة كل ما يحقق للانسان العلم والثقافة من معارف ، وعلوم ، ورواية شعر ونثر ، وظلت على هذا النحو يتسع مدلولها ويضيق وفقا لمقـــام استعمالها حتى إذا كان العصر العباسي ، ونمت الحضارة العربية ، وازدهرت النهضة العلمية ، وقويت حركة التأليف والترجمة ، أخذ كل لون فى الاستقلال بنفسه عن الأدب ، فأصبحت كلمة أدب تدل على التعبير الـكلامى الجيـد ـ شعرا ونثرا ـ وما يدور فى فلـكه من شرح وتعليق ونقد. وأصبحت كلمة أديب تدل على من يعالج فيه التعبير الـكلامى ، قولا أو نقدا أو شرحا . ولم تعد لتشمل عالم البلاغة أو النحو أو أصول اللغة كما كان .

بيد أن مادة « أدب » كانت تطلق فى بعض الأحيان ـ مع هذا التخصص ـ على المعنى العام الشامل لـكل ألوان الثقافة ومظاهرها ؛ فقد روى عن الحسن بن سهـل الوزير العباسى المتوفى سنة ٢٣٦ هـ أنه قال : « الأدب عشرة ، فثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن ؛ فأما الشهرجانية فضرب العـود ولعب الشطرنج ، ولعب الصوالج ، فأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التى أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم فى المجالس[١] . وبهذا المدلول العام استعمل الـكلمة إخوان الصفاء ، وعبروا بها عن مختلف العلوم والمعارف فى رسائلهم[٢] ، وذكر ابن خلدون أنهم إذا أرادوا حد فيه الأدب قالوا : « الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف »[٣] .

---

(١) الشهرجانية : نسبة إلى الشهاريج أو الشهارجة ، وهم أشراف الفـــرس ، والأنوشروانية : نسبة إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس من سنة ٥٣١ هـ ـ ٥٧٩م . انظر زهر الآداب للحصرى جـ ١ ص ١٦٤ بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين الطبعة الثالثة ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣ م .

(٢) انظر الرسالة السابعة من القسم الرياضى من رسائل إخوان الصفاء .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٠ طبع كتاب التحرير بمصر سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .

ومازال هذان السبيلان يتنازعان الكلمة إلى عصرنا الحديث ، فتارة تستعمل الدلالة على كل مايحقق الثقافة للانسان ويهذب عقله وشعوره ولسانه ، وأخرى يراد بها الكلام الجيد الذى يعبر به صاحبه عما يحس ويرى شعرا كان أو نثرا .



هذا ويلاحظ أننا فى تتبعنا لاستعمالات كلمة « أدب » واشتقاقاتها كنا خاضعين لما وصلنا من استعمالات العرب قدمائهم ومحدثيهم ، مما يلفت النظر إلى أن هذا التدرج افتراضى ، لايمكن الجزم به ؛ إذ من الممكن أن يكون العرب الجاهليون قد استعملوا الكلمة فى المعانى التى رأينا أنها جدت عليها وأصل الكلمة لايمنع من ذلك ؛ فهى تدل على الدعاء ، سواء كان الدعاء إلى طعام أو رأى أو فكر أو شعور أو خلق .

أياما كانت أطوار الكلمة التى استعملت فيها ، فالذى يعنينا فى دراستنا هنا هو أن الأدب العربى الذى سنتناوله بالتأريخ والبحث هو الكلام الجيد الذى عبر به العرب عن أحاسيسهم ومشاعرهم وصوروا من خلاله رؤيتهم للأشياء والأحداث بالقدر الذى يحقق الإمتاع النفسى ، واللذة الوجدانية ، فيحرك العواطف ، ويملك الانفعالات .

أقسام الأدب :

١ — الأدب أدبان : أدب ذاتى ، وأدب موضوعى .

أما الأدب الذاتى فهو ذلك الكلام الذى يعبر به صاحبه عن الأشياء أو الأحداث أو العواطف أو نحو ذلك تعبيرا مباشراً ، وهو ماعرف بالأدب الإنشائى ، وإنما كان هذا اللون من الكلام أدبا ذاتيا لأنه — كما ترى — يعرض لشخصية صاحبه بحيث ترى الحياة من خلال نفسه وعاطفته هو؛ فأنت حين تتلقى قصيدة شاعر أو رسالة كاتب ترى فيها مارآه هو من خلال تصوراته وخياله ، وتقع فيها تحت سلطان عواطفه وانفعالاته .

هذا اللون من الأدب إذن مرآة لنفس صاحبه ، ولأن نفس صاحبه تلك خاضعة لمختلف المؤثرات البيئية للعصر الذى تعيش فيه؛ نقول أن هذا اللون من الأدب كذلك مرآة لعصره وبيئته .

ومن ثم كان حتميا أن تختلف حول هذا الأدب الآراء ، وتتباين الاتجاهات ؛

إذ هو يعتمد بالدرجة الأولى على الذوق الخاص والمزاج الشخصي للأديب ، ولا يمكن أن نتصور الناس مصبوبين فى قلب عاطفى واحد . ومن ثم كان مولد الأدب الموضوعى.

فالأدب الموضوعى هو ذلك الكلام الذى يتناول به صاحبه الأدب الذاتىأو المواقف الذاتية بالوصف أو الشرح والتحليل أو التأريخ أو الموازنة ، فهو أدب وصفى .

وإنما كان هـذا اللون من الكلام أدبا ولم يكن علما ؛ لأنه لا يمكن لصاحبه أن يعتمد فيه على الحقائق العلمية الخالصة ، بل هو فيه مضطر إلى أن يجمع بين العلم والفن ، فبينما يقيم عمله على قوانين علمية ثابتة ، تجده مضطرا إلى أن يمزج ذلك بالاعتماد على الذوق الخاص والرؤية الشخصية ؛ فناقد الأدب أو مؤرخه لا يستطيع أن ينقد أو يؤرخ مالم يكن ذا ذوق أدبى ، يدرك به أسرار التعبير وظلاله ، ويتمكن به من موازنة نص أدبى بآخر . . إلى غير ذلك الذى يتعرض له ناقد الأدب ودراسة ؛ فهو — فى ذلك — يختلف عن غيره من الباحثين فى مختلف فروع العلوم الأخرى ، إذ ليس ضروريا أن يكون مؤرخ الثورة ثوريا ، ولا أن يكون مؤرخ السياسة سياسيا ، بخلاف من يؤرخ للأدب ، فلا بد من أن يكون أديبا .

* * *

٢ — ثم الأدب الذاتى (الإنشائى) أدبان ؛ شعر ونثر فنى .

أما الشعر فتميزه عن النثر ميزات شتى ، مثل الموسيقى المتولدة من الوزن والقافية ، واعتماده على العاطفة أكثر من النثر ، بيد أنهما يشتركان فى المقومات العامة للأدب الإنشائى ، التى من أبرزها الفكرة ، والعاطفة ، والخيال ، والصورة ، ثم الأسلوب .

(ا) والفكرة : هى الحدث أو الموقف الذى يؤثر فى الأديب ؛ ويوقظ مشاعره وأحاسيسه تمهيدا لتحريك العاطفة المناسبة فيه .

(ب) والعاطفة : هى الاستجابة العاطفية لدى الأديب للموقف أو الحدث الذى أثر فيه ؛ إذ بدون ذلك يفقد الأديب أهم عوامل النجاح الأدبى وهو الصدق الفنى، فيخرج كلامه جامدا جافا لا روح فيه ولا حياة ، فهو مصنوع ملفق .

(ج) والخيال : هو المنظار الشخصى للأديب ، يرى بواسطته الفكرة التى حركت مشاعره وأثارت عواطفه ، فهى رؤيا جديدة للأفكار بعد التأثر بها . فعبث الأيام بنا

وقصاؤها علينا فكرة حركت مشاعر المعرى وأثارت عاطفة الأسى والحزن فيه، فرأى الإنسان أمام الأيام زجاجا تطحنه فى قوله :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة   وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا   زجاج ولكن لا يعاد له سبك

(د) والأسلوب : هو ذلك المنهج الكلامى الذى يسير عليه الأديب فى صوغ العبارات التى تنقل ما يرى من خلال ذاته ، ليشعر متلقى أدبه بما شعر ، ويحس بما أحس ، ويجد ما وجد . وبواسطة نجاح الأديب فى تأليف عبارته موافقة لما فى نفسه ، يضمن أمله لونا آخر من ألوان الموسيقى — بل هو أهمها — وهو تلك الهزات المنغمة المتوافقة فى الإيقاع مع أحاسيس الأديب وعواطفه ، والتى تصل متلقى الأدب من ثنايا عباراته وإيحاءاتها . وهذا اللون الموسيقى هو ما عرف باسم الموسيقى الداخلية .

نشأة الشعر والنثر :

كثر الحديث حول أسبقية الشعر للنثر أو أسبقية النثر للشعر ، وقدم كل ما عزز به افتراضه ؛ فالحديث فى هذا الموضوع افتراضى خالص ، لا يمكن أن يجزم فيه برأى ، وبالتالى لا يمكن أن يحمل واحد على قبول أحد الرأيين دون الآخر

لكنا نميل إلى أسبقية الشعر بل نكاد نؤمن بذلك ؛ لأن الشعر بمقوماته وخصائصه هو الفن التعبيرى الذى يناسب المرحلة الأولى للأمة فى أطوار حياتها الأدبية .

فالأدب المنثور يحمل صاحبه على مزيد معاناة وبذل جهد أكثر فى تجميع أفكاره وترتيبها وتقديمها فى ثوبها الفنى ، وهذه المعاناة فى صياغة الأدب المنثور لا تعادلها المعاناة فى التزام الشاعر بالوزن والقافية — كما فى الشعر العربى — لأن الوزن والقافية من الامور التى يسهلها على الأديب الشاعر فطرته التى تجنح إلى الموسيقى وتميل نحو التطريب والإيقاع المتسق ، فالتزام بموسيقى الشعر ما صعب إلا على أبناء الأطوار اللاحقة والأمم فى أطوارها الأولى تتسم حياتها بما يتطلب الشعر ويتوافق معه ، إذ تكون فى فترة الصراعات والحروب التى تسبق الاستقرار وما يتولد عنه من تنظيم سياسى واجتماعى إلى آخره مما يتطلب التفكير والتروى ومعالجة الأمور بلون من التعبير أكثر تعقلا وحكمة .

هذا إلى أن الشعر وليد الخيال والنثر الأدبى وليد العقل، والخيال دائماً يسبق العقل

فى النمو والحركة ، كما يتضح من النظر فى ملوك الأمم البدائية والمتحضرة ، فالخيال لدى البدائيين أقوى من العقل، على خلاف الحال لدى المتحضرين ، وكما يتضح من النظر فى سلوك الصبى والشاب ، فالخيال لديه أقوى من العقل، بينما العقل لدى الشيوخ أقوى من الخيال ، فالخيال مصاحب للمراحل الأولى من أطوار الحياة ، ثم يليه العقل .

لذلك أقرر بأن الشعر كان الفن التعبيرى الأسبق فى حياة كل أمة ، وليست أمة فى ذلك بمختلفة عن أمة

الفصل الثاني

العـــرب

العرب اسم لإحدى الجماعات السامية ، لم يعرف بعد على وجه التحقيق المهد الأصلى لها ولأخواتها الأخريات ؛ فقـــد تعددت الأقوال ، واضطربت الافتراضات ، دون الوصول إلى قول حازم يحدد منشأها فى عصور ماقبل التاريخ .

والذى يكاد يتفق عليه أن شبه الجزيرة العربية هى موطن الجماعات السامية كلها فى العصور التاريخية . استقروا فيها ، وأخذوا منها كثيرا من عاداتهم وأخلاقهم .

وتحت ضغط الحياة فى الجزيرة اندفع كثير من أهلها إلى الخروج منها والهجرة إلى حيث الخصب والنماء ، ولـكن على فترات متباعدة .

ففى الألف الثالث قبـل الميلاد خرج الأكديون « الأشوريون والبابليون » من الجزيرة إلى العراق ، وهناك عاشوا فى صراع دائم مع المطامع الشخصية تارة ومع الأمم الوافدة ــ مثل الـكشيين والحيثيين ــ تارة أخرى ، حتى قضى عليهم الإسكندر المقدونى فى القرن الرابع قبل الميلاد .

وفى أوائل الألف الثانى قبل الميلاد خرج الـكنعانيون من الجزيرة إلى الشام ، وأسسوا هناك مدنا تجارية ، مثل صيدا ، وصور ، وبيروت ، وقد أطلق اليونانيون على من أقام من هؤلاء بساحل البحر المتوسط اسم الفينقيين . ولم يلبث هـــؤلاء الـكنعانيون أن تشعبوا وانتشروا فى المنطقة ، فتغلغلت طائفة منهم فى شمالى سوريا وهم المعروفون باسم « الأوجريتيون » ، واستقرت طائفة أخرى فى شرقى الأردن ، وهم « المؤابيون » ونزحت طائفة « العبريين » إلى فلسطين .

وفى نحو منتصف الألف الثانى قبل الميلاد خرج الآراميون من الجزيرة العربية ، إلى صحراء النفود فى باديتى الشام والعراق ، وتغلغلوا فيها حتى وصلوا إلى خليج العقبة غربا وجنوبى الفرات شرقا ، وكونوا لهم إمارة بين بابل والخليج العربى ، عرفت باسم « كلد » ، ومنها أخذ اسم الـكلدانيين .

أما من استقر به المقام فى الجزيرة العربية فقد عاش بعضهم فى القسم الجنوبى منها ، وعاش الآخرون فى القسم الشمالى ، ولـكل من القسمين طبيعته وخصائصه التى تميز من يعيش فيه .



أما من أقاموا فى القسم الجنوبى من الجزيرة العربية فقد صادفوا فى موطنهم من أسباب التحضر ما أعانهم على النهوض ببلادهم ، وإيجاد حضارة مازالت آثارها باقية إلى يومنا هـذا ؛ فقد تمـكنوا من تشييد سد مأرب ليتحكموا فى مياه الأمطار ، ويستخدموها بقدر على مدار السنة صمانا لزراعة خصيبة تلبى حاجاتهم ، وتمدهم بأسباب الثراء والتقدم .

ومن ثم راجت فى البلاد حركة التجارة الداخلية ، كما راجت حركة التجارة الخارجية التى دعت القوم إلى تـكون لهم علاقات على مختلف المستويات بمن يجاورونهم فى مصر والشام والعراق ، وأصبح مألوفا رؤية القوافل التجارية تجوب الصحراء العربية شرقا وشمالا

وقد كشف النقوش التى عثر عليها فى منتصف القرن التاسع عشر عن كثير مما كان مجهولا عن حضارة القوم وأنظمتهم الحـكومية ؛ فقد تبين أن هذا الوطن العربى كان مقسما خمس ممالك هى مملـكة معين وعاصمتها معين فى الجوف اليمنى ، ومملـكة سبأ فى جنوبها وعاصمتها مأرب ، ومملـكة قتبان فى الجنوب الغربى لسبأ وعاصمتها تمنع ، والمملـكة الأوسانية جنوبى قتبان ، ثم مملـكة حضرموت وعاصمتها شبوة .

وتسببت المطامع فى نشوب حروب كثيرة وصراعات بين هذه الممالك الخمسة ، فقد كان لـكل مطمع فى أن يسيطر على طرق التجارة ويجعل الأمر كله فى يده دون غيره تحقق ذلك للمعينيين فى نحو القرن العاشر قبل الميلاد ، ثم دارت الأيام وتغلب السبئيون فى نحو القرن السابع فمدوا سلطانهم على الأرض ، وتحولت إلى أيديهم أزمة القوافل التجارية .

وفى نحو سنة ٢٧٠ ق . م أنشأ بطليموس الثانى أسطولا بحريا يجـوب البحر الأحمر ليربط بين مصر والهند وإفريقية الشرقية فاضطربت اقتصاديات السبئيين ، مما يسر على ملوك ريدان أصحاب ظفار أن يبارعوهم ويغلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية نحو سنة ١١٥ ق . م ويقيموا دولة الحميريين .

وفى سنة ٢٤ ق . م حاول والى الرومان على مصر (إليوس جالوس) أن يستولى على بلاد الحميريين ، فأعد جيشا كبيرا لذلك ، ولكنه عاد مكللا بالفشل الذريع .

وفى منتصف القرن الرابع الميلادى استطاع ملوك الحبشة أن يستولوا على بلاد الحميريين ، ويظلوا بها نحو عشرين عاما ، استعاد بعدها الحميريون دولتهم ، ولكنها عادت إليهم ضعيفة واهية ، يطمع فيها جيرانها ، فقد أخذ الشماليون فى الإمارة عليها ، كما اضطر كثير من أبنائها إلى الهجرة منها إلى الشمال .

وتحت ضغط الاضطهاد الرومانى الواقع على اليهود اندفعوا إلى الجزيرة العربية فى نحو القرن الأول الميلادى ، وفى الوقت نفسه توالت البعثات الدينية المسيحية ، حتى اعتنقت نجران المسيحية ، فنشب صراع بين معتنقى الدينين ، وأخذ الصراع أشكالا مختلفة كان أبرزها مناهضة ملوك حمير تغلغل النصرانية فى ديارهم خوفا من أن يكون وراء ذلك تحرك البيزنطيين ولعل هذا كان من أهم الدوافع إلى أن يعتنق اليهودية ذونواس آخر ملوك حمير ، ويحاول القضاء على المسيحيين فى نجران ، الأمر الذى دعا البيزنطيين إلى أن يوعزوا إلى النجاشى بغزو اليمن سنة ٥٢٥ م ، فاستولى عليها وضمها إلى الحبشة ، ولم تفلت من قبضتهم إلا بعد نحو خمسين عاما بمعاونة الفرس أعداء بيزنطة ، فانتقلت بذلك إلى سلطات الفرس ، وظلت خاضعة لهم حتى سنة ٦٢٨ م حيث اعتنق الإسلام (باذان) عامل الفرس عليها (١) .

* * *

وفى القسم الشمالى كان العرب العدنانيون ، وكانوا يقيمون فى الحجاز ونجد وتمتد عشائرهم وقبائلهم إلى باديتى الشام والعراق . وكانوا يعيشون عيشة بدوية تعتمد على رعى الإبل والغنم

ومن ثم لم يكن لهم — فى الغالب — سكنى دائمة إلا حيث توجد بعض الواحات

---

(١) انظر التاريخ العربى القديم لطائفة من المستشرقين ترجمة فؤاد حسنين ، نشر وزارة التربية والتعليم . وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ٢٧٥ ، ج ٢ ص ٨ وما بعدها ، و ج ٣ ص ١٣٦ — ٢١٤ .

فى الحجاز ، ولعل هذا من أبرز العوامل التى تسببت فى عدم تجمعهم فى وحدة سياسية قبل الميلاد .

ولقد نشأت علاقات بين عرب الجنوب وعرب الشمال ؛ ففى تيماء الواقعة شمالى مدائن صالح قامت مستعمرة آرامية تجارية فى القرن الخامس ق . م ، كما كان للمعينيين مستعمرة فى ناحية « العلا » شمالى الحجاز ، نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة إلى غير ذلك من مظاهر الالتقاء التى نجد مجال بحثنا هنا لايتسع لتناولها بالتفصيل .

الفصل الثالث

الوطن العـــربى

أقصد بالوطن العـــربى الأرض التى ضمت الجماعات السامية ، والتى عرفت باسم « الجزيرة العربية » ، أو على وجه الدقة « شبه الجزيرة العربية » ، وإنما أطلق عليها قديما اسم « جزيرة » لإحاطة الماء بها ولكن لأنه يحيط بها من ثلاث جهات فحسب هى الشرق والغرب والجنوب ، قيل هى « شبه جزيرة » .

وعلماء الجيولوجيا يرون أن شبه الجزيرة العربية فى العصر الجليدى كانت تجرى بها بعض الأنهار ، وكانت تغطى بعض أجزائها مروج خضراء ، ولا يزال يشهد على ذلك وجود بعض الأودية الجافة العميقة بها .

كما يرون أن تلك الأرض كانت تتصل بالقارة الإفريقية فى الزمن البعيد الموغل فى القدم .

وشبه الجزيرة العربية تمتد لتشغل مساحة كبيرة لاتعادلها شبه جزيرة أخرى عرفت حتى الآن .

واشتهرت عند جغرافيى اليونان والرومان بأقسامها الثلاثة « العربية الصحراوية ، والعربية الصخرية ، والعربية السعيدة » .

فقد كانوا يطلقون اسم « العربية الصحراوية » على المنطقة الشمالية التى تقع بين بلاد العراق والحيرة من الشرق وبين بلاد الشام من الغرب . وفى شمالى هذا الإقليم قامت مملكة تدمر التى حكمتها أسرة « الزباء » المشهورة .

وكانوا يطلقون اسم « العربية الصخرية » على شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها فى شمالى الحجاز وجنوبى البحر الميت، وفى هذه المنطقة قامت مملكة النبط ، وكانت عاصمتها مدينة سلع « بطرا » .

وكانوا يطلقون اسم « العربية السعيدة » على باقى شبه الجزيرة العربية، وتشمل وسط الجزيرة وجنوبيها .

لكن الجغرافيين العرب قسموها خمسة أقسام هى (تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن) .

وحدوا تهامة بالمنطقة الساحلية الضيقة التى تطل على البحر الأحمر (بحر القلزم) المعروفة بإقليم الحجاز ، وهى أرض منخفضة ورملية شديدة الحرارة ، كانت تسمى الغور — قديما — لانخفاض أرضها ويقع فى شماليها ثغر صغير يعرف باسم (الوجه) يظن أنه كان ثغر مدينة الحجر المعروفة الآن باسم (مدائن صالح) ، ويقع فى جنوبى (الوجه) قرية الحوراء . وقد قامت بمنطقة تهامة بعض المرافىء والثغور مثل جدة وينبع فى الحجاز ، والحديدة فى اليمن وتكثر الأودية والمناطق البركانية والحرات(١) فى هذا الإقليم .

ويفصل تهامة من هضبة نجد سلسلة جبال السراة التى تمتد فى شرقى تهامة من الشمال إلى الجنوب .

وكما وجدت فى هذه المنطقة آبار وعيون كانت دليلا على الخصب وقيام القرى الكبيرة ، مثل يثرب ووادى القرى — فى شماليها — وهو يقع بينها وبين العلا التى كانت تسمى قديما (دادان) ومن مدن هذا الوادى مدينة (قرح) وكانت تقام بها سوق عظيمة فى الجاهلية ، ومدينة الحجر أو مدائن صالح وخيبر وفدك التى نزل بها اليهود وامتدوا إلى تيماء فى الشمال ويثرب فى الجنوب . وكان ينزل فى هذه الجهات قبل الإسلام قبائل عذرة وبلى وجهينة وقضاعة .

أما الحجاز فينبسط شرقا فى هضبة نجد الفسيحة التى تنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تتصل بأرض العروض — وهى بلاد اليمامة والبحرين — ويعرف الجزء المرتفع مما يلى الحجاز باسم (العالية) ، بينما يعرف الجزء المنخفض مما يلى العراق باسم (السافلة) ، أما شرقيها إلى اليمامة فيعرف باسم (الوشوم) ، ويعرف شماليها إلى جبل طىء — أجا وسلمى — باسم القصيم ، وهو عندهم الرمل الذى ينبت الغضا(٢) ، وإليه ينسب أهل نجد فيسمون أهل الغضا وأهم مدن الحجاز مكة ، وهى بعد خمسة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرقى

---

(١) الحرة : أرض رملية تملؤها قمم البراكين .
(٢) الغضا ضرب من الأثل .

من مكة تقع الطائف التى أقيمت على ظهر جبل(غزوان)وتحف بها كثير من الأودية والآبار ، مما أتاح للملكة النباتية من قديم أن تزدهر بها .

وتقع شمالى نجد صحراء النفود مبتدئة من واحة تيماء حيث تمتد شرقا نحو ثلاثمائة ميل لتشغل مساحة واسعة تزخر بكثبان الرمال الحمراء ، وتتخللها مراع فسيحة ، حتى إذا اقتربت من العراق مدت ذراعا لها نحو الجنوب فتفصل بين نجد والبحرين متسمية باسم (الدهناء) أو رملة عالج - وهى منازل قبيلتى تميم وضبة - فإذا أحاطت باليمامة انبطحت فى الربع الخالى - وهو صحراء واسعة قاحلة ، تفصل بين اليمامة ونجد وبين عمان ومهرة والشحر وحضرموت - وتندمج فيها صحراء الأحقاف التى تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن من نجد والحجاز وهذه الصحارى التى تطرق نجدا فى الشمال والشرق والجنوب قفار متسعة ، يمتاز من بينها القسم الشمالى بأمطاره الكثيرة التى تكسوه حلة قشيبة من النباتات والمراعى . وتقع وراء هذا القسم الشمالى بادية الشام بأوديتها وواحاتها الكثيرة وبادية العراق أو السماوة .

والعروض تشمل اليمامة والبحرين وما والاها ، والبحرين تمتد من البصرة إلى عمان - وهى المعروفة اليوم بالكويت والأحساء وجزر البحرين وقطر - وكانت تنزل بها قبيلة عبد القيس فى الجاهلية .

وتكثر فى هذا الإقليم الآبار والمياه خصوصا فى الأحساء . ومن مدن هذا الإقليم القديمة مدينة (هجر) ، و (القطيف) وكانت تسمى (الخط) وإليها تنسب الرماح الخطية . وفى جنوبى البحرين عمان ، ومن مدنها (صحار ودبا) ، وعرف سكان هذا الإقليم من قديم بالملاحة واستخراج اللآلىء .

واليمن يطلق على جنوبى شبه الجزيرة كله ، ويشمل حضرموت ومهرة والشحر - وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة كما هو معروف اليوم - وتتألف من أقسام طبيعية ثلاثة أحدها ساحل ضيق خصب هو تهامة اليمن ، وثانيها جبال موازية للساحل هى امتداد سلسلة جبال السراة ، وثالثها هضبة تفضى إلى نجد ورمال الربع الخالى ، ولغزارة الأمطار التى تهطل على هذه الهضبة بفضل الرياح الموسمية كثرت بها الأودية والسهول ، فاتسعت بها المزارع الخصيبة ، وتنوعت الثمار ، فاجتذبت إليها

السكان المستقرين الذين أقاموا فيها دولا وحضارات منذ الألف الثانى قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادى .

والقسم الشمالى من اليمن المجـــاور للحجاز يسمى (عسير) ، وهو الذى كانت تقطنه قبيلة بجيلة فى الجاهلية .

ومن أشهر مدن اليمن عدن وصنعاء وزبيد ونجران وظفار ، ومن أشهر وديانها تبالة وبيشة — وكانت به مأسدة — وحضرموت التى تمتد شرقى اليمن على ساحل بحر العرب ، فإقليم مهرة ، والشحر[1] ، وتنمو فى جباله أشجار السكندر وهو اللبان الذى اشتهر به جنوبى بلاد العرب فى الجاهلية .



وعلى العموم تمتاز شبه الجزيرة العربية بمنـــاخ حار شديد الحرارة ، أما الرياح فألطفها الرياح الشرقية المعروفة بالصبا ، وأقساها ريح السموم التى تهب صيفا على نجد فتشوى الوجوه ، وأبردها ريح الشمال التى تتحول إلى صقيع فى كثير من الأحيان خصوصا فى الشرق .

وأمطار شبه الجزيرة قليلة إلا فى الشمال الغربى حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء ، وإلا فى الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية صيفا ، فتتحول فى كثير من الأحيان إلى سيول جارفة فى شمالى الحجاز واليمن ، أما فى الداخل فهى قليلة جدا ، يتشوف السكان لنزولها ، ويسعدون بها لأنها تحمل لهم أسباب الحياة ؛ ولذلك سموها الغيث والحيا ، واستنزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم . وأصبح احتباس المطر فى هذه المناطق نذير الخطر ، تهجر الأرض بسببه خشية الجدب المهلك ، فكثرت لذلك عندهم الرحلة فى طلب العشب والكلأ ، حيث ترحل القبيلة — حين يحتبس المطر — بإبلها وأغنامها طلبا لمراع جديدة ، يحلون بأرضها ويقيمون فيها .

وشبه جزيرة العرب خالية تماما من الغابات ، وليس بها أنهار جارية ، ولا بحيرات إلا مايقال من أن فى الربع الخالى بحيرة مالحة .

وتضم شبه الجزيرة أنواعا مختلفة من الحيوانات والطيور ، ردد الشعراء أسماء

---

(١) الشحر فى اللغة الجنوبية يعنى الساحل .

أكثرها فى شعرهم فذكروا من الحيوانات الخيل والإبل والأغنام ، ومثل الظباء والأوعال والنعام وحمار الوحش والغزال والزراف ، ومثل الأسد والنمر والضبع والذئب والفهد ، ومن الطيور الصقر والنسر والغراب والحدأة والقطا ، وذكروا كثيرا من الجراد والنحل ، أما الزواحف فذكروا منها الضب والثعبان والعقرب والورل والحية(١) .

(١) لمزيد من التفصيل راجع تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ٨٦ ومابعدها طبع بغداد ، وتاريخ العرب لفيليب حتى ج ١ ص ١٥ ومابعدها الترجمة العربية وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة .

الفصل الرابع

اللغة العربية

الناظر فى تاريخ الأمة العربية وعلاقتها بالجماعات السامية لا يصعب عليه تصور نشوء اللغة العربية ، وإدراك ما بينها وبين اللغات السامية من علاقات ، تبدو فى توافق الاشتقاقات وتكون الأفعال والأسماء والحروف ، كما تبدو فى الاشتراك فى كثير من المفردات .

فاللغة العربية – وهى لغة واحدة من الجماعات السامية – لم تبدأ متميزة هكذا ، لأنها لم تبدأ منفصلة عن أخواتها ، إنما هى وأخواتها تفرعن عن لغة واحدة هى اللغة الأم المعروفة باللغة السامية .

ولا شك فى أن هذه اللغة الأم قد تم نموها فتكونت أفعالها وأسماؤها وحروفها واشتقاقاتها ومزيداتها قبل أن يتفرق أصحابها وتتوزعهم الأرض . ولما أخذت الجماعات السامية فى النزوح عن شبه الجزيرة العربية – على ما سبق ذكره – نزحت كل جماعة بلهجتها التى كانت فيما بعد لغة مستقلة متميزة فأصبح فى العراق اللغة الأكدية بقسميها « البابلية والأشورية » ، وفى الشام اللغة الأجريتية – وهى لغة نقوش رأس شمرا – والفينيقية ، والعبرية ، والآرامية وفى شبه الجزيرة العربية بقيت اللغة العربية .

بيد أن هذه اللغة العربية لم تلبث أن تشعبت إلى لهجات ولغات يختلف بعضها عن بعض تبعا لاختلاف البيئات والطبائع ، وهى لغات الحجاز ، واليمن ، والحبشة وحتى هذه اللغات تفرعت إلى لهجات حيث كان لكل قبيلة وبطن لهجة تناسب معيشته وموطنه الأصغر .

والذى يعنينا من هذا كله أن نتحفظ فى الحكم على بعض الألفاظ فى اللغة بأنها ألفاظ دخلية ، وأن هذه الكلمة سريانية أو عبرية أو حبشية إلى آخر ما يواجهنا به بعض أسلافنا من الباحثين ؛ فما دامت هذه اللغات منبثقة عن أم واحدة فليست واحدة

منها بأولى من غيرها بنسبة لفظة إليها، ومن ثم لا يصح من الباحث أن يتسرع فى الحكم فيذكر أن تلك الكلمة مأخوذة عن السريانية أو عن الحبشية أو عن العبرية .

* * *

وبالنظر فيما بين أيدينا من الشعر الجاهلى نتبين أن الشعراء العرب ـ على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم الخاصة ـ قد اصطلحوا على لهجة من بين لهجاتهم هى اللهجة القرشية لتكون لغة أدبية للعرب جميعاً ؛ وهذا يفسر ما نراه من توحد لغة الشعر الجاهلى وقيامها على اللهجة القرشية .

ونبحث عن السر فى تفوق اللهجة القرشية على سائر اللهجات فنجد لدى قريش من الأسباب ما هو كفيل بأن يشد إليها أنظار وقلوب وعقول العرب جميعا ؛ فقد فرضت عليهم دياناتهم أن يخضعوا لنفوذ قريش عليهم ؛ إذ كانت حارسة الكعبة بيت عباداتهم كما فرضت عليهم المعاملات الاقتصادية أن تكون لقريش عليهم اليد الطولى ، فقد كانت قوافلها التجارية تجوب أنحاء الجزيرة ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى : « لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف .. » . وأعان على ذلك ما جد من ظروف سياسية دعت مختلف القبائل العربية إلى الاتجاه نحو قريش ، فقد رأت القبائل العربية ما يتهددها من الدولتين العظميين المجاورتين (الفرس والروم) ثم ما تحاوله الحبشة من جهة ثالثة لتفرض سلطانها وسيطرتها عليها ، فى مواجهة مكشوفة تارة ، وتارة أخرى فى هجوم دينى على أجزاء من الأرض العربية يحيلهم على دينهم الوثنى ، فلم يكن لهم بد إزاء ذلك كله من أن يتجهوا إلى قريش بكل ما أوتوا من الأسباب والوسائل ، مما هيأ للهجة القرشية السيادة والتسليط على كل اللهجات ، لتصبح بعد ذلك اللغة الأدبية السائدة ، أو اللغة الفصحى لجميع العرب .

وعلى الرغم من ذلك نجد طائفة من المستشرقين ومن سار مسارهم يحاولون أن يخرجوا علينا بآراء أخرى قائمة على الافتراض والحدس دون إماسند معقول ، ولعل الذى أملى على بعضهم هذا المسلك عداوتهم للقرآن والإسلام ومحاولة الكيد له بشتى الأساليب ، على نحو ما زعم هارتمان وفولرز من أن لغة الشعر لهجة أعراب نجد واليمامة ، وقد أدخل فيها الشعراء تغيرات كثيرة ، ثم يزعم (فولرز) أن بقية بلاد العرب كانت تتكلم لغة مخالفة ، ليقرر ما يرادمن أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية غير معربة

على لهجة قريش الدارجة ، وهى لهجة ـ فيما يزعم ـ غـير معربة ، تختلف عن لهجة الشعر الجاهلى الخاضعة لقواعد النحو العربية ، وأن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه فى لغة البدو المعربة .

وهكذا يكشف هذا المستشرق عما يقصد إليه من وراء بحثـه المتلفع بالعلمية ، فيقيمه على فروض وأحداس هى أقرب إلى شطحات المخرفين ، فليس له من سند علمى واحد ، ولهذا رفض رغم هذا رفضا قاطعا طائفة من المستشرقين فى مقدمتهم (بوهل وتولدكه وجاير)(١) :

ويكفى أن نذكر (فولرز) بأن قراءات القرآن الكريم توقيفية نقلت كما سمعت من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا جهد لأحد فيها ، وأن الذين نقلوه عن الرسول صلى الله عليه وسلم هم صحابته ، ولو كان الأمر على ما صوره له وهمه من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرأه على الصحابة فى لهجة غير معربة لقضى على اللهجات المعربة من حوله .

هذا إلى أن (فولرز) وقع فى خطأ آخر يكشف عن ضلال أوهامه ، إذا لم يعرف عن قبيلة من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة حالية من قواعد النحو والعربية .

ويبدو أن (فولرز) وأضرابه من المستشرقين وجدوا اللغويين حين أخذوا فى جمع مادتهم اللغوية فى القـرن الثانى الهجرى يرحلون إلى قبائل نجدية دون قريش فتوهموا أن ذلك كان لأن لهجة نجد هى اللهجة المختارة وأنها هى لغة الأدب العامة فى العصر الجاهلى ، وفاتهم أن ذلك إنما كان حرصا من اللغويين العرب ، فقد كان معلوما أن اللهجة القرشية سادت وأصبحت لغة الأدب فى كل المناطق العربية ، وكان معلوما كذلك أن قبائل نجد ما زالت سليمة اللغة دون أخواتها اللاتى أثر فى لغتها ما جد عليها من لغات الأعاجم والموالى الذين كثروا فى مكة بعد الإسلام كثرة مفرطة فـآثرها اللغويون من القبائل العربية ورحلوا إليها طلبا للغة العربية الخالصة . وفى ذلك يقول أبو نصر الفارابى : كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح بين الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما فى النفس والذين عنهم نقلت اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذوا معظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية « مادة قرآن » ، وكتاب العربية ليوهان فك ص ٣ وما بعدها ، وتاريخ القرآن لنولدكه .

وفى الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد وعمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم[1] .

---

(١) المزهر للسيوطى ج ١ ص ١٢٨ طبع صبيح بمصر .

الباب الأول

الأدب العربى

الفصل الأول

البيئة والأدب

مما لا جدال فيه أن الأدب مرآة تعكس صورة أصحابه ، وتكشف عن دخائل نفوسهم ، وتبين ما خفي من أسرار حياتهم ، وتمثل لاتجاهاتهم التعبيرية ، وتنبىء عما يتوقع في المستقبل لهم من اتجاهات فنية وفكرية . كما أنه القالب الذي يصب فيه ناشئة الأمة ، فيشكلهم ويهيئهم لما يتضمن من خلق وعادات سلوكية واتجاهات ومذاهب عقيدية .

ومما لا جدال فيه — كذلك — أن الأدب انعكاس لما يعتمل في نفوس أصحابه ، وترديد لما يدور في أعماقهم ، وتعبير صادق عن كل ما أثر فيهم على المدى الطويل من أحداث كونية واقتصادية وسياسية وعقيدية . . الخ .

فهو يعني — بالنسبة للانسان — الشيء ومصدره ، إذ هو مرآة تعكس صورة البيئة ، وصورة تتراءى على سطح مرآة هي البيئة التي تحيط بالأديب وتكتنفه . . أي أن الأدب والبيئة متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فالأديب لا يستطيع أن يقتطع نفسه عن بيئته التي يعيش فيها ، ولا أن يحول بين أدبه وبين ما يمر به من مواقف ، وما يعاني من مشاعر وانفعالات ، بل إن الأدب هو متنفس الأديب الذي يخفف عنه ضغط الحياة ، وما تغص به من أحداث ومشكلات ، فيقدم لمجتمعه مشكلاته التي يعاني منها مصحوبة بآماله وأمانيه التي يسعى للوصول إليها ، أي أن الأديب يؤثر في تلوين الأدب كما يتأثر به .

حقا قد يستطيع الأديب أن يتحكم — إلى حد ما — في عبارته ليستر شيئا من خصائص نفسه ، ترفعا على الأحداث ، أو تأبيا على مظهر من مظاهر الضعف البشري — وهو الظهور في ثوب الشاكي المتألم — ولكنه مع هذا كله لا يستطيع أن يتحكم في نفسه إلى الحد الذي لا ينم فيه أدبه عن حاله .

ومن ثم أصبح في مقدور بعض الدارسين أن يصلوا إلى الخطوط الرئيسية والمهمة في حياة الأديب الصادق من خلال أدبه ، كذلك أصبح في مقدور بعض الدارسين

أن يتعرفوا على طبيعة الحياة وما فيها من أحداث عامة فى عصر ما من عصور الأدب من خلال الإلمام بمختلف الألوان والفنون الأدبية التى قدمها أدباء هذا العصر .

وعلى العكس من ذلك أصبح على من يريد أن يتعرف على مسار الأدب فى عصر ما أن يتعرف أولا على ظروف الحياة فى ذلك العصر ، وأن يقف على أبرز الأحداث التى وقعت فيه ، وأن يلم بطبيعة من يضمهم العصر ، وما صادفهم من مشكلات وأحداث ، وكيفية مواجهتهم لتلك المشكلات والأحداث ، ومدى تأثير هذه المشكلات والأحداث عليهم

وإنما لزم الدارسين أن يتعرفوا على كل ذلك ليصبح بين يدى الدارس الناقد المحقق من وسائل التحقيق والضبط ما يقربه من الحقيقة ويدنيه منها إن لم يقدمها له بكامل هيئاتها وأبعادها ؛ إذ هو أمام النتاج الأدبى ، والتاريخ البيئى للجماعة كمن يضع بين يديه العملية الحسابية وميزانها ليتأكد من صحة ما يصل إليه .

وليتمكن هذا الدارس من الوقوف على التفسير المقنع لكثير من التعبيرات الأدبية ، والتعرف على ما يشتمل من صور وخيالات فنية يدهش لها بعض الدارسين لما فيها من غرابة ، أو وحشية ، أو سذاجة نسبية .

من ثم كان لزاما على من يتعرض لأى طور من أطوار الأدب العربى أيا كان أن يتعرف أولا على طبيعة الحياة العربية فى العصر الذى ضم هذا الطور بالقدر الذى يعينه على تصور الحركة الأدبية فيه ، ويطلعه على اتجاهات مسارها ، إذ من خلال ذلك يستطيع أن يستخلص العوامل التى كان لها التأثير المباشر فى نفوس الأدباء العرب فقدموا أدبهم على هيئته التى قدموه عليها .

ولا ريب فى أن هذا المنهج فيه من المشقة والجهد ما يربو على منهج الشك من أول الأمر فى كل ما ينسب إلى عصر من العصور أو إلى أديب من الأدباء — شاعرا كان أو كاتبا — ثم البحث عما يثبت هذا التراث أو ينفيه ؛ لما يتضمن منهج الشك من شبهة وجود حكم مسبق يسعى صاحبه لإقراره .

بيد أن منهج التحقيق والاستقصاء القائم على البحث فى ثنايا البيئة يقدم الباحث من الحقائق ما يشغله عن المشقات والصعاب التى يتجشمها ويعانى منها .

* * *

ونظرة إلى ما بين أيدينا من أدب الأمم الماضية تقرر ما ندعو إليه من أهمية التعرف على البيئة بكل أبعادها ليصدر حكما على أدب هذه البيئة صادقا أو قريبا من الصدق .

فالبيئة ــ وليس العصر ــ هى المقياس الصادق، والكشاف الدقيق للأدب المنسوب إلى أبنائها ؛ إذ العصر الواحد يضم ألوانا مختلفة من العناصر البشرية التى يتباين فيها كل لون عما عداه من الألوان تباينا غير مستقر ، فقد يضيق هذا التباين مشتركات طبيعية أو سياسية أو نحو ذلك ، كما قد يوسع هذا التباين ويزيده اختلافات طبيعية أو سياسية أو نحو ذلك كذلك ، بحيث تصبح الأمة الواحدة فى العصر الواحد كأنها عديد من الأمم لكل جماعة منها من الدوافع والأذواق والمزاج ما يمنحها كيانا استقلاليا تتميز به عن الأخرى بحيث تسمع صوت الفرد منها فلا تصدق أنه يندرج فى المجموعة التى تضم أفراد الجماعة ؛ فبينما صوت الواحد هنا يذوب رقة وسلاسة ، إذا صوت الواحد هناك يصك السمع بخشونة ألفاظه ووعورة تراكيبه ، وقوة إيقاعه .

ولقد اعتاد الدارسون أن يقسموا الأدب إلى عصور ، يضم كل عصر طائفة من الأدباء الذين يمثلونه فى أدبهم ، ويعبرون عن أحداثه واتجاهات الحركة الفنية فيه ، على الرغم مما قد يكون بين أبناء الجيل الواحد من اختلافات أصيلة توجه بعضهم جهة اليمين ، وتوجه البعض الآخر جهة اليسار . . . فإذا ما ووجه الدارس بمثل هذا التباين لجأ إلى البيئة الخاصة يطلب فيها تفسيرا له وتعليلا .

من ثم كان الطريق الأقرب إلى الواقع ، والأوضح فى الكشف عن الاتجاهات الفنية لأمة من الأمم هو البحث فى أدبها من خلال البيئات الأدبية ، لتكون الصورة أشمل وأوضح ، وليكون الخلاف البادى مسبوقا بما يفسره ويعلله ، وليس محتاجا إلى تفسير وتعليل .

* * *

من هذا المنطق أقـــرر أن البيئة الأدبية هى المجتمع المخصوص الذى يفرض على أفراده اتجاها معينا موحدا أو متقاربا ، يلون أدبهم بلون خاص ويميزه من غـــيره بميزة يسير بها .

أو هى الوسط البشرى الناقل ، الذى يستقبل أحداث العصر ويتأثر بها ، فيمتصها

ثم يتمثلها فيما يقدم من تعبيرات أدبية، ودون أن يخضع لحدود الزمان والمكان، إذ هو أعم منهما وأوسع انتشارا وتأثرا .

فالبيئة الأدبية ليست مقصورة على عصر، ولا مخصوصة بجيل، ولا محدودة بموطن، بل يمكن أن تراها ماثلة فى أعصر عديدة ، وأجيال مختلفة ، ومواطن كثيرة .

أى أن البيئة الأدبية قد تكون مجاورة غيرها من البيئات الأخرى، كما قد تكون منفردة ، إذ هى تخضع بالدرجة الأولى - لنوع الثقافات ، وظروف الحياة وما يتولد عنها من أحداث ، ومدى اتصال الأديب بتلك الأحداث ، وكيفية تسامله معها أو استقبالها وتمثلها(١)

فالأديب يخضع فى مساره الأدبى لعوامل ومؤثرات متشابكة تتعاون جميعا فى تشكيل أدبه وصبغه بالصبغة التى تتفق مع من يماثله فى ظروفه ، على الرغم مما قد تكون بينهما من فوارق زمانية أو مكانية .

وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم أدباء أى أمة، وتقديمهم فى مجموعات بيئية متلائمة تكشف عن أدبهم ومدى استجابتهم فيه لتلك البيئة ، وتبين المؤثرات التى خضع لها كل منهم ، فلونت أدبه باللون المميز له من غيره من الآداب .

ولأن هذا المنهج فيه من الشمول واتساع التناول ما يجعل النظر ممتدا بين عصور التاريخ على اتساع رقعتها ، ليرى أدب البيئة الواحدة فى هذه العصور كلها . . . مما قد يصيب الدراسة بنوع من التراكمات . . لهذا رأيت أن أقدم البيئة فى عصرها متميزة عن البيئة الأخرى فى العصر ذاته ، حتى إذا استوعبنا بيئات العصر كله ، انتقلنا إلى بيئة العصر التالى . وبذا نتلافى ما قد ينشأ من خلط أو اضطراب .

* * *

ولقد اختلف الدارسون من قبل حول الأسس التى يقام عليها تقسيم الشعراء الجاهليين، ويعرض من خلالها شعرهم .

فابن سلام نظر فى شعرهم وقومه ، واختار من الشعراء الجاهليين فحولهم، ثم صنف هؤلاء الفحول ، ووزعهم على طبقات رتبها ترتيبا تنازليا ، بناء تارة على ما يراه من

(١) راجع للمؤلف « فى الأدب العربى المعاصر » القسم الثانى ص ٧٩

هاو فنى للشاعر، وتارة على كثرة ما روى من شعرهم وقلته، ومرة يعتبر الفن الشعرى، وأخرى يعتبر الموقع الجغرافى حصرا لما قدمته بعض القرى العربية[1] من فحول الشعراء، ثم فى النهاية عرج إلى العقيدة الدينية فجعلها أساسا لإحدى الطبقات .

ويلاحظ أنه على الأساس الأول والثانى والثالث قدم عشر طبقات ، ذكر فى كل طبقة أربعة شعراء، ثم على الأساس الرابع والخامس لم يلتزم بعدد محدد على ما التزمه فى الطبقات السابقة .

الطبقة الأولى : امرؤ القيس بن حجر ، والنابغة الذبيانى زياد بن معاوية ، وزهير ابن أبى سلمى المزنى ، وأبو بصير الأعشى ميمون بن قيس .

والطبقة الثانية : أوس بن حجر ، وبشر بن أبى خازم الأسدى ، وكعب بن زهير ، والحطيئة أبو مليكة جرول بن أوس .

والطبقة الثالثة : أبو ليلى نابغة بنى جعدة ، وأبو ذؤيب الهذلى، والشماخ بن ضرار، ولبيد بن ربيعة .

والطبقة الرابعة : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة ، وعدى ابن زيد . واستثنى هذه الطبقة من منهجه ، فقرر أن موضع شعرائها مع الأوائل ، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدى الرواة .

والطبقة الخامسة : خداش بن زهير ، والأسود بن يعفر ، وأبو يزيد المخبل بن ربيعة ، وتميم بن أبى بن مقبل .

والطبقة السادسة : عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنترة بن شداد ، وسويد بن كاهل . وذكر لكل واحد منهم قصيدة هى التى ألحقته بهذه الطبقة .

والطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، وحصين بن الحمام المرى ، والمتلمس وهو جرير ابن عبد المسيح ، والمسيب بن علس . وذكر أن هؤلاء أربعة رهط محكمون[2] مقلون ، وفى أشعارهم قلة ، فذاك الذى أخرهم .

والطبقة الثامنة : عمرو بن قميئة ، والنمر بن تولب ، وأوس بن غلفاء ، وعوف ابن عطية .

---

(١) المقصود بالقرى هنا المدن والحواضر .

(٢) محكمون — بضم فسكون فكسر — من إحكام القول .

والطبقة التاسعة : ضابىء بن الحارث البرجمى ، وسويد بن كراع العكلى ، والحويدرة قطبة بن محصن ، وسحيم عبد بنى الحسحاس .

والطبقة العاشرة ، أمية بن حرثان بن الأسكر ، وحريث بن محفظ ، والكميت ابن معروف ، وعمرو بن شاس .

ثم ألحق بتلك الطبقات طبقة أصحاب المراثى ، وذكر فيها : متمم بن نويرة ، والخنساء ، وأعشى باهلة ، وكعب بن سعد الغنوى .

وطبقة شعراء القرى العربية :

ذكر من شعراء المدينة : حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وقيس بن الخطيم ، وأبو قيس بن الأسلت .

ومن شعراء مكة : عبد الله بن الزبعرى . وأبو طالب بن عبد المطلب ، وأبوسفيان ابن الحارث ، ومسافر بن أبى عمرو ، وضرار بن الخطاب الفهرى، وأبو عزة الجمحى، وعبد الله بن حذافة السهمى ، وهبيرة بن أبى وهب .

ومن شعراء الطائف : أبو الصلت بن أبى ربيعة ، وابنه أمية بن أبى الصلت ، وأبو محجن الثقفى ، وغيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل .

ومن شعراء البحرين[١] : المثقب[٢] العبدى ، والممزق[٣] العبدى ، والمفضل ابن معشر السكرى[٤] .

ثم طبقة شعراء يهود : السموأل بن عادياء ، والربيع بن أبى الحقيقة ، وكعب ابن الأشرف ، وشريح بن عمران ، وسعية بن الغريض ، وأبو قيس بن رفاعة ، وأبو الذيال ، ودرهم بن زيد .

---

(١) البحرين : كانت قديما اسم مكان جامع لبلاد على ساحل الهند ، ما بين البصرة وعمان ، وقصبتها هجر ، أما المعروفة الآن باسم البحرين فهى جزيرة يحيط بها البحر فى ناحية البحرين ، وكانت تعرف قديما باسم : أوال « بضم الهمزة وفتحها » كان فيها نخل كثير وبساتين .

(٢) بكسر القاف المشددة . (٣) بفتح الزاى المشددة .

(٤) بضم النون وسكون الكاف .

وهكذا لم يستقر ابن سلام فى عمله على منهج واحد ، فاضطربت تقسيماته ، وتعذر عليها أن تمد الباحث الدارس بالرأى المحدد الواضح ، ولو استقام على واحدة من تلك الأسس لأفاد كثيرا .

أما أبو عبيدة فرأى أن أشعر الناس أهل الوبر خاصة ، ورتبهم في ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة .

الطبقة الثانية : الأعشى ، ولبيد ، وطرفة .

والطبقة الثالثة : كعب بن زهير ، والحطيئة ، وخداش بن زهير ، ودريد بن الصمة ، وعنترة ، وعروة بن الورد ، والنمر بن تولب ، والشماخ بن ضرار ، وعمرو بن أحمد ، والمرقش الأصغر وعمرو بن حرملة[1] .

وابن رشيق استعرض طائفة من الآراء التى تفضل شاعرا على الآخرين لملحظ عام تارة ، وتارة أخرى لخصوصية فنية . وعرض فى إيجاز بشعراء بعض القبائل التى اشتهرت بالشعر مثل ربيعة وقيس وتميم دون أن يرتبهم[2] .

* * *

وإذا كان الدارسون من قبل قد اختلفوا هذا الاختلاف فى تقسيم الشعراء العرب فى العصر الجاهلى ، فهو ليس اختلافا فى تقسيم الشعراء فحسب ، وإنما هو شامل للأدباء عموما شعراء وناثرين ، لكن لما كان الشعر هو الفن الغالب على الأدب فى تلك الآونة دار التقسيم حول الشعراء دون غيرهم .

والملاحظ أن هذه التقسيمات على اختلافها لاتقوم على أساس ثابت ؛ فتارة نجد التقسيم مبنيا على المنهج الزمانى ، وتارة أخرى نجده مبنيا على المنهج المكانى ، ومرة ثالثة نجده مبنيا على المنهج القبلى ، دون مراعاة للبيئة وأثرها فى الأدب والأديب ، على الرغم من وضوح أثر البيئة العربية — على اختلافها — فى أدب العرب وضوحا لايحق لدارس منصف أن ينازع فيه ، حتى أصبح العصر الواحد يضم لونين من الأدب على طرفى نقيض ، فهذا لين قريب ، وذاك حوشى غريب ، بحيث ينظر الناظر إليهما مجتمعين فلا يتصور أن يكون هذان ابنى عصر واحد .

(١) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد بن الخطاب القرشى ص ٤٥ .

(٢) العمدة ج ١ ص ٨٦ وما بعدها .

الفصل الثانى

أجناس الأدب العربى

من المقرر أن الأدب العربى – على اختلاف أنواعه وفنونه – يلتقى مع آداب الأمم الأخرى فى المشتركات الإنسانية التى لاتتميز فيها أمة عن أمة ، ولا يختلف فيها فرد عن فرد من انفعالات وعواطف ونزعات ؛ ففى الآداب جميعا ترى صورة الإنسان – أيا كان موطنه – فى صراعه مع مايصادفه من عقبات فى حياته تعوقه عن مواصلة المسار . . . لايختلف فى ذلك أدب عن أدب . وفى الآداب جميعا ترى القيم الإنسانية الفطرية تدور حولها الأحاسيس والمشاعر والانفعالات رضابها واحتفالا ، أو سخطا عليها ونفورا ، دفاعا عنها وتبشيرا بها أو برمابها وتحذيرا منها !

ومن المقرر كذلك أن البيئات – زمانية كانت أو مكانية – تباعد كل أمة عن أختها فى أمور كثيرة، من أبرزها – فى ميدان الأدب والتعبير عن الأحاسيس والمشاعر – الرؤية العقلية والخيالية لما تصادف فى الحياة الواقعية ، والإدراك التصورى لعلاقات القائمة بين عناصر موقف من المواقف المجابهة، وكيفية نقل هذا المعنى المرئى أو الصورة المدركة إلى الآخرين ثم الأسلوب الأنسب فى عملية النقل هذه .

فالأبوة والأمومة – مثلا – من العواطف الإنسانية المشتركة التى لاتختلف حول الاحتفاء بها أمة عن أمة ولا بيئة عن بيئة بيد أن تصوير حرص الإنسان عليها ، أو الدعوة إليها ، أو أسلوب الاحتفاء بها يختلف من أمة لأمة ، ومن بيئة لبيئة ، بل من فرد لفرد ، وفقا للمزاج العقلى والخيالى الذى يشكل إدراكه التصورى لهذه العاطفة أو لتلك .

من هذا يتقرر أن أدب بيئة ما له من الخصائص مايتميز به عن أدب البيئة الأخرى وهو تميز تفرضه عليه ظروف البيئة بكل أبعادها من اختلاف فى المزاج العام الذى تقوم عليه اتجاهات أفرادها ، وتتشكل به منازعهم . فلايصح – لذلك – أن يحمد أدب أمة أو جيل لخصائصه ، ويذم أدب أمة أو جيل لخصائصه ؛ إذ هذه الخصائص وتلك من

ضروريات البيئة التي لاجهد لأحد فيها . إنما نحاسب أدباء أمة أو جيل ويذم أدبهم إذا تجاوزوا ماتمليه عليه بيئتهم أو تجاهلوه فجاء أدبهم غير ممثل لتلك البيئة ؛ لأن أدبهم عندئذ يكون مسخا مصنوعا لايعبر عن ذات أصحابه ، ولايفيدهم فى شىء مجيئه على نسق آخر ، بل جد التميز والجودة فى بيئته .

* * *

ودارس الأدب العربى يلاحظ أنه يقوم على جنسيه المتعارف عليهما ـ الشعر والنثر ـ بيد أن ظاهر الأمر يوحى بأن هذين الجنسين لايكونان على قدم التساوى فى جميع البيئات الأدبية ، فبينما يطغى أحدهما فى عصر بحيث يبدو أنه الأثير عند أهل ذلك العصر نجد الجنس الثانى يبرز حتى يطغى على الجنس الأول فى عصر آخر .

ولا ريب فى أن إيثار الشعر أو إيثار النثر لايقصد إليه الأديب قصدا ، ولكنه من فعل البيئة وعواملها المتغيرة ، وهى التى تميل بالأديب ـ من غير قصد منه أو تعمد ـ إلى أن يعبر عن مكنون نفسه ، ومايختلج بين جوانحه بهذا الجنس الأدبى أو ذاك .

ولايعنى هذا أن يخلص أدب عصر أو جيل لهذا الجنس دون الجنس الآخر ، فهما دائما موجودان ماثلان فى كل بيئة وجيل ، إلا أنهما ـ كما قررنا ـ لايتساويان .

وقد يطرأ على عصر مامن الظروف والعوامل مايدعو إلى اختفاء أحد هذين الجنسين من بين آدابه المأثورة ، سواء كانت هذه الظروف والعوامل أصيلة فى البناء الأدبى أو كانت عوامل ناقلة مساعدة ... وتثور الشكوك حول وجود هذا الجنس أو ذاك كما ثارت حول أدب العصر الجاهلى بجنسيه ـ الشكوك ـ .

* * *

النثر : ولقد توهم بعض دارسى الأدب الجاهلى أن هذا العصر خلا تماما من أديب يعبر بالنثر ، فكل ما أثر عن أدبائه قائم على جنس الشعر ، حتى قرر بعض هؤلاء أن العربى فى هذا العصر كان لاينطق إلا الشعر فى جميع شئونه ، وليس فقط فى مجال التعبير الفنى .

كما تشكك بعض الدارسين فيما حفظته كتب الأدب العربى من نثر جاهلى ، وإن أقر بأن أدباء هذا العصر قد عرفوا فنونا من النثر عبروا من خلالها عما أرادوا التعبير عنه ، لكنهم قطعوا بأن شيئا من هذا النثر لم يصلنا ، وكل ماوصلنا منه منحول .

مصنوع ، قد يكون على نظام ما كان لهم فى ذلك العصر ، يقول الدكتور طه حسين : « وكل ما يمكننا أن نستخلصه من هذا النثر الذى يضاف إلى الجاهليين إنما هو شىء واحد ، وهو أن من الممكن أن يكون هذا النثر قد حاول قليلا أو كثيرا تقليد ما كان للعرب فى جاهليتهم من نثر ، فحفظ لنا صورة ما من هذا النثر الجاهلى ، دون أن يحفظ لنا نصا من نصوصه »(١) .

وأنا لا أشك فى أن العصر الجاهلى قد عرف النثر الأدبى باعتباره وسيلة من وسائل البيان . ولا أشك كذلك فى أن ما عرفه الجاهليون من فنون النثر لم يكن على غرار ما عرفه غيرهم من الأمم ؛ إذ لكل أمة ما يناسبها من فنون القال وفقا لدواعى القول عندها — على ما قررنا — فلا يحق لنا أن نطلب فى الأدب العربى من فنون النثر ما نجده فى الأدب اليونانى أو الرومانى أو نحو ذلك ، كما لا يحق لنا أن نطلب فى الأدب الجاهلى من فنون النثر ما نجده فى الأدب الإسلامى أو العباسى أو نحو ذلك من عصور الأدب العربى ذات البيئة المختلفة ، والظروف المتباينة .

أقرر ذلك على الرغم من آراء كثير من المستشرقين ومن تابعهم التى يزعمون فيها أن عرب الجاهلية لم يعرفوا النثر الفنى ؛ لأن عرب الجاهلية لو كانوا يجهلون النثر الفنى لما كان لتحديهم بالقرآن الكريم قيمة ؛ فالتحدى للمعجز لا يكون عن فقر وجهل بما يجعل ميدانا للتحدى ، وإنما يكون عن مقدرة ذائعة وتمكن مشهور فى ذلك المجال .

هذا إلى أن عرب الجاهلية لو كانوا غرباء عن النثر الفنى لما استطاعوا أن يتذوقوا البيان القرآنى ويحلوه المحل المؤثر فى نفوسهم ، فيكون سببا فى إسلام طائفة من أعلام الأدب لديهم كما حدث فى إسلام عمر بن الخطاب ، ويكون عاملا من عوامل التشكك فى نفوس طائفة أخرى على رأسها الوليد بن المغيرة وضربائه من الجاهليين الذين وجدوا فى القرآن ما يدفعهم إلى التروى فى الحكم عليه ، ومعاودة النظر فيما يدعوهم إليه ، لولا خوفهم من ثورة قومهم ، وخشيتهم من ضعف سلطانهم الموروث .

ولا شك فى أن أكثر نثر هذا العصر لم يصلنا ، لعدم تسجيله فى كتاب يحفظه ، ولمصادفته بالقرآن الكريم ، واشتغال العرب به — من أسلم منهم ومن لم يسلم — عما كان له

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٣٦٧ .

أبعد الأثر فى الانصراف عن أكثر نثرهم الموروث ، وضياعه بمرور الوقت وفقد من حفظوه ... ولعل ماحدث فى العصر الإسلامى تجاه القرآن الكريم حين استحر القتل فى حفاظه أثناء حروب الردة .. يقرر ما أقول فى شأن النثر الجاهلى قبيل ذلك بأعوام قلائل ؛ إذ انتشار الإسلام ، واتجاه الكثيرين من أعلام العرب الجاهليين للدخول فيه أو مقاومته، وقتل من قتل منهم فى الحروب التى نشبت بين الجاهليين والمسلمين ... كل هذا كان من أسباب الاشتغال عن النثر الجاهلى .

كما لا أشك فى أن القليل الذى وصلنا من نثر هذا العصر يمكن أن يلقى الضوء على هذا الجنس الأدبى عند الجاهليين ... على الرغم مما قد اعتراه من إضافات وتغيرات فى بعض عباراته ، وماقد أصابه من تحريف فى بعض أصوله ؛ إذ هو — مع كل ذلك — يطلعنا على الفنون السائدة بينهم ، ويعرفنا بكثير من قضاياهم التى كانت تشغل تفكيرهم ، كما يقفنا على منهجهم البيانى فى ذلك الفن .

والناظر فيما تناقله الرواة من نثر هذا العصر يلاحظ أنه يدور فى محورين متميزين :

أحدهما : محور التعبير الموجز الذى يعتمد على الإشارات البيانية ، والذاكرة الحافظة فى حمل الحدث القصصى ، دون إجهاد فى بناء قصصى أو فى نقل خبرات الأديب بالحياة ، والتعبير عن خلاصة رأيه وعصارة فكره ... وهذا وذاك ماتناقله الرواة تحت اسم (الحكمة والمثل) .

والثانى : محور التعبير الخطابى الذى يعتمد فيه صاحبه على وسائل التأثير الفنية فى الوصول إلى عقل المخاطب وحسه ... وهذاهو المعروف بالخطب والوصايا والمحاورات والمنافرات ؛ فهذا كله تعبير فنى ، قصد به الإثارة والتأثير ، خاضع فى هذا وذا لمزاج قائله وما تأصل فى نفسه من مبادىء وأفكار ، وتأثر به من أحداث بيئته . أما الكتابة الفنية فلم يكن لها دور ملموس فى هذا المحور الخطابى ؛ فقد آثروا فيه الخطاب المباشر على الرسائل لصعوبة وسائل الكتابة الفنية ومتطلباتها، وليس لجهلهم بها ، فقداستخدموا الكتابة فى غير الأدب من شئون الحياة، كالسياسة والتجارة ، حيث كتبوا معاهداتهم ، ودونوا وثائقهم المالية والتجارية .

فالفنون الأدبية التى قدمها النثر الجاهلى هى : المثل والحكمة ، والخطابة ، والوصايا والمحاورات ، والمنافرات . أما ماروى من القصص فلا أستطيع أن أسلكها فى ضمن

فنون نثرهم ؛ لأنها من صياغة رواتها ، وإن كانت أحداثها جاهلية . . . فهى نسيج غير جاهلى يعالج قضايا وأحداثا جاهلية ، أو هى أدب غير جاهلى يحوى مضمونا جاهليا. بيد أنها — إلى ذلك — تشير إلى أن الجاهليين صاغوا هذه الأحداث فى قصص ، وتداولوها فيما بينهم ، متوسلين فيها بالقص والحكاية[1] .

ويلاحظ الناظر فى النثر الجاهلى أن المثل والحكمة تعبير بيانى موجز غير منسوب لقائله فى الغالب ، فهو تعبير سائر ، لا يرتبط بصاحبه قدر ارتباطه بمصره أى أنه تعبير فنى يخضع للبيئة العامة التى نسب إليها ، أما البيان الخطابى — على تمدده — فهو فى الغالب منسوب إلى من صدر عنه ، أى أنه تعبير فنى يخضع لبيئة قائله الخاصة ويتأثر بما تأثر هو به منها ، على ما سنحاول أن نجليه إن شاء الله تعالى فى بحثنا هذا .

* * *

الشعر : أما الشعر الجاهلى فلقد كان أحسن حظا من النثر ؛ إذ صادف من أسباب الحفظ والانتقال ما ضمن له الخلود والبقاء ، وإن لم يسلم من ممتد يصيبه بالتغيير والتحريف ، أو شاك متعصب يهيل عليه ما شاء من الظنون والتراكات محاولا طمسه وإنكاره .

والشعر الذى وصلنا من العصر الجاهلى يرجع إلى نحو مائة وخمسين عاما قبل الإسلام ، فليس هذا العصر مبتدأ قول الشعر العربى ؛ لأن ما وصلنا منه ممثلا هذه الفترة الزمنية شعر ناضج مستقيم ، يسير فيه الشاعر وفق منهج تعارف عليه الشعراء من أقصى الجزيرة إلى أقصاها واستساغوه ومرنوا عليه ، وأقام النقاد قواعدهم النقدية على أصوله المرعية من الجميع ؛ سواء فى ذلك القالب العام — من بناء القصيدة على أبيات ذات وحدة ، واعتمادها على قافية ثابتة لا تتغير — والبناء الفنى للقصيدة الذى يلتزم فيه الشاعر غالبا بمطلع يبكى فيه ويصف الأطلال ، وينتقل منه إلى وصف الرحلة فى الصحراء وما يتصل بذلك من حديث عن الناقة وقوتها وضخامة جسمها ، ووصف

---

(١) انظر ذلك فى نحو أمثال العرب للمفضل الضبى ، والأغانى لأبى الفرج ، ومجمع الأمثال للميدانى ، وجمهرة الأمثال للعسكرى ، والبيان والتبيين .

للطريق وما فيه من مشقات . ثم يخرج من ذلك إلى الغرض من القصيدة ـ مدحا كان أو هجاء ، أو فخرا أو رثاء ـ فينهى القصيدة بالانتهاء من عرضه .

ولا شك فى أن هذا النظام الذى يقوم عليه الشعر الجاهلى ليس ابن يومه وليلته ، فهو نظام مر بأطوار ومراحل هذبت فيها حواشيه ، وتساقطت منه كل معوقات العمل الأدبى ، حتى وصلنا على مانراه اليوم من التكامل والتناسق .

لكن متى بدأت تلك الأطوار ؟ وكيف هذب الشعر فيها ؟ وما العوامل التى أثرفيه؟ ومن كان له الدور الواضح من الشعراء فى ذلك ؟ إلى غير تلك التساؤلات التى تفرض نفسها وتطفو على السطح فى مواجهة من يدرس من شعر هذا العصر .

الإجابة على مثل تلك التساؤلات من الأمور التى لايستطيع الدارس الموضوعى أن يقف على جواب لها ، بل ولا يستطيع أن يسلم بالافتراضات التى يجاب بها ، فليس بين أيدينا مايدل على شىء من ذلك أو يرجحه ، مما كان سبيلا إلى تجرؤ بعض المستشرقين ومن تابعهم من العرب فتشككوا فى صحة وما وصلنا من شعر هذه المرحلة وشككوا فيه ـ بل بلغ ببعضهم الجرأة أن أنكروه ـ معتمدين على فقدان الأثر المادى الذى يقطع بتلك النسبة مستبعدين ماعليه الشعر الجاهلى من أعراف فنية معقدة فى المعانى والموضوعات ، وفى الأساليب والصياغات المحكمة ، وفى الوزن والقافية .

والملاحظ أن هؤلاء وأولئك بنوا شكهم أو إنكارهم على افتقاد الشعر الجاهلى الوسيلة المادية التى تقطع بنسبته إلى عصره ، ويقصدون بذلك المكتوبات ... وهم فى ذلك يريدون أن يخضعوا الجاهليين لأعرافهم فى العصر الحديث ؟ وفاتهم أن الجاهليين كانوا لايثقون فى المدونات والمكتوبات ثقتهم فى المرويات ، لتقديرهم أن شعرهم إن توثقه الرواية أكثر مما توثقه الكتابة ، حتى لقد صرح ابن سلام فى طبقاته بأن وثقته الرواية لايدفى بما أخذ عن صحيفة(١) .

وأنهم ـــ كذلك ـــ بنوا هذا الشك أو الإنكار على أن ما بين أيدينا من شعر الجاهليين يمثل المرحلة الأولى من هذا الشعر ، ومن ثم فليس مقبولا ، أن تكون تلك المرحلة الأولى على مثل هذا النضج . وفاتهم أن هذا يمثل مرحلة سبقت بمراحل ، غير أن نتاجها الأدبى طوى مع الزمن كما يقطع بذلك العقل السوى .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٤ بتحقيق شاكر .

وإذا كان منطق العقل السوى يقرر أن مابين أيدينا من الشعر الجاهلى هو ابن مرحلة سبقتها مراحل، فإن بعض شعراء الجاهلية أشار إلى ذلك فى حديثه عن سبقهم من الشعراء . مثل امرىء القيس فى قوله :

عوجا على الطلل المحيل لأننا　　نبكى الديار كما بكى ابن خذام(١)

فابن خذام هذا شاعر سبق امرأ القيس فى بكائه ووقوفه . بيد أننا لانعرف شيئا عن ابن خذام هذا أكثر من ذلك الذى جاء فى بيت امرىء القيس ، قد يكون أول من بكى ، وقد يكون ممن تقدموا امرأ القيس إلى البكاء ، ولكنه ليس أولهم

ومثل زهير بن أبى سلمى فى قوله :

ما أرانا نقول إلا معارا　　أو معادا من قولنا مكرورا

إذ يقرر أنه فى قوله يحتذى سابقيه ويكرر ماقالوا، ويستعير منهم .. لكن ماهذا الذى استعاره ؟ ومن هم الشعراء الذين سبقوه إلى القول على هذا النمط ؟ وكيف كانوا يقولون ؟ ومتى وأين كانوا ؟ وبم اتصل هؤلاء بأولئك ؟

لما نجد إجابة شافية على هذه التساؤلات ونحوها ، لأننا حتى يومنا هذا لم نستطع أن نجتاز بالتنقيب هذا العصر إلى ماسبقه . وكل مانصل إليه من ذلك هو أن زهيرا يعترف بأنه سبق بشعراء مجيدين استقاموا على الطريقة ، وأنه ومعاصروه تتلمذوا على هؤلاء السابقين المجيدين . وهذا يعنى - بالتتبع - أن سابقى زهير المجيدين سبقوا هم أيضا بمن تتلمذوا عليهم ، إذ لايعقل فى تصور الأطوار الفنية إلا أن يكون الأمر هكذا. حتى نصل بالشعر إلى مرحلته الأولى .

ومثل ذلك قرره عنترة بن شداد العبسى فى قوله :

هل غادر الشعراء من متردم　　أم هل عرفت الدار بعد توهم(٢)

---

(١) عوجا : اعطفوا رواحلكما : على الطلل المحيل : الطلل الذى أتى عليه حول فتغير ، لأننا - بفتح اللام - لعلنا . انظر ديوان امرىء القيس ص ١١٤ طبع دار المعارف بمصر ، تحقيق محمد أبو الفضل .

(٢) المتردم : الموضع الذى يسترقع ويستصلح لما عراه من الوهن . يقول : هل ترك الشعراء موضعا مسترقعا إلا وقد رقعوه وأصلحوه . يعنى : لم يترك الشعراء السابقون لنا شيئاً نقول فيه قولا جديدا . شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٦٨ طبع صبيح بمصر .

فعنترة يستنكر أن يكون الشعراء السابقون قد تركوا لمن لحق بهم — على عهده — شيئا يقولون فيه ؛ فاللاحقون — ومن بينهم عنترة — يحتذون سابقيهم ، ويأخذون عنهم ، ويتتلمذون عليهم ؛ لأن السابقين بلغوا من أطوار الشعر مرحلة مكنتهم من استيعاب الكثير من الفن الشعرى ، بحيث يشعر التلميذ — من جيل عنترة — بأنه عاجز عن الابتكار والانطلاق متحرراً من تقليد هؤلاء السابقين .

أى أن واقع الشعراء الجاهليين يعزز ما قرره العقل والمنطق فى سنة التطور من أن العصر الجاهلى يمثل مرحلة ناضجة من مراحل الشعر العربى ، وأن تلك المرحلة سبقتها مراحل متوالية ، تدرج الشعر فيها حتى نما واستقام قبل مبتدأ هذا العصر .

* * *

والناظر فى أدب هذا العصر — على عمومه — يلاحظ أن الشعر قد احتل من النشاط العربى مكان الصدارة ، ونال منهم أرقى درجات التقدير ، وساير الفروسية لديهم ؛ فقد كان لهم الديوان الذى يحفظ تاريخهم وأيامهم ، وكان جهاز الإعلام المتنقل الذى ينشر آراءهم وبديع أنباءهم ، وكان المحمس لفرسانهم فى المعارك ، والمؤنس لرائحهم وغاديهم فى وحشة الصحراء ، والمتنفس الذى يمتص من أعصابهم الكد والإرهاق ، له يجتمعون وبه يسمرون .

من ثم كان الشعراء ذوى حظوة فى القبيلة ، فهم الذين ينطقون بلسانها ، ويعبرون عن مشاعرها ، ويحفظون أمجادها ، ويدعمون الماديات عنها ، ويرهبون خصومها ، ولذلك حرصت كل قبيلة — لافرق بين البادية فى ذلك والحاضرة — على أن تضم أكثر عدد من الشعراء الذين تسير الركبان بشعرهم ، ضماناً لاتساع سطوتها ، وانتشار سلطانها فوفرت للناشئة من أبنائها كل أسباب النبوغ والتفوق ، واحتفت بمولد الشاعر من بنيها فكانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أتت القبائل لتهنئتها بذلك ، ومدت الموائد واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج[1] . فلم تكن تختص بالشعر قبيلة دون قبيلة ، وإن تميزت فيه واحدة عن أخرى بكثرة الشعراء ، وسيرورة الشعر .

---

(١) العمدة لابن رشيق ج١ ص٦٥ بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين طبع التجارية بمصر .

ولذلك يجد الدارس نفسه أمام فيض من الشعراء نابع من قبائل العـــرب ــ على اختلاف مواطنهم وبيئاتهم ــ لا تستطيع أن تحيط بهم . فقد كانوا كثيرين متنوعين ، تشرك الرجال فيه النساء ، ويتفوق فيه البدوى كما يتفوق الحضرى وينبغ فيه الصعاليك كما ينبغ السادة ... حتى يخيل له أن الشعر فى هذا العصر كان شغل العرب الشاغل، وأنه كان ميسورا للكثيرين ، يجرى على كل لسان ؛ ولا يكاد يستعصى على أحـــد منهم ... ؟

وهل كان للعرب ــ فى مجموعها ــ ما يشغلهم عن الشعر ؟ لقد كانوا محاطين بظروف اجتماعية وسياسية وبيئية تجردهم للشعر ونحوه من فنون البيان ، وتحقيقا لذواتهم ، واستجابة لحاجاتهم الطبيعية . ولقد قرر ابن قتيبة ذلك فى قوله : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف وراء عددهم واقف ولو أنفد عمره فى التنقير عنهم ، واستفرغ مجهـــوده فى البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »[١] وابن سلام فى تتبعه لفحول شعراء العرب قدم أربعة وسبعين شاعرا من فحول الجاهليين والمخضرمين ، أربعين منهم فى عشر طبقات ، كل طبقة يمثلها أربعة ، وخمسة فى المدينة ، وتسعة فى مكة ، وخمسة فى الطائف، وثلاثة فى البحرين ، وثمانية من اليهود .

والناظر إلى هؤلاء الشعراء يلاحظ أنهم يمثلون مختلف البيئات العربية ــ من بدوية وحضرية ــ بيد أن القبائل المضرية كان لها أوفر نصيب من الشعراء . يتضح هذا من إلقاء النظر فى نحو الأغانى والمفضليات والأصمعيات . كما يتضح أن القبائل ــ مضرية أو قحطانية ــ متفاوتة كذلك فى حظها منهم .

لقد كان للشعر أثره البالغ فى حياة العرب ، به يتوسل صاحب الحاجة ، وبواسطته تستل السخائم من النفوس ، وعليه تقوم العلائق فى المجتمع العربى ، روى أن الحارث ابن حلزة اليشكرى ــ وكان أبرص ــ ارتجل بين يدى عمرو بن هند قصيدته التى مطلعها : آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ ١ ص ٦٠ بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٦

وكان ينشد من وراء السجف للبرص الذى كان به ، فأمر عمرو برفع السجف بينه وبينه استحسانا لها(١) . ورووى أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة ، فقالت له : إن الأعشى قدم ، وهو رجل مفوه ، مجدود فى الشعر مامدح أحدا إلا رفعه ، ولاهجا أحدا إلا وضعه ، فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له لرجوت لك حسن العاقبة . فسبق إليه المحلق، فأنزله ونحر له وسقاه وبالغ فى إكرامه، ولكن الأعشى عرف بؤس حال مضيفه ، وكثرة بناته، فقال الأعشى : كفيت أمرهن ، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بى من سقم ومابى معشق

وفيها يقول :

نفى الذم عن آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقى تفهق
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهشون ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جريا يخطبون بناته ؛ لمكان شعر الأعشى ، فلم تمس منهن واحدة إلا فى عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف(٢) .

وقد يكون فى هذه الروايات مبالغة، لكنها على أية حال تكشف عن تقدير العرب للشعر والشعراء ، حتى لو كانت هذه الروايات مخترعة ، فهى تبين عن تصور مخترعيها لمكانة الشعر لدى العرب الجاهليين .

* * *

ولا ريب فى أن شعراء العرب كانوا فى مسيرتهم الشعرية خاضعين لمؤثرات بيئتهم العربية العامة ومتطلباتها ، فتحقق بذلك لشعرهم التميز عن شعر غيرهم من الأمم — دون قصد إلى ذلك — فى قالبه ، وأنواعه ، وصوره ، وأخيلته ؛ وموضوعاته إلى غير ذلك من جوانب الاختلاف البيئى .

(١) الشعر والشعراء جـ ١ ص ١٩٧ الطبعة السابقة ، والعمدة جـ١ ص ٤٣

(٢) العمدة جـ ١ ص ٤٨ ، ٤٩

وعلى الرغم من توفر أسباب التميز تلك للشعر العربي في العصر الجاهلي ، نجد طائفة من الدارسين المعاصرين يحرصون على أن نزنوا هذا الشعر بموازين الشعر في البيئات الأخرى ؛ ويقيسوه — من ثم — بمقاييس غريبة عليه ، مما يضطرهم إلى أن يطلبوا فيه مالا يحق لهم طلبه ، لأنه من نتاج بيئات غريبة على البيئة العربية ، فلقد اشتهر عن الدارسين والنقاد الغربيين أنهم قسموا الشعر منذ اليونان أقساما ثلاثة هي الشعر الملحمي ، والتمثيلي ، والغنائي ، ولكل قسم منها سماته ومميزاته .

فالشعر الملحمي — على ما رأى هؤلاء النقاد في شعر أسلافهم — قصة في قصيدة طويلة تتجاوز ألف بيت ، وتعرض أحداثا متوالية تدور حول بطل واحد ، أو يشارك في أدوار ثانوية منها عدة أبطال آخرون ، مثل إلياذة هو ميروس من الأدب اليوناني وإنيادة فرجيل من الأدب الروماني ، والراماياتا والمهابهاراتا من الأدب الهندي ، والشهنامة من الأدب الفارسي . وأحداث هذه الملاحم خيالية أسطورية ، تمتلىء بالأفعال الغريبة ، والأمور الخارقة .

والشعر التمثيلي لون من الشعر القصصي ، ولكنه يتميز عنه بقيامه على الحوار بدلا من الحكاية ، كما يعتمد على مسرح تبرز فوقه الأحداث والمواقف .

والشعر الغنائي هو الشعر الذي يعبر فيه الشاعر عن خلجاته النفسية ، ومشاعره الوجدانية ، وأحاسيسه الذاتية ، فهو شعر ذاتي يمثل صاحبه ، ويصور مايعتمل في داخله وما ينعكس على مرآة نفسه من الأحداث والمواقف التي يواجهها في حياته .

ومن الواضح البين أنهم أقاموا هذا التقسيم وتلك التعريفات على أساس مارأوا أمامهم من إنتاج شعري ، فهي تقسيمات للشعر اليوناني والروماني وماتولد منهما . ولما اتصلت دراساتهم وتناولت الأدب العربي — شعره ونثره — نظروا في الشعر العربي بالمنظار الذي نظروا به إلى شعرهم ، وقاسوه بالمقياس نفسه الذي قاسـوا به الشعر العربي عندهم ، ومن هذه النظرات والمقايسات قرروا أن الشعر العربي شعر ذاتي ليس غير ؛ إذ لم يجدوا فيه القصيدة التي تتجاوز في طولها ألف بيت ، والتي تتكون من أحداث متوالية في منطقية مقنعة لتعرض الأساطير اليونانية وماتشتمله من أمور خارقة بالغة الغرابة . كما لم يجدوا فيه الحوار التمثيلي المشخص .

وجاء الدارسون والنقاد العرب على أثر هؤلاء متتلمذين عليهم ، فسار بعضهم على

طريق الغربيين نفسه دون مراجعة وتفهم لطبيعة الشعر هنا وطبيعته هناك ، ومتطلبات القوم هنا ومتطلباتهم هناك ، وطبيعة الحياة هنا وطبيعة الحياة هناك . . إلى غير ذلك من العوامل المؤثرة فى الأدب على عمومه ، وفى الشعر والشعراء بخاصة . . . فأجروا التقسيمات الشعرية عند اليونانيين والرومانيين على الشعر العربى ، ونفوا من الشعر العربى مالم يتطابق مع التقسيمات ، ثم نظروا فلم يجدوا بين أيديهم سوى القسم الثالث ــ وهو الشعر الغنائى ــ فقرروا أن كل الشعر العربى يدخـــل فى هذا القسم دون سواه .

وكان على الدارس الموضوعى المنصف أن ينظر إلى الأدب فوق أرضه ، ومن خلال أهله ، وفى إطار بيئته ، ثم يتخذ لنفسه مقاييس عامة يقيس بها العمل الفنى فى كل بيئة على حسب ما يتناسب معها ، حتى يوفر لرؤيته المناخ الصادق الصادق ، ويضمن لقراءته العدالة والقرب من الصواب .

وإذا نحن سرنا فى تفحصنا للشعر العربى فى البيئة الجاهلية على هــــذا الدرب الموضوعى المنصف كنا خليقين بالعرف على طبيعة الشعر العربى فى هذا العصر ؛ وبذلك نستطيع أن نتابع المسار فى طريقنا إلى العصر الحديث لنكشف عن أطواره ، ومراحل نموه ، وتـكيفاته فى تلك الأطوار .

فإذا كان دارسو الأدب الغربى القديم قد قسموا الشعر ــ وفق ما رأوا ــ ثلاثة أقسام ، فليس معنى ذلك أن الشعر فى عمومه خاضع لهذه الأقسام الثلاثة لا يخرج عليها؛ إذ هم إنما التزموا فى تقسيماتهم ما تحت أنظارهم ، ومن ثم فليس حتما علينا أن ندور حيث داروا . ونخضع الأدب العربى لهذه الأقسام دون غيرها .

والذى أراه أن الشعر العربى الجاهلى ــ وإن يكن خاليا من الملحمة والتمثيل ــ ليس غنائيا فحسب ؛ لأنه لم يكن مقصورا على تغنى الشاعر بآلامه وآماله وتصـوير أحاسيسه الذاتية ــ كما يقولون ــ بل كان منه الغنائى الذاتى الذى يسير على هذا النهج ، ومنه القصصى ــ بالمفهوم العام للقصة ــ الذى يسير على النهج الموضوعى الخارجى ؛ ليقدم أحداثا متوالية ، ومنطقية فى تحركاتها وانتقالاتها ، ليعرض الحـكايا التى تنبع من بيئته وتفرضها على خياله وفـكره قيم مجتمعه . وكان منه الوصفى الذاتى الذى يعتمد فيه الشاعر على وصف مرائيه من خلال ذاته ، ومنه الوصف الموضوعى الذى يبرز الصورة فى دقة

الحاذق اللماح . فالشاعر العربي كما توسل بالشعر لينقل لنا مايعتمل في داخله ، توسل به لينقل لنا ما ينعكس على صفحات نفسه من المرائي المحيطة به ، وتوسل به ليحكي لنا من أيام العرب ما يصور البطولات العربية ، مازجا فيه الحقيقة بالخيال . وتوسل به كذلك ليقص علينا من واقعه ما يبرز قيمه ومثله وفضائله ، لكنه — مع ذلك كله — لم يأخذ نفسه بما أخذ به شعراء اليونان والرومان أنفسهم لاختلاف البيئات وملابساتها ، ولو صنع الشاعر العربي ما صنع هؤلاء وسار في محاذاتهم لافتقد عمله الصدق وأسقط عن فنه أهم خصائصه ، ولكان مسخا من بناء غربي في زي عربي أو العكس

ونظرة إلى ماوصلنا من شعر هذا العصر بالمنظار الموضوعي المتزن تؤكد ذلك الذي نقول ، ويكفي النظر في معلقة امرىء القيس لنرى فيها أهم العناصر القصصية ؛ ففي هذه المعلقة لا تكاد تلمح شخصية الشاعر بقدر ما ترى فيها حياة طائفة من المجتمع الذي يعيش فيه ، إذ يقص علينا طرفا من مغامراته التي كانت تملأ عليه حياته ، ويخلص من ذلك إلى تصوير إحدى رحلات الصيد التي كانت امتدادا لبعض تلك المغامرات النسائية . وتبحث عن ذاتية الشاعر بين تلك الأحداث والمواقف ، فلا تجد إلا ما تخلله قصة من إيماءات وإشارات توحي عما ينطوي عليه من معاناة .

وليس امرؤ القيس وحده هو الذي يمثل هذا الاتجاه ، فعلى غراره تجد الكثرة من الشعراء الجاهليين في بعض ما قدموا ، مثل الأعشى في مقطوعاته التي تحدث فيها عن الملوك والقرون الخالية ، ومثل لقيط بن يعمر الإيادي في عينيته التي بعث بها إلى قومه يحذرهم من كسرى وما أعدلهم ، ويستنفرهم فيها ليستعدوا لمواجهة تلك الحرب ، وفي مطلعها يقول :

أبلغ إيادا وخلل في سراتهم أني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا

ومثل عمرو بن كلثوم في معلقته ، ومثل الشنفرى في تائيته التي يصف فيها إحدى غاراته ، والتي يقول في مطلعها :

وباضعة حمر القسي بعثتها ومن يغز يغنم مرة ويشمت[1]

(١) الباضعة : القاطعة ، ويريد بها رواقه . بعثتها : غزوت بها . حمر القسي : يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس ، ويشمت : يخفق .

وفى اللامية المنسوبة إليه ، والتى تتضمن قصة حياته بمراحلها المختلفة ، وفى مطلعها يقـــول :

أقيموا بنى أمى صدور مطيـكم ... فإنى إلى قوم سواكم لأميل

بل إن بعض الشعراء استطاع أن يتعمق فى أغوار النفس البشرية فى لحظة من لحظات ضعفها، ويبرز صورها والصراع الدائر فى داخلها فى قالب قصصى ممتع، على نحو ما صنع حاتم الطائى فى قوله :

وداع دعا بعد الهـــدو كأنما ... يقاتل أهـــوال السرى وتقاتله
دعا يائسا شبـه الجنون وما به ... جنون ، ولـكن كيد أمر يحاوله
فلما سمعت الصوت أقبلت نحوه ... بصوت كريم الجـد حلو شمائله
فأبرزت نارى ، ثم أثقبت ضوءها ... وأخرجت كلبى وهوفى البيت داخله
وقلت له : أهلا وسهلا ومرحبا ... رشدت ، ولم أقعـد إليه أسائله
وقمت إلى برك هجـان أعـده ... لوجبـة حق نازل أنا فاعـله
بأبيض خطت نعله حيث أدركت ... من الأرض لم تخطل على حمائله
فجال قليــلا وا تقانى بخيره ... سناما ، وأمـلاه من التى كاهله
نخر وظيف القرم فى نصف ساقه ... وذاك عقــال لا ينشط عاقله

وعلى نحو ما صنع الحطيئة الشاعر المخضرم فى قوله :

وطاوى ثلاث ،عاصب البطن مرمل ... ببيداء لم يعـرف بها ساكن رسما
أخى جفوة ، فيه من الأنس وحشة ... يرى البؤس فيها من شراسته نعمى
وأفـرد فى شعب عجـوزا إزاءها ... ثلاثة أشبـاح تخالهم إبهمـا
حفاة عراة ما اغتـذوا خبز ملة ... ولا عرفوا للبر مـذ خلقوا طعما
رأى شبحا وسط الظلام مراعــه ... فلمــا رأى ضيفا تشمـر واهتما
فقال : هيا رباه ضيف ولاقرى؟! ... بحقك لا تحرمه تا الليـلة اللحما
فقال ابنــه ـــ لما رآه بحيرة ـ : ... أيا أبت ! اذبحنى ويسر له طعما
ولا تعتذر بالعـدم على الذى طرا ... يظن لنــا مالا فيوسعنا ذما
فروى قليلا ، ثم أحجم برهة ... وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما
فبينا هما عنت عــلى البيد عانة ... قد انتظمت من خلف مسحلها نظما
عطاشا تريد المـاء فانساب نحوها ... على أنه منها إلى دمها أظما

فأمهلها حتى تروت عطاشهـا فأرسل فيها من كنانته سهما
فخرت نحوص ذات جحش سمينة قدا كتنزت لحما وقد طبقت شحما
فيابشره إذ جرها نحو قومه ويابشرهم لما رأوا كلمها يدمى
وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم وما غرموا غرما، وقد غنموا غنما
وبات أبوهم من بشاشته أبا لضيفهم ، والأم من بشرها أما

وما صنع تأبط شرا (ثابت بن جابر الفهمى) فى قصته مع الغول(١) :

تقول سليمى لجاراتها أرى ثابتا يفنا حوقلا(٢)
لها الويل ، ما وجدت ثابتا ألف اليدين ولا زملا(٣)
ولا رعش الساق عند الجراء إذا بادر الحملة الهيضلا(٤)
يفوت الجياد بتقريبه ويكسو هواديها القسطلا(٥)
وأدهم قد جبت جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيعلا(٦)
إلى أن حدا الصبح أثناءه ومزق جلبابه الأليلا(٧)
على شيم نار تنورتها فبت لها مدبرا مقبلا(٨)
فأصبحت والغول لى جارة فيا جارتا أنت ما أهولا !
وطالبتها بضعها فالتوت بوجه تهول فاستغولا
فقلت لها : يا انظرى كى ترى فولت فكنت لها أغولا

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة حـ ١ ص ٣١٣ بتحقيق شاكر .
(٢) اليفن — بفتح الفاء — الشيخ الفانى ، والحوقل : الشيخ إذا فتر عن النكاح
(٣) الزمل : الضعيف الجبان الرذل .
(٤) الجراء : المجاراة ، الهيضل : الجيش الكثير .
(٥) القسطل : الغبار الساطع .
(٦) الخيعلا : الفرو أو قميص لا كم له ، واجتابته : لبسته ، يقال : اجتبت القميص والليل إذا دخلت فيه .
(٧) الليل الأليل . شديد الظلمة .
(٨) الشيم : النظر إلى النار ، يقال : شام السحاب أو البرق شيما : نظر إليه أين يقصد وأين يمطر

فطار بحقف ابنــه الجن ذو سفــاسق قد أخلق المحملا(١)
إذا كل أمهيتــه بالصفــا حــد ولم أره صيقــلا(٢)
عطاءة قفــر لهـا حلتا ن من ورق الطلح لم تنزلا(٣)
فمـن ســال أين ثــوت جارتى فإن لها باللوى منزلا
وكنت إذا ماهممت اعتزمت وأحر إذا قلت أن أفعــلا

* * *

لا يستطيع دارس موضوعى يبغى الحقيقة إلا أن يقرر بأن الشعر العربى فى العصر الجاهلى — شأنه شأن غيره من أشعار الأمم الأخرى — كان له مساره الخاص به، وسماته التى تميزه من غيره ، والتى فرضتها عليه البيئة العربية ؛ بحيث تختلف أجناسه الفنية عن أجناس الشعر الغربى بالقدر الذى يربط كل شعر ببيئته .

من ثم لا يحق لدارس أن يطالب فى الشعر العربى ما يطالبه فى الشعر الغربى ، ولا أن يطالب فى الشعر الغربى ما يطالبه فى الشعر العربى ولا يحق لدارس — بناء على ذلك — أن يقارن شعر أمة بشعر أمة أخرى ولو فى الجنس الواحد الذى يتفقان عليه ؛ إذ لمنشأ الجنس فى هذا الشعر ماليس لمنشئه فى ذلك . كما لا يحق لدارس أن يلزم شعراء أمة بما التزم به شعراء أمة أخرى ، ولا يحق لمنصف أن يقيس اتجاهات شعر أمة بما عليه شعر أمة أخرى ، بل على المنصف أن يقيس هذا وذاك بمقياس عام محدد واضح ، ثم يخص كل أمة بمقاييس تتلاءم مع متطلبات البيئة فيها بشكل أبعادها . فبدلا من أن يطالب فى الشعر العربى الهيئة القصصية التى كان عليها الشعر اليونانى ، يجب عليه أن

---

(١) القحف — بكسر القاف — العظم فوق الدماغ وما انفلق من الجمجمة فبان ، ولا يدعى قحفا حتى يبين أو ينكسر منه شىء ، ذو سفاسق : السيف ، وهى طرائقه التى يقال لها الفرند ، الواحدة سفسقة بكسر السين .

(٢) أمهيته : أحدوته ورققته ، يقال : أمهى الحديدة : سقاها الماء وأحدها .

(٣) العطاءة : دويبة معروفة على خلقة سام أبرص ، أعظم منها شيئا .

يلاحظ مافى الشعر العربى من الأجناس الفنية ، والطرائق البيانية دون مراعاة لما عليه غير الشعر العربى ... فإذا وجد الشاعر يقص فلا يطالب منه أن يقص بهذه الطريقة أو تلك ، إنما عليه أن يتتبع قصصه وقصص غيره من أدباء أمته ، ثم يتفحص مساره فيها ، ليحدد منهجه ، ويبين أبعاد القصة لديه ، ويقارن بين القصة عنده والقصة عند غيره ، بحثا عن العوامل والمؤثرات التى وجهت كلا وجهته الخاصة به[1]

---

(١) أنظر الأدب العربى فى الجاهلية وصدر الإسلام للمؤلف ص ٤٦ — ٥٦ .

الفصل الثالث

مصادر الأدب الجاهلي

لعبت البيئة العربية الجاهلية دورا فعالا فى تحديد الوسائل التى تنقل أدبهم إلى الأجيال التالية ، بل لقد كان لها أثرها الواضح فى تحديد الوسائل النافلة له من قبيلة إلى قبيلة فى الوقت ذاته ؛ إذ طبيعة الحياة العربية فى ذلك العصر لم تفرض على أهله الكتابة والقراءة إلا فى أضيق الحدود ، حيث لم يشعروا بالحاجة إلى المكتوبات إلا فى الأغراض السياسية والتجارية . أما ما عدا ذلك فلم تصادفهم فيه ضرورة تلجئهم إلى تدوينه وكتابته ، فالأديب منهم يعيش فى كنف القبيلة بفنه البيانى الذى يعتمد على الإلقاء أكثر مما يعتمد على أية وسيلة أخرى ؛ لأن العربى كان يشعر بأن صوته بكل أبعاده يضفى على ما يقول كثيرا مما يريد أن يبلغه سامعيه ، ولا تستقل الحروف المركبة وحدها بإيصاله . وإذا حدث أمر طارىء ، واحتاجت القبيلة إلى إبلاغ صوتها لمن يقيم خارج حدودها أوفدت من بينها الأدباء من يؤدى هـذا الدور بنفسه خطيبا كان أو شاعر .

ودارس الأدب فى هذا العصر حين يتدرج فى سلم انتقال آدابهم إلينا من عصور التدوين إلى العصر الجاهلى ... يلاحظ أن وسائل انتقال النثر تختلف بعض الشىء عن وسائل انتقال الشعر بما يتناسب مع طبيعة كل جنس ومتطلباته ، بيد أنها لا تفترق فى النثر بما يميزها عنها فى الشعر .

فإذا كان الشعر سلك فى طريقه إلينا سبيلين متصلين هيأتهما له مكانته فى نفوس العرب ، هما سبيل الرواية ، وسبيل التدوين ، فإن النثر ـ بفنونه المختلفة ـ قد سلك هذين السبيلين مع شىء من الاختلاف يتضح فى استعراضنا مصادره فيما يلى .

وإنما سلك الأدب الجاهلى ـ بجنسه ـ فى طريقه إلينا هذين السبيلين؛ لأن الكتابة لم تكن عند العرب الجاهليين ـ بدوهم وحضرهم ـ قد أخذت مكانها معارفهم وآدابهم ، على الرغم من ثبوت معرفتهم بها وشيوعها بينهم فى الجاهلية . وإننا إلى الآن

لم نقف على دليـــل قاطع يؤكد أن الجاهليين اعتمدوا على الـكتابة فى حفظ آدابهم وسيرورتها عبر الزمان والمكان ، ولم يعثر الباحثون والمنقبون بعد على وثائق جاهلية صحيحة تتضمن شيئا من الفنون البيانية وكل ما وصلنا من أخبار عن وجود أدب جاهلى مكتوب ـ إن صحت تلك الأخبار ـ إنما تتعلق بقطع شعرية تـكتب على رحل أو حجر أورق أو عظم لغاية من غايات الإبلاغ والتنبيه ، أو تتعلق ببعض حكم وأمثال مما نسب إلى لقمان على ما روى ابن هشام من أن سويد بن الصامت قدم مكة حاجا ، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعرضها على ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا لـكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزل الله على ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا القول حسن[1] .

فالخبر لا يفيد أكثر من أنه كان عند العرب فى هـذا العصر صحيفة بها بعض الحـكم والأمثال مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ، ولـكنه لا يدل على أنهم توسلوا بالـكتابة فى إذاعة بيانهم ونشره . ومناقشة هذه القضية ـ نفيا أو إثباتا ـ تعتمد على الفرض والحدس ، وليس هناك ما يدعونا إلى مثل ذلك فى دراستنا مادمنا لن نستطيع أن نقدم الحقيقة من الواقع المقرر .

أى أننا لا نجد بدا من أن نقرر أن هذا الفيض الأدبى وصلنا من العصر الجاهلى أولا عن طريق الرواية المنطوقة ، وامتدت ـ فى جملتها ـ حتى أخريات العصر الأموى وأوائل العصر العباسى ، حيث بدأت الرواية تلتقى بالتدين

* * *

والناظر فى نثر هذا العصر يلاحظ أن رواته يدورون فى ثلاثة محاور .

أحدها : العامة ، وهؤلاء هم رواة الحـكم والأمثـال الذين طواهم الشيوع ، فلم تنسب حكمة أو مثـــل إلى راو بشخصه ، وإنما هى أقوال كثر دورانها على الألسنة

---

(١) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٨ طبعة الحلبى .

لإيجازها ، ودقة تركيبها ، وسمو محتواها ، وقوة تأثيرها فى نفوس سامعيها ، لما تنطوى عليه من خبرة بالحياة وصدق تجربة .

لقد كان عمل الرواة فى نقل الأمثال والحكم لا يعدو التمثل والاستشهاد فى الموقف المشابه ، إذ هى — كما هو معروف — عبارات تضرب فى حوادث مشابهة للحوادث الأصلية التى صدرت فيها عن قائليها . فهو يجرى على ألسنة المتمثلين كما جرى على ألسنة قائله ، بدون أى تغيير فيه ، مهما كانت دواعى التغيير ، كما هو الشأن فى بعض الأمثلة التى رويت مخالفة لقواعد النحو والتصريف مثل قولهم . « أجناؤها أبناؤها[1] » . وقولهم : « أعط القوس باريها[2] » وقولهم . « الصيف ضيعت اللبن » بكسر التاء يخاطب به المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع ، دون تغيير ، من كل ما يقرر أن راوى المثل ملتزم بحرفه ومبناه ، مما ضمن لهذا الفن البيانى انتشارا زمانيا ومكانيا مع الاحتفاظ بصورته الأصلية ، فأصبح — بذلك — أصدق فنون القول ، تمثيلا للأدب الجاهلى .

هذا إلى ما صادفه ذلك اللون الأدبى من اهتمام المدونين ، فكان فى مقدمة ما دونه العرب من الأجناس الأدبية ، حيث سارعوا إلى تدوين الحكم والأمثال ، وبدأوا ذلك فى أواخر النصف الأول من القرن الهجرى الأول على نحو ما صنع صحار العبدى فى عهد معاوية بن أبى سفيان (٤١ — ٦٠ هـ) ، وهو أحد النسابين العرب ، فقد ألف كتابا فى الأمثال ، كما ألف معاصره عبيد بن شرية كتابا آخر فى ذلك ، ذكره ابن النديم ، وقال إنه رآه فى نحو خمسين ورقة[3] . فلما كان العصر العباسى ازداد إقبال العلماء والأدباء على جمع الأمثال والحكم وتدوينها ، والتفنن فى عرضها ، فوفروا لنا مجموعة من الكتب التى حفلت بالأمثال ، وقامت على ترتيبها وشرحها وتفسير إيماءاتها مثل كتاب أمثال العرب للمفضل الضبى ، وتلاه أبو عبيد القاسم بن سلام فألف كتابا فى الأمثال ، شرحه من بعده أبو عبيد البكرى تحت عنوان . « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام » ثم توالت المؤلفات فى هذا الباب ، وكان

---

(١) جمع جان وبان ، والقياس الصرفى . جناتها وبناتها ؛ لأن فاعلا لا يجمع على أفعال .

(٢) بتسكين الياء فى باريها ، والأصل فتحها .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٣٢ .

ومن أبرز ما قدم فيه . كتاب « جمهرة الأمثال » لأبي هلال العسكري ، وكتاب « مجمع الأمثال » للميداني ، الذي جمع مادته بالرجوع إلى ما يربو على خمسين كتابا[1] .

حقيقة كان للمنهج الذي سار عليه أكثر المدونين في كتبهم أثر كبير في اختلاط الأمثال ، فأصبح من العسير تمييز أمثال الجاهلي من أمثال العصر الإسلامي ، وذلك لأن مدوني الأمثال ركزوا جهدهم في ترتيبها في أبواب على حسب الترتيب الأبجدي دون الاهتمام بذكر عصرها . اللهم إلا ما نسب من الأمثال صراحة إلى قائله ، وإن هذه النسبة تحدد عصره ما دام عصر قائله معروفا .

أضف إلى هذا ما يصاحب الحكمة والمثل ـ في هذه الكتب ـ من قصص ترجع إلى العصر الجاهلي ، أو ما يأتي المثل في ثناياه من قصص جاهلي ، فقد ذكر الميداني ثمانية عشر مثلا وردت في أثناء قصة الزباء ، مثل : « بيدي لا بيد عمــرو » و « لا يطاع لقصير أمر » .

وأكثر من نسبت الأمثال إليهم صراحة كانوا من حكماء العصر الجاهلي ; بد أن منهم من يوغل في القدم مثل لقمان عاد الذي رددت اسمه ألسنة شعرائهم وحكمائهم ناسبين إليه الحلم والحكمة ، وفيه يقول الجاحظ : « من القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء . . لقمان عاد . »[2] ، وهو غير لقمان الحكيم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم كما نص على ذلك المفسرون[3] وصرح به الجاحظ[4] كما روى طرفا من تعاليم لقمان الحكيم ذات الطابع الديني[5] ، واهتم ـ كذلك ـ بذكر وصاياه وحكمه كتب الفقه والتفسير ، مثل موطأ مالك وتفسير أبي حيان ومنهم من يدنو من العصر الإسلامي ، كعامر بن الظرب العدواني ، وأكثم ابن صيفي التميمي ، وكان من المعمرين ، حتى قيل إنه أدرك الإســلام ، ومات وهو في

---

(١) انظر مقدمة « مجمع الأمثال » للميداني .

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٣ وما بعدها .

(٣) تفسير أبي حيان ج ٧ ص ١٨٦ ، وقصص الأنبياء للثعلبي ج ٠ ٣٤ طبعة القاهرة وانظر في ذلك خزانة الأدب للبغدادي ج ٢ ص ٧٧

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٤ .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٩ .

طريقه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لإعلان إسلامه[1] وقد ذكر السيوطى طائفة من الأمثال والحكم المنسوبة إليه نقلا عن ابن دريد فى أماليه[2] ؛ مثل : « لا جماعة لمن اختلف » ، « شر النصرة التعدى » ، « كل ذات بعل ستئيم[3] » ، « لا تطمع فى كل ما تسمع » .

* * *

ثانيها : القصاص . وهؤلاء هم السامرون الذين كان يجتمع إليهم أبناء القبيلة طلبا للسمر والتسلية حين يرخى الليل سدوله ، فينصتون إليهم ، ويتابعون ما تنبس به شفاههم، ولا ريب فى أن القاص كلما رأى من الحاضرين إنصاتا وإقبالا بذل المزيد من الجهد ليظل على تسلطه وتمكنه من السيطرة على الحاضرين ، فيفيض على القصة من خياله ما يبهر به سامعيه ، ويتحرك بمواطنهم كيفما شاء من الإعجاب إلى الإشفاق ، ومن الخوف إلى الأمان والاطمئنان ، ومن الشفقة إلى القسوة . . !

وظل هؤلاء القصاص على منهجهم يتوارثون ذلك الفن مع إضافة اللاحق على ما خلف السابق بالقدر الذى يلائم أذواق سامعيه، وفقا لأطوار الحياة فلما كان العصر العباسى لجأ الرواة واللغويون إلى تدوين ما تحت أيديهم من قصص تتضمن فى أكثرها أيام العرب ووقائعهم ، سواء فيما بين قبائلهم بعضهم مع بعض أو ما كان بين بعض القبائل العربية وغير العرب من الفرس أو الروم أو الأحباش ، مما نجده فى السيرة النبوية لابن هشام ، وفى تاريخ الطبرى ، والأغانى ، والأمالى ، وغير ذلك .

ولم يتوقفوا فى قصص البطولات عند قصص البطولة العربية، فقد قصوا ـ كذلك ـ عن بطولات من الأمم المجاورة غير العربية ، على نحو ما كان يقصه النضر بن الحارث

---

(١) أنظر مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ ص ١٤٥ ، وجمهرة الأمثال للعسكرى على هامش مجمع الأمثال ج ١ ص ١٢٠ والمعمرين للسجستانى ص ١٠ والأغانى ج ١٥ ص ٧٠ طبعة ساسى .

(٢) المزهر للسيوطى ج ١ ص ١ طبعة الحلبى .

(٣) تئيم : يهلك عنها زوجها .

فى مكة بقصد صرف الناس عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تعلم فى الحيرة أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم وإسفنديار ، فكان إذا جلس محمد صلى الله عليه وسلم مجلسا تذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلم إلى ، وأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار(١) . .

ولم تقتصر قصصهم على البطولات ـ العربية وغير العربية ـ فقد قصوا كذلك عن شعرائهم ، وساداتهم ، وكهانهم ، كقصة المرقش الأكبر مع أسماء بنت عوف ، وماحدث له حين تقدم لخطبتها من أبيها ، الذى طلب منه مالا يطيق ، فاحتمل فى سبيلها المشقات ، ورحل ليحقق ما طلب منه ، حتى إذا عاد وجدها زوجا لغيره . . الخ(٢) .

وقصوا عن الجن والعفاريت والشياطين والغيلان ، والحيات ، بل لقد صنعوا خرافات عن الحيوانات ، مثل خرافة الحية والفأس . فقد زعموا أن حية قتلت رجلا ، فطلبها أخوه ليقتلها ، فاحتالت حتى صالحها وعاهدته على أن تترك له الوادى ، وتعطيه كل يوم دينارا ، فلما كثر ماله ، وأصبح من أحسن الناس حالا ، ذكر أخاه ، وما أصابه على يدى الحية ، فاتجه إلى قتلها ، وعمد إلى فأس فأحدها ، ثم قعد للحية ، فلما مرت به تبعها ثم ضربها ، ولكنه أخطأها ، فلما رآها تنجو من الضربة وتدخل الجحر رمى الفأس بالجبل فوقع فوق جحرها فأثر فيه ، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه ، ولما رأى ذلك تخوف شرها وندم ، وقال لها : هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه ؟ ! فقالت ، كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك ، وأنت فاجر لا تبالى العهد(٣) ؟

ولا ريب فى أن هذه القصص لا تمثل القصة الجاهلية بكل أبعادها ؛ فقد تغير أسلوبها ونسقها البيانى من قاص إلى آخر ، فقصارى هذه القصص أنها تقدم مضمون القصة الجاهلية وروحها وجانبا كبيرا من ملامحها وطبيعتها ؛ وما ذلك إلا لأن شيئا من

---

(١) السيرة النبوية جـ ١ ص ٣٢١ طبعة الحلبى .

(٢) راجع القصة فى الأغانى جـ ٦ ص ١٢٩ وما بعدها طبع دار الكتب

(٣) أنظر أمثال العرب للضبى ص ١٠٦

هذه القصص التي تضاف إلى الجاهليين لم يصل إلى المدونين مكتوبا ، ولا بطريق الدقة في الرواية ؛ لأن وكد القاص أن ينقل مضمون القصة في إطار من خياله وأسلوبه ، دون حرص منه على شيء أكثر من ذلك .

* * *

ثالثها : الأمثلة ذاتها؛ وذلك لأن كثيراً من هذه القصص اعتمد في روايته على الإيحاء والإشارة المنبثقة من بعض الأمثلة ، فيكفي أن يذكر مثل من هذه الأمثال لتتوارد الأحداث على خاطر السامع، على نحو ما رأينا في قصة الحية والفأس ،وقيامها على المثل السائر . « كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك »

أي أن المثل يقوم في ذلك المجال بدور الراوي الذي يعتمد على الإيحاء والإيجاز . فهو مخزن تختزن طواياه أحداث القصة

وهذا يعني أن المثل وظيفة أخرى إلى جانب وظيفته البيانية المعهودة ، فلقد لجأ العرب الجاهليون إليه ، متوسلين به في نقل قصصهم وما تضمنته من أحداث ومواقف لم تتوفر لها في ذلك العصر من وسائل الإذاعة سوى مثل ذلك .

أما ما عدا ذلك من فنون النثر كالخطابة والمنافرة والوصايا فقد اعتمد في روايته على الرواة المخصوصين،شأنه ذلك شأن الشعر ، بيد أن الشعر كان أيسر في روايته وانتقاله عبر الأزمان والأماكن ـ على ما سنرى في الصفحات التالية ـ أما فنون النثر تلك فلم يكن ميسوراً حفظها ونقلها بحالها كما نطق بها الخطيب أو الموصي ، وإنما كل ما حرص عليه الراوي ــ فيما نرى ــ أن ينقل لنا نظرة قائلها وأفكاره، في قالب قريب الشبه بالقالب الأصلي . . !

من ثم نستطيع أن نقرر أن فنون النثر الجاهلي توفر لها من وسائل الرواية ماينا سب كل فن بحيث تمكن هؤلاء الرواة ــ على اختلافهم ــ من أن يربطوا العصر الجاهلي ونثره بما تلاه من العصور ، إن لم يكن بالنثر ذاته فهو ــ على أقل تقدير ــ بصورته العامة التي كان عليها وعليه فلا حق لمن ينكرون هذا الجنس الأدبي أو يتشككون فيه ، إلا في تلك الحدود التي أوضحت .

* * *

أما الشعر الجاهلي فقـــد سلك في طريقه إلينا من العصر الجاهلي طريق الرواية الشخصية المنطوقة ، التي امتدت حتى أخريات العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، حيث بدأت الرواية تلتقي بالتدوين .

ولأهمية الشعر في حياة العرب قام على الرواية طائفة من الشعراء أنفسهم ، فقـد اعتبرت الرواية وسيلة من وسائل المران على صوغ الشعر ، وأصبـــح على من يريد التفوق في الشعر أن يلزم شاعراً أو أكثر يأخذ عنه ما يقول ، ويذيـــع بين العرب ما يأخذ ، ويظل هكذا حتى بلين الشعر على لسانه ويتمكن منه،ويشتهر أمره ومذهبه فيأتي من يتتلمذ عليه ، ويروى عنه ، وهكذا راو عن راو في سلسلة متصلة .

فكانت رواية الشعر لهؤلاء شغلهم الشاغل ، وعملهم الذي يتقلون أنفسهم عليه ، والذي تدفعهم إليه القبيلة دفعا، كما نرى اليوم في المدرسة الحديثة حيث تحتوى تلميذها بالتعليم والتلقين ، فاذا أتم تعلمه منها ، تولى تعليم من يليه من الأجيال .

ولقد حرص العرب على ذكر الصلة بين الرواة في بعض الأحيان ، حتى استطاع الأصفهاني أن يقدم لنا في أغانيه بعض ما وقف عليه منى تلك السلاسل، مثـل أوس بن حجر التميمي الذي روى شعره زهير بن أبي سلمى المزني ، حتى أجاد الشعر وبرز فيه ثم كان له روايتان هما كعب ابنه والحطيئة، وعن الحطيئة روى الشعر هدبه بن خشرم العذرى ، وعن هدبة أخـذ جميل بن معمر صاحب بثينة ، وعن جميل أخذ كثـير صاحب عزة (١) .

وبينما نلاحظ أن الرواة في السلسلة السابقة كانوا من قبائل مختلفـة ، نجدهم مرة أخرى مرتبطين بشاعر القبيلة،فقد ذكر ابن قتيبة أن الأعشى كان راوية لخاله المسيب ابن علس (٢) ،وأن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لساعدة بن جؤية الهذلي (٣) .

فلما كان عهد عمر رضي الله تعالى عنه الخليفة الثاني وأنشأ الدواوين،مست الحاجة إلى الرواية والرواة للتعرف على الأنساب لتحديد رواتب الجند على أساسها ، فبـدأ

---

(١) الأغاني ج ٨ ص ٩١ طبع دار الكتب المصرية .
(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٧٤ بتحقيق شاكر .
(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٦٥٣ نفس الطبعة .

الرواية تتحول إلى حرفة يخلص لها بعض الأفراد أنفسهم تماما، ويجعلونها عملهم الذى تقوم عليه حياتهم ، وساعد على ذلك ما تميزت به الدولة الأموية ، فقد كانت ذات نزعة عربية متعصبة ، جعلت الخلفاء الأمويين حريصين على حفظ التراث الشعرى ، فأقبلوا على الرواة ، وتتبعوا وفود القبائل يسألونهم عن بعض الشعراء توطيداً لسلطانهم على تلك القبائل

ونجدهم مرة ثالثة مرتبطين بوحدة صلوكية تضم أطرافهم ، وتجمع بين أبعادهم ، كما نرى من بعض الصعاليك ، حيث يأوى الشاعر الصعلوك إلى مثيله الذى ضمه من نفسه موضع الأستاذ فى الصعلكة وفى الشعر ، فيقوم على رواية شعره ، ويأخذ نفسه بأسلوبه فى الصعلكة ، ليكون من غير شعور حلقة فى تلك السلسلة الممتدة ، فقد كان الشنفرى يتتلمذ على تأبط شرا ويصحبه فى كثير من غاراته وما زال إلى جواره حتى أتم تدريبه ، وأصبح له فى ذلك الميدان شأن (١) .

وكما نرى من الشعراء الفرسان، حيث يلازم أحدهم الآخر افتتانا بفروسية وجودة شعره ، فيأخذ نفسه بمنهجه وأسلوبه فى حياته ، ويروى عنه ما يقول ، مثلما صنع زيد الخيل مع أبى دؤاد الإيادى .

ويلاحظ الدارس أن رواية الشعر لم تكن وقفا على الشعراء وحدهم ، فقد كان يشارك الشعراء فى ذلك — فى كثير من القبائل — أفراد القبيلة عامة ، إذ كان الشاعر هو المتحدث بلسان القبيلة ، فما يقوله إنما هو تعبير عن القبيلة وإعلان عن مكانتها من تسجيل لمفاخر أبنائها وانتصاراتهم ، وتعريض بأعدائهم، وإبراز لما يشينهم من نقائص ومعايب .

واستمرت الرواية حتى ظهر الإسلام، فلم يكن عائقا، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة كانوا يستنشدون الشعراء والرواة ويصغون إلى ماينشدون، قال الشريد ابن سويد الثقفى « استنشدنى النبى صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبى الصلت فأنشدته فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يقول هيه هيه ، حتى أنشدته مائة قافية (٢) » . وكان

---

(١) راجع الاغانى ج ٢١ ص ٨٧ طبع الساسى ، وخزانة الادب ج ٢ ص ١٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٧٦ ، وخزانة الادب ج ١ ص ٢٧٧ والمزهر ج ٢ ص ٣٩

كثير من الصحابة يروون الشعر ويحفظون أنساب العرب وفى مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق الذى كان يتمثل بالشعر فى بعض خطبه كما صنع فى خطبته يوم السقيفة . أما عمر بن الخطاب فكان حريصا على أن يلم بأخبار الشعراء، فكان يسأل الوافدين من شتى مناحى الجزيرة عن شعرائهم ويستقصى أخبارهم ويردد أشعارهم حتى قال فيه ابن سلام : كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر (١) .

ومن ثم أصبح من مفاخر الشعراء فى عصر صــدر الإسلام وما تلاه أن يشتهر الواحد منهم برواية الشعر ، فــلم يكن هناك شاعر مبرز إلا وهو يعتمد على شعر الجاهليين رواية وإنشادا وناثرا ، حتى سمعنا صوت الفرزدق متفخرا بما ناله من هذا الشعر فى قوله (٢) .

وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا   وأبو يزيد ، وذو القروح، وجرول (٣)
والفحل علقمة الذى كانت له   حلل الملوك كلامه لا ينحل (٤)
وأخو بنى قيس وهن قتلنه   ومهلهل الشعراء ذاك الأول (٥)
والأعشيان كلاهما ومرقش   وأخو قضاعة قوله يتمثل (٦)
وأخو بنى أسد عبيد إذ مضى   وأبو دؤاد قوله يتنخل (٧)
وابنا أبى سلمى زهير وابنه   وابن الفريعة حين جد القول (٨)

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٤١ .

(٢) الديوان جـ ٢ ص ١٥٩ طبع بيروت .

(٣) النوابغ : النابغة الذبيانى والجعدى والشيبانى ، وأبو يزيد : المخبل ، وذو القروح : امرؤ القيس ، وجرول : الحطيئة .

(٤) علقمة بن عبدة الملقب بالفحل

(٥) أخو بنى قيس : طرفة ، والمهلهل بن ربيعة ، أخو كليب وائل ، وهن قتلنه : يريد القوافى ، لأنه قتل بسبب أهاجيه .

(٦) الأعشيان : أعشى قيس ، وأعشى باهله ، والمرقش الاكبر ، وأخو قضاعة : أبو الطمحان القينى .

(٧) عبيد بن الابرص ، وأبو دؤاد : جارية بن حمران الإيادى .

(٨) ابن الفريعة : حسان بن ثابت .

والجعفرى وكان بشر قبله لى من قصائده الكتاب المجمل (١)
ولقد ورثت لآل أوس منطقا كالسم خالط جانبيه الحنظل (٢)
والحارثى أخو الحماس ورثته صدعا كما صدع الصفاة المعول (٣)

ولم يكن الاهتمام برواية الشعر فى تلك الفترة وقفا على العرب ، ولا مقصورا على الشعراء ، فقد شارك فى هذا الميدان كثير من المسلمين غير العرب ، كما حرص على رواية الشعر من غير الشعراء كثير من أبناء هذا العصر ، خصوصا أولئك الذين كانوا يروون الشعر فى ثنايا قصص صيغت من أخبار الجاهليين تقدم للطلاب فى حلقات الدرس المقامة فى المساجد الجامعة ، بقصد التعريف بالحدث التاريخى أو الكشف عن المدلول اللغوى لبعض الالفاظ

ومن ثم حرص هؤلاء الرواة على تتبع الشعر وأخبار العرب فى البيئات البدوية طلبا للدقة فى الرواية،وحرصا على الاخذ من المنبع فأبدى هؤلاء فى عملهم هذا مهارة وتفوقا لم يعهد من قبل فى غيرهم

وإذا كانت الرواية فيما قبل الإسلام راجعة إلى حاجة القبيلة من الدعاية الإعلامية فانها فيما بعد الإسلام كانت ترجع إلى دوافع أخرى من أبرزها حفظ اللغة،والوقوف على معنى ألفاظها وطرائق استعمالاتها فى سبيلهم إلى تفسير القرآن الكريم ، والوقوف على مقاصده،كما صنع ابن عباس ومن سار مساره من بعده فى تفسير القرآن الكريم والاستشهاد بالشعر الجاهلى على ما يرى .

لقد حمل الشعر الجاهلى إلى الاجيال التالية رواة كثيرون مختلفو الاغراض والوسائل متباينو النزعات والمواطن ، برز من بينهم فى أواخر العصر الإسلامى طائفة الرواة المحترفين ، الذين ترددت معيشتهم بين الكوفة والبصرة غالبا ، فكانوا نواة اتجاهين فى الرواية مختلفين ومتصارعين ، فرواة الكوفة فى الجملة متساهلون ، اشتهر من بينهم كثير من الناحلين والوضاعين ، وعلى رأسهم حماد . ولكن كان من بينهم رواة ثقات مثل المفضل بن يعلى الضبي ورواة البصرة فى الجملة متحفظون متشددون وعلى

(١) الجعفرى : لبيد بن ربيعة ، وبشر : هو بشر بن أبى خازم .
(٢) أوس : هو أوس بن حجر .
(٣) الحارثى : هو أخو الحماس النجاشى .

وأشهرهم أبو عمرو ابن العلاء [1] المشهور له بالأمانة والورع، وهو أحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم، وأحد مؤسسي مدرسة البصرة النحوية، ولكن كان من بينهم الرواة المتهمون مثل خلف الأحمر الذى أقر على نفسه فى زعمه بأنه كان يعطى حمادا المنحول من الشعر، ويزيف عليه ميزويه: يقول أبو الطيب اللغوى: «والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بين فى دواوينهم» [2].

وفى هذا الجو المتلاطم بمختلف الاتجاهات والنزعات نشأت طائفة ثالثة أحلصت نفسها وجهدها لنخل ما يروى والتصدى لكل رواية يزيف أو ينحل كما كان شأن الأصمعى وأبى زيد الأنصارى.

فإذا كان بعض الرواة قد أدخل على الجاهليين ما ليس لهم من الشعر، وزور فى الرواية فنسب إلى بعض الشعراء ما ليس لهم ..

إذ كان هذا حال بعض الرواة، فقد أتيح للأمة العربية من أبنائها من وقف نفسه على تحقيق الشعر المروى وتمحيصه، فكانوا للرواة بالمرصاد.

ومن ثم فلسنا فى حاجة إلى الشك فيما وصلنا من الشعر الجاهلى — على ما دعا إليه الدكتور طه حسين — لأن سلفنا سبقونا إلى ذلك فى فترة التحول من الرواية إلى التدوين، وقاموا — عن قرب عصور الشعراء — بما يريدنا الدكتور طه حسين تأثرا بفلسفة (ديكارت) أن نقوم به اليوم وعلى بعد نحو خمسة عشر قرنا من الزمان

---

(١) ولد سنة ٧٠ هـ، وتوفى سنة ١٥٤، وقيل ١٥٩، قال الجاحظ: «وكان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر، وبأيام العرب وأيام الناس، وكانت كتبه التى كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف ... ثم إنه تقرأ — أى تنسك — فأحرقها» البيان والتبيين ج ١ ص ٣٢١

(٢) مراتب النحويين ص ٧٤

٣ التدوين :

واضح مما بين أيدينا من المراجع الأدبية والعلمية أن تدوين الشعر — عموما — لم يبدأ إلا فى أواخر العصر الأموى ، وأن التدوين بدأ فى أول الأمر تدوينا من التلاميذ لما يمليه عليهم شيوخهم فى الأدب أو فى النحو أو فى التفسير . ثم تلا هؤلاء طائفة من الرواة المدونين حرصوا على أن يكون عملهم منهجيا قائما على أصول وقوانين ثابتة ، فألزموا أنفسهم بتمحيص ما يسمعون عن طريق المقابلة والموازنة ، كما التزموا بالارتحال إلى الصحراء طلبا للعرب الخاص ليوثقوا ما يدونونه على ما اشتهر من أمر الأصمعى المتوفى نحو سنة ٢١٥ هـ وأبى عمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢١٣ هـ .

أما فيما قبل العصر الأموى ، فقد كان اعتمادهم بالدرجة الأولى على الحافظة ؛ إذ لم يثبت أن الجاهليين اعتمدوا فى حفظ شعرهم وغيره من الفنون الأدبية على الكتابة والتدوين .

وما روى من أن بعض المقطوعات الشعرية كانت مكتوبة لا يعنى — على فرض التسليم بصحته — أكثر من أن ذلك كان بقصد الإبلاغ ، وليس بقصد الحفظ والتدوين .

ولا ريب فى أن الفارق كبير بين ما كتب إبلاغا وما كتب تدوينا ؛ إذ الأول نوع من الرسائل والمكاتبات توجه من شخص إلى آخر أو من قبيلة إلى أخرى أو إلى بعض أفرادها للانباء بما وقع أو سيقع من أحداث على نحو ما روى من رسالة لقيط بن يعمر الإيادى وهو فى أرض فارس إلى قومه ينبئهم بما يعد لهم كسرى ، ويحذرهم من الغفلة ، تلك الرسالة التى ضمنها قصيدته العينية ، ومطلعها يقول :

أبلغ إيادا وخلل فى سراتهم   أنى أرى الرأى إن لم أعص قد نصعا

ولقد قرر الجاحظ ذلك فى قوله : وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام . . . فما هو إلا أن يصرف — يعنى العربى — وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى إرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه (١)

(١) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٣٨

ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ونزل عليه القرآن الكريم بدأت حاجة المسلمين إلى تعلم الكتابة تظهر، واصطفى الرسول صلى الله عليه وسلم من بين المسلمين من يقوم بالكتابة له ، وخص من بينهم طائفة بتدوين ما ينزل من القرآن الكريم ، وطائفة بكتابة الرسائل والمعاهدات التى تدعو حاجة الدولة الناشئة إليها . . . فكان ذلك تمهيدا وتأسيسا لحركة التدوين التى وضحت معالمها فى العصر الأموى ، وإذا امتدت فى جهات متعددة ، وتناولت موضوعات شتى ، ولم تقف عند الحد الذى بدأت فيه فى عصر صدر الإسلام .

أما الشعر فقد استمر العرب فى نقله وترديده على ما كان عليه أسلافهم فى العصر الجاهلى ، فلم يؤثر عنهم تقييده إلا فى القليل النادر — على اختلاف الداعى إلى ذلك — فإذا كان فى الجاهلية صارفهم عن التدوين الجهل بالكتابة وندرة الكاتبين والقارئين، فإن صارفهم عنه فى صدر الإسلام قلة اهتمامهم بالشعر ، وإكبابهم على القرآن الكريم وكل ما يتصل بالدين الجديد .



كما يتضح من النظر فى المدونات التى ظهرت منذ العصر الأموى أن مدونى الأدب اختلفوا عن مدونى اللغة والنحو ، فلم يهتموا بالتدوين الشامل المستقصى ، ولكنهم لجأوا إلى الاختيار والانتقاء، ولكل منهجه فى اختياراته، كما صنع حماد فى (السموط) أو (المعلقات)،وكما صنع المفضل ابن محمد يعلى الضبى فى مجموعته التى سماها(الاختيارات) والتى سميت فيما بعد بالمفضليات ، وكما صنع الأصمعى فى الأصمعيات ، وكما صنع فى جمهرة أشعار العرب الذى ينسب إلى ابن أبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، إلى غير ذلك .

ويلاحظ أن الذين كانوا يقومون بالتدوين فى هذه الفترة لم يكونوا — فى الغالب — هم أصحاب المدونات ، وإنما هم تلاميذهم الذين كانوا يدونون ما يتلقون عنهم من مختلف الفنون البيانية شعرا ونثرا ، أدبا كان أو علما

ونستطيع أن نرى فى ذلك مرحلة انتقال تقوم بين عهدى الرواية الخالصة والتدوين الكامل. فهو مسار طبيعى يرينا التدرج من الرواية إلى التدوين؛ فقد ذكر صاحب

الفهرست أنه « لم ير لحماد كتاب ، وإنما روى عنـه الناس ، وصنفت الكتبة بعده »(١) .

ولم يقتصر هذا على الشعر والأدب، وإنما كان هو المنهج العام الذى شمل كل فروع المعرفة والفن المطوق ، فالذى دون أخبار محمد بن السائب الكلى هو ابن هشام ، ولم يعرف أن الخليل بن أحمد دون كتابا فى النحو ، ولكنه أملى إملاءات جمع منها سيبويه كتابه المشهور .

كما يلاحظ أن تدوين الشعر واجه فى أول أمره مقاومة ؛ لما قد ينشأ عن ذلك من تحريف وتصحيف لاشك يسلم منهما الشعر المروى مشافهة ؛ إذ الشعر يحتاج إلى تلقين وسماع حتى يسلم من اللحن ، ولذلك ضعف ابن سلام رواية من يعتمدون على الكتب ، حيث يقول : « وليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى »(٢) .

ومعنى هذا أن تدوين الشعر فى تلك المرحلة لم يقم على منهج محدد المعالم ، واضح الاتجاهات ، وإنما كان عملا تلقائيا ، يصدر عن صاحبه دون إعداد مسبق .

* * *

ولكن التدوين بعد ذلك يتخذ سمتا مختلفا عن هذا السمت ، حيث يقترب به المدونون من التأليف على نحو ماصنع أبو تمام فى حماسته ، والجاحظ فى البيان والتبيين ، والمبرد فى الكامل ، وابن قتيبة فى عيون الأخبار ، والشعر والشعراء ، وكما صنع أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى الذى يقع فى واحد وعشرين مجلدا فقد حرص على أن يقدم الشعر الجاهلى — أو غيره — مصحوبا بالمـادة التاريخية ، معتمدا على الأسانيد التى توضح المصدر ، مع تقييم رواته ، والتنبيه إلى ما اشتهروا به من صدق

---

(١) الفهرست لابن النديم ج ٣ ص ٣٠٢ طبع الرحمانية .

(٢) الصحفى — بضم الصاد والحاء — الذى يأخذ عن صحيفة ، لم يعرض على العلماء ، ولم يتلق على بالرواية . راجع طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٤ بتحقيق وشرح محمود محمد شاكر .

أو كذب . وهو فى ذلك كله يستند إلى ماقـــدمه رواة القرنين الثانى والثالث الهجريين .

ومن ثم توسع الدارسون العرب فى دراساتهم ، وتفننـــوا فى تلوينها ، فـكثر التأليف ، وتعددت أشكاله واتجاهاته ، لـكنه فى الغالب لم يخرج على منهج الأصفهانى من الالتزام بذكر الأسانيد وتسلسلها ، كما فعل ابن دريد وابن الأنبارى ،وأبوعلى القالى ، والمرزبانى .

قضية نحل الشعر وانتحاله

هذه القضية من أخطر القضايا التي تصادف دارس تاريخ الأدب ـ على وجه العموم ـ إذ لا يكاد عمل أدبي يسلم من دخيل يضاف إليه سواء في ذلك الأدب العربي والأدب غير العربي ؛ لأن لعامل الزمن ، ووسائل النقل من الأجيال والأعصر الغابرة أثرها في إحداث مثل هذه الإضافات والتغييرات .

وليس حتما أن حدوث هذه الإضافات يتم بدافع من سوء القصد الحقد يحدث هذا عن قصد ، وقد يحدث عن غير قصد .

وموطن الخطورة هو في نحل ما بين يدى دارس الأدب من نتاج أدبي للتعرف على الأصيل منه والدخيل ، ولا ريب في أن مثل ذلك من أشق الأعمال التي تواجه الناقد في النتاج الأدبي المعاصر الذي يعايش أصحابه بظروفهم البيئية على اختلافها ، فإذا تباين زمان الدارس وزمان العمل الأدبي تضاعفت المشقات التي يواجهها في البحث ؛ لاختفاء بعض معالم الحياة السابقة بين طوايا الزمن . أما إذا اختفت جل معالم تلك الحياة ، فإن الباحث عندئذ يصبح كمن يبحث عن خيط في صحراء

فإذا اجتمع إلى هذا وذاك خلو الأجيال المجاورة لهذه الأعصر الغابرة من دارس يقوم بتمحيص ونحل النتاج الأدبي لمن تقدمه من الأدباء والشعراء ... فإن الوصول إلى حكم على ما بين أيدينا اليوم مما هو منسوب إليهم يصبح ضربا من الحدس والتخمين، يفتح أمام كل مدقق باب التشكك والحذر الشديد في قبول أو رفض ما ينسب إلى أبناء تلك العصور السالفة .

أما إذا وجد من علماء العصور المتاخمة لهذه العصور من تحمل عبء المسئولية ، وقام بفحص ما حمله الرواة منسوبا إليهم، مستعينا في ذلك الفحص والتمحيص بالوسائل العلمية المتاحة ... إذن فلا مكان للتشكك ، ولا مجال لإعادة البحث .

لا أقصد بذلك مصادرة الرأى الآخر ، ولا أريد أن أضع بين يدى الباحث المجدد

عوائق أو موانع ، إنما أنا أقرر بذلك حقيقة واقعة ماثلة يلمسها كل باحث موضوعي ، مجرد عن الغرض .

وذلك لأنني أرى أن من يتشكك فيما بين يدينا اليوم من شعر الجاهليين على مدى نحو ألف وخمسمائة عام إنما هو منكر لذلك كله يتستر خلف أسلوب علمي ليخلص منه إلى تقرير ماقر لديه باسم العلم ، والعلم ومناهجه من مثل ذلك براء ؛ لأن الشك لايصح إلا فيما يمكننا أن نستقل بالتعرف عليه إقرارا أو إنكارا لقربنا من قائليه ، وتمكننا من التعرف على طبائعهم ، وطبائع بيئاتهم الزمانية والمكانية والاجتماعية واللغوية عندئذ يستطيع الدارس أن يتشكك فيما وصله عن مثل هؤلاء ، فيقيسه بمقاييس تلك الطبائع ويخلص من ذلك بما يصل إليه تقريراً أو إنكاراً

أما فيما انقطعت دونه السبل فهو إما عائد في تشككه ذلك إلى الشك في رواته أو إلى الشك في دارسيه المجاورين ولا ريب في أن هذا وذاك يعني من أول الأمر إنكار كل ماينسب إلى أسلافنا من أدب وعلم باسم المنهج العلمي أو الشك الديكارتي ، وذلك لأن من يعطي نفسه الحق في أن يشك في رواة الأدب الجاهلي شكا مطلقا هكذا، ويقوم هو — على هذا البعد الزماني والمكاني — بتقييمهم ذاتيا وموضوعيا دون اعتماد على مخلفات الأسلاف من الدارسين والباحثين والعلماء . أقول إن من يعطي نفسه هذا الحق يريد أن يوهم الآخرين بأن ماقرر مسبقا في هذا الشأن من غير حجة ولا بينة إنما هو ثمرة موازنة وبحث علمي مجرد ؛ إذ الذي يشك في أمر هو في الحقيقة يشك فيمن نقل هذا الشيء ، كما يشك في كل ماقيل في شأنه من إقرار أو إنكار ، ولايثق إلا فيما يصل إليه هو بعقله . . وعندئذ السائل — مندهشا — عن وسائله إلى ذلك . أليس في كل ذلك يعتمد على ماوصله من تاريخ العرب عن هؤلاء الرواة ومن جاء بعدهم من الدارسين ؟

أنه إذا لحاجة في نفسه يقبل بعض ماروى عن هؤلاء ليتشكك في بعض ماروى عنهم وبتعبير أوضح يقبل من روايتهم مايحقق غايته ، فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه ، متغافلا أن المنهج العلمي الحق يقول بأن من يتقبل البعض لابد من أن يتقبل البعض الآخر فإما أن أرفض كل ماجاءنا عن هؤلاء الدارسين ، وإما أن أتحرك بعقلي وعلمي بين المختلف من آرائهم لأختار منه مايقبله عقلي من خلال المأثور عنهم في مجمله أما ما أجمعوا عليه فلامحال لأن التشكك فيه من جديد على هذا البعد، لأن هذا لاينبغي

سوى الإنكار والرفض لكل ماروى وينسب إليهم فى شق المجالات فما ينطبق على الشعر لابد من أن ينطبق على اللغة والتاريخ وغير ذلك من ضروب العلم والمعرفة .



إن علماء العرب وأدباءهم قد بكروا بتمحيص مانقله الرواة من أشعار ووقائع ، وتزودوا فى ذلك السبيل بأساليب علمية لاتقل فى قوتها ودقتها عن أسلوب الشك الديكارتى ، إن لم يكن هذا الأسلوب واحداً من أساليبهم فى تلك العصور المتقدمة، من كل مايمنح الثقة لمجموع ماضمنته كتبهم من آراء فى هذا الصدد وغيره ؛ فهم على قربهم القريب من الأعصر التى تنسب إليها تلك المرويات ، كانوا من الحرص على الوصول إلى الحقيقة بالدرجة التى تفوق حرصنا نحن فى هذا العصر على بعد الف وخمسمائة عام .

بل لا أبعد عن الحقيقة إذا قررت أن هؤلاء العلماء والدارسين هم الذين أوقفونا على ما أدخل على الشعر الجاهلى من نحل وتزييف ، ولولا ماذكروه فى ذلك الشأن لما تنبه إلى ذلك معاصر من الغربيين المستشرقين ، أو من الشرقيين المستغربين فلقد طالما نبهوا وألحوا فى التنبيه ــ الذى ضمنوه كتبهم ــ إلى أن كثيراً من الشعر الجاهلى قد دخله التزييف والانتحال ، ووضعوا بين أيدينا قوائم بأسماء هؤلاء الوضاعين المزيفين حتى نحذر فى التلقى عنهم ، وقاموا هم بنخل كل ماوصل إليهم من الشعر قبل أن يدونوه ، ولم يسكتوا إلا عما اطمأنوا إليه ، ولم يذكروا شيئا مشكوكا فيه إلا وأشاروا إلى مايساورهم فى شأنه مقرونا بما يدفعهم إلى هذا الشك ، فهو ليس شكا قائماً على العاطفة أو العصبية كما يتوهم البعض .

إن الناظر فيما بين أيدينا من كتب علمائنا هؤلاء يلاحظ أن الحرص بلغ بهم درجة أهملوا معها كل ماروى عن الرواة المتهمين من أمثال خلف وحماد . وكان فى مقدمة هؤلاء العلماء الأدباء الدارسين المفضل الضبى(١) المتوفى سنة ٧٨٠ م والأصمعى(٢) المتوفى

(١) المفضل نحوى وشاعر من أبناء الكوفة ، كان يكتب المصاحف تكفيراً عما كتبه بيده من أهاجى الناس . له « المفضليات » . و « أمثال العرب » .

(٢) عبد الملك الأصمعى ٧٤٠ ــ ٨٢٨م ولد فى البصرة وتعلم فيها على الخليل وعيسى ابن عمر ، وأبى عمر بن الأعلى ، وعليه تعلم أبو الفضل الرياشى ، وأبو عبيدة السكرى =

سنة ٨٢٨ م . ومحمد بن سلام الجمحى(١) المتوفى سنة ٢٣١ هـ

ونظرة إلى ماذكره ابن سلام فى مقدمة كتابه (طبقات فحول الشعراء) يتأكد ما أقرر هنا من ذلك قوله : « وفى الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجة فى عربيته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثـــل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسيب مستطرف وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية،ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه — أن يقبل من صحيفة ، ولا يروى عن صحفى(٢) .

« وقد اختلفت العلماء بعد فى بعض الشعر ، كما اختلفت فى سائر الأشياء ، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه »(٣) .

فابن سلام — على قربه من العصر الجاهلى — يسير فى كتابه وفق منهج واضح محدد أملاه عليه دقة العالم الورع ، وبصر الأديب الشاعر، حيث يعلن فى صراحة عما يراه فى بعض الشعر العربى — فى ذلك الوقت — من دخيل منحول ، دون أن يكتفى فى ذلك بمجرد الإعلان ، ولكنه يعزز ذلك بالقرائن الفنية والعلمية التى تثبت دعواه ؛ إذ هو شعر لا خير فيه ، ولا حجة فى عربيته ، ولا فائدة أدبية فى مضمونه ، ولا يحتوى على معنى أو مثل يضرب .. الخ ذلك ثم ينبه إلى مصدر ذلك الدخيل ، وسبب اختلاطه

= حفظ لغة البدو ولهجاتها ، فأصبح من مشاهير لغويى العرب من مؤلفاته « الفرس » و « الإراجيز » ، و « الميسر » ، و « الأصمعيات » .

(١) أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحى البصرى ولد بالبصرة سنة ١٣٩ هـ وتوفى سنة ٢٣١ هـ وسمع شيوخ العلم والحديث والأدب ، وسمع منه شيوخ العلم والحديث والأدب ، من شيوخه الأصمعى ، والمفضل ، وبشار بن برد ، ومروان ابن حفصة الشاعر ، والمسيب بن سعيد ، وسيبويه . وممن تتلمذ عليه أحمد بن يحيى ثعلب وأبو حاتم ، والرياشى ، والمازنى، وأحمد بن حنبل ، وابنه عبد الله بن أحمد وغيرهم كثير .

(٢) الصحفى — بضم الصاد والحاء — الذى يأخذ عن صحيفة ، لم يعرض على العلماء ولم يتلق علمه بالرواية .

(٣) الطبقات جـ ١ ص ٤ بتحقيق وشرح محمود محمد شاكر .

بغيره ، وذهول بعض الدارسين عن حقيقته ، حيث يقدر أن السر فى هذا الخلط إنما جاء من تداول الشعر مكتوبا ، دون مشافهة وسماع من أهـل الثقة ــ وهم فى الأدب واللغة فى ذلك الوقت أهل البادية ــ ودون عرضه على العلماء المتخصصين الذين يقومون بدور الناقد البصير ، والقاضى العادل

ولا يفوته فى هذا المجال أن ينبه إلى أن أهل العلم والرواية الصحيحة إذا أجمعوا على إبطال شىء من الشعر فليس لأحـــد أن يقبل منه مايجده مخطوطا فى صحيفة ، ولا يرويه عمن يأخذ عن صحيفة .

أى أن الشعر يواجه العديد من نقاط التفتيش والفحص لابد له من أن يجتازها قبل أن يعتمد ويوثق .. حيث ينتقل إلى الأجيال اللاحقة .

وابن سلام لايرى فى هذا مايعيب الشعر العربى أو يمس قيمته الفنية من قريب أو من بعيد ؛ إذ الشك فى بعضه ، وورد بعضه ليس خاصا به ، ولـكن كل شىء لايخلو من أن تثار حوله الشكوك مع مرور الأيام واختلاف الأماكن .

وهذا لايعنى ــ فى رأى ابن سلام ــ التجرؤ على رفض ما اتفق عليه ــ من الشعر وغيره ــ وإنـكاره

ومن هذا المنطلق لم يجد ابن سلام حرجا فى أن يضع بين أيدينا أنواعا من الشعر المردود ، لـكنه ــ وهو العـــالم الحريص على المنهج العلمى - لايضع ذلك خاليا من التعليل والتفسير .

يمهد لذلك أولا ، فيقرر أن الشعر ــ كغيره من صنوف العـــلم والصناعات ــ له أدوات ومقاييس تمـكن العالم من وزنه وتقييمه ، ومعرفة صحيحة من زائفه ، وذلك قوله : « وللشعر صناعة وثقافة ، يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ماتثقفه العين ، ومنها ماتثقفه الأذن ، ومنها ماتثقفه اليد، ومنها مايثقفه اللسان »(١) ثم يأخذ فى ضرب أمثلة من أصناف العلوم والمعارف ، قارنا كل صنف بمقاييسه وطرق نقده ، يلتهى إلى الشعر بقوله : « فـكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به »(٢) .

ولا يفوته فى هذا الصدد أن ينقـــل حوارا دار بين واحد من العلماء بالشعر ، وأحد رواته للشكوك فى روايتهم ، وذلك قوله :

---

(١) الطبقات جـ ١ ص ٥ . (٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٧ .

« قال خلاد بن يزيد الباهلي[١] لخلف بن حيان أبي محرز[٢] ـ وكان خلاد حسن العلم بالشعر ، يرويه ويقوله ـ : بأى شيء ترد هذه الأشعار التي تروى ؟ قال له : هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم . قال : أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت »[٣] .

ولم يقف ابن سلام عند حد التصريح بما أدخل على الشعر العربي من نحل ، كما لم يقف عند حد الإشارة إلى جهود العلماء ومناهجهم في بحث ما روى من الشعر وتمحيصه ، ورد ما تثور حوله شكوكهم لم يقف عند هذا الحد ، بل لقد أسهم بالفصل في هذا المجال ، فرد نحل الشعر إلى عاملين هما :

(أ) حرص بعض القبائل على التفوق والصدارة فلجأ طائفة من الشعراء إلى صنع شعر نسبوه إلى غيرهم ليكون حجة فيما ضمن من وقائع ومآثرهم ومناقب .

(ب) وحرص طائفة من الرواة على وضع الشعر والإضافة إلى مروياتهم إرضاء لرغبات تلك القبائل أو لغير ذلك من الدوافع . وفي ذلك يقول : « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت »[٤] .

ولم يكن التزيد مقصورا على القبائل ـ كما صنعت قريش في شعر حسان[٥] ـ بل كان الأفراد يقومون بذلك من ذوات أنفسهم بحيث يخفى أمرهم عن معاشريهم . كما صنع ابن داود بن متمم بن نويرة في شعر أبيه ، قال ابن سلام : أخبرني أبو عبيدة أن

(١) خلاد بن الأرقط ، بصرى مات سنة ٢٢٠ هـ .

(٢) هو خلف الأحمر ، توفى سنة ١٨٠ هو تقريبا

(٣) الطبقات جـ ١ ص ٧

(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٦ .

(٥) أنظر ذلك في ابن سلام جـ ١ ص ٢١٥ .

ابن داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة فى بعض ما يقدم له البدوى من الجلب والميرة فنزل النحيت[1] فأتيته أنا وابن نوح العطاردى فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته ، فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويصنعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها متمم ، والوقائع التى شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله[2] ، وكان تمحيص هذا أشق على العلماء من تزيد القبيلة كلها فى شعر الشاعر ، لقربه من الشاعر . وفى ذلك يقول ابن سلام : « وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال »[3] .

ويضيف ابن سلام طائفة أخرى لم يوثق بما روت من الشعر ، بل لقد اشتهرت بإفساد الشعر بما أضافت إليه دون نظر وتمحيص فيقول : « وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبدمناف ، وكان من علماء الناس بالسير ، قال الزهرى : لا يزال فى الناس علم ما بقى مولى آل مخرمة وكان أكثر علمه بالمغازى والسير وغير ذلك ، فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ، ويقول : لا علم لى بالشعر ، أتينا به فأحمله ولم يكن ذلك له عذرا ، فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعارا كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف .. »[4] .

فلم يكن الانتحال فى الشعر العربى راجعا إلى سوء القصد فى كل أحواله ، بل كان هناك من يدفعه إلى النحل قصد الوضع والتزييف كما كان شأن الرواة الوضاعين

---

(١) الجلب : ما يأتى به البدوى من الإبل والغنم فى الأمصار . والميرة : الطعام ، والنحيت : من قرى البصرة الصغيرة الدانية .

(٢) طبقات الشعراء ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٧ ، ٨

الذين كانوا يحسنون نظم الشعر وصوغه مثل حماد وجناد وخلف كما كان هناك من لا يحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلى ، ولكنها كانت تحمل كل غثاء وزيف فى أثناء مروياتها من الأخبار والسير ، مثل ابن إسحاق راوى السيرة النبوية ، فقد اتخذه بعض آخر أداة لإذاعة ما يصنعون من الشعر فيدخله فى أخباره دون تحرز أو تحفظ .

وكان موقف العلماء بالشعر ورواته الذين وقفـوا أنفسهم على فحص وتمحيص مروياتهم قبل إذاعتها — من أمثال هؤلاء الرواة واضحا جليا ، فقد رفضوا كل ماروى عن أى من هاتين الطائفتين ، إلا أن يأتيهم من مصادر أخرى موثقة ، وإلا أن يتخلوه بمقاييسهم الشعرية التى استطاعوا بها كشف كل زيف

بل لقد لجئوا إلى التحرز ففضلوا إسقاط بعض الشعر الذى يخالجهم فيه شك على روايته يقول ابن سلام : « ولأبى سفيان بن الحارث شعر كان يقوله فى الجاهلية فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل . ولسنا نعد ما يروى ابن إسحاق له ولا لغيره شعرا . ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم »[1] .



هذا ابن سلام أحد رواة الشعر العربى الثقات يكشف عن منهجه هو ومعرباؤه — من مثل المفضل الضبى والأصمعى وأبى عمرو بن العلاء — فى رواية الشعر وتوثيقه منذ القرن الثانى الهجرى ، فهل بعد ذلك يجد باحث أو دارس مجالا لقول يشكك بما رواه هؤلاء أو يتشكك فيه ؟ !

بيد أن طائفة من المستشرقين أثاروا هذه القضية حين اتصلوا بالشعر الجاهلى . . وليس بعيدا أن يكون ذلك منهم تـكرارا لمثل ما صادفوا من كلام ابن سلام اعتمادا على جهل المحيطين بهم بما قاله علماء العرب الأقدمون ، كما لا أستبعد أن يكون ذلك منهم ابتداء على غير علم منهم بما جاء على لسان العلماء العرب ، وأنهم بمقاييسهم تشككوا فيما بين أيديهم من شعر الجاهليين .

---

(١) طبقات الشعراء ج ١ ص ٢٤٧

وكان فى مقدمة من أثار قضية النحل تلك نولدكه سنة ١٨٦٤ ثم آلورد حين قام على نشر ديوان امرىء القيس، والنابغة وطرفة وزهير وعنترة وعلقمة،فأبدى تشككه فى صحة الشعر الجاهلى فى عمومه، وخلص من ذلك إلى أن قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته على شىء من الشك كذلك فى ترتيب أبيات كل منها وألفاظها. وتابع آلورد فى ذلك طائفة من المستشرقين منهم موير، وباسيه، وبروكلمان، ومرجليوث(١) وعلى منهج هؤلاء المستشرقين سارت طائفة من العرب المستغربين، وكان فى مقدمتهم الدكتور طه حسين الذى ردد ما كتبه هؤلاء — خصوصا مرجليوث — دون روية أو تمحيص أو مراجعة فى كتابة «الشعر الجاهلى» سنة ١٩٢٧ م.

وإذا كان للمستشرقين عذرهم فيما قد ينزلقون إليه من آراء — إذ هم مهما بلغوا من الاتصال بالعربية غرباء عليها لا يستطيعون تعمق أسرارها، ولا بحث أغوارها — فإننى لا أجد عذر العربى تزل به القدم فيردد ما ردده غيره، وبين يديه من أسباب الفحص والتمحيص ما يمكن أن يضعه فى مصاف القضاة العدول.

ولقد سبقه فى هذا الميدان مصطفى صادق الرافعى فعرض القضية بشىء من التفصيل والاستقصاء فى كتابه «تاريخ آداب العرب» الذى نشره سنة ١٩١١.

والعجب من أمر الدكتور طه حسين الذى يكشف عن انزلاقه ومتابعته فيما كتب آراء المستشرقين — أنه بنى شكه فى الشعر الجاهلى ورفضه للكثير منه على مدى تمثيل الشعر الجاهلى لحياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية واللغوية.



أما الحياة الدينية فيرى أن الشعر المنسوب إلى العصر الجاهلى برىء أو كالبرىء من الشعور الدينى القوى والعاطفة المتسلطة على النفس، والذى يمثلها من جميع جوانبها تمثيلا قويا إنما هو القرآن الكريم، حيث أرانا من بجه اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وجادلهم وهاجمهم كما هاجم الوثنيين، مظهرا فى ثنايا ذلك معتقداتهم(٢).

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى لبلاشير ج ١ ص ١٧٦ وما بعدها، ومصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد ص ٣٥٣ وما بعدها.

(٢) انظر فى الأدب الجاهلى ص ٧٧ وما بعدها الطبعة الرابعة.

ولا ريب فى أن هـذا يكشف - من أول الأمر - خطأ طه حسين فى اتجاهه ، وينقض عليه ما يقول ؛ إذ كيف يتأتى لباحث مفكر أو أديب متذوق أن يقيس الشعر على القرآن الكريم ، فهذا من واد وذاك من واد آخر، ولا يمكن بحال أن يجتمعا. ولا عذر له فى ذلك بعد أن قرأ قوله تعالى فى سورة الشعراء تمييزا للقرآن عن الشعر: « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين »(١). وقوله بعد ذلك فى السورة نفسها . « وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون » إلى قوله عز وجل : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا »(٢)

فالقرآن كتاب سماوى له رسالته وأسلوبه ومنهجه الذى لا يمكن لعاقل أن يقيس به أو عليه كلاما آخر إلا أن يكون كتابا مثله . فليس غريبا أن يعرض لكل ما يتصل بديانات من أوحى به إليهم لهدايتهم ومجادلتهم، إنما الغريب الذى لم يكن ليقبله عقل ناقد أديب أن نرى فى الشعر الجاهلى شيئا من ذلك ، إلا أن نقدر أن قائليه رسلا أو أنبياء مصلحين رصدوا شعرهم لهذا الغرض.

إن الدكتور طه حسين لا يريد أن يكتفى بما جاء فى شعر الجاهليين من إشارات دينية ، ويرى أن قلة ذلك أو ندرته فى شعرهم دليل على ريب نسبة هذا الشعر إليهم . والأمر على العكس مما يرى ؛ فلو أن ما نسب إلى الجاهليين من شعر تضمن تفصيلات دينية أكثر مما جاء لكان دليلا على زيفه ونحله ؛ لأنه عندئذ يكون من صنع مغرض صاحب غاية دينية جاء بعدهم .

* * *

وكذلك طلب فى الشعر الجاهلى بسطا للحياة العقلية التى كان عليها عرب الجاهلية، فلما لم يجد ما يطلب أنكر أن يكون ذلك الشعر ممثلا للعصر وتشكك فى نسبته إلى الجاهليين

---

(١) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥ (٢) الشعراء : ٢١٠ - ٢١٢

ولا أدرى ماذا يقصد الدكتور طه بذلك ؟ أيطالب من الشاعر الجاهلى أن يحول شعره إلى كتاب أو بحث علمى يكشف به عن حياة عقلية منظمة يفترض وجودها فى ذلك العصر ؟

ليس من شك فى أن العرب فى هذا العصر لم يكونوا ذوى فكر عقلى راق أو معقد بالصورة التى يطلب الدكتور طه أن يراها فى شعرهم ، ولو أن شعرهم ضمن شيئا من ذلك لكان دليلا قائما على نحله وتزييفه ؛ فقد كانوا فى مجموعهم يعيشون أحد أطوار الحياة البدائية التى لا تقوم على فكر معقد منظم .

* * *

كما رأى أن الحياة السياسية للعرب لا تبدو فى شعرهم صورتها كما أوضحها القرآن الكريم ، حين أظهر أن العرب فى العصر الجاهلى انقسموا فريقين ، فريق يناصر الروم ، وآخر يناصر الفرس ، على ما جاء فى سورة الروم .

وفاته أن هذا التقسيم والتوزع السياسى لم يكن شاملا العرب جميعا ، وإنما كان مقصورا على قريش التى كانت على صلة دائمة بالفرس والروم لارتباط تجارتها فى رحلتيها بهاتين الدولتين .

كما فاته أن يتنبه لما تضمنه شعرهم من تهديد وتوعد حين نشبت الحرب بين بكر وفارس ، أو أن يتنبه لما غص به شعر طائفة منهم فى مدح الغساسنة أتباع الروم والمناذرة أتباع الفرس ، وما فى ذلك من إشارات لتلك العلاقات .

* * *

وعلى الوتر نفسه قدم دعواه من الجانب الاقتصادى ؛ فقد بحث فى شعرهم عن اتجاهاتهم الاقتصادية فلم يظفر منه بما يفيده ، كما ظفر من القرآن الكريم الذى قدم لنا العرب أغنياء يستأثرون بالثروة ، وفقراء لا يملكون شيئا .

وكأن بالدكتور قد غفل عن شعر طرفة بن العبد الغنى المتلاف ، وشعر الصعاليك الثائرين على ما فى المجتمع من ظلم ، والمنصبين أنفسهم موازين لإقامة العدل الاجتماعى بالسطو على الأغنياء ومساعدة الفقراء .

وأعجب ما فى هذا أن الدكتور يزعم أن شعر العرب لايتضمن إلا مايفيد أن العرب جميعا كرام أجواد ، وفاته أنهم إلى جوار ذلك يذمون البخل والبخلاء ، ويتنصلون من

الشح . ولا يتصور أن يذم شاعر صفة غــير موجودة فى قومه ، إذ لو لم تـكن موجودة لما كان لذمها من داع .

* * *

ثم يخلص الدكتور طه حسين من ذلك كله إلى الحديث عن لغة العرب ، فيقرر أن البحث الحديث أثبت خلافا جوهريا بين لغة الجنوبيين ولغة الشماليين ، ثم ينظر فيرى أن الشعر المأثور جميعه جاءنا بلغة الشماليين . . . مما يخطر عليه التسليم بصحة الـكثرة المطلقة منه .

وهو بهذا يغفل الهجرات التى تمت من الجنوب إلى الشمال فى عصور ما قبل العصر الجاهلى كما كان شأن قبيلة كـندة اليمنية ، كما يغفل سيادة لهجة قريش سائر اللهجات الشمالية واتخاذها لغة أدبية يخضع لها الجميع ليشكك فى صحة ما روى من أشعار هذه اللهجات بلهجة قريش .

إن الناظر فيما كتبه الدكتور طـه حسين ليتأكد لديه أنه ما كتبه بروح العالم المدقق البعيد عن التحيز والعصبية ، وإنما كتبه بروح المستشرق المتعصب الذى يبيت للغة العربية وآدابهـا والقرآن الـكريم ما يبيت ، مما يضيق بحثنا هنا عن تناوله بالتفصيل والتفنيد .

الفصل الرابع

المقصود بالبادية والحاضرة

معلوم أن البادية – فى مفهومها العام – تعنى السكان ذا الفضاء الواسع ، والمرعى والماء ، أو البيئة التى لم تغير من أصل وجودها يد الكائن المخلوق ، فهى على هيئتها التى صادفها عليها ساكنوها منذ القدم . وتوارثوها جيلا بعد جيل دون أن تمتد يد لتعديل شىء فيها ؛ فهى من البدء كما هى اليوم على ما بدت فى أعين أبنائها أرض مفتوحة لا حدود فيها تقيد حركة ساكنيها ، ولا حواجز تمنع عنها من ظواهر الكون شيئا ، تستوى فى ذلك الحدود والحواجز المادية والمعنوية ؛ فساكن البادية لاتقيد حركته الحدود المادية من منازل مغلقة وقلاع محصنة ، كما لا تقيد حركته الحدود المعنوية من نظم وقوانين وحكومات .

فساكنو البادية هم ناس يعيشون فوق أرض لم تخضع لصنعة المخلوق ، وإنما هى أرض ما زالت على هيئتها الأولى التى خلقها الله تعالى عليها من أودية وجبال وكثبان ، وحيوانات ووحوش ، ومفاوز وقفار ، تظلها السماء بما تحوى من كائنات دون حجاب أو ستار ، فتستهوى النفوس بجمالها ولمعان نجومها ، وسطوع بدرها وإشراق شمسها ، وتخلع القلوب بأهوالها وثوراتها ، وتضنى الأجسام بقائظ حرها وقر بردها وجفاف أرض ، ووعورة مسالكها ، وخشونة الحياة فيها .

هذه البادية بجمالها الطبيعى الذى لايكدره وسائط من صنعة المخلوق ، وبهذها وقوتها التى تهون إزاء ما تقدمه لساكنها من شعور بالذات ؛ فبينا الهدوء يسود كل شىء فيها إذا بالسماء تتلبد بالغيوم ، وصوت الرعد يدوى فى آفاقها ، وومض البرق ينتشر فى ضاحيها ، وأزيز الرياح ينشر الرعب فيها ، وسقوط الأمطار يعم أوديتها ويطغى غدراتها ... وإذا بالحياة تعود من جديد كما كانت عليه من هدوء وسكون يخيم على كل البقاع .

هذه البادية بطبيعتها القاسية المتقلبة هى التى تضم البدوى وتستهوى فؤاده ، حتى

لتسكاد تستعبده ، فهو لا يرضى بها بديلا ، ولا يجد فى سواها راحة البال وأنس النفس ، فهى بالنسبة له كالماء للسمك يموت إذا خرج منها .

والتصاق البدوى ببيئته على هذا المستوى ، وحرصه عليها هذا الحرص ، جعل منه مرآة مجلوة تبدو على سطحها صورة البادية بكل ما فيها من تقلبات ، فأنت ترى هذه البادية وفى علائق الناس بها ، وأخلاقهم ومعارفهم وتقاليدهم ، ونظام حياتهم ؛ فإذا كانت الطبيعة فيها مكشوفة واضحة ، فالناس الذين يقطنونها صرحاء واضحو المقاصد دون التواء . وإذا كانت الطبيعة فيها متفردة العناصر يتضح كيان كل عنصر منها على الرغم مما بين عناصرها مجتمعة من روابط ، فإن الفرد فيها يشعر بذاته أكثر مما يشعر بمجتمعه ، فذاته أولا ثم بعد ذلك يأتى الآخرون . وإذا كانت الطبيعة فى البادية ثائرة هادئة ، عابسة باسمة ، جافية رفيقة ، واجمة ناطقة ، غاضبة راضية ، مشرقة متجهمة ، منيرة مظلمة ، فإن ساكنيها على هذا المثال يجتمع فيهم النقيضان ، ويلتقون على الضدين ولذلك فهم يتسمون بالطبع الحاد ، تستثيرهم الكلمة فتفيض بسببها الدماء ويستخفهم الطيش فيندفعون دون أناة أو تمهل ، ويستفزهم أتفه الأسباب فتشتعل الحروب أعواما بين الأخ وأخيه .

والتصاق البدوى ببيئته على هذا المستوى ، وحرصه عليها هـــذا الحرص جعله لا يبسم إلا تبسم له البادية مثل سقوط الأمطار ، وهدوء الرياح ، وكما لا يضيق إلا بما تضيق به البادية من حر قائظ وبرد قارس .

إنه فى بيئته تلك يدور فى محور حاجاته البدوية ؛ هى التى تلفت نظره ، وتجـذب انتباهه ، فيقبـل عليها واصفا ، ويعيش معها متفاعلا ، حتى يخيل إلينا أنه جعل منها إنسانا يشاركه الحياة ، ويقاسمه أهوالها ومتاعبها .

وحاجاته البدوية قصرت نظره إلى تلك الأشياء ، فلم يتعـدد السطح المادى . ولم يتجاوز النظرة العجلى . اللمحة الخاطفة . دون تعمق فى دخائل هذه المظاهر الكونية أو محاولة للكشف عن أسرارها . . وأنى له ذلك وتكوينه البيئى . واستعـداده الفطرى لا ينزع به إلى ما دون السطح من مثل عليا تقوم عليها تلك الظواهر ؟ !

ففى البيئة البدوية صفات توارثها ساكنوها ووقفوا أنفسهم للحفاظ عليها وضحوا

بالنفس والمال فى سبيل الإبقاء عليها ، دون أن يقدموا تعليلا لاعتزازهم بهذه الصفة أو تلك ، بل إنهم فيما بينهم وبين أنفسهم لايدركون تفسيرا لاحتفالهم بها ، سوى أنها من الصفات المحمودة التى توارثوها عن الأسلاف ، فالجود ، والنجدة ، والشهامة ، والجراءة ، والهمة صفات يتمدحون بها ويتفاخرون باحتيازها ، ويتهاجون باستلابها، فإذا سألت واحدا منهم عن السر فى ذلك لم تجد لديه جوابا شافيا يتعمق وراء الأسرار، يفصل ويفسر ، ولكن قصارى ماتجده لديهم — فى ذلك الصدد — أنها صفات محمودة ، وخلائق كريمة يعتز بها البدوى حاملا عن سلف ؛ فهم لايعنون بالأسرار والعلل قدر عنايتهم الآثار والمظاهر .



بيد أن ساكنى البادية لم يكونوا جميعا على مستوى واحد فى النظر إلى مايحيط بهم، والتأثر ببيئتهم ، وذلك لأن الإقامة وحدها فى البادية لا تكفى لتصبغ الإنسان بطابع البادية ؛ فقد يكون مقامه بالبادية لكنه يصنع لنفسه داخل البادية بيئة أخرى تعتمد على المقومات الحضرية بكل طباعها وأعرافها وسجاياها ، كأولئك البدو الذين أنشأوا الإمارات فى داخل البادية وشيدوا القصور وجمعوا إليها من أسباب الحياة الحضرية مانقلهم من بيئتهم ، وإن كانوا مقيمين داخل الصحراء ، محاطين بأطرها ، خاضعين لأخلاقياتها ومقاييس الحياة فيها ، مثلما رأينا من قبيلة كندة حين أنشأ أبناؤها إمارة كندة فى مقابلة إمارتى الحيرة والشام .

وليس من شك فى أن مثل هذا الوسط — مع أن ساكنيه لم يخرجوا من البادية — لايمكن أن يوفر لساكنيه ماتوفره البادية الخالصة لساكنيها من طبائع وسجايا ؛ لأن المقصود بالبادية ليس هو الأرض لذاتها، ولكن المقصود بها الأرض ذات الظروف والطبائع والأعراف البدوية الخالصة من الصنعة ، الخالية من التهذيب .

ومن ثم فإن المقصود بالأديب البدوى ذلك الأديب الذى يعيش داخل إطار الفطرة الساذجة فى سلوكه وثقافته وتفكيره ، وأخلاقياته ، وتصوراته ، بحيث لايتعارض فى شىء من ذلك مع ماتنص به الأرض التى يدرج عليها ، فكل مايصدر عنه من سلوك أو فكر يدور فى هذا المحور البدوى ، كما أن كل مايعبر به عن مكنون نفسه ، وفيض مشاعره لا يشذ عن مكوناته النفسية ، ومقوماته الخلقية .

وإذا كنا لانقصد بالأديب البدوى ذلك الأديب الذى يحيط نفسه داخل البـادية بجو حضارى من ثقافة وفكر وعلم وعرف، فإننا ـ على عكس ذلك تماما ـ نقصد بالأديب البدوى ذلك الأديب الذى يعيش داخل الإطار البدوى سواء كان يقطن البادية بالفعل، أو كان يقطن الحاضرة، لكنه يأبى إلا أن يعيش فى الحاضرة عيشة البدوى فى أعماق البادية.

فليس المقصود إذن بأدب البادية ذلك الأدب الصادر عن أدباء يقطنون البادية فحسب؛ فقد يكون أدبا حضريا مايصدر عن أديب يقيم فى البادية، وقد يكون أدبا بدويا مايصدر عن أديب يقيم فى الحاضرة؛ فليس الاعتداد فى هذا المجال بمقام الأديب فحسب، بل الاعتداد بمقامه ومايحيطه من مؤثرات ومقومات.

إن أدباء البادية الذين نتحدث عنهم هنا، ونبحث أدبهم، ونتتبع خصائصه هم أولئك الأدباء الذين كنفتهم البيئة البدوية بخشونتها وجفافها وقضاياها ومشكلاتها، فأملت عليهم من الظروف مايميزهم عن ساكنى التحضر ـ سواء التحضر الطبيعى أو التحضر المصنوع ـ وواجهتهم بقضايا غير ماواجهت به الحاضرة أبناءها، وهيأت لهم من الأساليب والوسائل فى معالجة أمورهم مايلائم منها ومايتصل بمقوماتها .. بل وفرضت عليهم معجما لغويا، وتصورا للأحداث والمواقف منعكسا من طبيعتها بكل مافيها من خصائص ومميزات.

ولا ريب فى أن الطريق مختلف؛ فبينما الحاضرة تفرض على ساكنيها أن يتزيوا بزى تسوده الأناة والتروى والانتقاء والنظر العميق فى تفهم الأشياء، تفرض البادية على ساكنيها أن تكون آراؤهم شافة عما فى نفوسهم دون خفاء، صريحة فى الإنباء عن ضمائرهم دون التواء، بسيطة فى النظرة إلى القضايا دون تعميق أو تعليل أو تفسير؛ إذ لايجدون مايدعو إلى التخفى والتستر؛ أو مايقتضى المواربة والالتزام؛ كما لاتمهلهم ظروف الحياة إلى البحث وراء الظواهر والتعليل والتفسير.

وإذا كانت شبه الجزيرة العربية ـ على وجه التعميم ـ تعيش فى جو حربى إبان العصر الجاهلى، فإن البيئة البدوية كانت تتحمل فى ذلك العبء الأكبر، وتقوم بالدور الأعظم فى إمداد هذه الحروب بالفرسان المهيئين. هذا إلى أن الحروب بين أبنائها كانت أشد اشتعالا، وأحمى سعارا منها بين البيئات المتحضرة أو المتصلة بالحضر، لم

يكن لأبناء البادية من شاغل يصرفهم عن الحروب انتقاما أو ثأرا أو عدوانا ، إلى غير ذلك من دوافع الحرب التى كانوا ينزعون إليها نزوعا ، ويتهيأون لها بكل ما أوتوا من الوسائل

وكان الأدب — خصوصا الشعر — عند هؤلاء هو التوأم الملازم للفروسية ، فهو الوجه الثانى لها ، أو المرآة التى تعكس صنيع الفارس ، ويتراوى على سطحها أدواته ربية وطرق إعداده ، وكيفية هجومه كرا وفرا .

بيد أن هذه البيئة البدوية لم تكن على مستوى واحد ، بل كانت — فى مجملها — متوزعة بين مستويين يتباينان أشد التباين — وإن لم يخرجا عن البداوة — ويختلفان أوسع الاختلاف فى تمثل البيئة البدوية ، وذلك لأن ساكنى البادية كان منهم السادة المستقرون فى أرضهم، الخاضعون لما أقروه — على مدى الأجيال — من أعراف وقوانين غير مكتوبة ، القائمون على حياة يسودها نوع من النظام يتلاءم مع ظروف الحياة وكان منهم الشواذ الخارجون على النظم والأعراف ، الفارون من وجه العدالة والمحاسبة إلى شعاب الجبال، يباشرون حياتهم كما يحلو لهم، أو كما يتصورونه المسلك الأصلح وهؤلاء هم الذين عرفوا باسم (الصعاليك) .

ولا ريب فى أن لكل من الوسطين خصائصه التى تميز تكوين ساكنيه من ساكن الوسط الآخر ، وتفرض عليه من المشاعر والانفعالات والأفكار ما يختلف عما يفرضه الوسط الآخر على ساكنيه ، أى أن لكل من الوسطين آثاره التى تتجه بكل وجهة تتسق مع أبعادها وظروف الحياة فيها ؛ فتتميز أدب هؤلاء عن أدب أولئك .

* * *

إذا حددنا مقصودنا بالبادية بأنها الوسط الذى يقوم على أخلاقيات البادية سواء كان فى محيط البادية ذاتها أو خارج إطارها ،فإن باستطاعتنا أن نحدد المقصود بالحاضرة — كذلك — بأنها الوسط الحضرى الذى يقوم على أخلاقيات الحاضرة ، وأساليبها فى السلوك والتفكير : وما يفرضه ذلك الوسط على أبنائه من ألفاظ يتكون منها المعجم اللغوى لهم ، وتصور تبرز فى أشكاله معانيهم ومدركاتهم للأمور والأحداث والمواقف وفنون تتعلق بها مشاعرهم وعواطفهم ، ويدور حولها بيانهم وتعبيرهم .

وليس حتما أن يكون هذا الوسط الحضرى خارج البادية ، فقد تشتمل البادية على مقومات الحاضرة دون الخروج عن حدودها المكانية كما أن الحاضرة قد تضم المقومات البدوية بكل مؤثراتها على معنى أن البيئة الحضرية ليست مكانا يطلق عليه ذلك وإنما هى وسط ذو سمات ومقومات خاصة تنبع من المكان أو يضفيها عليه الزمان وما يحمل من أحداث ، بحيث يمكن أن نرى الحاضرة . بهذا المفهوم . فى أعماق الصحراء ، ماثلة فى وسط مخصوص محاط بمجموعة من الناس ذوى اتجاهات وميول وثقافات تقطعهم عما يحيط بهم فى الصحراء .

والناظر فى الشعر العربى منذ الجاهلية يلاحظ أن هذا الوسط قد استحوذ . بما يحويه من مظاهر الترف ووسائل النعيم وأسباب التحضر . على طائفة من شعراء العربية فى العصر الجاهلى وما تلاه من عصور ، فشكل حياتهم بما ميزهم عن أبناء عمومتهم الذين يضمهم الوسط البدوى ، واتجه بهم وجهة نفسية وعقلية وسلوكية تغاير وجهات أترابهم ومعاصريهم فى البيئة البدوية ، وصبغ أذواقهم الفنية بالأصباغ والألوان التى تعكسها حياة الترف والتنعم ، فلم يهتموا إلا بالأغراض التى تستجيب لها نفوسهم تلك، ولم يقصدوا إلا إلى الفنون الشعرية التى تلبى حاجاتهم ، وداروا بمعانيهم وأخيلتهم فى محيط هذا الوسط الحضارى وما يضفيه على أفكارهم وخيالاتهم من انطباعات ـ حتى بدا فنهم الشعرى غريبا أو كالغريب على مقاييس الشعر البدوى، فكان مدعاة للهوين من شأنهم أو الطعن فى صحة ما ينسب إليهم ، أو عدم الالتزام بمنهجهم وألفاظهم ، أو حيرة الرواة فى تنقيته من الدخيل لاختلاطه به وقربه منه .. الأمر الذى دفع ببعض الدارسين من أمثال الدكتور طه حسين إلى إنكار هذا الشعر والطعن فى روايته ورواته ، بل وفى وجود المنسوب إليهم ، بحجة أنه خارج على المنهج الشعرى . مضمونا وأسلوبا وألفاظا . المعروف للعرب البادين ، على تقدير أن هؤلاء البدو وحدهم هم ممثلوا الأدباء العرب شعراء وناثرين .

* * *

حقا لم يكن أبناء الوسط الحضرى جميعا على مستوى واحد فى التأثر به، والاستجابة لمتطلبات الحضارة ، بل إنهم ليتفاوتون فى ذلك تفاوتا بينا ، ويتمايزون تميزا واضحا ـ وإن لم يخرجوا عن الإطار العام للحاضرة ـ وفقا لمكان الوسط من الحاضرة ، ولمكان الاديب ذاته من ذلك الوسط ، وتبعا لطبيعة صلة الأديب بالوسط الحضرى

وملابسته به ؛ إذ ليس من المعقول أن يكون تأثير هذا الوسط فيمن ولد فيه ودرج بين أهله مماثلا لتأثيره فيمن نزح إليه ـ بعد أن نمت البذور الفنية لديه في ظلال البادية ـ طمعا فيما يتوفر فيه من أسباب الترف والنعيم ، وخلفا وراءه البادية ومافيها ومن فيها . كما أنه ليس من المعقول أن يكون الوسط الحضرى القائم فى الحاضرة على المستوى التأثيرى نفسه الذى يشتمل عليه الوسط الحضرى المصنوع فى البادية مهما تطاول به الزمان ، كما كان الحال بين إمارة الحيرة التىأصبحت قطعة من الأرض الفارسيةوبين إمارة كندة القائمة فى الجزيرة العربية تحيطها الصحراء العربية من كل جهة ، والوطن العربى فى عمومه حين شمله الإسلام بمبادئه وأفكاره الحضارية .

الباب الثانى

الشعر البدوى

الفصل الأول

أعلام من شعراء البادية

أقصد بشعراء البادية أولئك الشعراء الذين كنفتهم البيئة البدوية ، بخشونتها وجفائها ، فأملت عليهم من الظروف ماميزهم عن ساكني الحاضرة ، وواجهتهم بقضايا غير ماواجهت به الحاضرة أبناءها ، وهيأت لهم من الأساليب والوسائل فى معالجة أمورهم ماينبع منها ويتصل بمقوماتها .

ولا ريب فى أن الطريق مختلف ، فبينما الحضارة تفرض على ساكنى الحضر أو المتحضرين أن يتزيوا بزى تسوده الأناة والتروى والانتقاء ، تفرض البادية على ساكنيها أن تكون أزياؤهم شافة عما فى نفوسهم ، صريحة فى الإنباء عن ضمائرهم ؛ إذ لايجدون مايدعو إلى التخفى والتستر والمواربة .

وإذا كانت شبه الجزيرة العربية – على وجه التعميم – تعيش فى جو حربى إبان العصر الجاهلى ، فإن البيئة البدوية كانت تتحمل فى ذلك العبء الأكبر ، وتقوم بالدور الأعظم فى إمداد هذه الحروب بالفرسان المعدين . هذا إلى أن الحروب بين أبنائها كانت أشد اشتعالا ، وأحمى سعارا منها بين البيئات المتحضرة أو القريبة من الحضر ؛ فلم يكن لأبناء البادية من شاغل يصرفهم عن الحروب انتقاما أو ثأرا ، أو عدوانا إلى غير ذلك من دوافع الحروب التى كانوا ينزعون إليها نزوعها ، ويتهيأون لها بكل ما أوتوا من الوسائل .

وكان الشعر عند هؤلاء هو القـوام اللازم للفروسية ، فهو الوجه الثانى لها أو المرآة التى تعكس صنيع الفارس ، ويتراءى على سطحها أدواته الحربية وطـرق إعداده ، وكيفية هجومه كرا وفرا .

* * *

ودارس الحياة الجاهلية يلاحظ أن أبناء البادية لم يكونوا جميعا على مستوى واحد فى الخضوع لقيم البادية وطبائعها ؛ فقد كان من أبناء البادية من تردد على الحاضرة ،

وخرج إلى المدينة ليقضى فيها بعض مراحل حياته بعد أن تكونت أحاسيسه ومشاعره بين أهله فى أحضان البادية ، وأثرت الحاضرة بمظاهرها المادية فيه فأصبح خاضعا لمؤثرين أحدهما بدأ معه منذ نعومة أظفاره فتغلغلت آثاره فى ذات نفسه مكونة أخيلته ومعانيه ، والآخر بدأ معه بعد أن نضج فكره ونمت مدركاته ، فطفت آثاره على سطح نفسه منعكسة على الشكل والمضمون .

وكان من أبناء البادية من ظل على نشأته مقيما فى البادية ، لايعرف إلا ماغلب عليه، لكنه استجاب للاسلام حين جاء بأفكاره ومبادئه ، واندمج إليه بقوة وإخلاص ، فتغيرت مفاهيمه ، وتبدلت أفكاره ، وهذبت ألفاظه ، لكنه لم ينسلخ تماما من بيئته الأصلية ، على الرغم من تغير المعارف والأخيلة والشكل والمضمون لديه ؛ لأن الإسلام وكتابه الكريم لم يخرج فى بعض تلك النواحى والمظاهر على البيئة العربية الخالصة التى تمثلها البادية أدق تمثيل .

ولا ريب فى أن هذا وذاك أصبح بدويا متحضرا ، يجمع بين مؤثرات البادية والحاضرة ؛ نضمه إلى شعراء الحاضرة أولى ليتضح الفارق بينــه وبين الحضرى بمولده ونشأته .

إذن الشاعر البدوى الذى نقصد إليه فى بحثنا هذا هو الشاعر الذى لم يخرج على البادية بجسمه ولا بعقله وفكره ؛ فهو البدوى الخالص فى أفكاره ، وفى معانيه ، وفى أخيلته ، وفى ألفاظه ، وفى قوالبه الفنية ، سواء كان مقامه ظواهر القرى وأطراف الحضر أو كان مقامه فى أعماق الصحراء .

بيد أن هذه البيئة البدوية الخالصة كانت تضم وسطين مختلفين ، فإلى جوار السادة والفرسان البدويين الذين لم يشذوا على أعراف قبائلهم ، وقيم عشائرهم ، وجد الصعاليك الثائرون الخارجون على عرف القبيلة ، وقيم العشيرة ، الفارون بما اعتنقوا من وجه المؤاخذة والمحاسبة ، بعيدا عن مواطن القبيلة ومستقرها ، متخذين من الجبال والفلوات مكامن لهم ومنازل .

فالمقصود بالصعاليك إذن أولئك اللصوص ممن كانوا يتجردون فى الجاهلية للغارات وقطع الطرق ، بقصد الثأر أو السلب والنهب ، فهم جميعا — على اختلاف مواطنهم

وأزمانهم - خاضعون لظروف قريبة الشبه من بعضها أثرت فى منازعهم وتفكيرهم ، فوجهتهم إلى مسالك متميزة اختصوا بها من دون غيرهم فى معالجة الأمور ، وفى التعبير عما يجيش بصدورهم ، وفى تقويم المواقف .. إلى غير ذلك من مختلف شئون الحياة.

والمتتبع لنشوء الصعلكة فى المجتمعات الجاهلية يلاحظ أن الدوافع لها تختلف من جماعة لأخرى ، وإن اتفقت فى نتائجها .

فهناك رأى فى الصعلكة السبيل الأيسر لتحقيق مآربه ، والوصول إلى الكسب من غير حاجة إلى عمل ، فالصعلكة فى رأى هؤلاء حرفة تدر عليهم ما يواجهون به متطلبات الحياة ، هذه النظرة يشترك فيه الأفراد والجماعات ، فقد عرفت شبه الجزيرة قبائل تحترف الصعلكة لهذه الغاية مثل قبيلتى هذيل وفهم ، كما عرفت أفرادا مثل عروة بن الورد العبسى .

وهناك من رأى فى الصعلكة مجالا يشبعون فيه رغباتهم ، ويستجيبون فيه لنزواتهم التى تتعارض مع نظام القبيلة ، مثل أبى الطمحان القينى ، وحاجز الأزدى ، وقيس ابن الحدادية ، وغيرهم ممن لفظتهم قبائلهم لشذوذ سلوكهم ، وانحراف تفكيرهم

وهناك طائفة ثالثة رأت فى الصعلكة متنفسا لهم وميدانا تحقق فيه ذاتها ، حين نبذهم مجتمعهم لأسباب لايد لهم فيها مثل سواد أمهاتهم وغربتها عن البيئة العربية ، فقد كان الآباء يجدون فى إلحاق مثل هؤلاء الأبناء بنسبهم عارا ومساءة وكان لابد لهؤلاء الأبناء من مخرج ، فإما أن تهتبل الأحداث فيضطر أباه إلى إلحاقه كما فعل عنترة ، وإما أن يخرج على القبيلة ويلجأ إلى الصعلكة كما فعل تأبط شرا ، والسليك ابن السلكة .

وأيا ما كان دافع الصعلكة فقد كان الجميع يلتقون فى الثورة الجارفة على الأغنياء والأشحاء فيرددون دائما ما يعللون به مسلكهم من صيحات الجوع والفقر ، كما كان الجميع يمتاز بالقدرة الفائقة على تحمل المشاق ، والشجاعة النادرة فى مواجهة الأخطار ؛ ولذلك لم يخضعوا أنفسهم للوسائل التقليدية فى ارتحالهم وانتقالاتهم وغاراتهم ، فاعتمدوا على أرجلهم كما اعتمدوا على خيولهم ، فامتازوا بالعدو حتى أطلق عليهم اسم العدائين، وحتى ضربت ببعضهم الأمثال فى سرعة العدو فقيل : أعدى من السليك ، وذكر الرواة عنهم فى ذلك أقاصيص تصور خصائصهم البدنية ، من ذلك ماروى عن تأبط من أنه كان أعدى ذى رجلين وذى ساقين وذى عينين، وكان إذا جاع لم تقم

له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء فينتقى على نظره أسمنها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله[١] .

وطبيعى أن يركز هؤلاء نشاطهم فى المناطق القريبة من طرق القوافل الدينية والتجارية ، فكانوا ينتشرون فى جبال السراة المحيطة بالطرق الموصلة إلى مكة مقصد الحجاج والتجار ، كما كانوا ينتشرون بالقرب من شمـــالى اليمن ، وبالقرب من الطائف والمدينة .

كما كان طبيعيا أن يتغنى هؤلاء فى أشعارهم بأرقى مفاخر العربى من جرأة وكرم وترفع عما يرونه حسيسا دنيئا .

أى أن كلا من هذين الوسطين اللذين ضمتهما البادية العربية كان له آثاره التى ميزت شعر أبنائه عن شعر الآخرين ، واتجهت بكل فريق وجهة تتسق مع أبعادها وظروف الحياة فيها .

ولقد قدمت البادية بشعبتيها شعراء كثيرين لا يمكن لدارس أن يلم بهم على وجه الحصر والاستقصاء . وكل ما يمكن تقديمه فى ذلك هو طائفة منهم تمثل الاتجاه الفنى العام ، وليس لدافع آخر غير ذلك .

ومن بين هؤلاء الكثيرين وقع اختيارى فى هذا البحث على خمسة شعـــراء هم عنترة ، والحارث بن حلزة ، وزهير بن أبى سلمى ، والشنفرى ، وعروة ، رأيت أنهم يمثلون اتجاهات الشعر البدوى فى العصر الجاهلى المتصل بحضارة الإسلام

---

(١) الأغانى ج ١٨ ص ٢١٠ .

١

عنـــترة

نشأته وحيـــاته :

هو عنترة بن شداد بن عمرو ، وقيل : عنترة ابن عمرو بن شداد بن معاوية العبسى. قال ابن السكلبى : شداد جده أبو أبيه ، غلب على اسم أبيه فنسب إليه وقال غيره : شداد عمه ، وكان عنترة نشأ فى حجره ، فنسب إليه دون أبيه(١) . أما أمه فـكانت حبشية يقال لها زبيبة ، وقد ورث عنها السواد ، فـكان أحد أغربة العرب المشهورين فى الجاهليـة لسوادهم ، وهم ثلاثة : عنترة ، وخفاف بن ندبة السلمى ، والسليك ابن السلـكة . وكان عنترة يلقب بعنترة الفوارس لشجاعته ، وعنترة الفلحاء(٢) لتشقق شفته السفلى . ويكنى بأبى المغلس لمساراته فى الغلس .

ولأن أمه أمة لم يلحقه أبوه بنسبه ـ على عادة العرب فى ذلك ـ إلى أن أغار بعض أحياء العرب على بنى عبس فأصابوا منهم ، فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوهم عما معهم، وعنترة فيهم ، فقال له أبوه : كر ياعنترة ، فقال عنترة : العبد لايحسن الـكر ، إنما يحسن الحلاب والصر ، فقال : كر وأنت حر ، فـكر وهو يقول :

أنا الهجين عنـترة كل امرىء يحمى حره

أسـوده وأحمـره والشعرات المشعره

الواردات مشفـــره

وقاتل يومئذ قتالا حسنا ، واستنقذ ما كان بأيدى عدوهم من الغنيمة ، فادعاه أبوه بعد ذلك ، وألحق به نسبه

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٥٠ ، وطبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٥٢ ، والأغانى ج ٨ ص ٢٣٧ ومابعدها ، والخزانة ج ١ ص ٥٩

(٢) الفلحاء مؤنث الأفلح : المشقوق الشفة السفلى .

واجتمع إليه صفات شتى ؛ فكان أحرأ معاصريه فؤاداً ، وأقواهم تحملا، وأسخاهم يدا ، وأسرعهم إلى مواجهة الأخطار إقداما ، ولكنه مع ذلك كله كان حليما ، دمث الخلق ، لين الطبع ، سمح الخالقة ، عفا عن الدنايا .

روى صاحب الأغانى أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد قول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله   حتى أنال به كريم المأكل

فقال صلى الله عليه وسلم : « ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة » .

ويبدو أن موقف أبيه وعشيرته منه كان له أثر فى إعداده وتكوينه ، فلم يسلم نفسه إلى الحقد على عشيرته ، ولكنه انصرف إلى بناء نفسه وإعدادها الإعداد الذى يلفت الأنظار إليه ، ويفرض على الجميع احترامه وتقديره ، فكان الفارس ، والشاعر، والنبيل(١) .

وروى عن عمرو بن معد يكرب — وكان معاصراً له — أنه قال : لو سرت بظعينة وحدى على مياه معد كلها ماخفت أن أغلب عليها مالم يلقنى حراها أو عبداها . فأما الحران فعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان فأسود بنى عبس (يعنى عنترة) والسليك بن السلكة ، وكلهم لاقيت ، فأما عامر بن الطفيل فسريع الطعن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت ، وآخرها إذا آبت ، وأما عنترة فقليل الكبوة ، شديد الجلب ، وأما السليك فبعيد الغارة كالليث الضارى .

وقال الهيثم بن عدى : قيل لعنترة : أنت أشجع العرب وأشدها ؟ قال: لا . قيل: فبماذا شاع لك هذا فى الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزما ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما ، ولا أدخل موضعا إلا أرى لى منه مخرجا ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة ، يطير لها قلب الشجاع ، فأثنى عليه فأقتله .

ولقد أصبح عنترة — بعد أن ألحقه أبوه بنسبه — فارس عبس ، وشهد كثيراً من المعارك المشهورة مثل حرب داحس والغبراء التى أبلى فيها أحسن البلاء ، وفيها قتل ضمضما المرى أبا حصين وهرم ، وفى ذلك يقول :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر   للحرب دائرة على ابنى ضمضم

---

(١) راجع الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٥١

الشاتمى عـــرضى ولم أشتمهما والناذرين إذا لم القاهما دمى(١)
إن يفعلا فلقـــد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم(٢)

وغزت بنو عبس بنى تميم وعليهم قيس بن زهير ، فانهزمت بنو عبس ، وطلبتهم بنو تميم ، فوقف لهم عنترة ، ولحقتهم كبـكبة من الخيل فحامى عنترة عن الناس فلم يصب مدبر . وكان قيس بن زهير سيدهم ، فساءه ما صنع عنترة يومئذ ، فقال حين رجع : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء .

وأحب عبلة ابنة عمه مالك بن قراد ، ونظم فيها شعراً من أوراق الغزل الجاهلى ، ولـكن أبناء عمه أنـكروا عليه هذا ، وأبوا أن يستجيبوا لرغبته ، فأصر على أن ينالها وغامر من أجلها ، وبذل الـكثير حتى ألحقه أبوه بنسبه ، ولـكن دون جدوى .

وهكذا توفر لعنترة دافعين من أهم دوافع الشعر ، هما الفروسية التى كان يعتـبرها سبب تحريره وإلحاقه بنسب أبيه ، والحب العنيف لابنة عمه التى أبى أهلها عليه التزوج منها ، فازداد بها ملقا وهياما ، وأخذ يبثها لواعج شوقه ، وآلام نفسه .

وما زال الفارس المرموق فى ميدان الحرب وفى ميدان الحب حتى مات عن تسعين عاما تقريباً ، وانتقلت أخباره ، فتزيد فيها الرواة ، وأضيف إليه من المواقف الحربية ماليس له ، ونسب إليه من الشعر مالم يقله ، حتى اشتبه الصحيح بالموضوع

وقد اختلف الرواة فى سبب وفاته ، فقيل : إنه قتل وهو شيخ كبير فى غارة له على بنى نبهان من طيء ، وقيل : إنه كان قد أسن وعجز بكبر سنه عن الغارات ، وكان له على رجل من غطفان بعير ، فخرج يتقاضاه إياه ، فهاجت عليه ريح من صيف وهو بين شرج وناظرة ، فأصابته وقتلته .

شعره :

لقد كان لنشأة عنترة وظروف بيئته أثر بالغ فى ارتباطه بالفروسية العربيـــة على اختلاف مظاهرها وكان للفروسية أثرها فى البناء الجسمى والنفسى والخلقى لعنترة ،

(١) يريد أنهما يتوعدانه بالقتل فى غيبته ، فإذا حضر لم يحرڪا على الـكلام .
(٢) جزر السباع : فريستها . القشعم : النسر المسن ، يقول : إن يتوعـــدانى أو يشتمانى فى غيبتى ، فلقد قتلت أباهما فليريانى ماذا هما فاعلان .

فقد أقامت نفسه على التسامى والترفع عن الدنايا ، والشعور بالمسئولية الفردية والجماعية فارتبط فى حياته بطائفة من الأخلاق الحميدة ، والخصال الطيبة ، ظلت له مصاحبة وظل هو لها ملازماً فانبعث منها سلوكه ، وانتظم فيها شعره ، فإذا هو عقد حياته الشجاعة والكرم ، والوفاء ، والحلم ، والأنفة ، والعزة ، والصبر على الشدائد ، وتحمل المشاق والحفاظ على العهد ، وحماية الجار ، والعفة . . إلى غير ذلك .

وهكذا تحولت الفروسية عند عنترة من مدلولها المحدود إلى معناها الشامل لكل ما فيه تفوق وتميز من حميد الخصال .

ومن ثم أصبحت الفروسية بهذا المعنى الإطار الشعرى لعنترة ، يدور بداخله ولا يشذ عنه ، فتصفح ما وصلنا من شعره فتجده واصفا لمعركة ، أو مفتخرا بانتصار ، أو مصوراً حبه الطاهر العفيف . مثال ذلك ما قاله مفتخراً ، يجيب قيس بن زهير سيد عبس حين أراد تحقيره بسواده على ما تقدم ذكره ؛ إذ يحكى أن صاحبته بادرته تخوفه مما يعرض له نفسه من المكاره بسبب تهافته على الحروب ، ولكنه ينكر عليها ذلك مفندا حجتها موضحاً أن المكاره ليست وقفا على من يشارك فى الحرب ، وأن الموت كأس لابد من تجرعه موتاً أو قتلا ، طالباً إليها أن تستحى مما تحاوله معه ، وأن يفضل الموت مناضلا شريفا مدافعاً عن حماه وحمى عشيرته ، منزلا بمن يعتدى عليهم الدمار والفناء ، بحيث لو أمكن إبراز الموت فى صورة مادية جسدية لكان على صورة عنترة . ويمهد بذلك للفخر بشجاعته وفروسيته ، مشيراً إلى كرم أصله الأبوى ، لكنه لا يقف عند الموروث بل هو يغطى بفعاله ما قد يعاب من أصل أمه غير العربية فهو المقدام حين تحجم الكتيبة حتى أصبح أفضل ممن عمه وخاله عربى سيد ؛ إذ لا يغنى القبيلة أحد غناءه ، ولا يقوم أحد لها بمثل ما يقوم به ، ويكفى أن تسأل الخيل والفوارس عما أوقعه بالأعداء فهو لا يكون فى أول المنهزمين ، بل إنه حاميهم ومنقذهم فى وقت الشدة ، ويقتحم الصفوف والخيل صابرة متحيرة من هول الحرب قد كلح فوارسها لشدة الحرب وأهوالها . وقد تمر عليه الليلة واليوم دون أن يطعم ما يسد حاجته حتى يطعم مالا يعاب به . فهو كريم النفس ، نبيل الخلق .

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى ... أصبحت عن عرض الحتوف بمعزل(١)

---

(١) الحتوف : المهالك ، عن عرض : أى ما يعرض منها .

وأجبتها إن المنيــة منهـل ... لابد أن أسقى بكأس المهل[١]
فاقنى حياءك - لا أبالك - واعلمى ... أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل[٢]
إن المنيــة لو تمثــل مثلت ... مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل[٣]
إنى امرؤ من خير عبس منصبا ... شطرى، وأحمى سائرى بالمنصل[٤]
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ... ألفيت خيرا من معم مخـول[٥]
والخيل تعلم والفوارس أننى ... فرقت جمعهم بضربة فيصـل[٦]
إذا لا أبادر فى المضيق فوارسى ... أولا أوكل بالرعيـل الأول[٧]
إن يلحقوا أكرر، وإن يستلحموا ... أشدد وإن يلفوا بضنك أنزل[٨]
حين النزول يكون غاية مثلنا ... ويفـر كل مضلل مستوهـل[٩]
والخيل ساهمة الوجوه كأنما ... تسقى فوارسها نقيع الحنظل[١٠]
ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال به كريم المـأكل

أما غزله فهو فيه العفيف الذى يقدم المروءة ويقدس الفروسية على إشباع غريزة أو تلبية رغبة، ونظرة إلى ما قدمناه من شعره فى فن الغزل توضح ذلك؛ فهو فى غزله الفارس العربى الذى يتسامى فى حبه كما يتسامى فى خلقه. وله فى ذلك الميدان شعر كثير، حتى لقد ربط بين حبه ومعاركه، فكان يقدم لقصائده الحربية بحديث يبث فيه شكواه ولواعجه؛ فذكره لها لا ينقطع، ولا يشغله عنها شاغل فى حرب أو سلم، بل إن تذكرها فى معاركه لتجعله الأسد الضارى المستهين بالأهوال.

---

(١) المنهل: المورد (٢) فاقنى حياءك: احفظيه.
(٣) الضنك: الضيق. يقول: إن المنية لو خلقت مثالا لكانت فى مثل صورتى.
(٤) المنصب بكسر الصاد: الأصل. والمنصل بضم وسكون فضم: السيف
(٥) الكتيبة: الجماعات إذا اجتمعت ولم تنتشر تلاحظت: نظرت من قد على العدو.
(٦) الفيصل: الذى يفصل بين الناس.
(٧) لا أبادر فى المضيق فوارسى: لا أكون أول منهزم ولكننى أكون حاميتهم.
الرعيل: القطعة من كل شىء
(٨) يستلحموا بضم الياء وفتح الحاء: يدركوا.
(٩) المستوهل بكسر الهاء: الضعيف الفزع. (١٠) ساهمة: ضامرة متغيرة.

ومن ثم نجد عنترة فى شعره الموجه لابنة عمه عبلة حريصا على الفخر بقيمه وأخلاقه ومثله العليا التى يدين بها؛ ففى ميميته يفخر باتصافه بكل خلق كريم ، فهو — إلى شجاعته وبسالته وجرأته فى الدفاع عن قومه — سمح الأخلاق وسهل المخالطة والمعاشرة ، لايقبل أن يظلم أحدا كما لايقبل أن يظلمه أحد ، وإذا اعتدى عليه أحد وناله بظلم أصبح نارا مؤججة تحرق من اعتدى عليه ، وإذا اكتنفه السلام فهو فى سلوكه على وعى دائم بما يحفظ عليه كيانه فقد يشرب الخمر ولكن بالقدر الذى لايفسد مروءته ولا يصيب عرضه بأذى ، ومع هذا فهو لايقصر عن العطاء ، ولا يتردد فى مساعدة المحتاج ؛ فهو يجود بما يملك عن طيب نفس ، وذلك قوله :

أثنى على بما علمت فإننى ... سمح مخالقتى إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمى باسل ... مر مذاقته كطعم العلقم(١)
وإذا شربت فإننى مستهلك ... مالى ، وعرضى وافر لم يكلم(٢)
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلى وتكرمى

ويواصل الحديث إليها عن مفاخره ؛ من فروسية ، وشجاعة ، وإقدام وبسالة ، ويصف لها كيف يواجه الأعداء الشداد فى المعركة كأنه القضاء النازل . ثم يعود إلى الحديث عن سجاياه الخلقية ، من عفة وكرم وشرف ، فهو لايقصد بحروبه كسبا ماديا يجرى وراءه :

يخبرك من شهد الوقائع أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ولا يترك فرصة تمر به دون أن يستعرض طرفا من قيمه البدوية التى تعزز مكانته بين قومه ، من ذلك موقفه بإزاء النساء — عموما سبيات وغير سبيات — ومحافظته على حرماتهن ، فلا يمس واحدة — مهما كانت — إلا إذا قدم صداقها لأهلها إذا لم تكن زوجة لغيره ، كما أنه نوى النزعة يتحكم فى عواطفه ومشاعره :

ما استمت أنثى نفسها فى موطن ... حتى أوفى مهرها مولاها(٣)

---

(١) باسل : كريه .
(٢) يكلم : يجرح .
(٣) استام المرأة : راودها عن نفسها ، والمواطن هنا : موطن القتال .

أغشى فتاة الحى عنـــد خليلها وإذا غزا فى الحرب لاأغشاها(١)
وأغض طرفى مابدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها
إنى امرؤ سمح الخليقة ماجـد لا أتبع النفس اللجوج هواها

فشعر عنترة موسوعة لأخلاقيات البدو وقيمهم التى يعتزون بها ، ويحرصون عليها فى كل تصرفاتهم ؛ لأنه حرص على أن يتجه إلى عبلة فى كل مناسبة مفتخرا بما تعرف عنه من أخلاقيات البادية ، فكلما التقينا بشعره التقينا ببعض المعانى النبيلة التى يقوم عليها سلوكه وتفكيره ، بحيث يستطيع الدارس أن يرسم له صورة واضحة المعالم ، دقيقة التعبير ، تكشف عن حوالج نفسه ، وطوايا فكره ، ومكارم خلقه ، ولعل من أطرف ماتتعرف عليه من أخلاقيات عنترة الفارس المقاتل ومشاعره أنه ينطوى على مشاعر الرحمة والحنان حتى على خصمه ، فهو — فى نظره — الكريم ذو القدر والمكانة الذى يتحرج عنترة ويألم حين طعنه بالرمح ، فيذكر أن ماصنعه به ليس محرما وإن يكن كريما :

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم (٢)

كما يألم لفرسه الذى أجهده فى المعركة وأصابه رماح الأعداء فكان يميل من طريقها:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم(٣)
لوكان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى

وبذلك يمكن أن يرى الدارس شعر عنترة ذا وجهين : أحدهما غنائى وجدانى يصور فيه أحاسيسه ومشاعره ويجسم معاناته وآلامه لبعد عبلة عنه وحرمانه منها ، كما يجسم فرحته وسعادته حين تقع عليها عيناه . والوجه الثانى قصصى ملحمى ، يصور فيه وقائعه ومفاخره وبطولاته ، بيد أن أحد الوجهين لا يكاد ينفصل عن الوجه الآخر ، فهما وجهان ممتزجان ، لايقوم أحدهما بدون الآخر .

من ثم يتضح لنا مدى تأثير بيئته فيه وفى شعره . واتجاهها به متجها يختلف تماما عما كان عليه الشعراء الجاهليون فى البيئات الأخرى

---

(١) أغشى : أزور
(٢) يكنى بالثياب عن الجسد والبدن .
(٣) ازور : مال وانحرف ، واللبان — بفتح اللام — الصدر ، والتحمحم : صهيل فيه شبه الأنين .

٢
الحارث بن حلزة

نشأته وحياته :

هو أبو ظليم الحارث بن حلزة بن مكروه بن يشكر البكرى ، لا نجد فيما بين أيدينا من مرويات التاريخ ما يكشف عنه سوى الحادثة التى جرت وقائعها فى حضرة عمرو بن هند ملك الحيرة ، وذلك أن عمرو بن هند أراد التوسط للاصلاح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس حين اتهم التغلبيون بنى بكر بأنهم تسببوا فى قتل بعض أبنائهم وغضبوا لذلك وطلبوا الديات من بكر، لخرقهم ما تعاهدوا عليه على عهد المنذر والد عمرو بن هند . ولكن البكريين أبوا الاستجابة لمطالب التغلبيين واحتكموا إلى عمرو بن هند ، ولما كان يوم التقاضى انتدبت تغلب للدفاع عنها شاعرها وسيدها عمرو بن كلثوم ، وانتدبت بكر للدفاع عنها أحد أشرافها النعمان بن هرم . وكان عمرو ابن هند يميل إلى التغلبيين ، فجرى بينه وبين النعمان جدال غضب له عمرو بن هند وطارده من حضرته . ولما أنشد عمرو بن كلثوم التغلبى قصيدته المطولة ، تقدم الحارث ابن حلزة وأنشد مطولته كذلك وكان لها فى نفس الملك وقع حسن جعله يعجب بها ، ويدنى الحارث منه ، ويقضى للبكريين .

شعره :

لم يصل إلينا من شعر الحارث غير القليل ، وفى مقدمة هذا القليل مطولته التى أنشدها فى مجلس التقاضى أمام عمرو بن هند . ويبالغ بعض الرواة فيذكرون أنه ارتجلها ارتجالا ، كما يزعمون أن عمرو بن كلثوم ارتجل قصيدته ، ولكن الناظر فى انتقالات الحارث يتقرر لديه أن ارتجالها غير ممكن عقلا ؛ لما فيها من إعمال وروية يبدو أن فى ترتيب أفكارها ترتيبا متسقا ، والبراعة فى التعريض بالخصوم بطريقة تنم عن دهاء وحنكة ، وسرد الحوادث التاريخية سردا يحمل من الدلالات ما يجعلك تقطع بأن قائلها أعدها وأتم أدواتها .

وإذا رددنا نظرنا فى هذه القصيدة تبين لنا أننا أمام شاعر على قدر كبير من

الشجاعة النفسية ، والدهاء السياسى ، وحدة العقـل ، وقوة العارضة ، ورباطة الجأش . . فقد واجه بقصيدته تلك ميل الملك إلى التغلبيين الذى قواه ماحـدث من النعمان بحضرته .

هذا إلى أن فى اشمئزاز الملك من رؤية الحارث ، وقيامه منشدا من خلف ستور ما يكفى لأن يفقده توازنه ولـكن الحارث الفارس تمالك نفسه وتماسك حتى تمكن من أن يستحوذ على الملك ويستل من نفسه الغضب على البـكريين ، ويستميله إليهم .

والشاعر فى معلقته يبتدىء ـ على ماعليه شعراء الجاهلية ـ بالغزل وذكر الفراق ولـكنه لايطيل فيه، ثم ينتقل إلى ناقته التى يستعين بها فيذكر من أوصافها ـ فى إيجاز ـ مايمهد به إلى غايته التى يقصدها .

فيصور أن الدعوى التى افتراها التغلبيون عليهم إذ زعموا أن البـكريين نقضوا العهد ، ويوضح أن هذا الزعم أصابهم بالمساء وأساء إليهم ، ثم يذكر أن إخوانهم التغلبيين بهذا الزعم يظلمونهم ويبالغون فى ظلمهم ، فهم مازالوا يطوون نفوسهم على عداوتهم . ولا يكتفى بذلك التعميم ، ولـكنه يعرض لأوهامهم التى يؤسسون عليها دعواهم ، فهم لايفرقون بين برىء ومذنب ، ويخلطون هذا بذاك ، ويزعمون أن كل من أساء إليهم تابع لنا فيحملوننا تبعة ماقدم ، ومن ذلك المنطلق فى تصورهم قرروا نقض عهدنا ، وأخذوا فى الإعداد لملاقتنا فأصبحوا مستعدين لحربنا، متأهبين لقتالنا، يمتلىء الجو بما يصدر عن المقاتلين وخيولهم من أصوات وضوضاء .

وفى هذا القسم يبدأ الشاعر باستعراض ما ادعته تغلب على بكر واستعدادها للحرب وذلك قوله :

وأتانا من الحوادث والأنـــ باء خطب نعنى به ونساء[1]
أن إخواننا الأراقم يغلو ن علينا ، فى قيلهم إحفاء[2]
يخلطون البرىء منا بذى الذ ب ولا ينفع الخلى الخلاء

(١) نعنى به ونساء : يصيبنا بسببه عناء وسوء .

(٢) الأراقم : بطون من تغلب ، يغلون . يجاوزون الحد ، الإحفاء : شدة الإلحاح والاستقصاء .

زعموا أن كل من ضرب العيـ ـر مـوال لنا ، وأنا الولاء
أجمعـوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ، ومن مجيب ، ومن تصـ ـهال خيل خـلال ذاك رغاء

ثم ينتقل من تسفيه شكوى التغلبيين إلى تهديدهم ملقيا بذلك تبعـة الحرب وويلاتها عليهم .

فيقول : أيها الناطق عند الملك الذى يزيف القول ، ويفترى علينا الكذب لاتحسبنا جازعين لإغرائك الملك بنا ، فإن ذلك لن يقدح فى أمرنا كما لم يقدح إغراء غيرك فيه ، فبقينا — على بغضك لنا — فى عزة ثابتة وحصون منيعة تحمينا من أذاكم ومكركم ، ولقد أعمت عزتنا قبل يومنا الذى نحن فيه عيون أعدائنا ، فنحن فى منعة تجعل الدهر إذا رمانا بأحداثه لايؤثر فينا ولا ينال منا كأنما يرمى جبلا عاليا بعيد المنال . فلتكونوا واضحى المقاصد ، واكشفوا عن مرادكم ، وأى طريقة تجرون عليها فى خصومتنا فوضوا فيها سادتكم وسفراءكم وليأتوا إلينا لنتباحث فيها ، فإن أردتم أن تثيروا ما كان بيننا وبينكم من القتل والأسر فى المعارك التى كانت بين أهل ملحة وأهل الصاقب ظهر لكم ماتكرهون ، وإن دققتم فى البحث والاستقصاء فى تلك الأحداث ، فإن ذلك مع مافيه من المشقة والكلفة يفضى بنا إلى صلاح أمورنا ، إن سكتم عن ذلك فإننا نسكت كذلك ونتناسى ما كان على مافيه من مرارة لأن الحق فى جانبنا ، أما إن رفضتم ماتسألون فيه من الصلح والتراضى فلنا منكم أن بمقدوركم إهانتنا فأنتم مخطئون فقد علمتم مطالنا وحفظنا لأنفسنا أيام كان الناس ينهب بعضهم بعضا ويغير بعضهم على بعض وفى كل حى صياح ، ولتذكروا ماقعلنا حين طوينا مابين البحرين والحساء إغارة على القبائل وأسرا لنسائهم وانتهابا لأموالهم ، لم ينج أحـد منا ولم يوقفنا عن ذلك إلا دخولنا فى الأشهر الحرم :

أيها الناطق المرقش عنا عند عمرو ، وهل لذاك بقاء ؟[1]
لا تخلنا على غراتك إنا قبل ماقد وشى بنا الأعداء[2]

---

(١) المرقش بكسر القاف المشددة : المزين القول بالباطل .
(٢) الغرات بفتح الغين والراء : اسم مصدر من الإغراء .

فبقينا على الشناءة تنميـ   نا حصون وعزة قعساء(١)

قبل ما اليوم بيضت بعيون الـ   ـناس فيها تعيط وإباء(٢)

وكأن المنون تردى بنا أر   عن جونا ينجاب عنه العماء(٣)

مكفهرا على الحوادث لاتر   توه للدهر مؤيد صماء(٤)

أيما خطة أردتم فأدو   ها إلينا تمشى بها الأملاء(٥)

إن نبشتم ما بين ملحة فالصا   قب فيه الأموات والأحياء(٦)

أو نقشتم فالنقش يجشمه النا   س، وفيه الصلاح والإبراء(٧)

أو سكتم عنا: فكنا كمن أغـ   ـمض عينا فى جفنها أقذاء

أو منعتم ما تسألون فمن حد   ثتموه له علينا العلاء ؟!

هـل علمتم أيام ينتهب النا   س غوارا، لكل حى عواء(٨)

إذا رفعنا من سعف البحـ   ـرين سيرا حتى نهاها الحساء(٩)

ثم ملنا على تميم فأحرمـ   ـنا وفينا بنات مر إماء(١٠)

---

(١) الشناءة: البغض، تنمينا: ترفعنا، القعساء: الثابتة.

(٢) ما: زائدة، بيضت بعيون الناس: بيضتها أى أعمتها، والتعيط — بفتح العين وضم الياء المشددة — الترفع والإباء.

(٣) المنون: الدهر، تردى — بكسر الدال — ترمى، والأرعن: الجبل الذى له حدود وأطراف تخرج عن معظمه، والجون الأسود، ينجاب عنه: ينشق عنه، العماء: السحاب الأبيض.

(٤) المكفهر: الغليظ المتراكب بعضه على بعض، لاترتوه: لاتنقضه، والمؤيد بضم فسكون فكسر: الشديد الأيد أى القوة، ويعنى به الداهية.

(٥) الخطة: الأمر يقع بين القوم، الأملاء جمع ملأ: الأشراف والرؤساء.

(٦) ملحة بكسر الميم: مكان، الصاقب: جبل، إن نبشتم: إن أثرتم ما كان بيننا.

(٧) نقشتم: استقصيتم، يجشمه بفتح الشين: يتكلفه على مشقة.

(٨) غوار بكسر الغين: مغاورة بعض على بعض.

(٩) رفعنا الجمال فى السير: سرنا سيراً رفيعا، والحساء جمع حسى: الرمل يكون الماء تحته قريبا، ويريد به مياه لبنى فزارة.

(١٠) أحرمنا: دخلنا فى الأشهر الحرم فامتنعنا عن قتالهم، مر: أبو تميم.

لايقيم العزيز بالبـلد السهـ ل ، ولاينفع الذليل النجاء(١)
ليس ينجي موائلا من حذار رأس طود وحرة رجلاء(٢)

ثم يخلص من ذلك إلى الحديث عن المنذر بين ماء السماء وتعاونهم معه ، منتقلا إلى استعراض مواقف التغلبيين التي تحسب عليهم ، مذكرا بين الحين والحين بما كان لهم من مواقف في مؤازرة المنذر وعمرو بن هند ، موضحا بذلك صورة التغلبيين والبكريين التي تكشف عن غدر التغلبيين وسوء مقصدهم وعداوتهم للملك ، في حين تكشف عن وفاء البكريين وحسن نواياهم وإخلاصهم للملك . وبذلك بلغ إلى مايريد من نفس عمرو بن هند ، وتمكن من تحويله من جانب التغلبيين إلى جانب قومه ، فكان المحامي البارع الذي عرف من أين تؤكل الكتف ، وسار في قصيدته بخطوات ثابتة على طريق واضح ، معتمداً على الحقائق والأحداث الواقعية في إقامة حججه وتفنيد آراء خصومه وتعداد مفاخره ومفاخر قومه ، والوصول إلى قلب وعقل عمرو بن هند .



نعم كانت خلائق الفروسية البدوية هي التي واجه بها الحارث بن حلزة الموقف هنا فحقق النصر وعاد مرفوع الرأس معززاً مكرما . بيد أن مظاهر الفروسية لم تقتصر لديه على ذلك ؛ إذ نراه في موطن آخر فارس الصيد والحرب والجود ، وذلك في قوله :

طرق الخيال ولا كليلة مدلج سدكا بأرحلنا ولم يتعرج(٣)
أني اهتديت وكنت غير رجيلة والقوم قد قطعوا متان السجسج(٤)

---

(١) النجاء : الإسراع والفرار .

(٢) الموائل : الذي يطلب موئلا يهرب إليه ، الحرة : كل موضع فيه حجارة سوداء ، والرجلاء : الصلبة الشديدة .

(٣) أدلج القوم : ساروا ليلا ، سدكا بفتح فكسر : ملازما ، لم يتعرج : لم يمل .

(٤) الرجيلة : القوية على المشي ، متان بكسر الميم : ظهر ، السجسج : الأرض الواسعة ليست بسهلة ولا صلبة .

والقوم قد آنوا وكل مطيهم ... إلا مواشكة النجا بالهودج(١)
ومدامة قرعتها بمدامة ... وظباء محنية ذعرت بسمحج(٢)
فكأنهن لآلىء وكأنه ... صقر يلوذ حمامه بالعوسج(٣)
صقر يصيد بظفره وجناحه ... فإذا أصاب حمامة لم تدرج
ولئن سألت إذا الكتيبة أجحمت ... وتبينت رعة الجبان الأهوج(٤)
وحسبت وقع سيوفنا برءوسهم ... وقع السحاب على الطراف المشرج(٥)
وإذا اللقاح تروحت بعشية ... رتك النعام إلى كنيف العرفج(٦)
ألفيتنا للضيف خير عمارة ... إن لم يكن لبن فعطف المدمج(٧)

والبيئة البدوية لاتظهر آثارها فى أخلاقيات الحارث فحسب، بل هى إلى ذلك تظهر فى صوره التى جمع فيها بين الصور الابتكارية من حيث العرض المستقصى للحدث، وتقديم الموقف متحركا حيا، كما رأينا فى معلقته يعرض الأحداث والمواقف التى نشأت بين قومه وخصومهم — وبين الصور التفسيرية التى اعتمد فيها على التشبيه والاستعارة المنتزعة من البيئة البدوية، وتظهر فى ألفاظه الجزلة القوية التى تتردد بين الخشونة والسهولة، وفقا لما يتطلبه الموقف، ولعل ذلك يتضح من ألفاظه فى المعلقة وألفاظه فى

---

(١) آن القوم يئينوا : تعبوا ، والمطى جمع مطيه : مايركب من الدواب ، مواشكة مسرعة السير ، والنجا بفتح النون: الإسراع .

(٢) قرعتها : ثنيت كأسها بأخرى ، المحنية : منعطف الوادى ، السمحج : الفرس الطويل .

(٣) العوسج : شجر شائك .

(٤) أجحم : أقدم على الحرب ، الرعة : الخوف ، الأهوج : الأحمق الطائش .

(٥) الطراف بكسر الطاء : بيت من أدم وهو من بيوت الأعراب . شرج الخباء أو الثوب وأشرجه : أدخل بعض عراها فى بعض وشدها .

(٦) اللقاح جمع لقحة : الناقة الحلوب ، رتك النعام بفتح الراء وسكون التاء : خطو النعام ، وهو خطو متقارب ، الكنيف : الساتر ، والعرفج : شجر .

(٧) العمارة بكسر العين : الشعبة من القبيلة ، المدمج بضم فسكون ففتح : القدح بكسر القاف وسكون الدال ، يعنى إذا لم يكن لبن فميل إلى القدح تجال على الجزور لتنحر للضيف .

جيميته التي يفخر فيها ، كما تظهر في إيجازه الذي كان من أبرز خواص شعره ، ويكفي أن نردد النظر في شعره لنتأكد من ذلك ؛ إذ قلما نجد بيتا لا يحتاج إلى شرح مستفيض حتى إن علماء البيان يستشهدون بأحد أبياته على الإيجاز المخل ، وهو قوله :

والعيش خير في ظلال النوك ممن عاش كدا[١]

يريد أن يقول : « والعيش الناعم في ظلال الحمق خير من العيش الشاق في ظلال العقل » ، وواضح أن ألفاظ البيت لا تفي بالمعنى المراد .

(١) النوك بفتح فسكون : الحمق ، الكد : التعب .

٣
زهير بن أبي سلمى

نشأته وحيـــاته :

هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزنى نسبا ، الغطفانى مولدا وموطنا، فأبوه ربيعة من قبيلة مزينة ، وروى أن ربيعة هذا خرج وخاله فى ناس من بنى مرة بن عوف يغيرون على طيء ، فأصابوا نعما كثيرة وأموالا ، فرجعوا حتى انتهوا إلى أرضهم، فقال أبو سلمى لخاله وابنه : أفردا لى سهمى ، فأبيا عليه ومنعاه حقه ، فغاضبهم وخرج بأمه إلى بنى مزينة ، فلبث فيهم حينا ، ثم أقبل فى جماعة من مزينة مغيرا على بنى ذبيان ، ولـكنهم ما كادوا يتوسطون ديارهم حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده ، فأقبل حتى دخل فى أخواله ، ولم يزل فى بنى عبد الله بن غطفان ، ومن ثم ولد له زهير وأولاده فى بنى غطفان[١] . ولعل فى هذا تفسيرا لاضطراب الروايات فى نسب زهير .

وكانت مزينة فى الشمال الغربى من شبه الجزيرة العربية ، بين وادى القرى الواقع غربى نجد وبين تهامة الحجاز ، أى فى الشمال الغربى من المدينة ، على مقربة من البحر الأحمر ، شرقى مدينة ينبع

أما غطفان فـكانت فى الجزء الشمالى من نجد فى مكان يسمى الحاجر[٢] .

ولا نستطيع أن نجزم بشيء عن مولد زهير وحياته الأولى ، وكل مانستطيعه أن نتعرف على ميلاده على سبيل التقريب من بيت له فى معلقته يقول فيه :

سئمت تـكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حـــولا ـ لا أبالك ـ يسأم

فذلك يدل على أنه حين قال معلقته تلك كان فى نحو الثمانين من عمره ، فإذا لاحظنا أنه قالها فى مدح من سعيا فى الصلح بين عبس وذبيان ، فى أواخر حرب

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ٢٩١ ومابعدها طبعة دار الـكتب .
(٢) راجع كتاب الأصنام لابن الـكلبى .

داحس والغبراء التي يرجح أنها انتهت بين سنتي ٦٠٨ ، ٦١٠ م . كان باستطاعتنا أن نقدر ميلاد زهير في سنة ٥٣٠ م . وهذا يعني أنه نشأ في أخريات العصر الجاهلي .

وقد أقام زهير في بني مرة سيدا مكرما مسموع الكلمة ، وكان كثير المال، ومع ذلك فلم يؤثر عنه شيء يعاب به في خلقه ومسلكه، فلم يعرف عنه أنه قامر ، أو شرب خمرا ، أو صاحب طائشا فارغا ، بل كان عيوفا عن كل ماينتقص خلقه ، أو يعاب به إلى حد المبالغة في الجد والتوقر .

ونبحث عن السر في ذلك ، ونقلب صفحات حياته ، فلا يستوقفنا منها في هذا الصدد إلا تتلمذه على أوس بن حجر زوج أمه ، الذي يقول عنه الرواة بأنه كان كثير الوصف لمكارم الأخلاق[1] . وإلا نشأته في ظل خاله بشامة بن الغدير الذي كان مقعدا ناضج الرأي ، حازما . يرجع إليه في المعضلات ، ويؤخذ برأيه في الشدائد ، من هذين منح زهير خلقه المحمود ، فلم يؤثر فيه ثراؤه ، ولم يخدعه عن واقعه مكانه من أهله وعشيرته .

ويبدو أنه إلى ذلك عاش مستقرا هادئا ، فلم ينغص عليه حياته منغص ، ولم يخرجه عن أخلاقياته مؤثر ، وكما اختلف في تاريخ ميلاده ، اختلف في تاريخ وفاته ، فقد تضاربت الروايات في ذلك ، من ذلك مارواه صاحب الأغاني أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى زهير وله مائة سنة ، فقال : « اللهم أعذني من شيطانه » فمالاك بيتا حتى مات[2] . وهذا يعني أنه أدرك سنة ٦٣٠ م الموافقة للسنة التاسعة للهجرة ، وذكر ابن قتيبة أنه كان جاهليا لم يدرك الإسلام[3] . وذكر البغدادي أنه مات قبل البعث بسنة ، والمرجح أنه لم يدرك الإسلام .

شعره :

أتيح لزهير في ميدان الشعر مالم يتح لغيره ، مما كان له أبعد الأثر في طبعه على الشعر وصقله فنيا ؛ فقد أحيط في بيته بأسرة شاعرة حركت فيه نوازع الشعر ، وعملت

---

(١) الشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٠٢ .

(٢) الأغاني جـ ١٠ ص ٢٩١ .   (٣) الشعر والشعراء جـ ١ ص ١٤١ .

على غرس موهبة الشعر فيه منذ طفولته، فقد كان أبوه شاعرا، وخاله بشامة بن الغدير الغطفانى شاعرا، وكان أختاه سلمى والخنساء شاعرتين . وكما أتيح له أن ينشأ تلك النشأة الفنية أتيح له أن يصقل تلك الموهبة ويهذبها، فقد تزوجت أمه من أوس بن حجر، فكان لزهير أستاذا موجها، وكان زهير له تلميذا وراويه، فلم يكن مجرد راويه، بل كان التلميذ الناقد المتأثر المحتذى .

ولم يقف أمره عند ذلك الحد، فقد اتجه إبناه كعب وبجير إلى الشعر، وانتقل منهما إلى حفيده عقبة بن كعب المعروف بالمضرب، الذى أخذ عنه ابنه العوام، فتحقق بذلك لزهير اتصال الشعر فى بيته على مدى خمسة أجيال متوالية، قال ابن قتيبة : يقال إنه لم يتصل الشعر فى ولد أحد من الفحول فى الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير[1] .

ومعنى هذا أننا مع شاعر عاش للشعر، بدأ حياته معه تلميذا، وختمها أستاذا معلما؛ كان من أبرز تلاميذها — غير ابنيه — الحطيئة .



وعلى الرغم من أن زهيرا نشأ وعاش فى بيئة بدوية إلا أن ثراءه وفر له بيئة مترفة منعمة جعلت منه الإنسان المطمئن الهادىء الوادع المتوقر، فلم يفلت من يده زمام لسانه ليقول مايصح ومالا يصح، أو ليقول ماقد قال، ولكنه كان المتروى فيما يقول، ينظر فيه ويعيد النظر، ويرجع إليه بالتنقيح والتهذيب حتى لكأنه يتعبد فى محرابه، الأمر الذى جعل النقاد يطلقون عليه وعلى أمثاله لقب (عبيد الشعر)، يقصدون بذلك البطء فى قول الشعر، ومعاودة صقله، وإطالة التفتيش فيه، قبل أن يظهره للناس ويذيعه فيهم؛ ولذلك قال القدماء عنه : إنه عمل سبع قصائد فى سبع سنين فكانت تسمى حوليات زهير؛ لأنه كان يحوك القصيدة فى سنة[2] . ونسب الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه، فقال : « كان زهير بن أبى سلمى يسمى كبار قصائده الحوليات، ولذلك قال الحطيئة : خير الشعر الحولى المحكك، وقال الأصمعى :

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٣٧ .

(٢) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٣٢٤ طبع دار الكتب المصرية .

زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جـود في شعره ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة »(١) .

وهذا المسالك من زهير في شعره يعني أنه إنسان يشعر بمسئوليته عما ينسب إليه . فهو يقدر المسئولية قدرها ، ويعمل كل ما وسعه العمل ليخرج عمله صحيحا مستقيما .

* * *

ولم يكن منهج زهير في شعره هو كل ما أثرت بيئته الخاصة فيه ، فقد ، وضح أثر بيئته كذلك في فنونه الشعرية ، فلم يقل إلا في الأغراض التي تتلاءم مع ذوقه الخاص ، فكاد يقصرها على المديح والوصف والحكمة .

وهو في مديحه يختلف عن غيره ، فهو لا يمدح إلا على مسلك محمود ، أو خلق كريم ، أو موقف فيه بطولة ؛ ولذا لم يخرج بمدائحه عن موطنه العربي ، فلم يتصل بملوك العراق أو الشام ، ولم يمدح إلا من وجه خيره إلى صالح قبيلته ، ولذلك كانت أكثر مدائحه وأفضلها في هرم بن سنان ، لأنه كان يحبه ويجله ، وكان هرم يبره ويجزل له العطاء . وكذلك كان شأنه في مدح الحارث بن عوف حين آزر هرماً وسعياً في الصلح بين عبس وذبيان ، وإنهاء الحرب التي طال مداها بينهما ، فأعلنا تحملهما ديات القتلى من القبيلتين حتى تضع الحرب أوزارها ، وتهدأ النفوس الثائرة . وتصادف في أثناء ذلك أن قتل الحصين بن ضمضم عبسياً ليثأر لأخيه هرم بن ضمضم الذي كان قد قتله ورد بن حابس العبسي ، فثارت عبس من جديد ، وشهرت سيوفها ، ولكن الحارث بن عوف أسرع إليهم وقدم مائة من الإبل مع ابنه ليختاروا إما الدية وإما قتل ابنه ثأراً لقتيلهم ، فقبلوا الدية ، وواصلوا إتمام الصلح ، حتى أخمدت النيران المسعرة ، وعلك هذا الموقف على زهير حسه ، فينطلق لسانه بمعلقته مشيدا بذلك المسلك النبيل ، لاهجا بالثناء على السيدين لما قدما للقبيلة من نمال تذكر لهما ، مستعرضا الحرب وأخطارها ، كاشفا عما تنطوي عليه من كوارث لكلا الطرفين المتحاربين :

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢ ص ١٣ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما ... تبزل ما بين العشيرة بالدم (١)

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان . وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم (٢)

تدارکتما عبسا وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (٣)

وقد قلتما : إن ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من الأمر نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم (٤)

عظيمين فى عليا معد هديتما ... ومن يستبح كنزا من المجد يعظم (٥)

فأصبح يجرى فيهم من تلادكم ... مغانم شتى من إفال المزنم (٦)

تعفى الكلوم بالمئين فأصبحت ... ينجمها من ليس فيها بمجرم (٧)

ينجمها قوم لقوم غرامة ... ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

ثم يحض الأحلاف (أسد وغطفان وطيء) على الإخلاص فى الصلح ، والتوفيق بين باطنهم وظاهرهم ، واصفا الحرب وما تجره عليهم مبرزا إياها فى صورة مرعبة مخيفة ، تبدو فى صورة وحش مفترس ، وفى هيئة نار مشتعلة ، وفى صورة رحى تهرك الناس ، ثم فى صورة امرأة ولود ، ولكنها لا تلد إلا الشؤم الذين يجرون على القبيلة الخسار والبوار .

---

(١) الساعيان الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، سعيا فى الحمالة ، وغيظ ابن مرة : حى من غطفان ، وتبزل بالدم : تشقق .

(٢) السحيل : غير المبروم .

(٣) منشم : قيل هى امرأة عطارة من خزاعة غمس قوم أيديهم فى عطرها وتعاهدوا على القتال حتى يموتوا ، فصار هؤلاء مثل أولئك فى شدة الأمر .

(٤) خير موطن : خير منزلة ، والعقوق : قطيعة الرحم .

(٥) عليا معد : رؤساؤها وأشرافها ، ويعظم بضم الياء وكسر الظاء : يجيء بأمر عظيم ، وروى ويعظم بفتح وضم : يصير عظيما .

(٦) الإفال جمع أفيل : الفصلان . والمزنم : المعلم .

(٧) تعفى : تمحى ، الكلوم : الجراحات ، والمئين : الإبل .

ألا أبلغ الأحلاف عنى رسالة وذبيان : هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم(١)
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضريتموها فتضرم(٢)
فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافا ثم تحمل فتتئم(٣)
فتنتج لكم غلمان أشأم ، كلكم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم(٤)
فتغلل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم(٥)

ولا يقف الشاعر عند ذلك الحد من التصوير المنفر من الحرب ، الكاشف عن فضل هذين السيدين فيما صنعا ، ولكنه ينتقل إلى الحديث عن ذلك الشاذ الخارج عن الجماعة مبينا ما سيجر إليه قومه من وخيم العاقبة .

ثم يخلص من ذلك إلى الحديث الصريح عن ممدوحيه ثانية ، مظهرا مالهم من فضل على القبيلتين فيما قدموا ، دون أن يكون لهم فى الأمر سبب أو نشب ، فهم متطوعون متبرعون .

وفى سبيله إلى التأثير على سامعه ، والوصول بما قرر إلى أعماق نفوسهم ، يختم مطولته بالكشف عن وصوله إلى سن الحكمة ، والتجربة ، ناثرا فى أثناء ذلك طائفة من حكمه التى تجمع خلاصة آرائه وأفكاره وتجاربه :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا ــ لا أبالك ــ يسأم

---

(١) المرجم : المظنون .

(٢) تبعثوها : تهيجوها ، تضر : من ضرى الأسد إذا تهيأ الفريسة ، تضرم : تشتعل .

(٣) تعرككم : تطحنكم ، الثفال بكسر الثاء : جلد يجعل تحت الرحى حين تطحن تلقح كشافا : تحمل كل عام ، تتئم : تلد توأما .

(٤) أشأم : مشئوم . (٥) القفيز : مكيال عراقى .

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم(١)
وأعلم مافى اليوم والأمس قبله لكننى عن علم مافى غد عم
ومن لا يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم(٢)
ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لايتق الشتم يشتم(٣)
ومن لايذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لايظلم الناس يظلم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو نال أسباب السماء بسلم
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالى ركبت كل لهذم(٤)
ومن يوف لايذمم ومن يفض قلبه إلى مطمئن البر لا يتجمجم(٥)
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم(٦)
ومن لا يزال يستحمل الناس نفسه ولم يغنها يوما من الناس يسأم(٧)

لقد كان زهير فى مدائحه السيد الشريف السرى الذى لا يمدح إلا على شريف ؛ فهو فى مدحه لاينافق ، وإنما هو يخدم مبدأ يؤمن به ، ويحرص على ذيوعه وانتشاره أى أنه يمدح سلوكا ممثلا فيمن يقوم به حاضا بذلك من يقوم بهذا المسلك على الاستمرار عليه ، وحاثا غيره على التقليد فيه ؛ فهو صاحب رسالة أكثر منه تاجرا يتكسب بمنافقة من يستحق المدح ومن لا يستحقه .

---

(١) خبط عشواء : تأتى على غير بصيرة .

(٢) يضرس بتشديد الراء المفتوحة : يمضغ ، والمنسم بفتح الميم وكسر السين : البعير مثل الظفر للانسان .

(٣) يفره مضارع وفر عرضه : حماه وصانه

(٤) الزج بضم الزاى : مالا يطعن به من الرمح ، واللهذم : بفتح اللام والذال، الماضى ، يقول : من عصى الأمر الصغير صار إلى الأمر الكبير .

(٥) البر : الصلاح ، والتجمجم : التردد .

(٦) الخليقة : الطبيعة والسليقة .

(٧) يريد : من لا يزل يثقل على الناس ويستحملهم أموره استثقلوه وسئموه .

ومن ثم فهو فى مديحه حريص على الاعتدال فى ثنائه ، دقيق فى التعبير عما فى نفسه ، واضح فى إبراز ما يرضيه وما يسخطه ، مقتصد فى القول فلا يسرف ولا يغلو ، وهذا مالاحظه قديما عمر بن الخطاب فقال : هو أشعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل [1] فى الـكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه [2] .

وكذلك كان فى وصفه الدقيق المتمكن من لغته ، البصير بأبعاد ما يصف الذى يقع من الصفات على ما يتطلبه الموقف ، فيقدمه فى عبارات مصورة تجمع بين الخيـال الابتـكارى والخيال الوصفى أو الإضافى ، ونظرة إلى وصفه للحرب فى مطولته التى سبق ذكر أبياتهـا تريك الشاعر فى هذا المنهج الوصفى ، كما تراه فى وصف بعض مظاهر الطبيعة .

حيث يصف مطرا تساقط على بعض المرتفعات ، بينما هو مقبل مع بعض رفاقه على فرس محكم الخلق ، شديد قوى لم يصبه مرض يحوجه إلى علاج البيطرى ، وينقلنا فى حركة قصصية إلى مشهد الصيد، فيصور كيف جاء الغلام الذى كلف باستطلاع الحيوانات متخفيا مستترا لينبىء بالصيد الذى رآه ، ومن ذلك يأخذ فى وصف الصيد الذى رآه الغلام غير بعيد : ثلاث أتن وحشية ، ضامرة كأقواس السراء ، ومعها حمارها الذى أقبل على الطعام من النبات حتى اخضرت مشافره . ثم ينتقل من ذلك إلى وصف رفاقه معه قبل مواجهة الصيد فى دقة دقيقـة لا تغفـل هاجسة من هواجسهم فى هـذا الموقف المتأهب المتحفز المتخفى ، فهم منذ أخبرهم الغلام يسيطر عليهم الحرص على اقتناص الصيد ، وقد أحس الفرس بذلك منهم فانتقل إليه منهم ما هم فيـه فأصابه الاضطرابه كذلك وأخذوا يجاهدونه وهو يجاهدهم حتى تمـكنوا منه وأخضعوه ، فبدا — من هيئته الجسدية — مطمئنا، لـكنه ما زال يستحوذ عليه الفزع والخوف الشديد؛ فاصلا بذلك بين الهيئات الجسدية والأحوال النفسية وكما صور أحوالهم وأحوال جوادهم ، صور حال الغلام وكشف ما يعتمل فى نفسه فيشغله عن وصاته له فى مطاردة الصيد ،

---

(١) يعاظل الـكلام : يحمل بعضه على بعض ، ويتـكلم بالرجيع من القول، ويكرر اللفظ والمعنى ، أو يعقده ويوالى بعضه على بعض ، وكل شىء ركب شيئا فقد عاظله .

(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ٢٨٩

ثم يرينا صورته وهو منصب على الأتن وحمارها انصباب الشؤبوب ، ولكن الأتن تثير الحصى فى وجهه فرارا منه ، غير أن ذلك لا يعوق عن اللحاق بها وتمكنه من إفراد الحمار من صواحبه ، وعوده به جريحا ينزف دمه :

وغيث من الوسمى حو تلاعه أجابت روابيه النجاء هواطله[(١)]
صبحت بممسود النواشر سابح ممر أسيل الخد نهد مراكله[(٢)]
أمين شظاه لم يخرق صفاقه بمنقبة ولم تقطع أباجله[(٣)]
قليلا عللناه فأكل صنعه فتم وعزته يداه وكاهله[(٤)]
إذا ما غدونا نبتغى الصيد مرة متى نره فإننا لا نخاتله[(٥)]
فبينا نبغى الوحش جاء غلامنا يدب ويخفى شخصه ويضائله[(٦)]
فقال : شياه راتعات بقفرة بمستأسد القريان حو مسايله[(٧)]
ثلاث كأقواس السراء ومسحل قد اخضر من لس الغمير جحافله[(٨)]

---

(١) الوسمى ، أول المطر ، حو بضم الحاء : تضرب إلى السواد من شدة خضرة نبتها ، والتلاع : مسيل ما ارتفع من الأرض إلى بطن الوادى ، النجاء بكسر النون جمع نجوة : المكان المرتفع ، الهواطل جمع هاطلة : المواطر .

(٢) صبحت : أتيت غدوة ، الممسوذ: شديد الفتل، النواشر جمع ناشرة :عروق باطن الذراع ، ممر : شديد الفتل ، أسيل : ناعم أو طويل ، نهد : ضخم ، المراكل جمع مركل : جنبا الفرس حيث يركله الفارس بركله .

(٣) الشظى : عظم مازق بالذراع ، الصفاق بكسر الصاد : الجلدة السفلى تحت الجلد الذى عليه الشعر ، والمنقبة : حديدة ينقب بها البيطار ، الأباجل جمع أبجل : عروق فى اليد .

(٤) عزته : قوته ، الكاهل : مجتمع الكتفين فى أصل العنق .

(٥) نخاتله : نخدعه (٦) نبغى بضم النون وفتح الباء :نبتغى،يضائل :يصغر.

(٧) الشياة هنا : الحمير ، المستأسد ، النبت المستأسد ، الذى طال وتم ، والقريان بضم القاف جمع قرى بفتح القاف وكسر الراء:مجارى الماء إلى الرياض،الحو:الضارب إلى السواد.

(٨) السراء بفتح السين : شجر تصنع منه القسى ، ناشط : يخرج من بلد إلى بلد، الغمير : نبت يطول ثم يصيبه مطر فيخرج تحته نبت أخضر فيكون غميرا لهذا الطويل أى مغمورا ، واللس بفتح اللام : الأخذ بمقدم الفم .

وقد خرم الطراد عنه جحاشه فلم يبق إلا نفسه وحلائله(١)
وقال أميرى: ما ترى رأى ما ترى أنختله عن نفسه أم نصاوله(٢)
فبتنا عراة عنـد رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله(٣)
فنضربه حتى اطمأن قـذاله ولم يطمئن قلبـه وخصائله(٤)
وملجمنا ما إن ينـال قـذاله ولا قدماه الأرض إلا أنامـله
فلأيا بلأى ما حملنا وليدنا على ظهر محبوك ظماء مفاصله(٥)
فقلت له: سدد وأبصر طريقه وما هو فيه عن وصاتى شاغله(٦)
وقلت: تعلم أن للصيد غرة وإلا تضيعـه فإنك قاتله(٧)
فأتبـع آثار الشياه وليـدنا كشؤبوب غيث يحفش الأكم وابله(٨)
نظرت إليـه نظرة فرأيته على كل حال مرة هو حامله(٩)
يثرن الحصى فى وجهه وهو لاحق سراع تواليه، صياب أوائله(١٠)
فرد علينا العير من دون إلفه على رغمه يدمى نساه وفائله(١١)

---

(١) خرم: فرق. الطراد: الصيادون، حلائله: زوجاته من الأتن.

(٢) أميرى: الذى يؤامرنى ويستشيرنى. نصاوله: نجاهره.

(٣) عراة: متجردين للفرس من صعوبة، يزاولنا: يجذبنا.

(٤) القذال بفتح القاف: موضع العذار وهـو أرفع مكان في رأسه، والخصائل جمع خصيلة بفتح الخاء.

(٥) محبوك: مدمج، ظماء مفاصله: ليست مترهلة.

(٦) سدد: قوم صدره لا تمل يمنة ولا يسرة.

(٧) غرة: غفلة.

(٨) الشؤبوب: الدفعة الأولى من المطر، يحفش: يسيل ما فيها ويخرجه.

(٩) يقول: نظرت إلى الفرس فرأيته والغـلام يحمله من السير على كل حال مما أحب أو كره.

(١٠) التوالى: الأواخر يريد رجليه وعجزه، والأوائل: يداه وصدره وصياب جمع صائب: قاصدة.

(١١) رد العير: قطعة من إلفه، نساه: عرق فى رجله، والفائل: عرق فى الفخذ.

وهو كما ترى وصف قصصي ، يعتمد فيه الشاعر على حس دقيق ، ونظر متفحص فيقدم لوحة حية ، ترى فيها الحركات ومشاهد الطبيعة بألوانها، وتسمع الهمس كما تسمع الصياح ، بل تسمع حديث النفس وتلمح الأحاسيس والمشاعر بادية على الوجوه ، ظاهرة في التحركات .

والناظر في هذه اللوحة يرى دقة الشاعر وبراعته في ملاحظة المشاهد والأحداث والوقوع على المواقف ، وإدراك الأحوال النفسية ، وحشد ذلك كله مستخدما في ذلك كل وسائل التصوير التي كانت تسعفه بها قريحة فنية متيقظة ، وذهن متوقد لماح يهديه إلى مكنونات الصورة ، ونظمه في سلك واحد فيرسمها كما يراها، أو يبرزها من خلال نظيرها وشبيهتها .

ولعل أناة زهير ورويته لها دخل كبير في تبريزه في ذلك السبيل .

كما أعانته ظروفه البيئية على هذا المسار الوصفي ، مكنته كذلك من تحويل المعنويات إلى مادة تلمس وترى ، فيهش لها أو ينفر منها ، كما بدا ذلك في حكمه التي لا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائده ، والتي استطاع بما أوتيه من مقدرة فنية أن ينفث خبراته الكثيرة المتنوعة في الكلمات المحدودة فإذا بها حبة تركزت فيها كل عناصر العلاج .

* * *

تلك كانت أهم فنون زهير الشعرية، أو بتعبير أدق : كانت الفنون التي قال فيها عن طبع وسجية ، بيد أنه إلى ذلك اضطر إلى الهجاء فانبعث فيه على تردد وتوقر ، فلم يلج باب الهجاء إلا دفعا لمعتد ينوشه .

من ذلك ما روى أن الحارث بن ورقاء الصيداوي من بني أسد أغار هو وقومه على بني عبد الله بن غطفان وأخذوا إبل زهير وراعيه يسارا ، فأنذرهم زهير في شيء غير قليل من اللين وضبط النفس ، وضمن إنذاره ذاك كافيته المشهورة التي يقول فيها :

يا حار لا أرمين منكم بداهية ... لم يلقها سوقة قبلي ولا ملك
فاردد يسارا ، ولا تعنف علي ولا ... تمعك بعرضك إن الغادر المعك(١)

---

(١) المعك بسكون العين : المطل ، وبكسرها : المطول .

ولا تكونن كأقــوام علمتهم　　يلوون ماعندهم حتى إذا نهكوا(١)
طابت نفوسهم عن حــق خصمهم　　مخافة الشر فارتدوا لما تركوا(٢)
تعلماً ها لعمــــر الله ذا قسما　　فاقصد بذرعك وانظر أين تنسلك(٣)
لئن حللت بجــو فى بنى أســد　　فى دين عمرو وحالت بيننا فدك(٤)
ليأتينــك منى منطــق قــذع　　باق ، كما دنس القبطية الودك(٥)

وكما كان فى مديحه واقعيا لايمدح إلا بما هو كائن فى الشخص ، كان كذلك فى هجائه لايتعرض إلا لما يعيبه فى مهجو ، وهجاء من أجله ، فهو ليس إلا وسيلة يحقق بها غرضا شريفا ومقصدا نبيلا ، كما رأيناه فى موقفه من الحارث ، وكما صنع مع بنى عليم أحد أحياء كلب ، فقد روى أن رجلا من بنى عبد الله بن غطفان نزل بهم وكان مولعا بالقمار ، فنهوه عنه فأبى إلا المقامرة فقمر مرتين ، فردوا عليه ، ثم قمر الثالثة ، فلم يردوا عليه ، فانطلق إلى قومه زاعما أنهم أغاروا عليه ، فقال زهير فيهم همزيته المشهورة فى هجائهم وفيها يستخف بهم ويتوعدهم فى مثل قوله :

وما أدرى وسوف إخال أدرى　　أقــوم آل حصن أم نساء
فإن قالوا النساء مخبـآت　　فحق لــكل محصنة هــداء

قال الأصمعى : فلما بلغهم قول زهير بعثوا الإبل إليه ، وأرسلوا إلى زهير يخبرونه خبر صاحبه ، ويعتذرون إليه ، ولاموه على مافرط منه ، فأرسل إليهم زهير : والله لقد فعلت وعجلت ، وايم الله لا أهجو أهل بيت من العرب أبدا .

---

(١) نهك بضم فكسر : شتم وبلغ منه فى الهجاء .

(٢) لما أوذوا بالهجاء دفعوا الحق إلى صاحبه وارتدوا إلى إعطاء ما كانوا تركوه .

(٣) تعلما منونة : اعلما لعمر الله ذا قسما ، وها : للتنبيه ، الذرع : الاستطاعة ، والانسلاك : الدخول فى الأمر ، كأنه يقول : اقصد الأمر بما تملكه أنت لا بما يملكه غيرك .

(٤) جو : واد فى بنى أسد ، وعمرو : ابن هند بن المنذر بن ماء السماء ، ودين عمرو : طاعته ، فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة بسير الإبل .

(٥) القذع : القبيح ، والقبطية : كل ثوب أبيض . الودك : الدسم ، يريد : لئن حللت بحيث لا أدركك تحت راية هذا الملك العظيم ليردن عليك هجرى ، ولأدنس من عرضك كما يدنس الودك القبطية .

وهكذا يتقرر لدينا بما لايدع مجالا للشك ، أن زهيرا جعل من شعره وسيلة لإقرار السلام والحق والخير ، كما جعله معرضا للذوق الرفيع ، والجمال الساحر .

* * *

وبمعاودة النظر فى شعر زهير ، يتبين لنا أن شاعرنا كما كان متناسقا فى فنونه وأفكاره مع طبعه وسجيته وبيئته ، كان متناسقا فى أساليبه وألفاظه وصوره وموسيقاه .

وفى سبيله إلى ذلك وجدنا الشاعر متمكنا من لغته ، مسيطرا عليها ، ينتقى منها أنسب اللفظ والعبارة ، حتى تصبح عباراته متسقة منضدة ، تتراءى أخاذة رائعة .

وكما كان متمكنا من لغته كان متمكنا من موسيقاه ، فاستوفى من ضروبها مايتلاءم مع موضوعه ، فلا تجد فى موسيقاه نشارا من إقواء ، ولا تحس فيها إكراها يصيب الشعر بالجمود أو الاضطراب .

ومن ثم يجد الدارس فى شعر زهير كثيرا من التناسق اللفظى الذى عرفه علماء البيان فيما بعد باسم البديع من جناس وطباق كما فى قوله :

هم يضربون حبيك البيض إذ لحقوا   لاينكصون إذا مااستلحموا وحموا[1]

حيث جانس بين كلمتى (استلحموا) ، و (حموا) ، وكما فى قوله :

كأن عينى وقد سال السليل بهم   وجيرة ماهم لو أنهم أمم

فقد جانس بين (سال) ، و (السليل) ، وكما فى قوله :

تقى نقى لم يكثر غنيمة   بنهكة ذى القربى ولا بحقلد[2]

وقوله: وقد قلتما : إن ندرك السلم واسعا   بمال ومعروف من القول نسلم

وقوله: رأى الله بالإحسان مافعلا بكم   فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

وقوله: متى تبعثوها تبعثوها ذميمة   وتضر إذا ضريتموها فتضرم

---

(١) الحبيك ـ بفتح الحاء ـ الطرائق ، والبيض : الخودة المستعملة فى الحرب ، استلحموا : من التلاحم والمخالطة فى القتال ، وحموا : اشتد غضبهم .

(٢) النهكة : الإضرار ، والحقلد ـ بفتح الحاء والقاف ـ البخيل السيء الخلق ، يقول : إنه لاينمى ماله بإضرار أقربائه وظلمهم ، وليس ببخيل لئيم .

وحيث طابق وقابل فى قوله :

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

وقوله: رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ، ومن تخطئ يعمر فيهرم

وقوله: يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

وقوله: وقد كنت من سلمى سنينا ثمانيا على صير أمر ما يمر وما يحلو(١)

بيد أن ذلك كله فى شعر زهير لا يشعرك بأنه هناك إكراها اللفظ ، ولا شذوذا عن مألوف فى التعبير ، فأنت مع زهير تشعر بالعفوية فى التصوير أو التجميل .

وفى الحق : أن شعر زهير يحتاج إلى دراسة مستوعبة فاحصة ،لترى أسرار التفوق الفنى لديه ، وتتعرف على مظاهر ذلك فى دقة واستقصاء .

---

(١) صير الأمر : منتهاه وما يسير إليه .

٤

الشنفرى

نشأته وحياته :

هو ثابت بن أوس الأزدى ، ولقب بالشنفرى لعظم شفتيه ، وهو من عشـــيرة الإواس بن الحجر بن الهنوء بن الأزد اليمنية ، وقيل إنه لم ينشأ عنيا ، فقد وقع أسيرا وهو صبى فى بنى شبابة بن فهم ، فانتمى إليهم ، ولم يزل فيهم حتى أسر بنو سلامان ابن مفرج – من الأزد – رجلا من بنى شبابة ، افتدت بنو شبابة هذا الرجل بالشنفرى ، وكان فى بنى سلامان لا تحسبه إلا واحدا منهم ، حتى أساء إليه رجـل كان الشنفرى خطب إليه ابنته ، فثار عليهم ، ورجع إلى بنى فهم ، وواصل إغاراته على بنى سلامان حتى قتل منهم كثير .

وقيل إن سبب ثورته على بنى سلامان أنهم قتلوا أباه ، فقرر أن يثأر له منهم ، وما زال على ذلك الحال حتى قتـــل منهم تسعة وتسعين ، فرصدوا له كمينا وقع فيه فقتل ومثلوا به .

وكان يصاحبه فى كثير من غاراته تأبط شرا ، حتى قيل إنه هو الذى درب الشنفرى على الصعلكة وقطع الطريق ، وما زال إلى جواره حتى أصبح له شأنه فى ذلك الميدان(١)

وتكاد الروايات التى بين أيدينا تتفق فى عدم تحديد زمن ولادته وزمن وفاته ، بل الجيل الذى عاش فيه ، بيد أن هناك من الشواهد التاريخية ما يرجع أنه عاش فى الفترة القريبة من مجىء الإسلام فى العصر الجاهلى .

ويردد الباحث نظره فى منشأ الشنفرى فيجد أن المنشأ المكانى له كان فى المنطقة

---

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ٨٧ طبع الساسى ، وخزانة الأدب جـ ٢ ص ١٤ ، وذيل الأمالى ص ٢٠٨ وما بعدها ، وشرح المفضليات لابن الأنبارى ص ١٩٥ وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان جـ ١ ص ١٠٥ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

الجبلية الواقعة بين مكة والمدينة ، والمعروفة بجبال السراة . ويجد أن المنشأ الاجتماعى له كان بين قوم لايعترفون به واحدا منهم ، فكان مكانه منهم نابيا ؛ فهو منذ طفولته تضطره ظروفه ثم مجتمعه إلى أن يتقلب بين الحرمان والامتهان ، فأحس بمرارة الحياة ، وقسوة الذل منذ صباه .

وهكذا تتجمع المؤثرات التى تفرض على الشنفرى تفكيره وقيمه وسلوكه ، وتفرض عليه أسلوبه فى معالجة الأمور ، وأسلوبه فى التعبير عما يجيش بصدره ، وما يضغط على حسه وشعوره .

شعره :

واضح من حياة الشاعر ونشأته أنه صادف من ألوان القسوة وضروب الخشونة ما جعله يأوى إلى الجبال ، ويشذ على حياة الجماعة ، ويأنس إلى الصخر الأصم فرارا من صخر القلوب التى لفظته ، ويرتاح إلى القرب من وحوش الفلوات ؛ فهو ثورة عارمة على كل ما ورث وتعلم فى صباه ليس فى منهج الحياة فحسب، بل فى منهج التعبير .

من ثم يلاحظ الناظر فى شعره أنه أمام شعر ذى سمات وخصائص تختلف كثيرا عن شعر معاصريه .

فهو شعر بدوى خشن غليظ الطباع ، يستمد معانيه وخيالاته من طباعه وأخلاقه ومن بيئته الخشنة الموحشة التى آثر الحياة الحرة فيها على حيـــاة الذل والهوان فى مجتمع مستأنس .

وهو شعر فرد حر جرىء ، لا يهاب أحداً ، ولا يخضع لقانون جماعة ، ولا يلتزم إلا بما تمليه عليه حيـاته هو من قيود وعادات ، فهو فى ألفاظه ساذج لا يلجأ إلى التهذيب، ولا يضطر إلى الانتقاء ، وهو فى عباراته فطرى لا يتعمد التنسيق أو التزيين .

وهو شعر ثائر خارج على ما اعتاده الناس من تقاليد مأثورة ، وعادات متوارثة، فهو فى أسلوبه الشعرى متجاوز ما التزمه الآخرون من مطالع يبدأون بها قصائدهم ، أو أفكار ينتقلون بواسطتها إلى غرضهم الأصيل ... ولكنه بتأثير ثوريته وفطريته لا يجد مايدعوه إلى التمهيد والتقديم ، بل هو – فى الغالب – يواجهك بموضوعه صريحا فى غير مواربة ، واضحا فى غير تعمل أو تصنع .

ثم هو شعر صعلوك فاتك ، يقتل ويسلب ، فهو لا يفخر إلا بما يمارس ، ولا يعتز إلا بما تقوم عليه حياته ، فهو إن وصف حياته ، وما يتصل بجرائمه من غارات ومفاجآت وقتل وتشريد وتأييم نساء ، وتيتيم أطفال . وهو إن فخر ، فخر بقيمه وبما ارتضاه لنفسه من ألوان السلوك ؟ فهو يفخر بفقره وجوعه ، وحريته وإبائه وعزة نفسه ، وبما اضطرته إليه حياته من إهمال لنظافة جسمه حتى أصبح مشعث الشعر تعلق به الأوساخ وأبعار الإبل ،

وقد تناقلت كتب الأدب أشعارا متفرقة له فى الفخر والحماسة ، ومن أشهرها قصيدته اللامية المعروفة بلامية العرب ، وفى نسبتها إليه شك فقد نقل أبو على القالى عن ابن دريد أنها من صنع خلف الأحمر(١) ، وقد كلف بشرحها كثير من الدارسين العرب مثل المبرد ، وثعلب ، والزمخشرى ، والتبريزى ، والعكبرى ، وفيها يقدم صورة حية ترى فيها حياته البدوية الوحشية، تشعر أنك تصاحبه فى مغامراته ومفاجآته، وليست اللامية هى القصيدة الوحيدة التى تقدم هذه الصورة من بين شعره ، بل هكذا شعره كله ، مثال ذلك ما قاله فى تائيته الطويلة التى جاءت فى المفضليات يصف إحدى غاراته التى قام بها فى جمع من الصعاليك على سلامان :

وباضعة حمر القسى بعثتها ومن يغز يغنم مرة ويشمت(٢)
خرجنا من الوادى الذى بين مشعل وبين الجبا،هيهات أنشأت سربتى(٣)
أمشى على الأرض التى لن تضرنى لأنكى قوما ، أو أصادف حمتى(٤)
أمشى على أين الغزاة وبعدها يقربنى منها رواحى وغدوتى(٥)

---

(١) الأمالى ج ١ ص ١٥٧

(٢) الباضعة : القاطعة . ويريد بها رفاقه ، بعثتها : غزوت بها ، حمر القسى : يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس : يخفق .

(٣) أنشأت : أظهرت من مكان بعيد ، السربة بضم السين وسكون الراء : الجماعة.

(٤) أنكى العدو بفتح فسكون فكسر : أهزمه ، الحمة بضم الحاء : المنية .

(٥) الأين : التعب :

يشير فى مبتدأ حديثه إلى أنه كان يقود الجماعة ويعرفهم الطريق الذى سلكوه ، كما يشير إلى أنهم كانوا فى تلك الغارة راجليين . ولا يجد غضاضة فى أن يعترف بأن الغارة مرة له وأخرى عليه ، مهذا من المسلمات ، ولذلك فإخفاقهم فى غزوة لايعنى إحجامهم عن معاودتها ، بل إن ذلك يدعمهم إلى إعادة الغارة ، لتحقيق المراد ، دون أن يكون لمشقات الطريق ولا لتوقع الموت أثر ، ثم يصف بعض ألوان الحيـــاة التى تنتظم جماعتهم فى أثناء تحركهم للغارة فى صورة تـكشف عن ترابطهم الأسرى بحيث يقوم أحدهم وهو تأبط شرا بدور الأم فى البيت :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم ... إذا أطعمتهم أو تحت وأقلت(١)
تخاف علينا العيل إن هى أكثرت ... ونحن جياع ، أى آل تألت(٢)
مصعلـكة لايقصر الستر دونها ... ولا ترتجى للبيت إن لم تبيت(٣)
لها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً ... إذا آنست أولى العدى اقشعرت(٤)
وتأتى العدى بارزا نصف ساقها ... تجول كعير العانة المتلفت(٥)
إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ... ورامت بما فى جفرها ثم سلت(٦)
حسام كلون الملح صاف حديده ... جراز كأقطاع الغدير المنعت(٧)

---

(١) أم عيال : يقصد تأبط شرا ، أوتحت : قترت وأقلت .

(٢) العيـــل بالفتح : الفقر ، أى آل تألت : أى سياسة ساست ، من آله بمعنى : ساسه .

(٣) مصعلـكة بكسر اللام : صاحبة صعاليك . لايقصر الستر دونها: لايغطى أمرها.

(٤) الوفضة بفتح فسكون : الجعبة ، السحف بفتح السين والحاء : السهم عريض النصل ، العدى بفتح فكسر : العداءون ، وأولى العدى : طلائع الأعداء، اقشعرت : تهيأت للقتال .

(٥) بارزا نصف ساقها : كناية عن الجد فى الأمر ، عير العانة : حمار الوحش فى الأتن .

(٦) الجفر بفتح فسكون : الجعبة ، رامت بما فى الجعبة : أى بسهامها .

(٧) جراز بضم الجيم : قاطع ، أقطاع الغدير : الماء فيه .

تراها كأذناب الحسيل صـوادرا   وقد نهلت من الدماء وعلت(١)

يذكر أنهم فى أثنـاء مغامراتهم يخضعون لنظام قاس تفرضه ظروف معيشتهم ، فيصور مايقوم به تأبط شرا ــ الذى كنى عنه بأم العيال مداعبة ــ من توزيع الطعام بقدر خشية أن تطول بهم أيام الغـارة فينضب زادهم ، وينتقل من ذلك إلى توضيح حقيقة تلك الأم ، فيبين أنها ليست أما حقيقية تستتر وتبيت فى الخيام ، بل هى صاحبة صعاليك ، لها جمية سهام ــ تواجه بها المعتدين ــ فى جد وشدة .

ويواصل الشنفرى حديثه ، فيقفنا على مقصدهم من تلك الغارة ، وهو الثأر لأبيه من بنى سلامان :

جزينـا سلامان بن مفرج قرضها   بما قدمت أيديهـم وأزلت(٢)
وهنىء بى قـوم وما إن هنأتهـم   وأصبحت فى قوم وليسوا بمنبتى(٣)
شفينا بعبد الله بعض غليلنـــا   وعوف لدى المعدى أوان استهلت(٤)
إذا ما أتتــنى ميتتى لم أبالهـا   ولم تذر خالاتى الدموع وعمـتى
وإنى لحـلو إن أريدت حـلاوتى   ومر إذا نفس العزوف استمرت(٥)
أبى لمـا آبى سريع مبـــاءتى   إلى كل نفس تلتحى فى مسرتى(٦)

يفخر بأنه قام على رأس جماعته فثأر لأبيـه من بنى سلامان ، ورد لهم دينهم ، وذلك بقتل رجلين من أهم رجالهم هما عبد الله وعوف ، فشفى بعض غليله . ثم يوضح

---

(١) الحسيل جمع حسيلة : أولاد البقر ، النهل : الشرب الأول ، والعلل الشرب المكرر .
(٢) أزلت : قدمت .
(٣) يعنى أن قومى الأزد يهنئون بشجاعتى ، بينما أنا لا أهنئوهم لأنهم لاينتفعون بى ، فأنا أعيش بين قوم ليسوا أهلى ، إشارة إلى نزوله فى بنى فهم .
(٤) الغليل : العطش ، وهو هنا العطش إلى القتل ، المعدى : موضع العـدو ، ويريد به : ساحة المعركة ، أوان استهلت : فى وقت ابتدائها .
(٥) العزوف : المنصرف عن الشىء ، استمرت : من المرارة .
(٦) المباءة : الرجوع ، تلتحى فى مسرتى : تجد فى سرورى .

أنه لايهاب الموت ، ولا يشفق على من يبكيه من خاله أو عمه ، لأن أحدا من هؤلاء لن يبكيه ، وأنه ليس بفطرته محبا للقتل ، وإنما هو على حسب من يعاملونه ، يحلو لمن يريد حلاوته فلا يعتدى عليه ، ويمر إذا أهين أو مست كرامته ، لايقبل مايكره ، ولكنه سريع الرجوع إلى من يسعى بجد فى مسرته .

وهكذا سار الشنفرى فيما وصلنا من شعره يصور غاراته ، ويفخر بما ارتضاه الصعاليك من قيم ، وماتخلقوا به من خلال ، معبرا عن ثورة نفسه على مجتمعه ، مصورا مايمتاز به من صفات جسمية اكتسبها من نظام حياته ، وتطلبها ماارتبط به فيها .

٥

عروة بن الورد

نشأته وحيـــاته :

هو عروة بن الورد بن زيد العبسى ، لقب بعروة الصعاليك لجمعه إياهم ، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا مغزى . وقيل : بل لقب بذلك لقوله :

لحى الله صعلوكا إذا جن ليـله مصافى المشاش آلفا كل مجزر[1]
يعد الغنى من دهره كل ليـلة أصاب قراها من صديق ميسر[2]
ولله صعـلوك صفيحة وجهـه كضوء شهاب القابس المتنور[3]

كان لأبيه دور كبير فى نشوب الحرب بين عبس وفزارة (حرب داحس والغبراء) فهو الذى راهن حذيفة[4] أما أمه فـكانت من نهد من قضاعة ، وكانت عشيرة وضيعة ، لم تعرف بشرف ولا خطر ، فآذى ذلك عروة ، وأحس بأن عاراً يلحقه من قبلها ، فقال[5] :

وما بى من عار إخال علمتـــه سوى أن أخوالى -إذا نسبوا- نهد

ونبحث عن السر الذى دفع عروة إلى الصعلـكة ، فلا نعثر على مايشفى ، إذ نلاحظ أن أباه كان من أشراف قبيلته ، فهو لم يكن الصعلوك عن فقر واحتياج ، ولا كان عن شذوذ فى الخلق والسلوك ، ولا كان عن غربة من قبيلته يذم بها ويعاب . ولـكنه — على مايبدو — اتجه إلى الصعلـكة استجابة لثورة فى نفسه على مسلك بعض الأغنياء

---

(١) لحى الله فلانا : قبحه ولعنه ، المصافى بضم الميم : الملازم المؤالف المشاش بضم الميم وفتح الشين : كل عظم هش دسم .

(٢) يسر الرجل بفتح السين المضعفة : سهلت ولادة إبله وغنمه .

(٣) الأغانى ج ٣ ص ٧٣ . (٤) المرجع السابق ج ٣ ص ٨٨

(٥) الديوان ص ١٥٧ .

فى مجتمعه ، فاحترف الصعلكة باعتبارها وسيلة لغاية هى فى ذاتها أبرز مظاهر البطولة والفروسية ، فبها ينال من مال الغنى ما يلبى مطالبه ومطالب ذوى الحاجة ممن تقصر أيديهم عن الوصول إليها ، وكان يجمع الفقراء الصعاليك ويقوم بشأنهم ، يصحب القادر منهم فى غاراته ، ويؤوى الآخرين فى مأمن يعود إليهم فيه بنصيبهم من مغامراته(١) .

وهكذا قضى عروة حياته فى حماية الفقراء والمرضى والمستضعفين من غائلة الفقر وعناء الحاجة ، متخيرا فريسته — فى أغلب الأحيان — من بين من عرفوا بالشح والبخل والقسوة ؛ فالصعلكة فى رأيه وسيلة من وسائل التكافل الاجتماعى ، يأخذ بواسطتها ممن لا يفكر إلا فى نفسه حقوق الضعفاء والمحتاجين ، وبهذا فارق غيره من الصعاليك .

شعره :

يتضح من شعر عروة مذهبه فى صعلكته ؛ فهو دائم الترديد لمبادئه ، حريص على الإشارة إلى غايته من غاراته ، حتى نال إعجاب من جاءوا بعده ، كما نال إعجاب معاصريه ؛ فسمعنا معاوية(٢) : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم ، وسمعنا عبد الملك بن مروان يقول : ما يسرنى أن أحدا من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة بن الورد لقوله

إنى امرؤ عافى إنائى شركة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد(٣)
أتهزأ منى إن سمنت وأن ترى ... بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد(٤)

فهو إنسان كريم يؤثر على نفسه ، ويشرك معه غيره فى طعامه بل قد يكتفى بشرب الماء الخالص ، مؤثرا غيره بكل طعامه حتى أصبح كمن يفرق جسمه على أجسام الآخرين

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ٧٨ وما بعدها .
(٢) الأغانى ج ٣ ص ٧٣ ، ٧٤ والشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٧٥
(٣) العافى : طالب المعروف، وأنت امرؤ عافى إنائك واحد كناية عن أ كله وحده.
(٤) أحسو : أشرب شيئا بعد شىء ، القراح بفتح القاف : الخالص الذى لا يخالطه لبن ولا غيره .

ومن جيد شعره رائيته التي رواها له الأصمعي[1] ، يحكي فيها مادار بينه وبين امرأته سلمى ، ليصور في أثناء ذلك همته ونبل خلقه :

تقول : لك الويلات هل أنت تارك ضبوءا برجل تارة وبمنسر[2]

يقول إن سلمى تستحثني على ترك الصعلكة والكف عن الغارات ، وتملن عن ضيقها باستمراري في ذلك ، وخوفها من أن ألقى حتفي في إحدى تلك الغارات . فأجيبها بقولي .

أبى الخفض من يغشاك من ذى قرابة ومن كل سوداء المعاصم تعترى[3]
ومستهنىء ، زيد أبوه ، فلا أرى له مدفعا ، فاقنى حياءك واصبرى[4]

إن زوجك لا يرضى بلين العيش والدعة لشعوره بأن عليه لأقربائه المحتاجين واجبات لابد له من أدائها لهم ، فالزمى حياءك واصبرى على ما أحمل ، لأنى لا أعزو إلا وفاء بحقوق هؤلاء ، فأنا لست من هؤلاء الصعاليك الذين لا يهمهم من مجتمعهم أحد ، ممهدا بذلك لتقديم صورتين لنموذجين مختلفين من الصعاليك .

أولهما ضعيف الهمة ، يرضى بالدون ، خامل ذليل ، يعيش عالة على الآخرين .

لحى الله صعلوكا إذا جن ليله مصافى المشاش آلفا كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح قاعدا يحث الحصا عن جنبه المتعفر[5]
يعين نساء الحى ما يستعنه ويمسى طليحا كالبعير المحسر[6]

---

(١) الأصمعيات ص ٣٥ طبع دار المعارف .

(٢) الضبوء بضم الضاد . الغزو ، والرجل بفتح الراء جمع راجل . ضد الراكب ، المنسر كمجلس ومنبر . الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٣) الخفض . الدعة ولين العيش ، سوداء المعاصم يريد به التى أجهدها الجوع والهزال ، تعترى . تغشى .

(٤) مستهنىء . طالب الهنء وهو العطاء ، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه ، اقنى حياءك . الزميه . (٥) يحث . يحرك .

(٦) الطليح . المعيى ، ومثله المحسر بضم الميم وفتح الحاء

والصورة الثانية ترينا الصعلوك الشريف الذى يعجب به عروة ، أعماله مجيدة ، يظفر من أعدائه بكل مايريد ، على الرغم من صياحهم به ، وبعدهم عنه .. ومثل هذا الصعلوك محمود الذكرى ، جدير بأن يشجعه الآخرون ويثنوا عليه :

ولله صعلوك صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر(١)
وإن بعدوا لايأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المتنظر(٢)
فذلك إن يلق المنية يلقها حميدا ، وإن يستغن يوما فأجدر

ثم يقرر أنه من الصنف الثانى ، فهو لايقبل أن يرى عشيرتى معتم وزيد تهلك ولا يخاطر من أجلهما ، لذلك هو يقتحم مع بعض رفاقه حمى بعض القبائل ليسوقوا منها مايقومون به على حاجة الأضياف والمحتاجين :

أيهلك معتم وزيد ولم أقم على ندب يوما ولى نفس مخطر(٣)
ستفزع بعد اليأس من لايخافنا كوانع فى أخرى السوام المنفر(٤)
يطاعن عنها أول القوم بالقنا وبيض خفاف ذات لون مشهر
ويوما على غارات نجد وأهله ويوما بأرض ذات شث وعرعر(٥)
يريح على الليل أضياف ماجد كريم ومالى سارحا مال مقتر(٦)

وصفوة القول كان عروة صعلوكا شريفا، جعل من الصعلكة سبيلا للسيادة والمروءة .

---

(١) المطل : المشرف ، يزجرونه . يصيحون به ، المنيح بفتح الميم ، قدح سريع الخروج ولا نصيب له المشهر : المشهور .

(٢) التشوف : التطلع ، المتنظر بفتح الظاء : المنتظر قدومه .

(٣) معتم وزيد : بطنان من بطون عبس الندب : بفتح النون والدال: الخطر.

(٤) الكوانع : الخيول تطرد الإبل وتكسعها ، السوام : الإبل السائمة ، المنفر بفتح الفاء : المذعور .

(٥) الشث بفتح الشين ، والعرعر بفتح العينين : من أشجار البادية .

(٦) يريح . يرد ، ويكنى بالماجد الكريم عن نفسه ، السارح : السائم فى المرعى ، المقتر : الفقير المقل .

ومظهرا من مظاهر الفروسية ، حقق بها ما كان يصبو إليـــه من ارتفاع بمستوى الفقراء ، وما كان ينطوى عليه من إيثار للأهل والعشيرة ، وما كان ينزع إليه من حياة إجتماعية تقوم على التـكافل والتعاون . ولقد استطاع عروة أن يقرر كل ذلك فى شعره ، إذ كان وسيلته التى يصور فيها مبادئه ومغامراته . بحيث تـكاد لاتعثر فى شعره على غير ذلك من فنون الشعر . كما كان صريحا فى الـكشف عن مكنون نفسه ، واضحا فى عرض أفـكاره ، دون التواء أو إبهام ؛ فشعره نموذج للأدب الإنسانى فى قيمه وأخلاقياته ، وفى منهجه فى عرض أفـكاره ، وبناء صوره ، وتركيب عباراته ؛ فشعره مرآة صافية تعكس صورة نفسه وأسلوب حياته .

الفصل الثانى

فنون الشعر البدوى

الناظر فى الشعر البدوى يلاحظ أن الشعراء استجابوا فيه لمتطلبات البادية وأخلاقياتها، بحيث لا تجد خروجها من الشاعر على وسطه الذى يخاطبه، أو يستجيب لمؤثراته؛ فهو ملتصق تماما بمن يردد شعره على آذانهم، حريص كل الحرص على أن يكون متلائما مع ما يرضيهم.

والناظر فى متطلبات البادية وأخلاقياتها يلاحظ أن ظروف الحياة فى العصر الجاهلى فرضت عليها أن تعيش فى جو حربى شبه دائم، فالقبيلة لا تخرج من حرب إلا لتقع فى أخرى، إن لم يكن لدفع عدو فهى لفرض سلطان، أو انتقاما من معتد إلى غير ذلك من الأسباب التى كانت وراء اتصال الحرب بين ساكنى البادية فى تلك الفترة؛ فالحرب وما يتصل بها هى الشغل الشاغل للبدوى، حتى فى وقت السلم — على ضيقه — هو فى استعداد وتأهب، يقتنص السيف الماضى، ويسعى للحصول على الرمح القوى، ويعتز بالجواد المدرب. فإذا خرج من ذلك الإطار لم يجد إلا قيم قبيلته وأعرافها فأخذ يدور حولها، يستعرضها ويفخر بها، ويصف أبعادها. وأقصى ما يخرج به شاعر البادية عن جو الحرب أن يصطفى امرأة يميل إليها ليجعل منها مثالا يتعبد فى محرابه، ويدور فى فلكه، فهى سماء يتطلع إليها. وهى طهر يحمية من أى دنس يمسه، وهى رمز يندفع بسره إلى الموت غير مبال ولا هياب وإذا غابت عنه أو ارتحلت استوقف الذوق أمام ديارها ليمتع النفس بالحياة فى كنف منازلها تعويضا لما أصابها من فراقها.

ولقد نظر الأقدمون فى الشعر العربى للتعرف على فنونه وموضوعاته وتصنيفها ووضع كل منها تحت العنوان الذى يناسبه فاختلفوا اختلافا كبيرا لاختلاف المنهج.

فأبو تمام — مثلا — يقدم الشعر العربى من خلال عشرة موضوعات هى الحماسة، والمراثى، والأدب، والنسيب، والهجاء، والأضياف ومعهم المديح، والصفات، والسير والنعاس، والملح، ومذمة النساء.

وصاحب البرهان يقدمه فى أصناف أربعة هى : المديح ، والهجاء ، والحكمة ، واللهو ، ثم يفرع عن كل صنف منها فنونا(١) .

أما صاحب العمدة فينقل عن بعض العلماء أن أركان الشعر أربعة هى : المدح والهجاء والنسيب والرثاء(٢) . وجعل أبو هلال العسكرى أبرزها ستة هى المدح ، والهجاء ، والوصف ، والنسيب والمراثى ، والفخر(٣) .

بيد أن الناظر فى مظاهر ذلك الاختلاف يدرك أنه اختلاف شكلى يرجع إلى الإجمال والتفصيل ، وليس مرجعه إلى إنكار غرض نسب إليهم ، أو إضافة غرض ليس لهم . حتى إن باستطاعتنا أن نرجع كل هذه الفنون إلى غرضين اثنين هما : المديح والهجاء ، على عد الحماسة والنسيب والمراثى وبعض الوصف وبعض الاعتذار مديحا ، وعد بعض الوصف وبعض الاعتذار هجاء لكن إذا كان التفصيل المبسوط غير مقبول لما فيه من التصنيع والتزيد ، فإن الإجمال كذلك غير مقبول لما فيه من الإخلال بصورة الشعر ، والطريق الأمثل فيما أرى هو أن نراعى فى التقسيم مبعث الشعر ومسار الشاعر فيه وغايته التى يريد أن يصل إليها من تعبيره . ومن هذا المنطلق وبالنظر فيما أتيح لى من الشعر البدوى أستطيع أن أقرر أن فنون الشعر البدوى فى العصر الجاهلى هى الفخر . والهجاء ، والمدح ، والرثاء ، والغزل ، والوصف وذلك لأن باعث الشاعر البدوى إلى قول الشعر لا يكاد يخرج عن هذه الفنون الستة ؛ حيث ينطلق لسانه مادحا قومه ونفسه مفتخرا بما فيهم من شمائل وصفات وما لهم من مكانة وعزة بين غيرهم من قبائل البادية ، والشاعر فى أثناء ذلك يحمس فرسان قومه ويحثهم على الانتفاض فى وجه عدو أو لنجدة مظلوم ، أو للثأر من معتد . أو هاجيا خصما بتعداد مثالبه وعيوبه ، أو باكيا عزيزا مات أو قتل ، أو باسطا القول فى امرأة نشأت بينه وبينها روابط عاطفية ، أو مقبلا على ما يلفت النظر ويجتذب الانتباه بالوصف . والشاعر البدوى فى تناول كل من أسلوبه الذى يتناسب مع وسطه الفنى ، ويحقق له التلاؤم الفنى ، على اختلاف بين الشعراء فى ذلك .

---

(١) البرهان فى وجوه البيان لابن وهب الكاتب ص ١٣٥ تحقيق الدكتور حفنى شرف

(٢) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٠ بتحقيق الشيخ محمد محى الدين .

(٣) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ١٣٧ بتحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

(١)

الفخر :

الفخر تعداد مايشتمل عليه الإنسان من الفضائل والمحامد ، والتباهى بتميزه بين أفراد قبيلته أو مجتمعه بذلك . وميدان الفخر أمام الشاعر أرحب ، وخوض الشاعر فيه أيسر ؛ إذ هو فيه متتبع للصفات التى يعجب بها معاصروه ليفخر باتصافه بها أو اتصاف قومه ، مستقص للشمائل التى يحتفل بها مجتمعه ليفخر باشتماله عليها أو باشتمال قومه :

من ثم كان الفخر مرآة تنعكس على صفحتها قيم الشاعر ، ومجتمعه ، وأبرز الصفات السائدة ، والفضائل التى يسعى القوم إلى كسبها والمحامد التى يودون الاتصاف بها .

فإذا نظرنا فى شعر الفخر البدوى ، وجدنا من أبرز الصفات التى يحرص كل شاعر بدوى على الفخر باتصافه بها هو وقبيلته :

١ — الفروسية وما يتصل بها من إقدام وشجاعة وقوة وتمكن من الأساليب الحربية ؛ وذلك لأن ظروف الحياة فى البادية فرضت على ساكنيها لونا من الصراع الدائم مع الوحش ، ومع الطبيعة ، ومع الإنسان ، فهو لا يخرج من معركة إلا ليدخل فى أخرى .

ولا ريب فى أن الصفة المثلى التى تسود مثل هذه البيئة هى الصفة التى يعكسها هذا اللون من الحياة !

ولا ريب فى أن كل فرد فى هذه البيئة متعلق منذ الطفولة بكل صفة تتطلبها تلك الصراعات والحروب ، والتى تجتمع فى صفة الفروسية والإقدام .

فهذا عمرو بن كلثوم يفخر بشجاعة قومه — فى قصيدته المعلقة — ويمجد فرسان قبيلته ، فيصف ما يحدثه هؤلاء الفرسان الأبطال فى خصومهم من دمار وهلاك ، ويقرر أن مثل هذا ليس بغريب على قوم مدربين على الحرب أحسن تدريب ، حياتهم سلسلة من الحروب لا تتوقف ، وأسلحتهم من أجود الأسلحة .

وفى سبيله إلى ذلك يذكر الشاعر لنا أحداث معركة وقعت بين قومه وبين خصومهم

فى قالب قصصى يكشف فيه عن شجاعتهم فى مواجهة خصمهم العنيد المدجج بالسلاح، مثل قوله فيها :

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدر هن حمرا قد روينا
وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا
وسيد معشر قد توجوه ... بتاج الملك يحمى المحجرينا(١)
تركنا الخيل عاكفة عليه ... مقلدة أعنتها صفونا(٢)

* * *

متى ننقل إلى قوم رحانا ... يكونوا فى اللقاء لها طحينا(٣)
يكون ثفالها شرقى نجد ... ولهوتها قضاعة أجمعينا(٤)
نزلتم منزل الأضياف منا ... فأعجلنا القرى أن تشتمونا
قريناكم فعجلنا قراكم ... قبيل الصبح مرداة طحونا(٥)
نعم أناسنا ونعف عنهم ... ونحمل عنهم ما حملونا
نطاعن ما تراخى الناس عنا ... ونضرب بالسيوف إذا غشينا
بسمر من قنا الخطى لدن ... ذوابل أو ببيض يختلينا
كأن جماجم الأبطال فيها ... وسوق بالأماعز يرتمينا(٦)
نشق بها رؤوس القوم شقا ... ونختلب الرقاب فتختلينا(٧)

---

(١) المحجر — بضم الميم وفتح الجيم — الملجأ ، يقال : أحجرته إذا ألجأته .
(٢) العكوف : الإقامة ، والصفون جمع صافن : الفرس إذا قام على ثلاث قوائم وثنى سنبكه الرابع .
(٣) الرحى : أراد بها الحرب .
(٤) الثفال : خرقة تبسط تحت الرحى ليقع عليها الدقيق ، اللهوة : القبضة من الحب تلقى فى فم الرحى .
(٥) المرادة — بكسر الميم — الصخرة التى يكسر بها الصخور .
(٦) الوسوق جمع وسق : حمل البعير، والأماعز جمع أمعز : المكان كثير الحجارة
(٧) نختلب : نقطع بالمخلب .

وإن الضغن بعد الضغن يبدو عليك ويخرج الداء الدفينا
كأن سيوفنا منا وفيهم مخاريق بأيدى لاعبينا
كأن ثيابنا منا ومنهم خضبن بأرجوان أو طلينا

والناظر فى هذه الأبيات يلاحظ أن الشاعر فيها يعتمد فى عرض مفاخره ومفاخر قومه على الأسلوب الوصفى والأسلوب القصصى ، فهى قصة وصفية ، يميل الشاعر فى تقديم أحداثها إلى الإيجاز النسى القائم على الإيحاءات والاستدعاءات ، والتذكير بالماضى المشهور ، فيكفى أن يومىء إلى أحداث الماضى فى قوله : (وأيام لنا غر طوال .. الخ) ليستحضر المخاطب أحداث تلك الأيام ووقائعها ، ويقف على ما كان فيها من فرسان قوم الشاعر .

* * *

وهذا دريد بن الصمة يعلن فى قصيدته البائية بصوت جهورى أنه ثأر لأخيه عبد الله ، فانزاح الكابوس الذى طالما كتم أنفاسه ، ولكنه لم يسترح تماما ، فما زال فى نفسه أشياء لا يشفيها إلا مواصلة الانتقام .

فالشاعر يذكر أنه وجمع من قبيلته ظفروا بأعدائه من فزارة ، فأعملوا فيهم السيف من كل جهة ، وبكل كيفية ، حتى ثأر لأخيه عبد الله بقتل أفضل رجل يقاربه فى السن ، وأوقعوا بخصومهم جميعا ، حتى أشبعوا الوحوش الجائعة من جثثهم ، ولا يكتفى بما صنع ، بل يواصل بعد ذلك تهديده ويعلن أن سوف يعيد الكرة عليهم متى سنحت الفرصة ، وذلك فى قوله :

ويا راكبا إما عرضت فبلغن أبا غالب أن ثأرنا بغالب(١)
قتلت بعبد الله خير لداته ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب(٢)
فاليوم سميتم فزارة فاصبروا لوقع القنا تنزون نزو الجنادب(٣)

---

(١) عرضت : أتيت العروض ، يريد مكة والمدينة وما حولهما .
(٢) اللدات جمع لدة : من ولد معك فى وقت واحد .
(٣) النزو : الوثب . والجنادب جمع جندب : ضرب صغير من الجراد

تكر عليهم رجالى وفوارسى ... وأكره فيهم صعدتى غير ناكب(١)
فإن تدبروا يأخذكم فى ظهوركم ... وإن تقبلوا يأخذكم فى الترائب
وإن تسهلوا للخيل تسهل عليكم ... بطعن كإيزاغ المخاض الضوارب(٢)
ومرة قد اخرجنهم فتركنهم ... يروغون بالصلعاء روغ الثعالب(٣)
وأشجع قد أدركنهم فتركنهم ... يخافون خطف الطير من كل جانب
وثعلبة الحنق تركنا شريدهم ... تمـلة لاه فى البلاد ولاعب
عليت قبورا بالمخاضة أخبرت ... نتخبر عنا الخضر خضر محارب(٤)
رد سناهم بالخيل حتى تملأت ... عوافى الضباع والذئاب السواغب(٥)
خزيى أطوف فى البلاد لعانى ... الاقى بإثر ثلة من محارب

* * *

ومثل قول عنترة مفتخرا بنفسه ، ممتزا بقوته وجرأته وشجاعته ؛ مقررا أنه من أفضل قبايته ، وكأنه يرد بذلك احتقارهم إياه لسواد لونه :

إنى امرؤ من خير عبس منصبا ... شطرى ، وأحمى سائرى بالمنصل(٦)
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ... الفيت خيرا من معم محول(٧)
والخيل تعلم والفوارس أننى ... فرقت جمعهم بضربة فيصل(٨)

---

(١) الرجلة جمع راجل : المشاة ، والصعدة: القناة ، وغير ناكب : غير عادل عنهم.
(٢) أسهل : نزل السهل من الأرض ، والمخاض :الحوامل من النوق، والضوارب: اللواقح ، وإيزاغها : أن ترمى ببولها ، شبه رشاش الدم من الطعنة برشاش بولها .
(٣) يرغون : يذهبون هنا وهناك ، والصلماء : مكان معركة مع مرة .
(٤) المخاضة : موضع من ديار ذبيان ، وخضر محارب ــ بضم الخاء وسكون الضاد قبيلة .
(٥) رد سناهم : رميناهم ، والضباع العوافى : الجوائع ، وكذلك الذئاب السواغب.
(٦) المنصب ــ بكسر الصاد ــ الأصل ، والمنصل ــ بضم فسكون فضم ــ السيف .
(٧) الكتيبة: الجماعة إذا اجتمعت ولم تنتشر، وتلاحظت: نظرت من يتقدم على العدو.
(٨) الفيصل : الذى يفصل بين الناس .

وكثيرا ماتحولوا بشعرهم الفخرى يخصصوه لوصف آلات الحرب ، من رماح وسيوف وجياد ، على نحو ماصنع أوس بن حجر فى لاميته المشهورة ، وسوف نعرض لذلك فى دراستنا لفن الوصف إن شاء الله تعالى .

* * *

٢ — الكرم ، وعفة النفس ، والنجدة ، وفى الغالب يجمعون هذه الصفات أو بعضها إلى الفروسية ، حيث لايفرقون بين الفخر بالفروسية وهذه الشمائل ؛ إذ كل هذه الشمائل فى تصورهم مظاهر للفروسية لاتنفصل عنها .

والشاعر البدوى كما يخص نفسه بفخر بهذه الصفات ، يفخر باتصاف قومه جميعا بها ، فهو لايقطع نفسه من قبيلته ، وإذا فخر بنفسه فهو إنما يفخر بفرد من قبيلة ، وإذا فخر بقبيلته فهو إنما يفخر بأصل نبت هو منه . ولم يشذ من ذلك سوى عنترة فى الفترة التى أنكر نسبته فيها قومه وأبوه ، فقد ركز فيها فخره بنفسه فروسية وعفة نفس وسخاء ونجدة إلى غير ذلك . كما فى قوله يخاطب ابنة عمه مالك ، معددا مفاخره ، مباهيا بما اتسم به من شجاعة وعفة نفس ، وذلك قوله :

هلا سألت الخيل يابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقائع أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم(١)
يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر فى لبان الأدهم(٢)
مازلت أرميهم بغرة وجهه ... ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلى بعبرة وتحمحم(٣)
لو كان يدرى ماالمحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس: ويك عنتر أقدم(٤)

---

(١) يتذامرون : يحض بعضهم بعضا على القتال .

(٢) الأشطان جمع شطن — بفتحتين — حبل البئر شبه الرمح به لطوله، واللبان — بفتح اللام — الصدر ، والأدهم : الفرس الأسود .

(٣) ازور : مال ، والتحمحم : الصوت المقطع دون الصهيل

(٤) ويل : كلمة يقولها المتندم إذا ندم على مافرط منه ، ولكثرة استعمالها ألحقت بها الكاف . وقيل : (وى) بمعنى أعجب أو عجبا لك ياعنترة .

ويلاحظ أن الشاعر فى تصوير فروسيته هنا دقيق الحس ، يقظ الشاعر ، متمكن من مادته الشعرية ؛ إذ يستخدم من أساليب التصوير مايضمن للصورة الحياة والصدق، ويحقق لها السطوة والقدرة على جذب الأنظار ؛ فقد استخدم فيها الحركة المختلفة على حسب الأشخاص الصادرة عنهم ، وأرانا قوة أعدائه فى رماحهم الطويلة التى بلغت صدر فرسه . ثم أرانا كذلك مواجهته لأعـدائه وقسوته على حصانه الذى تتبعهم به حتى اكتسى بالدم ، ومال بعنقه من شدة ما أصابه، واتجه إليه شاكيا مايعانى بصوت الحال. وماهدأت نفسه وارتاحت إلا حين سمع الفوارس يعلنون — فى عجب ودهشة — عن إقدامه وحسن بلائه .

فإذا كان عنترة يعدد مفاخره الشخصية على هذا النحو — لظروفه الخاصة — فإن عمرو بن الإطنابة يفخر بقومه ومايقومون عليه من أخـلاق ، وما يعترون به من شمائل ، حيث يتجهون وجهة إنسانية فى سلوكهم ، وذلك قوله :

إنى من القوم الذين إذا انتدوا   بدأوا بحق الله ثم النائل(١)

المانعين من الخنا جاراتهم   والحاشدين على طعام النازل(٢)

والخالطين فقيرهم بغنيهم   والباذلين عطاءهم للسائل

والقاتلين لدى الوغى أقرانهم   إن المنية من وراء الوائل(٣)

وعلى هذا النحو يسير ربيعة بن مقروم فى ميميته التى يتغنى فيها بصفاته وصفات قومه من كرم ، وإباء ، وفروسية ، ووفاء ونجدة ، كما فى قوله(٤) :

وإن تسأليني فإنى امرؤ   أهين اللئيم وأحبو الكريما

وأبنى المعالى بالمكرمات   وأرضى الخليل وأروى النديما

---

(١) انتدى القوم : جلسوا فى النادى ، والنائل : كثرة العطية ، يريد أنهم يؤدون الواجب ثم النفل .

(٢) الخنا : الفحش من الكلام، يعنى أنهم يحفظون جاراتهم ويقومون بحق الضيف.

(٣) وأل : لجأ ورجع ، يريد الفار من الحرب ، يعنى إن الفرار من الحرب لاينجى من الموت .

(٤) المفضليات ص ١٨٢ .

ويحمد بذلى له معتف ... إذا ذم من يعتفيه اللئيما(١)
وأجزى القروض وفاء بها ... ببؤسى بئيسى ونعمى نعيما(٢)
وقومى وإن أنت كذبتنى ... بقــولى فاسأل بقومى عليما
يهينون فى الحق أموالهم ... إذا اللزبات انتحين المسيما(٣)
طوال الرماح غداة الصباح ... ذوو نجدة يمنعون الحريما

وكذلك سار الحارث بن حلزة فى جيميته التى ذكرنا جزءاً منها فى ترجمته .

وصفوة القول أن الشعراء البدويين فى العصر الجاهلى عكسوا لنا صورة مجتمعهم البدوى فى أخلاقياته التى يعتز بها ويتغنى باتصافهم بها وقيامهم عليها ، دون تكلف أو مغالاة ، ودون تحرج أو تردد ؛ إذ الفخر فى البيئة البدوية كان أسلوبا من أساليب الحياة التى تقررت فى ذلك العصر ، أو أصبحت عرفا سائدا يمثل أعاط الحياة لديهم .

(١) المعتفى : السائل فى غير طلب .

(٢) البؤسى والبئيسى بمعنى واحــد ، يقول إنه يجزى بالسيئة مثلها ، وكذلك الحسنة والنعمى .

(٣) اللزبات : الشدائد ، وانتحين : قصدن ، والمسيم : الكثير الإبل والغنم .

(٢)

الهجاء :

الهجاء مصدر هجا يهجو : يعنى السب وتعديد المعايب ، واستلال المفاخر ، فهو على النقيض من الفخر والمدح ، وكل هذه الفنون تضرب بعمق فى النفس البشرية ، وترجع إلى الصفات الطبيعية فيها ؛ إذ هى استجابة لعاطفتى الرضا والسخط لدى الإنسان الفطرى ومن ثم كان فن الهجاء واحدا من فنون الشعر العربى البدوى فى العصر الجاهلى.

والناظر فيما أثر من شعر البدويين فى هذا الفن يلاحظ أنهم كانوا يعتمدون على سلب الفضائل البدوية ، والرمى بالنقائص البدوية ، والرمى بالنقائص المتعارف عليها بين أهل البادية من الجبن والبخل والتقاعس عن نجدة اللائذ ، والامتناع عن حماية الضعيف ، والتعدى على المحارم ، والتعرض للنساء .. إلى غير ذلك مما يأنف منه البدوى ، وتأباه الفطرة الساذجة .

لقد كان الهجاء سلاحا يضارع أسلحة الحرب الأخرى مضاء وقوة ، وكانت القبائل فى البادية تحرص على أن توفر لنفسها منه ماتذود به عن محارمها وأبنائها كما تحرص على أن توفر من أسلحة الحرب التقليدية مايمكنها من الدفاع عن محارمها وأبنائها . يوضح ذلك عبد قيس بن خفاف البرجمى فى أبياته التى يفخر فيها بأسلحته التى أعدها لمواجهة الخصوم والأعداء ، من لسان ماض ، ورمح طويل القناة ، ودروع سابغة جيدة تحمى من ضرب السيوف[1] :

وأصبحت أعددت للنائبات ... عرضاً بريئاً وعضباصقيلا[2]

ووقع لسان كحد السنان ... ورمحا طويل القناة عسولا[3]

وسابغة من جياد الدرو ... ع تسمع للسيف فيها صليلا

---

(١) المفضليات ص ٣٨٦ .

(٢) العضب : السيف القاطع ، والصقيل : المصقول الحاد .

(٣) العسول : اللين المعمى .

كأء الغـــدير زفتـــه الدبور يجر المدجج منها فضولا(١)

وكانوا يتوعدون خصومهم بالهجاء فى ميادين القـول كما يتوعدونه بالضراب فى ميادين الحرب ، وكانت ميادين القول عندهم تتمثل فى الأسواق وغيرها من أماكن الاجماع التى يلتقى فيها القوم ، وإلى ذلك أشار راشد بن شهاب اليشكرى فى قوله لقيس ابن مسعود الشيبانى(٢) :

ولا توعدنى إننى إن تلاقـنى معى مشرفى فى مضـاربة تغضم(٣)
وذم يغشى المرء خزيا ورهطـه لدى السرحة المشاء فى ظلها الأدم(٤)

كما يلاحظ أن شعراء البادية فى هذا العصر لم يكونوا يعالجون هـذا الفن إلا فى معرض الفخر بالفروسية ، حيث يتناولون خصومهم بالطعن والذم ، كأنهم يعقدون موازنة بين سما ما يتغنون به من شمائل ، وماعليه هؤلاء الخصوم من ضعة وحقارة وخسة .

ونظرة فيما قدمنا من شعر عمرو بن كلثوم ، ودريد بن الصمة فى الفخر بالفروسية تكشف طائفة من الصفات الهجائية التى يحرص الشاعر على أن يلصقها بعدوه أو ينعته بها .

ويقرر ذلك قصيدة ربيعة بن مقروم التى يتغنى فيها بأمجاد قبيلته وما صنعوه فى أيام بزاخة والنسار وطخفة والكلاب وذات السليم ، وفيها يقول :

وكذلك بشر بن أبى حازم الأسدى فى قصائده التى يتحدث فيها عن حروب قومه مع بنى عامر فى يوم النسار ، ومعهم ومع أحلافهم من تميم فى يوم الجفار ، والتى يتغنى فيها بانتصارات قومه على كثير من القبائل مثل جرم ، والرباب ، وجدام ، وبنى سليم ، وبنى كلاب ، وبنى أشجع ، ومرة بن ذبيان . مثل قوله :

---

(١) زفته — بفتحتين — حركته ، والدبور : ريح غربية تقابل الصبا ، والمدجج : تام السلاح ، ويجر منها فضولا : كناية عن أن هذه الدروع سابغـة تغطى الفارس وتفضل عن أطرافه .

(٢) المفضليات ص ٣٠٨ .

(٣) المشرفى : السيف ، والقضم — بالتحريك — الفلول من كثرة الطعن مصدر قضمى السن تقضم بفتح الضاد .

(٤) السرحة : الشجرة ، وهو يشير بذلك إلى شجرة عظيمة كانت بعكاظ والمشاء الخفيفة يبحث عن معنى المشاء يناسب المقام غير الخفيفة .

على أن من هؤلاء البدو من كان يسخطه موقف قومه منه في بعض الأحداث أو في بعض الأحيان ، فينبرى في حدة البدوى هاجيا قومه ، كما فعل قريط بن أنيف العنبرى حين لم ينهض قومه لنجدته ومعاونته في استنقاذ إبله من أيدى الشيبانيين ، حيث عرض بمدح أعداء قومه وهم بنو مازن ، فقال إنه لو كان من بنى مازن هؤلاء لحاهم هؤلاء الشيبانيون ولما استباحوا إبلى ، وإلا لقام فرسانهم الأشداء الأقوياء بمعاونتى في استرداد مالى ، دون أن يطلبوا منى برهانا على ما أقول كما طلب قومى منى :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصرى معشر خشن ... عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا
لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ... ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهم قوما إذا ركبوا ... شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

وكأنه بذلك يضغط على قومه حتى ينهضوا لنجدته ومعاونته ، أو يحاسبهم على ما كان منهم .

فالهجاء — كما نرى — يكاد لا ينفك عن الفخر والحماسة فى شعر البدو الجاهليين ، والشاعر فيه يعتمد على مقومات قريبة من مقومات الفخر — التى سبق الإشارة إليها — ومقومات المدح التى سانتعرف عليها عند الحديث عن فن المدح .

المدح :

برز من فنون الشعر البدوى فى العصر الجاهلى ـ على تحفظ ـ فن المدح . والمدح إبراز فضائل إنسان آخر ، وتعداد مناقبه ومحامده .

وإنما قلت إن هذا الفن برز فى الشعر البدوى على تحفظ ؛ لأن البدوى بطبيعته الفطرية خاضع لشعور بالعزة والأنفة يجعله دائما يتأبى على الخضوع للغير ، ويرفض الاعتراف بالقصور أو النقص ؛ فهو دائما يرى نفسه فى المكان الأرفع . من ثم كان من الصعب عليه أن يتحول من تلك الطبيعة إلى إنسان يقر لغيره بالسبق إلى المكرمات ، بله الإفصاح عنها فى شعره ، وإخلاص النفس لتعدادها والتغنى بها .

من ثم حرص البدوى فى هذا الفن أن يلائم بين هاتين الوجهتين المتقابلتين ـ الرغبة فى ذكر ما ألفته من الفضائل فى مسلك الآخرين ، والرغبة فى الحفاظ على الأنفة والعظمة الشخصية ـ فلم يتجه بمدائحه لشخص مفرد ، ولكنه كاد يقصر مدحه على الجماعات من قبائل وعشائر ـ التى اشتهرت بمحمدة من المحامد من خصال كريمة ، وأخلاق رفيعة ، وقيم سامية ، ومبادىء عظيمة كالكرم والشجاعة والعزة والأنفة أو التى قامت بعمل تحمد عليه من رعاية للجار ، أو نجدة لمستغيث ، أو حماية لمظلوم ، على نحو ما قاله ابن دارة ـ أحد بنى عبد الله بن غطفان ـ فى مدح طىء[1] :

جزى الله خيرا طيئا من عشيرة ... ومن ناصر تلقى بهم كل مجمع
هم خلطونى بالنفوس ودافعوا ... ورائى بركن ذى مناكب مدفع
وقالوا : تعلم أن مالك إن يصب ... نفدك ، وإن تحبس نزرك ونشفع

فإذا اضطر إلى مدح فرد فلأنه أحد السادة الذين يقومون على مثل تلك القبيلة العظيمة ، ويرعون شئونها ، ويحافظون على أخلاقياتها ؛ فهو يمدح القبيلة ممثلة فى هذا السيد الذى مارس السلوك الخلقى الحميد ، أو هو يمدح إنسانا قدم ما يمدح عليه من

---

(١) الوحشيات لأبى تمام ص ٢٤٩ بتحقيق عبد العزيز الميمنى .

طيب الأعمال ، على نحو ماقال المثقب العبدى فى مدح خالد بن أنمار الذى افتك شاسة ابن أخت المثقب(١) :

إنما جاء بشاس خالد بعد ماحاقت به إحدى الظلم
من منايا يتخاسين به يبتدرن الزول من لحم ودم(٢)
مترع الجفنة ربعى النـدى حسن مجلسه غـير لطم(٣)
يجعل المال عطايا جمـة إن بعض المال فى العرض أمم(٤)
لايبالى – طيب النفس به – تلف المال إذا العرض سلم

وقد يمدح الفرد لعمل كبير يحقق ماينشده الشاعر من قيم ، ومايصبو إليه من مسلك محمود أو خلق كريم ، أو موقف بطولى ، كما صنع زهير بن أبى سلمى مع هرم بن سنان والحارث بن عوف حين تعاونا فى المسعى الحميد ليصلحا بين عبس وذبيان ، وينهيا الحرب التى طال مداها بينهما ، فأعلنا تحملهما ديات القتلى من القبيلتين ، حتى تضع الحرب أوزارها ، وتهدأ النفوس الثائرة ، وكان ثمرة ذلك من زهـير معلقته الشهيرة والتى يقول فيها :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما تبزل مابين العشيرة بالدم(٥)
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان . وجـدتما على كل حال من سحـيل ومبرم(٦)

---

(١) المفضليات ص ١٤١ بشرح حسن السندوبى .

(٢) يتخاسين : يترامين ، الزول : الشجاع الداهى .

(٣) مترع الجفنة : ممتلىء القدر ، ربعى الندى : باكره

(٤) الأمم : القصد .

(٥) الساعيان : هرم بن سنان ، والحارث بن عوف ، وغيظ بن مرة من ولد عبد الله بن غطفان ، وتبزل : تشقق .

(٦) السحيل : خيط واحد لايضم إليه آخره ، والمبرم : خيطان يفتلان حتى يصيرا خيطا واحدا ، يعنى : على كل حال من شدة الأمر وسهولته .

تداركتما عبسا وذبيان بعد ما   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما : إن ندرك السلم واسعا   بمال ومعروف من القول نسلم

فهو مدح لمسلك — وإن كان موجها لشخص — يعلن به الشاعر عن إعجابه بما صدر عن هذين الشخصين من مكرمات ، وليس مدحا لذات المدح ، ولا رغبة فى تحقيق كسب ، أو الحصول على نوال !

من ثم تميزت مدائح زهير بتجنب المبالغات الممقوتة ، والتزام الحقائق الواقعة فى اعتدال بين ، فهو ينظر فى صنائع الشخص ، ويتفحصها بحس الشاعر المهذب ، فيلتقى منها الصفات التى يعتز بها البدوى ويحتفل بمن ينعت بها ، ليقدم الصورة المثالية لها من خلال رؤيته تلك .

ويشهد لذلك أن الشاعر لما رأى بنى حارثة قوم هرم لا يقلون عن هرم فى مسلك محمود قال فيهم :

هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا   وإن يسألوا يعطوا، وإن ييسروا يغلوا(١)
وفيهم مقامات حسان وجوهها   وأندية ينتابها القول والفعل(٢)

قال صاحب الصناعتين(٣): فلما استتم وصفهم بحسن المقال ، وتصديق القول بالفعل، وصفهم بحسن الوجوه ، ثم قال :

على مكثريهم حق من يعتريهم   وعند المقلين السماحة والبذل

فلم يخل مكثرا ولا مقلا منهم من بر وفضل ثم قال :

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم   مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل
وإن قام منهم قائم قال قاعد :   رشدت فلا غرم عليك ولا خذل

---

(١) الاستخبال : أن يسألوهم شيئا فيملكوهم إياه ، وييسروا : يقامروا بالميسر ، ويغلوا : يقامروا على غوالى الجزر .

(٢) المقامات المجالس ، وينتابها القول والفعل : يقال فيها الجميل ويفعل

(٣) كتاب الصناعتين ص ١٠٧ بتحقيق البجاوى وأبو الفضل إبراهيم ، وانظر العمدة ج ٢ ص ١٣٤ بتحقيق الشيخ محمد محي الدين .

فوصفهم بالحلم وبالتضافر والتعاون ، فلما أتاهم هذه الصفات النفسية ذكر فضل آبائهم فقال :

وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل(١)

فالمدح – فى الشعر البدوى – لا يخرج عن الوظيفة الاجتماعية ، شأنه شأن الفنون التى سبق الحديث عنها ، يستجيب الشاعر البدوى به لحاجة قومية ، ويسير فيه وفق ما تمليه عليه البيئة ، دون انحراف أو تجاوز .

(١) الخطى : الرماح الخطية ، نسبة إلى الخط وهى جزيرة بالبحرين ، والوشيج : القنا .

(٤)

الرثاء :

ومن الفنون التى تشغل جانبا عظيما من شعر البادية فى العصر الجاهلى فن الرثاء . والرثاء من الفنون الشعرية التى تميزت فيها البادية عن الحاضرة ، سواء فى شيوعه أو فى منهجه ، وذلك لأن الرثاء – فى عمومه – بكاء الميت ، والتفجع عليه ، والالتياع لفراقه ، وذلك بتعداد مناقبه ، والإشادة بخلاله الكريمة ، بيد أن الجو النفسى للشاعر ، والموقف الاجتماعى الذى تقوم عليه العلاقة بينه وبين الميت يؤثر فى مسار الشاعر فى رثائه ، من ثم صبغت المرثية بألوان ثلاثة تمكن من تمييز كل منها عن غيرها ؛ فالرثاء يتردد بين الندب والتأبين والعزاء ؛ ولكل مقوماته التى يعتمد عليها ؛ إذ الندب يقوم على تفجع الشاعر وتحسره لفقد الميت ، والتأبين يقوم على تعداد مآثره وأفضاله على القبيلة أو الأسرة أو المحيطين به ، والعزاء يقوم على التسلى والتعزى والنظرة التأملية المتأملة فى الكون ونظام الحياة .

ولا ريب فى أن الشاعر المطبوع يقع فى معالجته فن الرثاء على اللون الملائم مع الموقف الذى يضمه ، دون قصد إلى لون لذاته :

والناظر فى مراثى البدو الجاهليين يلاحظ أن أكثر مراثيهم كانت ندبا وتأبينا . كما يلاحظ أن صوت الشعراء إنما يعلو ويمتد بالرثاء فى الغالب إذا كان المرثى مقتولا ؛ فهم فى البادية إنما يتخذون من الرثاء وسيلة إثارة وتحميس للثأر والانتقام .

ومن ثم شارك فى هذا الفن نساء كثيرات ، وكان لهن دور واضح ملموس فى إثارة الحروب وإشعال نارها ، ونفرة الجيوش لملاقاة خصومهم والانتقام لمن قتل منهم ، فما تزال المرأة تنوح على القتيل ، وتبكى فيه الشجاعة والنجدة والفروسية ، حتى تنهض القبيلة وتثأر له وما صنيع الخنساء شاعرة بنى سليم بخاف على أحد ، وماداؤها إلى هذا البكاء المتواصل بمجهول لأحد ؛ فقد كانت تخرج إلى عكاظ تندب أخويها صخرا ومعاوية وتعدد مآثرهما ، وتبحث بين سامعيها عن فارس مقدام يشفى نفسها بالثأر لهما . وحاكتها فى ذلك هند بنت عتبة فى بكاء أبيها(١) .

---

(١) راجع الأغانى ج ٤ ص ٢١٠ طبع دار الكتب .

ولم تكن المرأة تكتفى ببكاء ميتها يوما أو أياما ، بل قد يمتد بها الزمان أعواما ، تظل على ، حالها ، حتى يتحقق لها ما تهفو إليه من الثأر والانتقام .

وكان للنساء فى ذلك وسائلهن اللاتى يقصدن بها إثارة المشاعر ، واستنفار الهمم، فكن يحلقن شعورهن ، ويقفن على القبر ، ويدرن على مجالس القبيلة ، ويشهدن المواسم والأسواق ، يلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود . وقد تحصل من مراثى الخنساء ديوان شعر يدور كله حول رثاء أخويها . ومما قالته فى ندب صخر وبكائه :

قذى بعينيك أم بالعين عوار ... أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار(١)
كأن عينى لذكراه إذا خطرت ... فيض يسيل على الخدين مدرار(٢)
فالعين تبكى على صخر ، وحق لها ... ودونه من جديد الأرض أستار(٣)
تبكى خناس ، وما تنفك ما عمرت ... لها عليه رنين وهى مفتار(٤)
بكاء والهة ضلت أليفها ... لها حنينان : إصغار وإكبار(٥)
ترعى إذا نسيت حتى إذا ذكرت ... فإنما هى إقبال وإدبار
وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار(٦)

ومن ذلك ما قالته جليلة بنت مرة — أخت جساس وامرأة كليب — حين قتل أخوها جساس زوجها كليبا(٧) :

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا ... تعجلى باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبينت التى ... يوجب اللوم فلومى واعذلى
إن تكن أخت امرىء ليمت على ... شفق منها عليه فافعلى

---

(١) العوار : الرمد ، ذرفت : قطرت قطرا متتابعا .
(٢) المدرار : الكثير .
(٣) الأستار : الأحجار ، وفى قولها : جديد الأرض كناية عن حداثة موته .
(٤) مفتار : ضنينة . (٥) الإصغار : خفض الصوت بالحنين ، والإكبار : رفعه .
(٦) العلم : الجبل . (٧) الوحشيات لأبى تمام ص١٢٨، ١٢٩ بتحقيق عبد العزيز الميمنى

جل عندى فعل جساس ، فيا حسرتى عما انجلت أو تنجلى
فعل جساس على وجدى به قاطع ظهرى ومدن أجلى
يا قتيلا قوضت صرعته سقف بيتى جميعا من عل
قوضت بيتى الذى استحدثته وانثنت فى هدم بيتى الأول
خصنى قتل كليب بلظى من ورائى ولظى مستقبل
درك الثأر يشفيه وفى دركى ثأرى ثكل المثكل
إننى قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاح لى

فالشاعرة تدرك أن بكاءها زوجها يعنى استنهاض قومها للثأر من قاتله ، وتدرك ماذا يعنى الثأر من قاتل زوجها فهى ملتاعة حائرة لا حتصاصها من دون الرائيات بهذه الحالة .

ومن ذلك أيضا ماقاله دريد بن الصمة فى رثاء أخية :

دعانى أخى ، والخيل بينى وبينه فلما دعانى ، لم يجدنى بقعدد
أخ أرضعتنى أمه من لبانها بثدى صفاء بيننا لم يجدد
فجئت إليه والرماح تنوشه كوقع الصياصى فى النسيج الممدد
وإن يك عبد الله خلى مكانه فما كان وقافا ، ولا طائش اليد
قليل التشكى للمصيبات ذاكر من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد
تراه خميص البطن والزاد حاضر عتيد ، ويغدو فى القميص المقدد
وإن مسه الإقواء والجهد زاده سماحا وإتلافا لما كان فى اليد
صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل : ابعد
وطيب نفسى أننى لم أقل له كذبت،ولم أبخل بماملكت يدى

ولعل أوضح مثال لذلك ماقاله العباس بن مرداس فى رثاء أخيه عمارة ، حين قتل فى حقل صعدة فى بلاد اليمن بعيدا عن موطنه ، فقام يرثيه ويتهدد قاتليه ويتوعدهم بالثأر منهم ، ومنها :

أبعد عمار الخير نرجو سلامة وقد بتكت آرابه ومفاصله
فلا وضعت عندى حصان خمارها ولا ظفرت كفى بقرن أنازله

***

فمن مبلغ عمرو بن عوف رسالة ويعلى بن سعد من تؤور يراسله
بأنى سأرمى الحقل يوما بغارة لها منكب حاب تدوى زلازله

فالرثاء البدوى يكاد يكون أسلوبا تحميسيا ، يثير به الشاعر سامعيه أو يهيء نفسه للاقدام على عمل حربى يثأر به لقتيله الذى يبكيه ، وينتقم ممن اعتدى على الأخلاق والقيم والصفات الحميدة التى كان يمثلها القتيل أدق تمثيل .

من ثم يلاحظ أن الرثاء فى البادية كان أكثره مصروفا إلى سادات العشيرة وفرسانها الذين لهم عليها اليد الطولى فى حمايتها وقيادتها والقيام على مصالحها ؛ فهم الذين يستحقون البكاء بهذا الصوت العالى ؛ شحذا لهمم الأحياء ، وتحريكا للقبيلة حتى تثأر لهم .

ولعل هذا يفسر لنا قلة رثاء من يموت حتف أنفه فى الشعر البدوى . وهو على قلته يدور حول اللاصقين من الأهل والأصدقاء — خصوصا الأبناء — ويغلب عليه التفجع والتحسر المصحوب بالمواساة والتعزية والتسلى ، فهو فى الغالب يقوم عليه عنصرى الندب والعزاء . من ذلك ما قاله أبو ذؤيب الهذلى فى أبنائه الخمسة الذين فقدهم فى عام واحد(١) :

أمن المنون وريبها تتوجع ؟ والدهر ليس بمعتب من يجزع(٢)
قالت أميمة : ما لجسمك شاحبا منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع ؟(٣)
أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذاك المضجع ؟(٤)
فأجبتها أن ما لجسمى أنه أودى بنى من البلاد فودعوا(٥)
أودى بنى وأعقبونى غصة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع(٦)

---

(١) ديوان الهذليين ص ١ طبع دار الكتب المصرية .
(٢) المنون : المنية ، وريبها : حوادثها ، ليس بمعتب : ليس بمرض .
(٣) ابتذل : امتهن نفسه فى الأعمال لموت من كان يكفيه .
(٤) أقض المضجع : صار كأن به حجارة صغيرة . (٥) أودى : هلك .
(٦) يشير بقوله « بعد الرقاد » إلى أن حزنه يمنعه النوم حين ينام الناس .

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع[١]
فغبرت بعدهم بعيش ناصب وإخال أنى لاحق مستتبع[٢]
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم فإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع
فالعين بعدهم كأن حداقها سملت بشوك فهى عور تدمع[٣]
لابد من تلف مقيم فانتظر أبأرض قومك أم بأخرى المصرع
ولقد أرى أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكاء من يفجع
وليأتين عليك يوم مرة يبكى عليك مقنعا لا تسمع[٤]
كم من جميع الشمل ملتئم الهوى باتوا بعيش ناعم فتصدعوا
فلئن بهم فجع الزمان وريبه إنى بأهل مودتى لمفجع

فالشاعر البدوى أمام ميته غيره أمام قتيله ؛ إذ الدافع إلى الرثاء هنا غيره هناك ، وهو فى كلتا الحالتين يعبر عن مكنون نفسه فى صدق ، غير أنه فى رثاء القتلى يدرك أن لرثائه وظيفة اجتماعية تتمثل فى الإثارة والتحميس، فيضمن رثاءه ما يحقق ذلك، ويدرك أنه فى بكاء الموتى حتف أنوفهم إنما يصور مشاعره الذاتية ، وانفعالاته الوجدانية .

---

(١) أعنقوا : أسرعوا ، فتخرموا : أخذوا واحدا .

(٢) غبرت : بقيت ، ناصب : ذى تعب ، مستتبع – بفتح الباء – مستلحق ، يقال : استتبع فلان ذهب به .

(٣) الحداق . جمع حدقة ، وسملت : فقئت ، وعور – بضم معين – جمع عوراء من العوار بضم أوله وتشديد ثانية وهو ما يصيب العين من رمد أو قذى .

(٤) مقنعا : ملففا بأكفانك .

الغزل :

حديث الشاعر عن المرأة يطلق عليه (غزل) ، وهذا الحديث يتنوع ويختلف من شاعر إلى شاعر ومن بيئة إلى بيئة ، فتارة يقف الشاعر بحديثه عن المرأة عند حد اجترار ذكرياته الماضية فى علاقاته بالمرأة ، وتارة يخلص حديثه لوصف محاسن المرأة، وبيان مفاتنها التى استهوته ، ومرة أخرى تراه يخاطب المرأة مستعطفا ، يكشف لها عن حبه لها ، وافتتانه بها ، ويذكر ما يفعله فيه بعدها عنه من لواعج الشوق، ومايكابده من جراء ذلك . والشاعر أمام هذه الأحوال الثلاثة خاضع لظروف بيئته وأخلاقيات مجتمعه بحيث لا يستطيع أن يتجاوز أعراف قومه وقيمهم ؛ إذ المرأة عند العربى تمثل الحرم الذى يجب على الصغير والكبير أن يبذل حياته فى حمايته والإبقاء عليه نظيفا من كل ما يشين ؛ فليس للشاعر مطلق الحرية فى الحديث عن المرأة ، إنما هو – على خلاف الفنون الأخرى – هنا ملتزم الالتزام التام بما تقره القبيلة من ذلك .

والناظر فى الشعر البدوى فى العصر الجاهلى يلاحظ أن الشاعر البدوى –فى الجملة– يتحفظ فى الحديث عن المرأة دائما ؛ فهى فى نظره أمل مقدس لا يحق له أن يكشف من مفاتنها إلا الأشياء العامة التى تنبىء عن سر تعلقه بها دون أن يمس حرماتها المقررة، إلا أن تكون أمة لا حرمة لها .

فالغزل البدوى – فى جملته – غزل عفيف ، لا يخرج على إطار القيم البدوية ، حتى لقد أطلق رواة الأدب العربى على هؤلاء الغزليين البدويين اسم (المتيمين) تمييزا لهم من العشاق الماديين ، وأصبح قرين كل اسم منهم فتاة عرفت به وعرف بها كالمرقش الأكبر وأسماء ، والمرقش الأصغر وفاطمة ، والمخبل وميلاء ، وعبد الله بن العجلان وهند ، ومالك بن الصمصامة وجنوب ، وقيس بن الحدادية ونعم ، وعبد الله بن علقمة وحبيشة ، وعمرو بن كعب وعقيلة . وكان أشهر هؤلاء جميعا عنترة وعبلة .

* * *

ومن نماذج الشعر التى توضح ذلك ما قاله المرقش الأكبر مصورا حيرته النفسية ،

وصراعه الحاد ، وما يعانيه من قلق وعـذاب ؛ إذ يسائل نفسه عن مدى صموده أمام صبوات قلبه وهيامه بأسماء التى أصبحت كل شىء فى حياته ، فهى الأمل الذى يرتجيه ، ونجوى الفؤاد التى يعيش معها ، كلما ذكرها اضطرب جسده وتملكته الرعدة كأنما مسته حمى شديدة :

أغالبك القلب اللجوج صبـابة   وشوقا إلى أسماء أم أنت غالبه ؟
يهيم ولا يعيا بأسماء قلبه   كذاك الهوى إمراره وعواقبه(١)
وأسماء هم النفس إن كنت عالماً   وبادى أحاديث الفؤاد وغائبه
إذا ذكرتها النفس ظلت كأننى   يزعزعنى قفقاف ورد وصالبه(٢)

وما قاله عمرو بن كعب يصور فيه إقبال الليل عليه بعيدا عن محبوبته ، وما يعانيه فيه من أحزان تذيب مهجته ، وتسيل دموعه ، وتنتزع الزفرات الحارة من صدره :

إذا جن ليلى ماضت العين أدمعا   على الخد كالغدران أو كالسحائب
وما أسفى إلا على ذوب مهجتى   ولم أدر يوما كيف حال الحبائب

وما قاله ابن العجلان مصورا استسلامه — على الرغم من شدة بأسه وعلو همته — أمام لحاظها التى ترسل سهامها لتصيب قلبه ، دون أن يستطيع لها دفعا :

لقد كنت ذا بأس شديد وهمة   إذا شئت لمساً للسماء لمستها
أتتنى سهام من لحاظ فأرشقت   بقلبى ، ولو أستطيع ردا رددتها

وما قاله قيس بن الحدادية مصورا الخضم المتلاطم من الأحزان الذى يطويه حين تبعد عنه ، حتى يفضل الموت العاجل على الحياة وحيدا مع أحزانه وهمومه .

فليت المنايا صبحتنى غدية   بذبح ولم أسمع لبين مناديا
وقد أيقنت نفسى عشية فارقوا   بأسفل وادى الدوح أن لا تلاقيا
إذا ما طواك الدهر يا أم مالك   فشأن المنايا القاصدات وشانيا

---

(١) إمرار الهوى : مرارته أو شدته .

(٢) الورد — بكسر الواو — الحمى ، والقفقاف : الرعشة ، والصالب : شـدة الحرارة مع رعدة .

وما قاله عنترة مصورا لواعج نفسه ، كاشفا عن الأهواء المتدفقة فيها ، وما يعانى من الفراق ومرارة الحرمان ، حين ارتحل أهل عبلة إلى بنى شيبان :

يا طائر البان قد هيجت أحزانى ... وزدتنى طربا يا طائر البان(١)
إن كنت تندب إلفا قد فجعت به ... فقد شجاك الذى بالبين أشجانى
زدنى من الفرح واسعدنى على حزنى ... حتى ترى عجبا من فيض أجفانى
وقف لتنظر ما بى لا تكن عجلا ... واحذر لنفسك من أنفاس نيرانى
وطر لعلك فى أرض الحجاز ترى ... ركبا على عالج أو دون نعمان(٢)
يسرى بجارية تنهل أدمعها ... شوقا إلى وطن ناء وجيران
ناشدتك الله يا طير الحمام إذا ... رأيت يوما حمول القوم فانعانى(٣)
وقل : طريحا تركناه ، وقد فنيت ... دموعه وهو يبكى بالدم القانى

بيد أن الناظر فى شعر عنترة يلاحظ أنه — على الإجمال — يمزج فيه بين الغزل والفخر ووصف معاركه الحربية وفروسيته وإقدامه ، وكأنه جعل من كل ذلك وسيلة إلى قلب عبلة يصل إليه عن طريقها ، أو كأنه جعل من حب عبلة دافعا إلى جلائل الأعمال وحافزاً إلى محمود الفعال من عفة ونجدة وشجاعة وتضحية ، يوضح ذلك قوله :

سلى يا عبل قومك عن فعالى ... ومن حضر الوقيعة والطرادا(٤)
وردت الحرب والأبطال حولى ... تهز أكفها السمر الصعادا(٥)
وخضت بمهجتى بحر المنايا ... ونار الحرب تتقد اتقادا
وعدت مخضبا بدم الأعادى ... وكر الحرب قد خضب الجوادا

وقوله عازيا لعبلة الفضل فى لقائه الصعاب ، وصموده أمام غمرات الحروب ،

---

(١) البان : اسم شجر يشبه الصفصاف .
(٢) عالج ونعمان : مكانان .
(٣) حموله — بضم الحاء — جمع حمل : الهودج أو البعير الذى عليه الهودج . فانعانى أصلها فانعنى ، وهو تجوز للشعر .
(٤) الوقيعة : القتال ، ويجمع على وقائع . والطراد : المطاردة .
(٥) السمر : الرماح ، والصعاد — بكسر الصاد — جمع صعدة وهى القناة المستوية ، يريد بها الرماح

مفتخرا بأنه لم ينهزم فى أية معركة خاضها بقوة دفعها التى يرجو من ورائها النظر إليه بعين الرضا :

ياعبل لولا أن أراك بناظرى ماكنت ألقى كل صعب منكر
ياعبل كم من غمرة باشرتها بمثقف صلب القنوائم أسمر
ياعبل هل بلغت يوما أننى وليت منهزما هزيمة مدبر
ياعبل دونك كل حى فاسألى إن كان عندك شبهة فى عنتر

* * *

غير أن الغزل البدوى لم يكن وقفا على هذا الاتجاه العاطف العفيف . فقد كان من شعراء البادية من أباح لنفسه أن يتحدث عن خلال المرأة الجيدة ، وصفاتها الكريمة ، نائيا بنفسه عن أن يمس جسدها ومايتصل به لأن لهذا الجسد حرمة أن ترعى وتصان ، كقول الشنفرى فى امرأته أميمة :

لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها إذا مامشت ، ولا بذات تلفت
تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها لجاراتها إذا الهدية قلت(١)
تحل بمنجاة من اللوم بيتها إذا مابيوت بالمذمة حلت
كأن لها فى الأرض نسيا تقصه على أمها وإن تكلمك تبلت(٢)
أميمة لا يخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت(٣)

لقد نال من الغزل عناية الشعراء البدويين ، وشد اهتمامهم ، وأقبلوا عليه يصبون فيه مشاعرهم ، ويعرضون من خلاله رؤيتهم للمرأة ، حتى فرضوه على فنون الشعر المختلفة ، وجعلوه تمهيدا ينقلون به سامعيهم من حياتهم العامة إلى مايقصدون إليه ؛ فأصبح من أعرافهم الفنية أن يلقانا الشاعر مع مطلع القصيدة متغزلا يبكى ديار أحبابه

---

(١) الغبوق : اللبن الذى يشرب فى العشى .

(٢) النسى : الشيء المنسى أو المفقود ، تقصه : تتعقب أثره ، أمها — بفتح الهمزة — قصدها ، تبلت : — بفتح فسكون — أوجزت .

(٣) نثاها : ذكرها وماذاع عنها .

الذين ارتحلوا، ويقف على أطلالهم الدارسة بعد أن تركوها، مستعيدا فى هـــذا الوقوف ذكريات الشباب وأحلام الصبا، ثم ينتقل من ذلك إلى غرضه الأصيل من مدح أو رثاء أو فخر .. الخ.

ولا ريب فى أن هذه المقدمة الغزلية لا تعد الدارس برؤية ذاتية للمرأة بقدر ما تعده برؤية عامة لها، فلولا احتفال المجتمع الفنى بالمرأة وبالحديث عنها لما أثر هذا النهج الشعرى، الذى أصبح تقليدا يستعين به الشاعر على الوصول إلى غرضه، وإن لم يقم على واقع حقيقى. إنما الذى يعد الدارس برؤية الشاعر للمرأة هو الشعر الذاتى الذى يصور لواعجه وأحزانه، وأفراحه فى البعد عن المرأة أو القرب منها.

(٦)

الوصف :

تكاد فنون الشعر الجاهلي – بدوية وحضرية – تقوم على الوصف؛ فالوصف هو الوسيلة المثلى لدى شعراء البادية، حتى إنهم اعتمدوا عليه في أعمالهم القصصية، وأسسوا عليه نمو الأحداث فيها، وتطور المواقف، وبنوا عليه الحركة القصصية (الدرامية)، مما دعا كثيرا من الدارسين إلى أن ينفوا عن الشعر الجاهلي من القصة، متوهمين أن هذا الوصف جميعه ناشيء من تغنى الشاعر وميله إلى الذاتية .

وفي الحق أن دارس الشعر البدوى في هذه الفترة يجد فيه وصفا للذاتيات، كما يجد فيه وصفا للموضوعيات على اختلاف أجناسها وأنواعها، وتباين أشكالها وهيئاتها . ويجد فيه وصفا للمعنويات وللمدركات العقلية والخيالية، كما يجد فيه وصفا للماديات والمدركات البصرية والحسية

ترى الوصف الذاتي في نحو قول المرقش الأكبر يصف مايعتمل في داخله، وماشعر به حين مر به طيف محبوبته سليمى ليلا، فأبرز هذه الانفعالات النفسية في صورة مادية تعكس مااضطرب به نفسه، معتمدا على المقابلة بين مظهره الخارجي ومظهر أصحابه الذين لايعانون مثل معاناته[1] .

سرى ليلا خيال من سليمى ... فأرقنى وأصحابى هجود
فبت أدير أمرى كل حال ... وأرقب أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفى لنار ... يشب لها بذى الأرطى وقود[2]
حواليهـــا مها جم التراقى ... وأرآم وغزلان رقـــود[3]

---

(١) المفضليات ص ١٠٤ بشرح السندوبى .

(٢) الأرطى جمع أرطاة : نبات شجيرى ينبت في الرمل، ويخرج من أصل واحد، ورقه دقيق، وثمره كالعناب .

(٣) المهـا جمع مهاة : بقرة الوحش . وأرآم جمع رئم : ولد الظبي أو الظبي خالص البياض .

نواعم لا تالج بؤس عيش ... أوانس لا تروح ولا ترود
يرحن معاً بطاء المشي بدا ... عليهن المجاسد والبرود(١)
سكن ببلدة وسكنت أخرى ... وقطعت المواثق والعهود
فما بالى أفى ويخان عهدى ... ومابالى أصاد ولا أصيد ؟!

وترى وصف الموضوعيات فى نحو تائية الشنفرى التى يصف فيها غارته فى جمع من الصعاليك على سلامان ، فيقدم صورة حية واقعية ترى فيها تحركه ومن معه بأسلحتهم للانتقام من سلامان ، حتى يجعلك تصاحبهم وتعيش معهم أدق تحركاتهم وحياتهم ، وفيها يقول واصفا طرفا من حياتهم الاجتماعية فى أثناء تحركهم للغارة ، وكيف أن رابطة أسرية قوية لتشدهم إلى بعض ، بحيث يقوم على خدمتهم واحد منهم ــ وهو تأبط شرا ــ فيقدمه فى صورة الأم التى تقوم على رعاية أبنائها ، ويخضعهم لنظام قاس ، تفرضه ظروف معيشتهم حتى لاينضب زادهم :

وأم عيال ــ قد شهدت ــ تقوتهم ... إذا أطعمتهم ، أو تحت وأقلت(٢)
تخاف علينا العيل إن هى أكثرت ... ونحن جياع ، أى آل تألت(٣)
مصعلكة لايقصر الستر دونها ... ولا ترتجى للبيت إن لم تبيت(٤)
لها وفضة فيها ثلاثون سيحفا ... إذا آنست أولى العدى اقشعرت(٥)

وترى الوصف المعنوى التجريدى فى كثير من الحكم التى امتلأ بها شعرهم ، والتى يمثلها قول زهير فى معلقته عارضا رأيه فى الحياة وخلاصة تجاربه فيها ، ووصاياه ونصائحه المنتزعة من هذه المعرفة المجربة :

---

(١) المجاسد جمع مجسد ــ بكسر الميم ــ الثوب اللاصق للجسد ، والبرود جمع برد : كساء مخطط يلتحف به .

(٢) أم عيال : يقصد تأبط شرا ، أو تحت : قترت وأقلت .

(٣) العيل ــ بفتح العين وسكون الياء ــ الفقر ، أى آل تألت : أى سياسة تسوسنا ، يقال : آله : ساسه .

(٤) مصعلكة ــ بكسر اللام ــ صاحبة صعاليك ، لايقصر الستر دونها : لايغطى أمرها .

(٥) الوفضة ــ بفتح فسكون ــ الجعبة ، والسيحف ــ بفتح السين والحاء ــ السهم عريض النصل ، وأولى العدى : طلائع الأعداء ، واقشعرت : تهيأت للقتال .

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم
ومن لا يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن لا يزل يستحمل الناس أمره ولا يغنها يوما من الدهر يسأم

فهذه طائفة من الحقائق المجردة تراءت أمام عقل زهير فقدمها فى ثوب مادى من الشعر لتصبح أمام متلقى شعره ماثلة ، لا تحوج إلى معاناة فكرية ، ولا إلى جهد عقلى ، بل تصل إلى نفس المتلقى فى يسر ؛ لوضوحها ودقة وصفها .

وترى الوصف المادى الذى يصور فيه الشاعر ما تقع عليه عينه من أسباب الحياة التى لشتمل عليها البادية ، من مفاوز بعيدة يجوبونها بما فيها من انقطاع عن أسباب الحياة ، وإبل يقطعون بها تلك الموامى ، وجياد يواجهون بها الخصوم فى حروبهم بين كروفر ، وأدوات حرب من سيوف ورماح ودروع؛ فهذا الشنفرى يصف سلاح تأبط شرا أحد أصحابه وقد شبهه بالأم فى إدارة شئون الجماعة ، فالسيف أبيض صارم يشبه الملح فى لونه ، حديده صاف كأنه الماء الصافى :

إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ورامت بما فى جفرها ثم سلت(١)
حسام كلون الملح صاف حديده جراز كأقطاع الغدير المنعت(٢)

وهذا زهير يصور رحلة صواحبه فى الصحراء ، يلفت الأنظار إليهن وهن راحلات يصعدن الروابى ، ويهبطن الوديان ، فى هوادج مكللة وردية الحواشى كأنها الدم ، فإذا كن فى وادى السوبان من ديار تميم ثنين أرجلهن للراحة بادية عليهن آثار النعمة والترف . بدأن الرحلة فى الصباح ، ورحلن فى السحر ، دون أن يخطئن وادى الرس

---

(١) فزعوا : دهمهم محاربون وتهيأوا لقتالهم ، وأبيض صارم : سيف قاطع ، الجفر : الجعبة ، رامت بما فيه أى بسهامه ، سلت السيف . شهرته .

(٢) جراز ، بضم الجيم وفتح الراء — قاطع ، أقطاع الغدير : قطع الماء فيه ، شبه السيف بها فى اللمعان والبريق .

الذى قصدن ، فقد حملن جبل القنان ومن أرضه الصعبة عن يمينهن قطعن هذه الرحلة من وادى السوبان على رحل جديد واسع رحب ، وكلما نزلن بأرض للاستراحة خلفن وراءهن فتات الصوف التى تشبه عنب الثعلب ، حتى إذا انتهين إلى الماء الذى يطلبنه للاقامة ألقين عصا الترحال ونزلن به :

تبصر خليلى هل ترى من ظعائن ... تحملن بالعلياء من فوق جرثم(١)
علون بأنماط عتــاق وكلة ... وراد حواشيها مشاكهة الدم(٢)
ووركن فى السوبان يعلون متنه ... عليهن دل الناعم المتنعـم(٣)
وفيهن ملهى للصديق ومنظر ... أنيق لعين الناظر المتوسم(٤)
بكرن بكورا واستحرن بسحرة ... فهن لوادى الرس كاليد للفم(٥)
جعلن القنان عن يمين وحزنه ... ومن بالقنان من محل ومحرم(٦)
ظهرن من السوبان ثم جزعنه ... على كل قينى قشيب ومفأم(٧)
كأن فتات العهن فى كل منزل ... نزلن به حب الفنا لم يحطم(٨)
فلما وردن الماء زرقا جمامه ... وضعن عصى الحاضر المتخيم(٩)

---

(١) الظعائن : النساء الراحلات فى الهوادج ، والعلياء : اسم موضع ، وجرثم ، — بضم الجيم — ماء لبنى أسد أحلاف ذبيان .
(٢) الأنماط : الستائر على الهوادج ، وراد — بكسر الواو — حمر ، ومشاكهة : مشابهة .
(٣) وركن : ثنين أرجلهن للراحة ، والسوبان : واد فى ديار بنى تميم والمتن : الظهر ، ودل الناعم : أثر النعمة .
(٤) المتوسم : المتفرس فى الوجه .
(٥) بكرن . رحلن فى الصباح الباكر ، واستحرن : رحلن سحر ، كاليد للفم : أى إن ما يقصدنه لا يخطئنه كما لا تخطىء اليد الفم .
(٦) القنان — بفتح القاف — جبل لبنى أسد ، والحزن : الأرض الصعبة المليظة ، والمحل — بضم الميم — الحليف ضد المحرم .
(٧) جزعنه : قطعنه ، والقينى : الرحل ، والمفأم — بضم الميم — الواسع الرحب .
(٨) العهن : الصوف ، وحب الفنا : عنب الثعلب .
(٩) الجمام — بكسر الجيم — السطح والمجتمع ، ووضع العصى كناية عن الإقامة

وزهير فى استقصائه وصف رحلة صواحبه هنا قريب الشبه بأستاذه أوس بن حجر فى وصف القوس، حيث تتبع القوس مذ كان غصنا فى شجرة بعيدة المنال وذلك قوله :

ومبضوعة من رأس فرع شظية   بطـود تراه بالسحاب مجللا
على ظهـر صفوان كأن متونه   عللن بدهن يزلق المتنزلا
يطيف بهـا راع يجشم نفسه   ليـكلأ فيها طرفه متأمـلا
على حين ما أبصرتها من بضاعة   للتمس بيعا بها أو تبـكلا
فويق جبيل شامخ الرأس لم تـكن   لتبلغه حتى تـكل وتعمـلا

إلى آخر القصيدة ، ولنا لقاء بها في موطن آخر من بحثنا هذا إن شاء الله .

ونرى الوصف المادى لما يحيط بالشاعر فى بيئته ماثلا ـ كذلك ـ فى وصف البقرة الوحشية التى شبه به لبيد بن ربيعة العامرى ناقته ، تلك البقرة التى افترس السبع ولدها لما خذلته وذهبت ترعى مع صواحبها ، وأخذت تبحث عنه طائفة سائحة بين الرمال ، فلما لم تجده اشتد حزنها وباتت فى مكانها تبحث عنه وقد أسبل مطر واكف علا ظهرها فى تلك الليلة التى احتفت فيها النجوم ، فاشتد الظلام، فحاولت الاستتار من البرد والمطر بأغصان الشجر ، ولـكنها كانت تتقاصر وتنهال كثبان الرمل عليها فلا تحميها من البرد والمطر ، وتمدو فى قلق فتبدو فى الظلام كأنها لؤلؤة سل نظامها ، حتى إذا انـكشف ظلام الليل بكرت البقرة من مأواها تبحث عن إبنها ، ولـكن قوائمها تزل عن التراب الندى لـكثرة المطر الذى أصابه ليلا ، فتمعن فى الجرع، وتتردد متحيرة فى وهاد هذا الموضع ومواضع غدرانه سبع ليال بأيامها ، حتى إذا يئست البقرة من العثور على ولدها وصار ضرعها الممتلىء لبنا خلقا لانقطاع اللبن لعدم إرضاعها، سمعت صوتا ولم تر صاحبه فخافت ، فقدت فزعة مذعورة لاتعرف منجاها من مهلـكها ، عندئذ يئس الرماة من وصولهم لها ، فأرسلوا كلابهم فى طلبها ، فلحقت بها ، ولـكن البقرة تصدت لتلك الـكلاب وطعنتها بقرنها الذى يشبه الرمح دفاعا عن نفسها :

أفتلك أم وحشية مسبوعة   خذلت وهادية الصوار قوامها(١)

---

(١) مسبوعة : أصابها السبع بافتراس ولدها ، والصوار: القطيع من بقر الوحش .

خنساء ضيعت الفرير فلم يرم   عرض الشقائق طوفها وبغامها(١)
لمعفر قهد تنازع شلوه   غبس كواسب لايمن طعامها(٢)
صادفن منها غرة فأصبنها   إن المنايا لاتطيش سهامها
باتت وأسبل واكف من ديمة   يروى الخمائل دائما تسجامها(٣)
يعلو طريقة متنها متواتر   فى ليلة كفر النجوم غمامها(٤)
تجتاف أصلا قالصا متنبذا   بعجوب أنقاء يميل هيامها(٥)
وتضئ فى وجه الظلام منيرة   كجمانة البحرى سل نظامها(٦)
حتى إذا حسر الظلام وأسفرت   بكرت تزل عن الثرى أزلامها(٧)
علهت تردد فى نهاء صعائد   سبعا تؤاما كاملا أيامها(٨)
حتى إذا يئست وأسحق حالق   لم يبله إرضاعها وفطامها(٩)
فتوجست رز الأنيس فراعها   عن ظهر غيب والأنيس سقامها(١٠)
فغدت كلا الفرجين تحسب أنه   مولى المخافة خلفها وأمامها(١١)

(١) الفرير : ولد البقرة الوحشية ، فلم يرم : فلم يبرح ، والشقائق جمع شقيقة : الأرض الصلبة بين رملتين ، والبغام — بضم الباء — صوت رقيق .

(٢) القهد — بفتح القاف — الأبيض ، والشلو : العضو ، والغبس — بضم الغين — جمع أغبس : لون كالرماد .

(٣) الواكف : القطر ، والديمة : السحابة التى يدوم مطرها مالايقل عن نصف يوم .

(٤) المتن : الظهر ، كفر النجوم : سترها .

(٥) الاجتياف : الدخول فى جوف الشىء ، والتنبذ : التنحى ، والعجوب جمع عجب : أصل الذنب ، وهو هنا أصل النقا ، والنقا : كثبان الرمل ، والهيام : مالاتماسك به من الرمل .

(٦) الجمانة : درة مصوغة من الفضة

(٧) الأزلام : القوائم .

(٨) العله والعلع : الانهماك فى الجزع ، والنهاء — بضم النون — جمع نهى : الغدير ، وصعائد — بضم الصاد — موضع ، والتؤام جمع تؤم .

(٩) أسحق : حاق ، والحالق : الضرع الممتلىء لبنا .

(١٠) الرز — بكسر الراء — الصوت الخفى .

(١١) تفرج : الواسع من الأرض ، أخبر أنها خائفة من كلا جنبيها ، مولى المخافة : الموضع الذى فيه المخافة .

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا   غضفا دواجن قافلا أعصامها(١)
فلحقن واعتكرت لها مدرية   كالسمهرية حدها وتمامها(٢)
لتذودهن وأيقنت إن لم تذد   أن قد أحم من الحتوف حمامها(٣)
فتقصدت منها كساب فضرجت   بدم وعودر فى المكر سخامها(٤)

وصفوة القول ، لقد وصف البدويون فى أشعارهم كل شىء وقعت عليه أعينهم أو مر بخيالهم ، أو أحسوا به من خلال مشاعرهم فى براعة فنية ودقة ، كما توجهوا بنظرهم الفاحص إلى دخائل نفوسهم ومحصول عقولهم فعكسوه على مرآة شعرهم فى صدق وبساطة .

(١) الكلاب الغضف: المسترخية الآذان ، والدواجن : المعلمات ، والقفول: اليبس ، والأعصام : البطون .

(٢) اعتكر : عطف ، والمدرية : طرف قرنها ، والسمهرية من الرماح : الرماح المنسوبة إلى سمهر رجل اشتهر بحذق صنعها من قرية خطا بالبحرين .

(٣) الدود : الكف ، والإحمام : القرب ، والحتوف : قضاء الموت ، والحمام : تقدير الموت .

(٤) كساب : اسم كلبة ، وكذلك سخام .

الباب الثالث

الشعر الحضري

الفصل الأول

أعلام من شعراء الحاضرة

أقصد بشعراء الحاضرة أولئك الشعراء الذين فرضت عليهم ظروف حياتهم أن يعيشوا فى الحاضرة فترة من الزمان مكنت لقيمها وأخلاقياتها ومظاهرها وعاداتها أو لبعض ذلك من نفوسهم، لجعلت منهم عربا غير العرب المجاورين لهم فى البادية حسا وشعورا ، ومكرا واعتقادا ، وأسلوبا فى الحياة ، وتصورا وخيالا .. إلى غير ذلك من الآثار التى تفرضها الحاضرة على قاطنيها أو من ينزلون بها .

ولعلنا نذكر مما قدمنا أننا نرى شاعر الحضر واحدا من ثلاثة هم الذين نتصورهم واقعين تحت سطوة الحاضرة بمؤثراتها وقيمها .

أولهم : ذلك الشاعر العربى الذى ولد فى كنف الحاضرة سواء كانت حاضرة عربية خالصة ، وهى التى تستقى حضاراتها من بقايا الحضارة العربية القديمة الممزوجة بما يصلها من الحضارات المجاورة عن طريق الرحلات التجارية ، والجاليات الأجنبية الوافدة إلى أرض العرب ، والجماعات العربية الزائرة لبلاد فارس والروم والحبشة ومصر على اختلاف الدواعى إلى ذلك ــ مثل يثرب ، والطائف ومكة ، ومابين النهرين ، وعمان ، والبحرين ، واليمن ، وكندة ، أو كانت حاضرة عربيــة تكاد تذوب فى جيرانهامن غيرالعرب ــ وهى التى تقتبس حضارتها من الحضارات المجاورة لشبه الجزيرة العربية من فارسية ، ورومية ، ومصرية ، وحبشية .. الخ ــ مثل الحيرة والشام .

وثانيهم : ذلك الشاعر البدوى الذى خرج من باديته إلى إحدى الحواضر العربية بعد أن شب ونما حسه وتكونت أفكاره ومشاعره ، فغلبت مظاهر الحضارة الطارئة لبه ، لكنه لم يستطع أن يتلاءم معها تماما ، ولم تتمكن آثارها منه تمكنا يسلخه من بيئته الأصلية ، فوقف فى تأثره بالحضارة الجديدة عند حد الشكل والمضمون ، أما المعارف والأخيلة والمعانى فظلت عربية بدوية خالصة .

ثالثهم : ذلك الشاعر العربى الذى أدرك الإســلام - بدويا كان أو حضريا - فاستجاب له ، واندفع إليه بقوة وإخلاص، مؤمنا بأفكاره،مكبا على كتابه،أوممارضا رافضا ، فاندمع فى مقاومته متأثرا بمنهج شعرائه ، فإذا مفاهيم غير المفاهيم ، وأفكار غير الأفكار ، وأساليب غير الأساليب ، وألفاظ غير الألفاظ ، وأخيلة غير الأخيلة ، ومعان غير المعانى، وإن لم تكن غريبة عن سابقتها؛ لأن الجديد عربى هذبته حضارة الإسلام ، التى اعتزت بالعربية المهذبة سواء كانت بدوية أو حضرية .

* * *

لقد كان لحياة الحاضرة وماتحتويه من مظاهر الترف ، ووسائل النعيم ، وأسباب التحضر المادية والفكرية - أكبر الأثر فى الشعر الجاهلى ؛ فقد استحوذت هذه الحياة على طائفة من شعراء هذا العصر - على امتداده - فشكلت حياتهم بشكل يختلف عن طبيعة الحياة فى البيئة الجاهلية عامة ، واتجهت بهم وجهة نفسية وعقلية وسلوكية تغاير وجهات أقرانهم وإخوانهم فى البيئات العربية الأخرى، وصبغت أذواقهم الفنية بالأصباغ والألوان التى تعكسها حياة الترف والتنعم فى الحضارة المادية ، وحياة التسامى والترقى فى الحضارة الإسلامية ، فلم يهتموا إلا بالأغراض التى تستجيب لها نفوسهم تلك ، ولم يقصدوا إلا إلى الفنون الشعرية التى تلبى حاجاتهم ، وداروا بمعانيهم وأخيلتهم فى محيط الحاضرة التى تضمهم وماتضفيه على أفكارهم وخيالاتهم من انطباعات .

فلم يكن شعراء الحاضرة هؤلاء على مستوى واحد فى درجة تأثرهم بتلك البيئة ، بل إنهم ليتفاوتون فى ذلك تفاوتا كبيرا - وإن لم يخرج عن إطار البيئة - يرجع إلى صلة الشاعر بالحضر وطبيعة تلك الصلة وملابساتها وطبيعة الحضارة وأبعادها ؛ إذ ليس من المعقول أن يكون تأثير البيئة فيمن ولد ودرج بين أهلها مماثلا لتأثيرها فيمن نزح إليها ، طمعا فيما تقدم له من أسباب الترف والنعيم ، مخلفا وراءه بيئته الأصيلة ومافيها ومن فيها ، وليس من المعقول أن يكون تأثير الحضارة المادية مساويا لتأثير الحضارة الفكرية والعقيدية .

وكان من أشهر شعراء هذه البيئة عدى بن زيد،وأبو داود الإيادى وامرؤ القيس وطرفة بن العبد ، والنابغة الذبيانى ، والأعشى، وأوس بن حجر ، وعبيد بن الأبرص والعباس بن مرداس ، والمثقب العبدى ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهـــير ،

وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وأمية بن أبي الصلت ، والسموأل بن عادياء ، وكعب بن الأشرف .. الخ غير أننا سنتناول بالعرض ستة شعراء من هؤلاء يمثلون الاتجاهات المختلفة التي وضحت في شعرهم تأثرا بظروفهم البيئية الخاصة ، وهؤلاء الشعراء الستة هم عدى بن زيد ، وامرؤ القيس ، والنابغة ، والعباس بن مرداس ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير .

لقد جاء الإسلام فبدا أثره واضحا على عقل العربي وسلوكه ، بحيث أصبح كل دارس متخصص يرى تأثيره من وجهة تخصصه أبرز التأثيرات ؛ فدارس الديانات يرى في الإسلام مؤثرا فعالا في الحياة الدينية حول العرب من الشرك إلى التوحيد ، ومن الوثنية المادية إلى التجريد . ودارس الاجتماع يرى الرؤية نفسها في المجال الاجتماعي؛ فقد تحول به العرب من القبلية إلى الدولية ، ومن العصبية الأسرية إلى العصبية الروحية ، ودارس الثقافة يلمس التأثير ذاته ؛ فقد تنازل العربي بالإسلام عن الخيال المجنح في تعبيراته وأفكاره وانتقل إلى أسلوب آخر في التعبير والتفكير يمتزج فيه الخيال بالواقع ، والعاطفة بالفكر ، والشعور بالعقل . وقد رأينا مظاهر ذلك التأثير في النثر العربي على اختلاف فنونه .

والناظر في القرآن الكريم ، وشعر صدر الإسلام ، يخيل إليه أنه أمام مخاصمة من القرآن للشعر ، خصوصا حين يقرأ قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون »(١) . حتى لقد بلغ الوهم ببعض الدارسين أن قرروا أن الإسلام يحرم الشعر أو يكرهه ، متغافلين ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم من تقدير للشعر إلى حد جعله يخلع بردته على الشاعر كعب بن زهير أثر إنشاده قصيدته (بانت سعاد) ، قائلا : « إن من الشعر لحكمة »(٢) ، وما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا بقتل النضر بن الحارث أحد أسرى بدر الذين طالما آذوا الرسول ، فلما قتل عرضت ابنته (قتيلة) لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف ، فاستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه ، وأنشدته أبياتا جاء في آخرها :

---

(١) الشعراء : ٢٢٤ ، ٢٢٦ .
(٢) الشعراء : ١٩٢ ، ١٩٥ .

أمحمد ولأنت ضنء نجيبة … فى قومها ، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما … من الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أخذت بزلة … وأحقهم إن كان عتق يعتق
لو كنت قابل فدية لفديته … بأعز مايفدى به من ينفق

فلما فرغت قال صلى الله عليه وسلم : لو سمعت هذا قبل أن أقتله ماقتلته إلى غير ذلك من الروايات التى تكشف عن احتمائه صلى الله عليه وسلم بالشعر والشعراء ، ولو كان ماجاء به القرآن الكريم خصومة للشعر وتحريما له أو كراهية لما قابل الرسول الأمين الشعر والشعراء بهذا الاحتفاء .

ومن يتأمل الآيات الكريمة يجد القضية التى يعرضها القرآن تبدأ قبل ذلك حيث ينبه تعالى إلى الفرق بين الشعر والقرآن ، ردا على زعم المشركين وادعائهم بأن ماجاء به محمد شعرا أو كهانة أو سحرا تنزلت به الشياطين ، فقال جل شأنه معرفا بالقرآن الكريم : « وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين »(١) . ثم قال تعالى : « وماتنزلت به الشياطين . ومايتبغى لهم ومايستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون »(٢) . إلى أن يقول موضحا الفرق بين القرآن والشعر : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالايفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » فالموازنة صريحة بين القرآن والشعر ، أجاب بها تعالى على دعوى أن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم من قبيل الشعر الذى يلعب بالعواطف ، ويستحوذ على المشاعر . وضح فيها أن القرآن ليس من ذلك الضرب الخادع ، القائم على العاطفة ، وإنما هو كلام صيغ بلسان عربى ليبين الحقيقة ، ويكشف الطريق لذوى العقول التى تقدر على وزن الأمور ، وتسعى لاختيار الحق منها ، فهو وسيلة إنذار وتبيين ، لا استحواذ وتأثير . كما وضح فيها الفرق بين طائفتين من الناس ، إحداهما تهيم وراء مايلعب بمشاعرها وعواطفها ، أهم سماتها الغواية والخيال الجامح حيث يقولون

(١) سورة الشعراء آية ٢١٠ ، ٢١٢ .
(٢) سورة الشعراء آية ٢٢١ ، ٢٢٧

مالايفعلون ، والثانية تقف على أرض صلبة تنطلق منها فى تفكيرها ، وتسير عليها فى سلوكها ، هى أقرب إلى الواقع ، وألصق بالحقيقة ، فهم مؤمنون ، يعملون الصالحات ، ويذكرون الله ، وينتصرون من بعد ظلم ، ليسوا محدرين ولا مستسلمين لأوهام الخيال .

فالقضية ليست قضية الشعر ، بحيث تتبين منها موقف الإسلام من الشعر ، ولكنها قضية الإدعاء بأن ماجاء به محمد شعرا ، ففرق سبحانه بين الشعر وآثاره والقرآن ورسالته وآثاره ، وفرق بين الشعراء المستسلمين لخيالات الشعر واتجاهاته ، وبين الشعراء المؤمنين الذين لايبعدهم الخيال الشعرى عن الواقع .

ويقرر هذا أنهم كانوا حريصين على وصف محمد صلى الله عليه وسلم بالشاعر، إيماء إلى أن دعوته تلك رهن بحياته ، فإذا مات خبا سلطانه على النفوس وضعف حتى أصبح أثرا لا تأثير له ، ومن ثم فهم يتوقعون أن الموقف سيتغير حين يموت محمد ، ولا يكون ثمة ذلك التأثير الشعرى الساحر : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين »[1] هذا وهم المشركين بنوه على حسب تصورهم فى القرآن واعتقادهم أنه نمط من الشعر لايلبث أن تنطفىء جذوته ؛ فإنهم لما رأوا للقرآن ذلك التأثير البالغ على السامع والقارىء — ومادروا أن هناك قولا غير الشعر يبلغ فى التأثير هذا المبلغ — لم يكن أمامهم إلا أن يضفوا على القرآن صفة الشعر وإن كان غير مطابق فى الشكل لما عهدوا وعرفوا من الشعر ، فهو فى وهمهم شعر بتأثيره وليس ببنائه وشكله . ولو كانوا — فى ذلك — يريدونه شعرا من كل الوجوه لما كانوا فى حاجة إلى ذلك الإعلان المتكرر ؛ إذا لكل يعرف فيه تلك الصفة ، إنما هم فكروا وقدروا فلم يصلوا إلى غير ذلك .

من هذا المنطلق الواعى بمقاصد القرآن الكريم احتفل الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر والشعراء دون أن يجد فى ذلك غضاضة أو كراهية ، واحتفل معه الصحابة وسائر المسلمين شعراء وغير شعراء .

فالشعر فى ظلال الإسلام وسيلة من وسائل متعبير يخضع لما خضع له سائر الوسائل

---

(١) سورة الصافات آية ٢٩ ، ٣١ .

التعبيرية من مبادىء الإسلام وقيمه وأخلاقياته . والشعراء فى ظلال الإسـلام كالشعراء فى كل عصر وبيئة متهيئون للتأثر بما يظلهم من موجهات العواطف والتفكير والخيال .

* * *

لا ريب فى أن العصر الإسلامى إمتداد زمانى للعصر الجاهلى ، فما كان عليه الشعر فى العصر الجاهلى لا يمكن أن يتغير طفرة ، وإنما هو خاضع لقوانين الفطرة التى تقوم على التدرج فى الانتقال والتغير فالعرب ـ حين بدأت الدعوة الإسلامية ـ هم عرب الجاهلية شعرا وخلقا وسلوكا . . إلى غير ذلك وإنما بدا أثر الإسلام فى شعرهم حين ذاعت دعوته : خلقت فى السماء .

العربية مبادىء غير المبادىء ، وقيم غير القيم ، وجدت على الأرض العربية ظروف وملابسات غيرت شكلها أو كادت . وقد وضح ذلك كله بعد الهجرة إلى المدينة ، حيث اشتعلت نار الحرب بين مشركى مكة ومسلمى المدينــــة ، وكما شرعت الرماح واستلت السيوف فى هذه الحرب ، سلت الألسنة ، وأذيعت القصائد من الجانبين . وقد لمع فى هذه الحرب من جانب مكة أسماء شعراء كثيرين لم يكن لهم قبل ذلك ذكر ـ مثل ضرار بن الخطاب الفهرى ، وعبدالله بن الزبعرى ، وأبى عزة الجمحى ، وأبى سفيان ابن الحارث ، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ـ وجهوا شعرهم لهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وللصد عن الدين الجديد ، موقف من شعراء المدينة حسان بن ثابت يرد عليهم ، مدافعا عن الرسول وعن الإسلام ، ومعه كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة وكانت معركة حامية الوطيس قدمت كثيرا من الشعر ، بيد أن الذى وصلنا منه قليل مشكوك فى صحته ، لأن رواية ابن إسحاق لم يكن دقيقا فى الرواية والنقل ، وقد نبه إلى ذلك ابن سلام فى قوله عنه : «كان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه[1]»

وتضامن جماعة من شعراء اليهود مع شعراء مكة هجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ودعوا العرب إلى الإعراض عنهم ، وكان فى مقدمتهم كعب بن الأشرف ، الذى بكى قتلى بدر ، واشتط فى عداوته فشبب بنساء الرسول ونساء المسلمين ، مما دفع

---

(١) طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٧

محمد بن مسلمة إلى قتله[1] وإلى جرار هؤلاء وأولئك وقف كثير من شعراء العرب مع قريش يبكون قتلاهم، ويهجون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ويحرضون قريشا على مواصلة الحرب، ومكافحة هذه الدعوة، مثل أمية بن أبي الصلت الذى رثى قتلى بدر من قريش[2]، والأسود بن يعفر بن عبد الأسود الذى مدح قريشا وأشاد بانتصارهم فى أحد[3].

ولما فتحت مكة أقبل كثير من شعراء العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين معتذرين عما بدر منهم. طالبين العفو عما قالوا، مثل كعب بن زهير، وأنس ابن زنيم وأبو سفيان بن الحارث، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضيعه، وكان شديد العداوة لرسول الله، ثم أسلم عام الفتح، وشهد حنينا فأبلى فيها بلاء حسنا، ومما قاله بعد إسلامه[4]:

لعمرك إنى يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أوان حين أهدى وأهتدى

* * *

واستمرت الحرب بلونيها العسكرى والكلامى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مع اختلاف الخصوم، ففى عهد الصديق كانت بين المسلمين والمرتدين من قبائل العرب مثل أسد وغطفان وتميم وحنيفة، وفى عهد عمر كانت الحرب بين المسلمين، وبين الفرس والروم، حيث أقبل المسلمون جميعا على تلك الحروب. وكان من يتخلف عن الحرب لضرورة يحس فى نفسه بألم وضيق، وخرج كثير من الشبان تاركين وراءهم آباء شيوخا يعولونهم، مما دعا عمر إلى أن يسترجع أمثال هؤلاء، من ذلك ما رواه صاحب الأغانى أن المخبل السعدى جزع جزعا شديدا حين خرج ابنه شيبان مع سعد ابن أبى وقاص، وكان قد أسن وضعف، فمضى إلى عمر وأنشده أبياتا منها:

---

(١) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٨٢، ٢٨٣

(٢) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٦٣

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها.

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٧

أيهلكنى شيبان فى كل ليـلة ‏ ‏ لقلبى من خـوف الفراق وجيب
وإن يك عصى أصبح اليوم ذاويا ‏ ‏ وغصنـك من ماء الشباب رطيب
فإنى حنت ظهرى حطوب تتابعت ‏ ‏ فمشى ضعيف فى الرجال دبيب
إذا قال صحبى : ياربيع الا ترى ؟ ‏ ‏ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
ويخـبرنى شيبان أن لن يعقنى ‏ ‏ تعـق إذا فارقتنى وتحـوب(١)
فلا تدخلن الدهر قـبرك حوبة ‏ ‏ يقوم بهـا يوما عليـك حسيب

فبكى عمر ورق له وكتب إلى سعد يأمره برد شيبان على أبيه ، فعاد إليه مكرها ، ولم يزل عنده حتى مات(٢) . وذكر ابن سلام أن أمية ابن حرثان بن الأسكر هاجر ابناه كلاب وأخوه إلى البصرة بعد ما كبر وكف بصره فقال لعمر :

لمن شيخـان قد نشـدا كلابا ‏ ‏ كتاب الله إن حفظ الكتابا(٣)
إذا هتفت حمامـة بطـن وج ‏ ‏ على بيضاتها ذكـرا كلابا(٤)
تركت أباك مرعشـة يـداه ‏ ‏ وأمك ماتسيغ لها شرابا

فكتب عمر إلى أبى موسى بإشخاصه إلى أبيه(٥) . وقال النابغة الجعدى لامرأته حين أظهرت تأثرها لخروجه فى حرب الفرس(٦) :

باتت تذكرنى بالله قاعـدة ‏ ‏ والدمع ينهل من شأنيهما شبلا
يا ابنة عمى كتاب الله أخرجنى ‏ ‏ كرها ، وهل أمنعن الله ماسألا
فإن رجعت فرب الناس يرجعنى ‏ ‏ وإن لحقت بربى فابتغى بدلا
ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرنى ‏ ‏ أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا

---

(١) تحوب : تأثم (٢) الأغانى جـ ١٣ ص ١٨٩ ومابعدها .
(٣) لمن شيخان : يعنى لمن ترك شيخين كبيرين ، نشدا كلابا كتاب الله : استحلفا كلابا بكتاب الله ، حفظ الكتاب : رعى له حرمته وأطاعه .
(٤) وج ـ بفتح الواو ـ الطائف .
(٥) طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ١٩٠ ومابعدها .
(٦) الشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٩٣ .

ولما تولى عثمان الخلافة واصل سياسة عمر ، فأتم فتح إيران وإفريقية ، وفى أثناء ذلك اندلعت الثورة ضده ، وكانت فتنة راح الخليفة ضحيتها ، فبكاه كثير من شعراء المسلمين ، وتولى على رضى الله عنه الخلافة من بعده ، فلم يقر له قرار ، إذ خرج عليه طلحة والزبير ومعاوية ، وآزرتهم السيدة عائشة أم المؤمنين ، واشتدت الفتن وتوالت، والتقى المسلمون فى عدة معارك طاحنة ، لم تتوقف حتى قتل على فبكاه أصحابه وقد كانت هذه الحرب ميدانا لتصاول الشعراء ، وتفننهم فى إسخاط المسلمين على الطرف الآخر، واستثارتهم ضده ، وكل طائفة تحاول أن تقيم الحجة على الآخر .

(١)

إمرؤ القيس

نشأته :

امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو الكندى . ذكرت كتب الأدب له أكثر من إسم ، فاسمه حندج - بضم فسكون - وعدى ، ومليكة - بضم ففتح - وكما تعددت أسماؤه تعددت كناه ، فقيل : أبو وهب ؛ وأبو زيد ، وأبو الحارث . ولقب بامرىء القيس ، وذى القروح ، والملك الضليل . ولقد اتخذ بعض الدارسين هذا التعدد سبيلا إلى التشكيك فى وجوده . مغفلين أن ذلك من طبيعة العرب ، إذ يطلقون على الشخص من الأسماء والكنى والألقاب ما يتناسب مع الأحداث والمواقف التى يتعرض لها ، والصفات التى يكون عليها . هذا إلى أن كثيرا من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان للواحد منهم من الأسماء والكنى والألقاب مايفوق الذى أثر لامرىء القيس بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى بعشرات الأسماء .

لم تعرف سنة مولده ، ويقدر أنه ولد مع مطالع القرن السادس الميلادى .

ولد فى بيت الملك فأبوه وأجداده ملكوا كندة النجدية ، تلك الإمارة العربية التى أقيمت فى مقابلة إمارة المناذرة فى الحيرة الخاضعة لسلطان الفرس ، وإمارة الغساسنة فى الشام الخاضعة لسلطان الروم .

ويعتبر الحارث جد امرىء القيس أهم أمراء الأسرة ، فقد كان حريصا على اتساع نفوذها ، فأكثر من الإغارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته أبناه حجر ومعد يكرب ، ومن بين غاراته تلك غارتان على فلسطين الخاضعة للدولة الرومانية فى عامى ٤٩٧ ، ٥٠١ الميلاديين(١) .

وسنحت له فرصة التوسع حين غضب (قباذ) ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة لرفضه مذهب المزدكية ، فعزله وولى الحارث مكانه ، الذى حرص بدوره

---

(١) راجع تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ٣ ص ٢٤٥

على أن يحمى نفسه ، وينشر سلطانه ، فولى ابناءه على القبائل ، فحمل حجرا على أسد وغطفان ، وشرحبيل على بكر وحنظلة والرباب ، ومعد يكرب على تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بنى دارم بن حنظلة والصنائع وهم بنو رقية قوم كانوا يكونون مع الملوك ، وسلمة على قيس[١] ولكن الحارث لم يهنأ بما وصل إليه طويلا ، فقد توفى قباذ وخلفه كسرى أنو شروان الذى كان يكره المزدكية : فعزل الحارث . وأعاد المنذر إلى الحيرة ، فدارت بينه وبين الحارث حروب طاحنة انتهت بمقتل الحارث وتتبع المنذر أبناءه بالإيقاع بينهم والدس ، وتأليب القبائل عليهم ، فسقط شرحبيل فى معركة بينه وبين أخيه سلمة ، وسقط معد يكرب وسلمة فى معركة تعرف بيوم أوارة الأول[٢] أما حجر فقتلته قبيلة بنى أسد ، على اختلاف فى أسباب ذلك وكيفية ، فقد ذكر صاحب الأغانى فى ذلك أربع روايات مختلفات، روى الأولى عن هشام بن الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وفيها يرجع مقتله إلى أن كان له على بنى أسد إتاوة ، فلما قتل أبوه منعوها وضربوا جباته ، فسار إليهم حجر بجند من ربيعة وقيس وكنانة ، فاستسلموا له ، ولكنه أساء إلى سادتهم وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم فى جنوبى وادى الرمة إلى تهامة ، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود الأسدى ، وشاعرهم عبيد بن الأبرص فاستعطفه عبيد بقصيدة يقول فيها :

يا عين فابكى ما بنى ... أسد فهم أهل الندامة
أهل القباب الحمر والنـ ... ـعم المؤبل والمدامة[٣]
حلا أبيت اللعن حـ ... ـلا إن فيما قلت آمه[٤]
إما تركت تركت عفـ ... ـوا أو قتلت فلا ملامة
أنت المليك عليهم ... وهم العبيد إلى القيامة

---

(١) المرجع السابق ج٣ ص ٢٤٣ وما بعدها ، والأغانى ج ٩ ص ٩٠ وما بعدها طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٨٨٧ طبعة ليدن ، وابن الأثير ج ١ ص ٢٢٨

(٣) المؤبل بضم الميم وفتح الهمزة : المقتنى .

(٤) حلا : أى تحلل من يمينك ، والآمة : العيب

ذلوا لسوطك مثل ما ذل الأشيقر ذو الخزامه(١)

فاستجاب حجر لهم ، وعفا عنهم ، ولكنهم أضمروا له الانتقام ، فلما سمحت لهم الفرصة قتلوه ، وانتهبوا أمواله .

وروى الثانية عن أبي عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ هـ ، وتتلخص في أن حجرا لما خاف من بني أسد استجار بعوير بن شجنة التميمي لبنته هند وأهله ، ثم مال على بعض بني سعد بن ثعلبة فأدركه علباء بن الحارث الأسدي وغافله وقتله .

وروى الثالثة عن أبي الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، وفيها أن حجرا لما استجار عوير بن شجنة تحول عن بني أسد وأقام في كندة مدة ، جمع منهم جمعا عظيما سار به إلى بني أسد ، فتآمرت بنو أسد بينها ، وقررت مفاجأته ، فساروا لقتاله ، فاقتتلوا قتالا عنيفا ، فحمل صاحب أمرهم علباء ابن الحارث على حجر فقتله ، وانهزمت كندة ، وفيهم يومئذ امرؤ القيس ، فهرب على فرس له أشقر ، ولكنهم قتلوا من أهل بيته طائفة ، وأسروا أخرى ، ونهبوا أموالهم .

ونقل أبو الفرج الرواية الرابعة عن ابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ ، وتقول إن حجرا رجع بعد موت أبيه إلى أسد ، وكان قد أساء ولايتهم فاجتمع أمر بني أسد على محاربته والخروج عليه ، فخرج إليه بعض شجعانهم ، وقتلوا من كان يقدم ركبه من غلمانه وسبوا جواريه ، ولما علم حجر بما صنعوا قاتلهم فهزموه وأسروه ، ووثب فتى منهم كان له عنده ثأر فقتله(٢) .

* * *

ولقد كثرت الروايات والأقاصيص التي تناولت حياته بالوصف والتعليل ، ولكننا لا نجد رواية منها تسلم من الطعن أو الشك فيها ، ومما ساعد على ذلك تشابه اسمه مع غيره من شعراء الجاهلية ، فقد روى أنه كان في الجاهلية ستة عشر شاعرا كلهم يسمى امرؤ القيس .

---

(١) الأشيقر تصغير الأشقر : الأحمر من الدواب ؛ والخزامة حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير يشد بها الزمام ، فإن كانت من صفر فهي برة .

(٢) الأغاني ج ٩ ص ٨٣ وما بعدها طبعة دار الكتب المصرية .

وتـكاد تلتقى الروايات على أنه لم ينشأ فى كنف أبيه ، فابن قتيبـة يروى(١) أنه رأى من أبيه جفوة فلحق بعمه شر حبيل ، فأقام فى بنى دارم حينا، ويذكر مرة أخرى أن أباه طرده لما صنع فى الشعر بفاطمة ما صنع ، وكان لها عاشقا ، فطلبها زمانا فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرة ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان فقال : (قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ حجرا أباه دعا مولى له يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس وائتنى بعينيه ، فذبح جؤذرا وأتاه بعينيه ، فندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن إنى لم أقتله ، قال : فأمتى فانطلق فإذا هو قد قال شعرا فى رأس جبل ، فرده إلى أبيه ، فنهاه عن قول ، الشعر ، ثم إنه قال : (ألا أنعم صباحا أيها الطلل البالى) فبلغ ذلك أباه فطرده ، فبلغه مقتل أبيه وهو بدمون

وصاحب الأغانى يروى عن ابن الكلبى أن حجرا كان طرد امرأ القيس وآلى ألا يقيم معه أنفة من قوله الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فكان يسير فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طىء وكلب وبكر بن وائل ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معـه ، وشرب الخمر وسقاهم ، وغنته قيانه ، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى غيره ، وظل على هذا الحال إلى أن بلغه مقتل أبيه(٢) .

وكان لنشأته هكذا بعيدا عن رعاية أبيه أثر بالغ فى انحراف سلوكه ، وخلوده إلى اللهو والعبث ، وبعده عن مسئوليات الحكم والحياة ، حتى إنه حين بلغه مقتل أبيـه وجه إليه اللوم على ما كان منه فى شأنه ، إذ أهمل إعداده وإشراكه فى معالجة المشكلات فافتقد الخبرة بالحياة ، والتجربة ، فقال : ضيعنى صغيرا ، وحملنى دمه كبيرا(٣) .

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، أو لم تصح واحدة منها ، فإن حياته تشير إلى أنه حرم التوجيه والإعداد ، وترك حبله على غاربه دون رعاية أو تقويم ، فانطلق يصرعه مستندا إلى جاهه وثراء أسرته الذى يجد فيه المعين الثر ، فسار ومن خلفـه طائفة من الشذاذ يتلقفون اللقمة من حوله ، ويلتقطون النعيم فى جواره .

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠٧ ، ص ١٢٢ بتحقيق أحمد محمد شاكر .

(٢) الأغانى ج ٩ ص ٨٧ .

(٣) الأغانى ج ٩ ص ٨٨ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ١٠٧

وما زال على هذا الحال إلى أن قتل أبوه ، فأسقط في يده ، وحال أن يجد لنفسه سبيلا ليثأر لأبيه أو يحتفظ بكيانه وسلطانه ، فكافح في سبيل ذلك وجاهد ، وظل ينتقل بين القبائل يطلب منها العون على بني أسد ، ولكن دون جدوى إلى أن مات ، ويغلب على الظن أن موته كان في الفترة بين سنتي ٥٣٠ و ٥٤٠ م

شعـــره :

على الرغم مما أحاط بشعر امرىء القيس من ملابسات تشكك فيه، وتشير إلى أن من بينه الكثير المنحول . فإن مما نطمئن إلى نسبته إليه من ذلك الشعر ما يعكس حياة صاحبه ، ويبين ما كان عليه قبل مقتل أبيه ، وما آل إليه أمره بعد ذلك : حتى تقسم شعره قسمين ترى في أحدهما العبث واللهو ، وترى في الآخر الحزن والجـــد والحيرة والقلق

ومع هذا التغير الطارىء على حياة الشاعر ؛ تنظر في شعره فلا تكاد تجد فيه خروجا على مؤثرات بيئته الحضرية المترفة الفارغة ، التي وقفت بخبراته عند حد معين ضيق لا يكاد يتجاوزه .

يتمثل ذلك في معانيه وأخيلته المكررة المعادة من قصيدة لأخرى ، حتى كأنه فقد القدرة الشعرية ، أو نضب فكره فلم يعد يقع على الجديد من المعاني، وفي الحقيقة أنه ما كان هذا ولا ذاك ، بل إنه كسل المترف المنصرف عما دون لذائـــذه عن تحريك عقله وإعمال فكره اعتمادا منه على ما سبق له . مثال ذلك قوله في معلقته :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجـرد قيـد الأوابد هيـكل

وقوله في مطولته الثانية اللامية .

وقد اغتدى والطـير في وكناتها لغيث من الوسمي رائده خالِ

وقوله في بائيته :

وقد أغتدى والطـير في كناتها وماء الندى يجرى على كل مذنب

بمنجرد قيـد الأوابد لاحـه طراد الهـوى كل شـأو مغرب

وقوله فى ضاديته :

وقد أغتدى والطير فى وكراتها   بمنجرد عبل اليـدين قبيض[1]

ومثال ذلك — كذلك — قوله فى معلقته :

فعادى عـداء بين ثور ونعجـة   دراكا ولم ينضح بماء فيغسل

وقوله فى مطولته اللامية :

فعادى عـداء بين ثور ونعجـة   وكان عداء الوحش منى على بال

وقوله فى البائية :

فعادى عـداء بين ثور ونعجـة   وبين شبوب كالقضيمة قرهب[2]

ومثال ذلك قوله فى معلقته :

فعن لنا سـرب كأن نعاجه   عذارى دوار فى الملاء المذيل

وقوله فى لاميته :

ذعرت بها سربا نقيا جلوده   وأكرعه وشى البرود من الخال

وقوله فى بائيته :

فبينا نعاج يرتعين خميـلة   كمشى العذارى فى الملاء المهذب

وقوله فى ضاديته :

ذعرت به سربا نقيـا جلوده   كما ذعر السرحان جنب الربيض[3]

ومثال ذلك قوله فى المعلقة فى وصف فرسه :

له أيطـلا ظبـى وساقا نعامة   وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وقوله فى البائية :

له أيطـلا ظـبى وساقا نعامة   وصهوة عير قائم فوق مرقب

* * *

وتتراءى محدودية امرىء القيس فى دوله الشعرية التى وقف بها عند حد

(١) العبل : الضخم ، والقبيض : الشديد ، وقيل : السريع .

(٢) الشبوب : الشباب ، والقضيمة : الصحيفة البيضاء ، والقرهب بفتح فسكون فالشيخ : المسن

(٣) السرحان بكسر السين : الذئب ، والربيض : الغنم .

الاستدعاءات الحيوية ، فأنت فى المرحلة اللاهية من حياته لا تكاد تعثر فى شعره إلا على صورة اللاهى العابث المنفرد من مجتمعه الذى لا يشارك عشيرته مشاكلها ، بل ولا يحس بما يدور حوله ، فهو فى شعر تلك المرحلة مقصور على مطاردة امرأة يستعطفها ويستميلها بشتى الوسائل ، فتارة يلجأ إلى وصف مغامراته النسائية وطورا يلجأ إلى الحديث عن اشتغاله بها ، والسهر معها ، والتفكير الدائم فيها ، وثالثة يستمر من ملاهيه وسياحاته العابثة وما يحدث فيها من لهو وإمتاع جسمى؛ فكان يحق السابق إلى هذا الغزل الفاحش صريح الذى دار بالبطولة فى نطاق المرأة ومتع الجسم وغير ذلك من الماديات .

ومطولته المشهورة بالمعلقة خير ما يمثل شعر تلك المرحلة وقد سار فيها مسارا خاصا. فقد بدأها بمطلع عده القدماء من مبتكراته ، استوقف فيه من معه ليستعيدوا ذكريات الأحباب ومنازلهم ، ومستعرضا هذه المنازل وما آلت إليه بعد ارتحال أهلها ، متذكرا حاله يوم ارتحلوا ، منتقلا من ذلك إلى تعداد مواقفه النسائية الماثلة ، مستثيرا بذلك غيرة صاحبته فاطمة لعلها تستجيب له .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول وحومل(١)
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل(٢)
ترى بعر الآرام فى عرصاتها   وقيعانها كأنه حب فلفل(٣)
كأنى غداة البين يوم تحملوا   لدى سمرات الحى ناقف حنظل(٤)

---

(١) السقط : منقطع الرمل ، واللوى بكسر اللام : حيث يلتوى ويرق ، وإنما خص منقطع الرمل والرمل وملتواه لأنهم كانوا لا ينزلون إلا فى صلابة من الأرض ليكون ذلك أثبت لأوتاد الأبنية ، وأمكن لحفر النؤى . والدخول وحومل : موضعان .

(٢) توضح والمقراة : موضعان ، لم يعف : لم يدرس ، والرسم : الأثر ، والجنوب : الريح القبلية نسبة إلى القبلة ، والشمال : الريح الجوفية نسبة إلى الجوف فى شمال مكة .

(٣) الآرام : الظباء البيض : وعرصة الدار ساحتها ، والقيعان جمع قاع : المستوى من الأرض .

(٤) السمرات جمع سمرة بضم الميم : شجر الصمغ العربى . والناقف : المستخرج حب الحنظل ، والحنظل له حرارة تدمع منها العين .

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون : لا تهلك أسى وتجمل
وإن شفائى عبرة إن سفحتها وهل عند رسم دارس من معول[١]
كدينك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل[٢]
ففاضت دموع العين منى صبابة على النحر حتى بل دمعى محملى[٣]

ويواصل الشاعر فى ذلك السبيل ، فيذكر ما كان فى دارة جلجل بينه وبين عنيزة وصواحبها ، ثم يخلص من ذلك ليتجه إلى صاحبته معاتبا فى رقة ، مذكرا بما يكنه لها من هوى ، متقربا منها بشتى الوسائل معترفا بصبواته ومافى سلوكه من ضعف أمام النساء ، طالبا منها قبوله على علاته ، وذلك فى قوله :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى[٤]
وإن كنت قد ساءتك منى خليقة فسلى ثيابى من ثيابك تنسل[٥]
أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتقدحى بسهميك فى أعشار قلب مقتل[٦]
وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل[٧]

---

(١) المعول : المعتمد ، من التعويل على الشىء ؛ أى إن البكاء عند رسم دارس لا يجدى شيئا .

(٢) الدين بكسر الدال : الدأب والعادة ، مأسل بفتح السين : اسم جبل ، وبكسر السين اسم ماء .

(٣) المحمل : سير يحمل به السيف .

(٤) بعض هذا التدلل : كفى عن بعضه ، وأزمعت : عزمت والصرم : القطع والفراق ، فأجملى : من التجمل وهو ترك ما يقبح .

(٥) سلى ثيابى من ثيابك : أخرجى أمرى من أمرك ، وتنسل : تسقط .

(٦) ذرفت : سال دمعها ، والقدح : الحرق والتأثير فى الشىء ، والأعشار جمع عشر بكسر العين : القطع والأجزاء .

(٧) شبه صاحبته بالبيضة لبياضها ورقتها ، وأضافها إلى الخدر لأنها مكنونة غير متبذلة . غير معجل : لم أشغل عنها بغيرها .

تجاوزت أحراسا وأهوال معشر ... على حراص لو يشرون مقتلى(١)
إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل(٢)
فجئت وقد نضت لنوم ثيابهـا ... لدى الستر إلا لبسة المتفضل(٣)

ويواصل حديثه ، فيذكر خوفها عليه وعلى نفسها الفضيحة وانكشاف الأمر ، وكيف خرج بها من البيوت متنحيا مكانا مأمونا ، ويفصل ماكان بينه وبينها فى تلك النجوة ، واصفا محاسنها ، ومصادر الإثارة فيها ، ومظاهر جمالها ، ومفاتن جسمها وأطرافها ، ويخلص من ذلك إلى أن تلك التى أذكر لاتستطيع أن تنتزعى من حبك والاشتغال بك ، إنى على الرغم مما أسمعه عنك من الخصوم ، لا أنقطع عن التفكير فيك ، والاهتمام بأمرك ، فليلى مظلم ثقيل يحتوينى بأنواع الهموم ويمتد بى فلا أكاد أجد ماينبىء عن نهايته ، وماطرأ على الليل طول ولا ثقل ، ولكنها هموم الحب وشقوته تجعلنى أشعر بما لايشعر به غيرى وهكذا أظل ليلى قلقا أرقب زوالة وهو لايتحرك ، حتى خيل إلى أن نجومه شدت إلى الجبال والأحجار الكبيرة فأصبحت ممنوعة من الحركة والزوال :

ألا رب خصم فيك ألوى رددته ... نصيح على تعذاله غير مؤتل(٤)
وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهمـوم ليبتلى(٥)
فقلت له لما تمطى بصلبـه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل(٦)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

---

(١) يشرون بكسر الشين وتشديد الراء : يظهرون .
(٢) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للمغيب فأرتك جانبا منها مثلما ترى من جانب الوشاح حين يتلقاك بناحية منه ، والمفصل : الذى جعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤة .
(٣) نضت : نزعت، لبسة بكسر اللام : هيئة اللبس، والمتفضل : من يلبس ثوبا واحدا.
(٤) الألوى : شديد الخصومة ، والمؤتلى : المقصر .
(٥) السدول : الستور
(٦) تمطى : امتد ، والصلب . الظهر ، وناء بكلكل : نهض بصدره .

فيـالك من ليـل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل[١]
كأن الـثريا علقت فى مصامها ... بأمراس كتان إلى صم جندل[٢]

ومع هذا السهر الطويل المضنى ، ومع هذا الألم الممض ، فإنى قد أباكر الصيد قبل خروج الطير من أعشاشها بفرس قوى عنيف ، لايملك زمامه إلا فارس مدرب ، فلا يتصور من يرانى على هذا الحال أنى قضيت ليلى مؤرقا مسهدا ؛ فأنا مع ما أعانى قوى فتى :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيـد الأوابد هيـكل[٣]
مكر مفـر مقبـل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل[٤]
كميت يزل اللبـد عن حال متنـه ... كما زلت الصفواء بالمتنزل[٥]
مسح إذا ما السابحات على الونى ... أثرن غباراً بالـكديد المركل[٦]
على العقب جياش كأن اهتزامه ... إذا جاش فيه حميه غلى مرجل[٧]

---

(١) المغار : شديد الفتل ، ويذبل : اسم جبل .

(٢) المصام : مكانها الذى لاتبرحه . والأمراس جمع مرس بفتحتين : الحبـل ، والجندل : الحجارة الـكبيرة ، والصم جمع أصم : الصلب الشديد .

(٣) الوكنات جمع وكنة بضم الواو : مواقع الطير ، والمنجرد : الفرس قصـير الشعر ، والأوابد جمع آبدة : الوحوش ، والهيكل : الضخم .

(٤) الجلمود : الحجر العظيم الصلب ، حطه : أسقطه .

(٥) الـكميت : الفرس الأحمر فى سواد ، يزل : يسقط ، المتن : الظهر ، الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

(٦) مسح : يسح العدو مثل سح المطر ، السابحات : الخيـل المسرعة ، الونى : الفتور ، الـكديد : ماغلظ من الأرض ، المركل : الذى ركلته الخيل بحوافرها . يعنى أنه فى جريه لايثير غبارا كما تصنع السابحات لأن حوافره لاتـكاد تلمس الأرض .

(٧) العقب بفتح العين وسكون القاف : جرى بعد جرى ، جياش : يجيش فى جريه كما تجيش القدر على النار ، الاهتزام : صوت الجوف عند الجرى ، والحمى بفتح الحاء وسكون الميم : الغلى ، والمرجل : القدر .

يطير الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقل(١)
درير كخذروف الوليد أمره تقلب كفيه بخيط موصل(٢)
له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل(٣)
كأن على الكتفين منه إذا انتحى مداك عروس أو صراية حنظل(٤)
فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار فى الملاء المذيل(٥)
فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم فى العشيرة مخول(٦)
فألحقنا بالهاديات ودونه جواحرها فى صرة لم تزيل(٧)

ويصف مشهد الصيد وما يشتمله من صراع بين فرسه هذا وبين جماعة البقر ينتهى بصيد ثور ونعجة يقوم الطهاة بإعداد لحومهما للطعام .

ثم ينتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التى ألمت بهم فى رحلتهم تلك ، وكيف بدأ وميض البرق الذى يشبه انتشاره وتشعبه فى السحاب المتراكم حركته اليدين

---

(١) يطير : يسقط ، والصهوات جمع صهوة : موضع اللبد من ظهره ، يلوى بأثواب العنيف : يذهب بها ، والعنيف : الأخرق ، والمثقل : الثقيل الذى لا يحسن الركوب .

(٢) درير : سريع ، الخذروف : حصاة مثقوبة يجعل الصبيان فيها خيطا ميديرها ، وجعل خيط الخذروف موصلا لأنه قد لعب به كثيرا حتى حف وأخلق وتقطع خيطه فوصل ، فذلك أسرع لدورانه .

(٣) الأيطل . الخاصرة ، والسرحان : الذئب ، تتفل : الثعلب ، والارخاء : العدو ، والتقريب : القفز .

(٤) مداك العروس بفتح الميم : حجر تسحق عليه طيبها فيبرق . والصراية : بفتح الصاد : الحنظلة الصفراء البراقة . شبه حارك الفرس إذا اعترض بهذين فى الملاسة والبريق .

(٥) عن : ظهر ، دوار بضم الدال : صنم يدورون حوله ، الملاء الملاحف ، المذيل : الطويل المهذب .

(٦) الجزع : الخرز اليمانى ، الجيد : العنق ، معم مخول : كريم العم والخال ، شبه بقر الوحش فى بريقهن وما فيهن من البياض والسواد بالخرز المفصل باللؤلؤ النفيس فى عنق صبى كرم أعمامه وأخواله .

(٧) الهاديات : المتقدمات من البقر ، الجواحر . المتخلفات منها ، والصرة : الجماعة التزيل : التفرق .

وتقليبهما أو يشبه مصابيح راهب منقطع فى الصحراء يتوهج نورها فى الظلام الدامس بما يمدها من زيت . وكيف قعد هو وأصحابه ضارج والعذيب يتأملون ، وميض البرق وتألقه فى السحاب متعجبين من بعد ما يتأملون . ثم كيف أضحى هذا السحاب يسح الماء للرة بعد المرة فى غزارة فيقتلع الأشجار العظام ويسقطها على رؤوسها ، ولم يدع هذا السيل بقرية تيماء شيئا من جـذوع النخل ولا شيئا من القصور والأبنية إلا ما كان منها مرفوعا بالصخور أو مجصصا . والتفت السيول وما تحمل من غثاء بجبل المجيمر فى أرض فزارة فبدا كأنه فلـكة مغزل ، أما الجبل أبان فبدا من هذا السيل والغثاء كشيخ ملتف فى كساء مخطط ، وألقى هذا المطر ثقله بصحراء الغبيط فأنبت الـكلأ وضروب الأزهار فبدت مزخرفة زاهية كأنها الثياب التى ينشر التاجر اليمانى حين يعرضها للبيع . وأصبح الناس فوجدوا السباع غرقى فى المياه تبدو رءوسها فيها من بعيد كأنها جذور البصل البرى . وقد تراكم السحاب وأحاط بنا من كل جانب ، حتى يعتقد من يتأمله أن أيمنه على الجبل قطن فى ديار بنى أسد ، وأن أيسره على جبـلى الستار ويذبل مما يلى بلاد البحرين . ولقد عم المطر جبـل بسيان حتى اضطر الأوعال المستقرة فيه إلى النزول منه :

أحار ترى برقا كأن وميضـه	كلمع اليدين فى حبى مكلل(١)
يضىء سناه أو مصابيح راهب	أهان السليط فى الذبال المفتل(٢)
قعـدت له وصحبتى بين حامر	وبين إكام بعـد ما متأمـل(٣)
وأضحى يسح الماء عن كل فيقة	يكب على الأذقان دوح الـكنهبل(٤)
وتيماء لم يترك بها جذع نخـلة	ولا أطما إلا مشيدا بجندل(٥)

---

(١) حار : ترخيم حارث ، يعنى يا حارث ، الوميض : لمع البرق ، الحبى : ما عرض من السحاب وارتفع ، والمـكلل : السحاب فى جوانب السماء يشبه الإكليل .

(٢) السنا : الضوء ، السليط : الزيت ، والذبال : الفتائل . وأهان السليط : كثر منه

(٣) حامر ، وإكام : موضعان ، بعد ما متأملى بضم الباء : يريد بعد ما تأملته ، أى تأملته من مكان بعيد .

(٤) الفيقة بكسر الفـاء : ما بين الحلبتين ، الـكنهبل : ما عظم من شجر العضاه ، والدوح جمع دوحة : الشجرة كثيرة الورد والأغصان .

(٥) الأطم بضمتين : البيت المسطح .

كأن طميـــة المجيمر غدوة ... من السيل والغثاء فلـكة مغزل(١)
كأن أباناً في أفانـين ودقـــه ... كبير أناس في بجـاد مزمل(٢)
وألقى بصحراء الغبيط بعــاعه ... نزول اليماني ذى العياب المخول(٣)
كأن سباعا فيــه غرقى غــدية ... بأرجائه القصوى أنابيش عنصل(٤)
على قطـن بالشيم أيمن صـوبه ... وأيسره على الستار فيذبل(٥)
وألقى ببسيان مع الليـل بركه ... فأنزل منه العصم من كل منزل(٦)

* * *

كما تتراءى تلك المحدودية في صوره البيانية التي قامت على التفسير والإضـافة في أكثر شعره ، بحيث أصبح التشبيه من معالم امرىء القيس المميزة له عن غيره من معاصريه ، فـكان — على ماقال ابن سلام — أحسن طبقته تشبيها(٧) . ففي شعر امرىء القيس نجد التشبيهات متلاحقة متوالية ، حتى يخيل إليك أنه ماقال الشعر إلى ليقـدم هذه التشبيهات المتراكمة .

---

(١) طمية : اسم جبل ، والمجيمر : أرض لبنى فزارة ، الغثاء : ماحمله السيل ، وفلـكة المغزل بفتح الفاء : ما استدار فوق رأسه .

(٢) أبان : اسم جبل ، أفانين الودق : ضروب المطر ، البجاد : كساء مخطط ، ومزمل : نعت لـكبير أناس ، يعنى هو ملتف بثيابه .

(٣) الغبيط : موضع ، البعاع بفتح الباء : الثقل واستعاره لـكثرة المطر ، العياب بكسر العـين : الحقائب ، المخول بالواو المشددة المفتوحة : كثير المتـاع والغلمان الذين يصحبونه .

(٤) غدية بضم الغين وفتح الدال : حين يصبح الناس ، الأنابيش جمع أنبوش : أصول النبت ، والعنصل بضم العين والصاد : البصل البرى .

(٥) قطن : جبل في ديار بنى أسد ، الشيم بفتح الشين المشددة : النظر إلى البرق والمطر ، والستار ويذبل : جبلان مما يلى البحرين .

(٦) بسيان بضم الباء : جبل ، والبرك بفتح الباء وسكون الراء : الصدر : العصم بضم العين وسكون الصاد : الأوعال .

(٧) راجع طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٥٥ بتحقيق شاكر .

وقد لفتت كثرة التشبيهات فى شعر امرىء القيس وجودتها أنظار الباحثين القدماء ، حتى لقد أفرد ابن سلام للمستحسن منها فصلا فى طبقاته[1] ، بيد أنه لم يبين نواحى الحسن فيما ذكر ، وإنما اكتفى بسردها ، على نحو يشير إلى كثرتها فى شعره كثرة ملفتة ، والذى أداه فى تلك الكثرة التشبيهية أنها أمارة من أمارات محدودية امرىء القيس ، فقد رأى فيما لديه من معارف بيئته ما يكفى لاستغلاله فى تفسير أخيلته وتقديمها إلى الآخرين ، ومن ثم ركز عليها ، ودار فى محورها ، حتى لا يرهق نفسه بكد الخواطر فى التصوير والابتكار وما يتطلبه من نظر محص مستقص متتبع ليرسم الصورة من مكمنها الحقيقى .

ويلاحظ أن امرأ القيس يستمد تشبيهاته من واقعه المادى المترف ، ومن بيئته العربية المتحضرة ، بحيث تجد فى تشبيهاته البدوى القح إلى جوار الحضرى الطارىء فالمرأة عنده تشبه البقرة الوحشية فى جمال عيونها ، وتشبه البيضة فى رقتها ولونها ، وشعرها يشبه عذق النخلة المتداخل فى غزارته،وخصرها كالزمام فى اللين ، وترائبها كالمرآة ، وساقها كالبردى فى بياضه ، وأصابعها كمساويك شجر الإسحل . والفرس عنده يشبه مداك العروس ، والصخرة الملساء تسقط من علل ، وخذروف الوليد ، وصراية الحنظل والعقاب وخاصرتاه تشبه خاصرة الظبى ، وساقاه تشبه النعامة . ولم يقف فى تشبيهاته عند حد المرأة والفرس فقد شبه دم الوحش الذى لطخ صدر فرسه حين صاده بعصارة حناء صبغ بها شيب فى قوله :

كأن دماء الهاديات بنحره   عصارة حناء بشيب مرجل

شبه قلوب الطير الرطبة بالعناب وقلوبها اليابسة بالتمر الردىء الجاف ، مطروحة أمام وكر العقاب بعد أن يأكل لحم الطيور التى يصيدها .

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العناب والحشف البالى

* * *

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٨١

هذا ويلاحظ الدارس أن امرأ القيس لم يقصر صوره على التشبيه ، فقد استعار وجانس وطابق كما فى قوله .

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

وقوله مجانسا :

الا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وقوله : وإن كنت قد ساءتك منى خليقة فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

وكقوله مطابقا :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقوله : غدائره مستشزرات إلى العلا تضل المدارى فى مثنى ومرسل

* * *

وفى المرحلة الثانية بعد مقتل أبيه تجد فيه الحزين المهموم الحائر الذى لا يجد من خبراته ما يعده بمخرج لأزمته التى فوجىء بها على غير توقع ؟ فهو طالب للثأر ، يسعى بين القبائل فى تجنيد قوة يحقق بها غايته ، يمدح هذا لأنه استجاب لمطلبه ، ويهجو ذاك لأنه سخر منه ، ويفخر بأجداده وفروسيته لإصراره على الثأر لأبيه . مثل قوله :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب[1]
عصافير وذبان ودود وأجرأ من مجلحة الذئاب[2]
وكل مكارم الأخلاق صارت إليه همتى وبه اكتسابى
فبعض اللوم عاذلتى فإنى ستكفينى التجارب وانتسابى

---

(١) موضعين بكسر الضاد والعين : مسرعين ، لأمر غيب : يريد به الموت ، ونسحر : نلهى ونخدع .

(٢) الذئاب المجلحة : المصممة على الشىء التى لا ترجع عما تريد . يعنى : نحن فى الضعف مثل هذه المخلوقات ، وفى ركوب الآثام أجرأ من مجلحة الذئاب .

إلى عرق الثرى وشجت عروقى ‏ ‏ ‏ وهذا الموت يسلبنى شبابى(١)
ونفسى سوف يسلبها وجرمى ‏ ‏ ‏ فيلحقنى وشيكا بالتراب(٢)
ألم أنض المطى بكل خرق ‏ ‏ ‏ أمق الطول لماع السراب(٣)
وأركب فى اللهام المجر حتى ‏ ‏ ‏ أنال مآكل القحم الرغاب(٤)
وقد طوفت فى الآفاق حتى ‏ ‏ ‏ رضيت من الغنيمة بالإياب(٥)
أبعد الحارث الملك بن عمرو ‏ ‏ ‏ وبعد الخير حجر ذى القباب
أرجى من صروف الدهر لينا ‏ ‏ ‏ ولم تغفل عن الصم الهضاب(٦)
وأعلم أنى عما قليل ‏ ‏ ‏ سأنشب فى شبا ظفر وناب(٧)
كما لاقى أبى حجر وجدى ‏ ‏ ‏ ولا أنسى قتيلا بالكلاب(٨)

يضاف إلى هذا ما يتضح فى شعر امرىء القيس من ميله إلى الصورة التفسيرية أو الإضافية وهى القائمة على ربط شىء بشىء ، فى هيئة تشبيه أو استعارة ؛ إذ ذلك يتلاءم مع ظروف حياته وما فيها من ترف يدعو إلى الدعة والراحة ولا ريب فى أن الصورة التفسيرية أيسر من الصورة الابتكارية التى يضطر معها المصور على الرجوع إلى العناصر المخترنة فى الذهن ليكون منها مجموعة ويلمها من شتات ليصنع منها صورة تكشف عن إحساسه الداخلى تجاه الموقف أو المشهد .

حقيقة هذه السمة التصويرية تكاد تلازم أكثر شعراء الجاهلية ، ولكن كل شاعر يحيط به من الظروف ما يبعثه على سلوك هذا الطريق دون غيره والذى أراه دفع

(١) وشجت عروقى : اشتبكت واتصلت ، يقول : إن أصله فى حسبه ثابت راسخ
(٢) الجرم : البدن ، والوشيك : السريع .
(٣) أنضى المطى : أهزلها ، الخرق : الفلاة ، الأمق : واسع الطول .
(٤) اللهام بضم اللام الجيش الكثير الذى يسير كل شىء لكثرته فكأنه يلهمه ويبتلعه ، والمجر : الكثير ، والقحم بضم القاف وفتح الحاء جمع قحمة دومة من شرف ومنزلة ينالها وهى من الاقتحام وهو التزاحم فى شدة ، والرغاب : الواسعة المكينة .
(٥) طوفت . أكثرت الطواف ، والمشى فى نواحى الأرض حتى شق على ذلك .
(٦) الصم . جبال ليست بالشوامخ ، والهضاب : الصلبة .
(٧) شبا كل شىء حده ، سأنشب . أى أعلق وأثبت بأظفار المنية .
(٨) الكلاب بضم الكاف . اسم واد كانت فيه وقعة قتل فيها عمه شرحبيل .

امرأ القيس إلى هذا المسلك التصويرى بالإضافة إلى الدوافع العامة ، هو ميله إلى السهل الميسور الذى يحقق له التفوق والامتياز .

وإذا ذكرنا أن امرأ القيس من أوائل شعراء العصر ، وذكرنا ما كان عليه فى مساره الشعرى ، اتضح لنا أنه تسنم كرسى الأستاذية لمن أتى بعده من الشعراء ، فسلكوا مسلكه ، فأصبحوا مقتدين به فى الأغراض ، أو فى التصوير . وفى ذلك يقول ابن سلام : «سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها، استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء، منها استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ، ورقة النسب وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيد الأوابد وأجاد فى التشبيه، وفصل بين النسيب وبين المعنى ، وكان أحسن أهل طبقته تشبيها »(١)

وصفوة القول أن امرأة القيس على الرغم من محدوديته التى اضطرته إليها ظروف بيئته كان شاعرا أوتى من أسباب التعبير والتصوير ما جعله فى مقدمة شعراء الجاهلية .

---

(١) طبقات فحول الشعراء حـ ١ ص ٥٥ ، والشعر والشعراء جـ ١ ص ١١٠

(٢)

عدى بن زيد

عدى بن زيد العبادى التميمى ، وهو إنما يشتهر بالنسبة الأولى ، وهى نسبة دينية لا عرقية أطلقت على طائفة من العرب ــ على اختلاف قبائلهم ــ اجتمعوا بالحيرة على النصرانية فسموا عبادا لأنهم عباد الله تمييزا لهم من الوثنيين أو أنفة من أن يطلق عليهم « عبيد » إلى غير ذلك من التعليلات التى زخرت بها كتب الأدب القديمة والحديثة (١) .

أما النسبة الثانية فهى نسبة عرقية قبلية تشير إلى أنه من تميم ، وبعض المؤرخين يقف به عند ذلك ، والبعض الآخر يصل منها إلى مضر بن نزار .

ولد ونشأ بالحيرة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى فى أسرة ذات علاقات وطيدة بالأكاسرة ملوك فارس والمناذرة عمالهم على الحيرة فقد تولى جده حماد الكتابة للنعمان الأكبر ، واستطاع أبوه زيد بن حماد أن يحذق الكتابة العربية فى حياة أبيه ، فلما توفى حماد انتقل زيد إلى رعاية صديق والده من الدهاقين المرازبة العظماء(٢) فعلمه الفارسية ، ومكن له من أن يكون على البريد لكسرى ، فمكث يتولى ذلك زمانا .

ولما مات النعمان الأكبر والى كسرى على الحيرة واختلف أهل الحيرة حول من يملكونه عليهم حتى يختار كسرى ملكا آخر ، أشار عليهم الدهقان أن يختاروا زيد ابن حماد ، فملكوه عليهم إلى أن عقد كسرى للمنذر بن ماء السماء .

---

(١) راجع فى ذلك الأغانى ص١٥٦ ج١١ ، ومعجم البكرى ج ١ ص٢٣ ومابعدها وسمط اللآلى للبكرى ص ٢٢١ والاشتقاق لابن دريد ص ١١ والعصر الجاهلى لشوقى ضيف ص ١٠٠ الطبعة السابعة .

(٢) الدهقان فارسى يعنى التاجر ، والمرازبة جمع مرزبان وهو الفارس الشجاع .

ملكه وريه عظمته ، وكان من بين البلاد التى طاف بها بلاد الشام ، ولكنه لم يجد فيها ما يشغله عن الحيرة فقال موازنا بين دمشق والحيرة مفضلا الأخيرة على الأولى :

رب دار بأسفل الجزع من دو   مة أشهى إلى من جيرون
وندامى لا يفرحون بما نـا   لوا ، ولا يرهبون صرف المنون
قد سقيت الشمول فى دار بشر   قهوة مزة بماء سخين(١)

وبينما كان عدى فى سفارته بالشام ، تبرم أهل الحيرة بالمنذر حاكمهم من قبل كسرى وعزموا على قتله لجوره وظلمه ، فلما أحس المنذر بالخطر بعث إلى زيد بن حماد والد عدى مستنجدا ، فحدثه بما بلغه وعرض عليه تنازله عن الملك له ، فرفض زيد واستمهله حتى يكشف الحقيقة ، فلما التقى بالناس ووجد منهم الاصرار على التخلص من المنذر هدأ من ثائرتهم ، وأشار عليهم برأى يكشف عن دهائه وحنكته السياسية أرضى به الثائرين وطمأن الملك إلى اخلاصه وحبه له ، فقال لهم : تدعون المنذر على حاله فإنه من أهل بيت ملك ، وأنا آتيه فأخبره أن أهل الحيرة قد اختاروا رجلا يكون أمر الحيرة إليه ، إلا أن يكون غزو أو قتال ، فلك اسم الملك وليس إليك سوى ذلك من الأمور ، فرضى أهل الحيرة بذلك وولوا زيدا على كل شىء سوى اسم الملك ، فإنهم أقروه للمنذر وفرح المنذر بذلك الحل لأنه حفظ عليه كيانه ، وشكر زيدا عليه ، واعتبره يدا له عليه أقسم أن يحفظها له فى قوله « إن لك يا زيد على نعمة لا أكفرها ما عرفت حق سبد(٢) .

وكان من أبرز مظاهر حفظ المنذر لهذا الصنيع أنه بعد أن مات زيد وصاحبه الدهقان ورجع عدى إلى المدائن من سفارته إلى الشام استأذن كسرى فى الالمام بالحيرة فأذن له ، فتوجه إليها ، ولما بلغ المنذر خبر قدومه خرج فى جمع من الناس لاستقباله والترحيب به .

ولما أراد المنذر أن يختار مربيا بعد ابنه النعمان الأصغر ليتوج ملكا بعده لم

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ١٠٤

(٢) الأغانى ج ٢ ص ١٣٠ وسبد صنم كان لأهل الحيرة

مجد أفضل من عدى يقوم بهذه المهمة ، لما اجتمع له من العلم والمعرفة والخلق الطيب والدراية بأمور الدولة والسياسة ، ولقربه من قلوب الناس وإدراكه أقرب السبل إليهم ، فكان عدى بذلك أستاذ النعمان بن المنذر ومربيه ومؤدبه ومعلمه .

حتى إذا مات المنذر وتنافس أبناؤه على خلافته احتال عدى للنعمان مولاه كسرى مكان أبيه ، وضم عدى بذلك فضلا إلى أفضاله على النعمان بن المنذر ، فلم يكن غريبا أن يصبح عدى الأثير عند النعمان ، يجالسه وينادمه ويصحبه فى رحلات صيده ، كما لم يكن غريبا أن يوغر بذلك صدور شانئيه ممن يطمعون فى المجد والمكانة خصوصا بنى مرينا الذين كانوا يناصرون ربيبهم ورضيعهم الأسود بن المنذر ، ويسعون لتوليته ملك الحيرة خلفا لأبيه فأفسد عدى بتدبيره تدبيرهم ، فنفسوا عليه ، وظلوا وراءه حتى أثاروا عليه حقد النعمان وسجنه ثم قتله فى سجنه حين علم برسالة كسرى لاطلاق سراحه .

* * *

تلك هى بيئة عدى بن زيد وظروف حياته التى أرى أن لها علاقات مؤثرة فى اتجاهاته الفنية على اجمال لا يخل بما واجه وبتعبير أوضح أقول : تلك هى مقومات عدى الخارجية .

أما مقوماته الداخلية الذاتية فلا نستطيع — على هذا البعد الزمنى والمكانى — إلا أن نتبعها فى سيرته وأخباره لنلم على قدر الإمكان بصورة قريبة مما كان عليه ، لأن لها علاقة — كذلك — تؤثر فى فنه واتجاهاته .

وقال صاحب الأغانى : « كان عدى حسن الوجه » مديد القامة ، حلو العينين ، حسن المبسم ، نقى الثغر(١) فإذا قرنت هذه الصفات بما حققه لجسمه ونفسه من مران وتدريب فى سبيله لتعلم الفروسية وجمعه بين ضروبها العربية والفارسية . . . أمكن أن تدرك ما كان عليه من فتوة وأناقة وجمال مما جعله مهوى أفئدة الفتيات ، ومحرك قلوب النساء ، وموضع إعجابهن

ويبدو أنه كان يدرك هذه السمات فى نفسه ويحس باشتماله على تلك النعوت ، فمال إلى مجالس اللهو والترف ، وهفا قلبه إلى مباشرة الغيد الحسان فى ظلال ما أتيح له من شباب ومكانة وجاه وثراء ، يصور ذلك قوله :

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ١٣٠

أيها القلب تعالَ بدون أن همى فى سماع وأذن(١)
وشراب خسروانى إذا ذاقه الشيخ تغنى وارجحن(٢)

وقوله ... ... وأصى ظباء فى الدمقس خواضعا
بنات كرام لم يربن بضرة دمى شرقات بالعبير رواوعا(٣)
لهوت لهن بين سر ورشده ولم آل عن عهد الأحبة خادعا
يسارين من الأسفار طرفا مفترا ويبرون من فتق الخدور الأصابعا

بيد أنه سرعان ما يجذب نفسه من ذلك المطلق ، ويعيدها إلى التوقر والتحشم على الرغم منها حشية العواقب فيقول :

قد آن أن تصحو أو تقصر وقد أتى لما عهدت عصر
عن مبرقات بالبرين وتبـ دو فى الأكف اللامعات سور(٤)
بيض عليهن الدمقس وفى الأ عناق من تحت الأكفة در(٥)
كالبيض فى الروض المنور قد أفضى بها إلى الكثيب نهر
يأرج من أردانهن مع الـ مسك الزكى زنبق وقطر(٦)
حاربتهن فى الشباب واد قلبى بأحكام الحوادث غر

ولعل سرعته فى معاودة نفسه ، والنأى عن الانحراف فى تيار اللهو والعبث .. راجعة إلى ما كان يشعر به الشاعر من أنه غريب يعيش فى غير موطنه وبين ناس ليسوا أهله وعشيرته ، لهم من الأخلاق والأعراف والعادات ما يدعو إلى التحفظ فى القول والمسلك .

---

(١) الدون — بفتحتين — اللهو واللعب : والأذن — بفتحتين — الاستماع .
(٢) ارجحن : مال واهتز .
(٣) شرقات بالعبير : ممتلئات به . والرواوع جمع راوعة : المتدهنة بالطيب .
(٤) البرين جمع برة : الخلخال ، وسور — بضمتين — جمع سوار .
(٥) الاكفة جمع كفاف : وهو من الشيء الحرف الذى يحيط به .
(٦) يأرج : يفوح . قطر : العود الذى يتبخر به .

وما كان يدركه من أنه يعيش فى جو مليء بالدس والمؤامرات يتطلب التحسين والتوجس والترقب والاحتراس فى كل حركة وسكنة ، حتى لا يعطى الفرصة لمن يسعى لضربه والتخلص منه .

اجتمعت هذه المقومات وتلك إلى عدى بن زيد فصاغت شخصيته الفنية صياغة ميزتها عن الشخصيات المجاورة له والقريبة منه فى الزمان والمكان ، بحيث تفرد فى فنونه الشعرية التى تناولها شعره ، وفى منهجه وأسلوبه ، وفى معانيه وأفكاره ، فلم يرض بالوقوف عند الحد الذى رأى سابقيه من الشعراء العرب الجاهليين عليه ، بل لقد كان لما صادف من أحداث وماتزود به من ثقافات مختلفة وعلوم ومعارف متعددة ، وما اطلع عليه من طبائع وعادات شتى تختلف من موطن إلى موطن .. لقد كان لذلك وغيره أبعد الأثر فى اختلافه عن الشعراء الجاهليين من تقدمه ومن عاصره .

لن يجهد الباحث نفسه كثيرا فى التعرف على مظاهر التميز فى فنون الشعر لدى عدى بن زيد ، إذ يكفى أن يتصفح شعره ليلمس ما فيه من فنون شعرية جديدة أو فنون شعرية مجددة تكاد تكون جديدة فى الشعر العربى الجاهلى .

وأول ما يلفت نظر الدارس من تلك الفنون الشعر الدينى والوعظى !

وشعر المواعظ والدينيات عند عدى يوحى بأننا أمام صاحب رسالة دينية يستغل كل سانحة ليقدم فيها ما يرى أنه ضرورى ، فأنت فى شعره تجد القصائد الخالصة لهذا الغرض تماما ، كما تجد القصائد التى لونها الشاعر بالعظة يشد بها أسماع المتلقين عنه ، وبدلا من الوقوف على الأطلال وبكاء الديار ، وقف بالمتلقى على المصائر والنهايات العامة للكون ولفت نظره إلى ما فى الحياة من أطوار يحمل كل طور منها طابعا خاصا ، لينتهى من ذلك إلى عرض ما يريد من مواعظ وحكم . من ذلك ابتداؤه بوصف معاناته وآلامه وأرقه فى قوله :

طال ليلى أراقب التنويرا ... أرقب الليل بالصباح بصيرا
شط وصل الذى تريدين منى ... وصغير الأمور يجنى الكبيرا

وتوجيه حبيبته إلى العقل ، والتأنى فى الاختيار ، لتميز بين الأغرار والعقلاء . فتحسن الاتجاه فى قوله :

أ لمثى الفتيــان مالــكة نصحة منى وأخبــارا
أنــى رمت الخطوب فـــق موجــدت العيش أطــوارا

ولفت المتلقى إلى نهاية كل حى ، ومصير كل مخلوق فى قوله :

أرواح مــــودع أم بكور لك ؟ فاعمد لأى حال تصير

والناظر فى هذا الفن الشعرى يجد أن الشاعر فيه لم يكتف بتأملاته الخاصة ونظراته الشخصية ، ليقيم عليها بناءه الفنى ، بل لقد جمع إلى ذلك حصيلته من المعارف الدينية ، والمعلومات التاريخية ، فأصبحت دعائم ثلاثة لشعر المواعظ والدينيات . ولعلنا نذكر أنه جمع فى ذلك الميدان الدينى بين المعارف المسيحية التى كان يدينها والمجوسية التى يدين بها حكام البلاد وملوكها ، والوثنية التى يدين بها أكثر العرب . ولا ريب فى أن لكل من هذه الديانات أعرافه وحدوده وقوانينه ، كما أن لكل من هـــذه الديانات مقوماته وانعكاساته .

وهو فى ذلك يعتمد على التصوير الدقيق .

١ ـ إما عن طريق الاستفهام الذى ينقل الماضى إلى الحاضر ليرى المتلقى ماوقع فيه من مواطن العبرة والعظة ، ويذكر ما كاد ينسى مثل قوله :

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بعــدهم وثمــود
أين آباؤنا وأين بنــوهم أين آباؤهم وأين الجــدود
سلــكوا منهج المنايا فبــادوا وأرانا قد حان منــا ورود

٢ ـ وإما عن طريق إبراز الخطوط المنتقاة بحاسة الشاعر من أحداث الماضى لتتشــكل منها الصورة التى يريد تقديمها مثل قوله :

فبت أعدى كم أسافت وغيرت وقوع المنون من مسود وسائد[1]
صرعن قبــاذا رب فارس كلها وحشت بأيديهــا بوارق آمد[2]

(١) أعدى : أعدد بعد إبدال الدال الأخيرة ياء . وأسافت : أهلــكت .

(٢) قباد : ملك من ملوك الفرس . حشت : قطعت . بوارق آمد : أعظم مدن ديار بكر .

وغصن على الحيقار وسط جنوده ... وبيتن فى اقاته رب مارد[١]
وجئن بترك من قرار بلادهم ... يسير بجمع كالدبا المتساعد[٢]
وأخرجن يوم الحوض سيد حمير ... بحربة جنى من الحبش حارد[٣]
وملك سليمان بن داود زلزلت ... وريدان قد ألحقنه بالصمائد[٤]
وخلف بنى الناصور لم يبق منهم ... بقيــة مولود ولا ذكر والد
وكان ملوك الروم يجبى إليهم ... قناطير مال من خراج وزائد
فلا تغبطن إنا بشىء ينـاله ... من الدهر، لامال ولا عيش واجد

أو إبراز الخطوط المنتقاة بحاسة الشاعر من المألوف الواقع الذى تعود الناس رؤيته فغفلوا عما يحمل من عظات مثل قوله :

من رآنا فليحدث نفســه ... أنه موف على قــرن زوال
وصروف الدهر لايبقى لهـا ... ولما تأتى به صم الجبـال
رب ركب قد أناخوا حولنـا ... يمزجون الخمر بالمـاء الزلال
والأباريق عليها فــدم ... وجياد الخيل تردى فى الجلال
عمروا دهـرا بعيش نضـر ... آمنى دهرهم غـير عجال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم ... وكذاك الدهر يودى بالرجال
وكذاك الدهر يرمى بالفتى ... فى طلاب العيش حالا بعد حال

٣ — وإما عن طريق الوقوع على مفارقات الحياة وإبرازها للمتلقى ، فإذا بها مرآة تنعكس عليها صورة الحياة على الأرض كما يراها الشاعر من خلال تجاربه الشخصية ومعارفه الدينية ومعلوماته التاريخية ، مثل قوله :

فاسأل الناس : أين آل قبيس ... طحطح الدهر قبلهم سابورا[٥]

---

(١) الحيقار : ملك من ملوك فارس . مارد : حصن بدومة الجندل .
(٢) الدبا بفتح الدال : أصغر الجراد والنحل .
(٣) الحارد : الغضبان . (٤) ريدان : حصن فى قنسرين .
(٥) آل قبيس : بطن من قبيلة . طحطح : بدد وأهلك . سابور : ملك من ملوك الفرس .

ولقد عاش ذا جنود وتاج | ترهب الأسد صوته أن تزيرا
خطفته منيـــة فتردى | وهو فى الملك يأمل التعميرا
وبنو الأصفر الملوك كذا لم | يترك الدهر منهم مذكورا
إأين أين الفرار مما سيأتى | لا أرى طائرا نجا أن يطيرا

ومثل قوله :

مابعـد صنعـاء كان يعمـرها | ولاة ملك جـزل مواهبها
رفعها من بنى لدى قـزع الـ | ـمزن وتنـدى مسكا محاربها
محفوفة بالجبال دون عرى الـكيـ | ـد مـا ترتقى غواربها[1]
يأنس فيها صـوت النهام إذا | جاوبها بالعشى قاصبها[2]
ساقت إليها الأسباب جند بنى الأحـ | ـرار فرسانهـا مواكبها[3]
وكان يوم باقى الحديث وزا | لت أمـة ثابت مراتبها

حتى صنعاء المدينة العامرة بأهلها وخيراتها ، الزاهية بحضارتها ومكانتها ، أصابتها نوب الزمان وتقلبات الأيام فى هيئة جيش فارسى غاز ، فزال عنها مظاهر النعيم والخير ، وأصبحت أطلالا . ومثل قوله يقارن بين حالى الإنسان فى حياته وبعد مماته :

بينما هم على الأسرة والأنـ | ـماط أفضت إلى التراب الخدود[4]

٤ ـ وإما عن طريق البناء القصصى حيث يقدم تأملاته الواعظة فى ثنايا قصة تاريخية ينتزع مادتها من أحداث التاريخ الكثيرة التى يتراءى على صفحتها الملوك والسادة مطحونين بين حجرى الزمان الذى لا يجامل سيدا ولا ملـكا . مثل قوله :

أين كسرى، كسرى الملوك أنوشر | وان أم أين قبله سابور ؟[5]

---

(١) غواربها : أعاليها .
(٢) النهام ـ بضم النون ـ ضرب من الطير والقاصب: النافخ فى القصب أى الزامر .
(٣) بنو الأحرار : يريد الفرس .
(٤) الأنماط جمع نمط : ضرب من البسط .
(٥) سابور الجنود هو ابن أردشير وسابور ذو الأكتاف وهو ابن هرمز ، وكلاهما من ملوك العجم .

وبنو الأصفر الكرام، ملوك الر ... وم لم يبق منهم مذكور ا
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ... ـلة تجبى إليـه والخابور(١)
شاده مرمرا وجلله كلـ ... ـساً فللطير فى ذراه وكور(٢)
لم يهبه ريب المنون فباد الـ ... ـملك عنه فبابه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذ أشـ ... ـرف يوما وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة مايمـ ... ـلك والبحر معرضا والسدير(٣)
فارعوى قلبه فقال وماغبـ ... ـطة حى إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والأمـ ... ـة وارتهم هناك القبور(٤)
ثم صاروا كأنهم ورق جـ ... ـف فألوت به الصبا والدبور(٥)

نماذج من الحياة يقدمها الشاعر فى صور حية من خلال تساؤلات منبهة ، ومفارقات مثيرة ، وقصص منسقة لينفذ بها إلى المتلقى فيذكره بالمصير المحتوم ، ويقف به على حافة الحياة الدنيا ليرى ماينتظره فى عاجله أو آجله .

* * *

ولم يحقق عدى لنفسه التميز والتفوق فى الدينيات والمواعظ فحسب ، بل إن له فى ميدان التفوق جولات أخريات ، نرى فى مقدمتها ماروى له من اعتذاريات وخمريات وقصص .

لقد أصبح أقرب إلى المسلمات أن رأس فن الاعتذار — وربما مبتكره فى الشعر العربى — نابغة بنى ذبيان أبو أمامة زياد بن معاوية . لكن دراسة عدى ، والوقوف

---

(١) الخابور : اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة .
(٢) الكلس : الصاروج وهى النورة وأخلاطها التى تصرج (تطلى) بها المنازل ، وهو بالفارسية جاروف عرب فقيل : صاروج .
(٣) معرض : متسع ، ومنه أعرض الثوب أى اتسع وعرض .
(٤) الأمة — بالكسر — النعمة .
(٥) ألوت به: ذهبت به، والصبا — بفتح الصاد — ريح تهب من المشرق، والدبور: ريح تقابلها .

أمام اعتذاره للنعمان بن المنذر واستعطافه تفرض على مؤرخ الأدب أن يعيد النظر فيما شاع واشتهر وقارب المسلمات في هذا الصدد . وذلك لأن عديا تقدم النابغة فى السن ، وصحبته للنعمان تسبق صحبة النابغة؛ فقد أسلفنا أن المنذر والد النعمان أسند إلى عدى أمر تنشئة ابنه النعمان وتربيته وإعداده ليخلفه فى حكم البلاد لما رأى فى عدى من صلاحيات لذلك ، وأن عدى بن زيد هو الذى وقف وراء النعمان حتى ولاه ملك الحيرة بعد أبيه .

وهذا يعنى أن عدى بن زيد كان فى صحبة النعمان قبل أن يلتقى به النابغة الذى لم يلتق به إلا وهو ملك يمدح ويعطى على مدائحه .

كما يعنى أن عديا كان يصحب النعمان بشعور المربى ذى الفضـل ، فى حين كان يصحبه النابغة بشعور المتفع المتطلع إلى تعطف سيده ورضاه ، فقد كان وسيلة قومه لدى النعمان ليمكن لهم .

* * *

والذى أوقف عدى بن زيد فى موقف المتذر المستعطف يختلف عن الذى دفع بالنابغة إلى الموقف ذاته على ما سنوضحه فى الحديث عنه .

فقد انطلق لسان عـدى بالاعتذار للنعمان لما ألقى به فى السجن حين دس له منافسوه وأثاروا عليه حقد النعمان، وهكذا رأى عدى نفسه بين لحظة وأخرى ينتقل من حياة الدعة والنعيم إلى خشونة السجن وذله وقسوته فكان الألم على نفسه أقسى مما يحتمل من فى مثل مكانه وأحس بالمذلة والضياع ينهشان فى كيانه نهشا فتفجرت بين حناياه آنات الألم ، وترددت فى نفسه أصداء الشكوى ، فانطلق لسانه شاكيا فى حيرة مما وقع به ، متحسرا متمنيا أن لو سبق الموت إلى اختطافه قبل أن يقع به ما وقع من صديقه وتلميذه .

ويذكر الأصفهانى أن أول ما قاله عدى وهو محبوس من الشعر لاميته التى منها(١) :

ليت شعرى عن الهمام ويأتيـك بخبير الأنبـاء عطف السؤال

(١) الأغانى ج ٢ ص ١١٠

إن عنا أحطارنا المال والأنـ ... ـفس إذ ناهـدوا ليوم المحال (١)
ونضالى فى جنبك الناس يرمو ... ن وأرمى وكلنا غير آلى (٢)
فأصيب الذى تريد بـلا غش ... وأربى عليهم وأوالى
ليت أنى أخـذت حتـفى بكفـ ... ى ولم ألق ميتـة الأقتال (٣)
محـلوا محلهم لصرعتنا العا ... م فقد أوقعوا الرحا بالثفال (٤)

وهى قصيدة طويلة يتضح من مطلعها أن الشاعر مازال على شىء من تماسك النفس ورباطة الجأش فى مواجهـة ما نزل به، إذ يبدأ بتمنيات وتساؤلات متحسرة متألمة، تذكر بما كان منه من عون بالنفس والنفيس حتى حقق للنعمان ما أراد من غير خداع ولا غش، وينتهى من ذلك المقطع بتمنيه أن لو كان قتل نفسه بيده حتى لا يلقى من صديقه الذى ضحى فى سبيله ما لقى فيموت فى السجن كما يموت العدو :

ليت أنى أخـذت حتفى بكفى ... ولم ألق ميتـة الأقتال !

ويبرز مادبر خصومهما لهما من كيد فى صورة بارعة تكشف عن مدى ضيقه وألمه لنجاحهم فى الوقيعة بهما معا، مشيرا بذلك إلى أن الايقاع به هـو فى الحقيقة إيقاع بالنعمان كذلك، لأن فى غيبة عدى يسهل عليهم افتراس النعمان والقضاء عليه :

محلوا محلهم لصرعتنا العـا ... م فقد أوقعوا الرحا بالثفال

وليست الروعة فى كنايته البدوية عن الوقيعة فحسب، بل فى الايحاء بتقاربه مع النعمان ومساواته إياه حيث جعل الوقيعة بينه وبين النعمان إيقاعا بين الرحا وثفالها .

ويستمر على شموخه فى اعتذاراته، وثنائها على ما قدم من مساعدات للنعمان حتى أقامه على ملك أبيه، فيلبس ميميته التى يستهلها بتصوير ما يعانى من ارق، وما أصابه من هموم وأهوال أقضت مضجعه، وأذهبت النوم عنه :

---

(١) أحطار المال والنفس : بذلها وجعلهما خطرا والمناهدة فى الحرب : المناهضة والمحال ـ بكسر الميم ـ الـكيد والمـكر .

(٢) غير آلى : غير مقصر .

(٣) الاقتال جمع قتل ـ بكسر القاف ـ العدو .

(٤) محل فلان بصاحبه : سعى به إلى السلطان والثفال : الجلد الذى يبسط تحت رحا اليد ليقى الطحين من التراب، وقد يطلق على الحجر الأسفل من الرحا

قد نام صحبي وبت الليل لم أنم من غير عشق تمانى ولا سقم
إلا تأوب هم قبل أدفعه والهم يأمر حين الكرب بالألم

وفيها يتجه إلى النعمان ملتاعا مكروبا مما ألم به يتودده ويستعطفه ، مذكرا إياه بريب الزمان ، وتقلبات الأيام، مشيرا إلى أنها سنة تصيب كل إنسان وليس إنسانا بعينه وأنها قد أصابت من قبلنا من الآباء والأمم محاولا بذلك أن يبعث فيه نبض الرحمة والاشفاق الذى حرص — أبان صحبته — على أن يغرسه فى قلبه بمواعظه التى طالما رددها على سمعه . وذلك قوله :

أبا شريح فلا تحزنك عثرتنا فالمرء رهن لريب الدهر والحسم
إن الأسى قبلنا جم ونعلمه فيما أزيل من الأجداد والأمم
منهم رأيت عيانا ، أو تحدثه وما تنبأ عن عاد وعن إرم
وقبل ذلك من ملك ومغبطة بادوا ، فكانوا كفىء الظل والحلم

ولا يكتفى بتلك الايقاعات النفسية التى يمس بها الغافل من عواطف النعمان تجاهه ، فيواصل السير على المنهج نفسه ، ويومىء إلى ما بينهما من أواصر تكاد تعادل الأخوة حتى لكأنهما ابنا أم واحدة :

إن ابن أمك لم تنظر قفيته لما تواري ورامى الناس بالكلم(١)

وإذا قر لديه أن النعمان هو نفسيا للسماع منه أخذ يعدد ما تحمل فى سبيل توليه الملك دون إخوته فى إخلاص يعلم الله وحده مداه ، مرتكزا على تعداد خلاله وصفاته التى تأبى عليه أن يخون من اصطفى — معززا ذلك كله مشهدا الله على ذلك مقسما برب الحل والحرم على صدقه وبره فيما يقول :

فالله يعلم فى رسل وفى أزف والله أعلم بالآلاء والنعم(٢)
بل رب عبء ثقايل قد نهضت به فما تزل إذا عديته قدمى

---

(١) القفية : الكرامة . رامى الناس بالكلم : ظنوا به .

(٢) الأزف : العجلة

وإربة قد علا كبدى معاقمها ليست بفورة مأفون ولا برم (١)
وما بدأت خليلا أو أخانته بخنمة ، لاورب الحل والحرم (٢)
يأبى لى الله خون الأصفياء وإن خانوا ودادى،لأنى حاجزى كرمى
ولا بخلت بمالى عن مذاهبه فى حاجة الرزء إن كانت ولا الندمم

أنه يعتذر فى عزة ، ويأسف لأخ قبل أن يكون ملكا ، ويحرص على ودلا على عطاء ، ويأمل ألا يبالى خصومه منه ويشمتوا به ، فإذا وجد من النعمان إصرارا على سجنه ، وانصرافا عن النظر فى أمره . وأصم أذنيه عن صرخاته المتوالية الملتاعة ، ولم تحدث قرعاته النفسية أثرا ، كرر المحاولة وعاود الشكوى ، وصعد التألمات والتحسرات ، حريصا على تبرئة نفسه مما ألصق بها فى بائيته التى يبتدئها بقوله :

أرقت لمكفهرات فيه بوارق يرتقين رءوس شيب
تلوح المشرفية فى ذراه ويجلو صفح دخدار قشيب (٣)

فإذا أعلن عن أرقه ومعاناته النفسية اتجه مباشرة إلى الحديث عن أعدائه ومساعيهم للإيقاع به حتى يتخلصوا منه وينتقموا لهزيمتهم بتتويج النعمان دون من يناصرون من إخوته ، حيث يقول :

سعى الأعداء لا يألون شرا على ورب مكة والصليب
أرادوا كى تمهل عن عدى ليسجن أو يدهده فى القليب (٤)
وكنت لزار خصمك لم أعرد وقد سلكوك فى يوم عصيب (٥)
أعالهم وأبطن كل سر كما بين اللحاء إلى العسيب (٦)

---

(١) الإربة : الحاجة . والمعاقم : المفاصل . والمأفون : ضعيف الرأى . والبرم : اللئيم البخيل . (٢) الخنمة : الريبة .

(٣) الدخدار ــ فارسية معربة ــ الثوب المصون .

(٤) يدهده : يحدر من علو إلى سفل تدحرجا .

(٥) لزاز خصمك : لا أدته يخالف أو يعاند ، والتعريد : الإحجام وسلكوك : أدخلوك

(٦) اللحاء : ما على العود من القشر ، والعسيب : جريد النخل إذا نحى عنه خوصه

فـــزت عليهم لما التقينـا بتاجك فوزة القدح الأريب(١)
وما دهرى بأن كـــدرت فضلا ولـكن ما لقيت من العجيب(٢)

ويخلص من ذلك فيتمنى أن يصادف من يبلغ النعمان شكواه وتحذيره ممن يكيدون له ، مستنـكرا أن تـكون مكافأته ـ بعد تضحياته ـ سلسلة وقيدا وغلا وأمراضا تحوج إلى طبيب . . . ثم إهمالا لاعتذاراته التى تتوالى . وشكاواه التى لم تنقطع حيث يقول :

ألا من مبلغ النعمان عنى وقد تهدى النصيحة بالمغيب
أحظى كان سلسله وقيـــدا وغـلا ، والبيـــان لدى الطبيب
أتاك بأنى قـــد طال حبسى ولم تسأم بمسجون حريب (٣)

ثم يعـود الى تحريك نفسه ، فيصف فى انكسار ما آل إليه بيته وآله بعـد غيبته تلك ، أملا فى أن يوقظ فيه عاطفة الاشفاق بعد أن قسى عليه هذه القسوة التى لم يـكن يتوقعها أو ينتظرها منه فقال :

وبيـــتى مقفر إلا نساء أرامل قـد هلـكن من النحيب
يبادرن الدموع على عـدى كشن خانه خرز الربيب (٤)

فإذا رجا أن يقبل النعمان عليه ، ويستمع إلى شـكواه هدأ صوته بعض الشىء ، وسلك طريق المناقشة الجادة المتأنية فى منطقية ترجو الصفح عما قد يكون أخذ عليه ، وتعلن عن تنازله عما قد يكون أصابه من ظلم وضر :

فإن أخطأت أو أهمت أمرا فقد يهم المصافى بالحبيب
وإن أظلم فقـد عاقبتمونى وإن أظلم فذلك من نصيبى
وإن أهلك تجد فقدى وتخذل إذا التقت العوالى فى الحـروب

(١) الأريب : ذو الدهاء والفطنة .

(٢) وما دهرى : ما إرادتى وغايتى .

(٣) الحريب : الذى سلب ماله وعقاره .

(٤) الشن : الخلق من كل آنية صنعت من جلد . والربيب : المصلح .

فهل لك أن تدارك ما لديا ولا تغلب على الرأى المصيب
فإنى قد وكلت اليوم أمرى إلى رب قريب مستجيب

وعلى هذا المنهج سار عدى فى اعتذاراته إلى النعمان بن المنذر ، فذكره بما كان له من أياد ، وشكا مرارة ما يقاسى فى السجن ، وصور قلق نفسه على أهله ونسائه النائحات ، ونبهه إلى ما يكيده الحيطون به له وللنعمان ، وأقسم له أيمانا بعد أيمان على براءته مما ألصق به وإخلاصه له . . . فتلون أسلوبه بذلك ، وبدا تارة رقيقا هادئا حين يستسلم ويستكين ويستعطف وتارة أخرى يبدو جزلا فخما حين يذكر مكانته وما قدم من تضحيات فى سبيل توليه ملك الحيرة ، وحين يتحدث عن نفسه وحلاله التى كان يمتز بها وبذلك نرى عديا فى اعتذاراته — كما رأيناه فى مواعظه ودينياته — الشاعر المصور البارع فى التصوير ، الصادق البين الصدق ، الأصيل الذى يمتح من نفس شاعرة .

* * *

وعدى فى خمرياته يقدم لنا لونا جديدا فى هذا الفن يعلن به تميزه — كذلك فيه . بيد أن تميزه فى الخمريات ليس فى السبق إليه كما رأينا فى مواعظه واعتذاراته ، ولكن فى إفراد القصيدة أو القطعة الشعرية للخمر ، وعدم إشراك غرض آخر معها فيه ، على ما كان معروفا فى الشعر الجاهلى ، فقد كان الشاعر يتناول الخمر فى أثناء القصيدة باعتبارها جزئية من جزئيات موضوعه .

أضف إلى هذا أن خمريات عدى تتميز كذلك عن غيرها بالحديث المستفيض الذى يتناول فيه كل ما يتصل بالخمر من ألوان وتعتيق ، وطعم ، وشكل ، وهيئة ، وأكواب ، وزجاج ، ومجالس ، وندمان ، وأجواء وما فيها من أحوال إلى غير ذلك مما يكشف عن حس شاعر ، واستقصاء ماهر ، وتمكن من العبارة ، واقتدار على التصوير والتعبير .

ولعل من أجمل شعر عدى وأرقه وأجوده قافيته الخمرية التى يقول فيها :

بكر العاذلون فى وضح الصبـ ـح يقولون لى ألا تستفيق
ويلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلب عندكم موهوق

لست أدرى إذا أكثروا العذل عندى   أعدو يلومنى أم صديق
زانها حسنها وفرع عميم   وأثيث صلت الجبين أنيق
وثنايا مفلجات عذاب   لا قصار ترى ولاهن روق
ثم نادوا إلى الصبوح فقامت   قينة فى يمينها إبريق
قدمته على عقار كعين الد   يك صفى سلافها الراووق
صانها التاجر اليهودى حولين   فأركى من نشرها التعبيق
فوق عليـاء لا يـنال ذراها   يلغب النسر دونها والأنوق
مزة قبـل مزجهـا فإذا ما   مزجت لذ طعمها من يذوق
وطفا فوقهـا فقاقيـع كاليـا   قوت حمر يثيرها التصفيق
ثم كان المزاج ماء سماء   غير ما آجن ولا مطروق

مشهد رائع يصوره الشاعر، فتسمع صخب العاذلين مجتمعين حول فراشه يوقظونه من سكره ، تمهيدا لتصوير مجلس الشراب ، حيث ترى القينة تحمل فى يمينها إبريق الخمر المعتقة التى اختزنها اليهودى حولين ، ليصفى عليها النشر الزكى العبق ، فإذا مزجت لذ طعمها، وطفت الفقاقيع على سطح الكأس بلونها الأحمر الذى يشبه لون الياقوت.

ولا يقل عنه روعة ذلك المشهد الذى يقدمه عدى من خلال صاديته التى قال فيها المعرى [1] : « إنها بديعة فى أشعار العرب » والتى يبتدئها بالحنين إلى مجالس الأنس والشراب التى كان ينهل فيها اللذات فى مطلع حياته ، وفيها يقول :

أبلغ خليلى عبد هند فلا   زلت قريبا من سواد الخصوص [2]
موازى القرة أو دونها   غير بعيد من غمير اللصوص [3]
يجنى لك الكمأة ربعية   بالخبء تندى فى أصول القصيص [4]

---

(١) رسالة الغفران ص ٧٠ .
(٢) الخصوص : موضع فى الحيرة .
(٣) القرة وغمير اللصوص : قريتان من قرى الحيرة .
(٤) الربعية : أول ما يجتنى، والخبء — بفتح الخاء — سهل بين حزنين تكون فيه الكمأة . والقصيص جمع قصيصة : شجرة تنبت الكمأة فى أصلها .

تقنصك الخيل وتصطادك الطـ ــير ، ولا تنكع لهو القنيص (١)
تأكل ما شئت ، وتمتلها حمراء من الخص كاون القصوص (٢)
غبيت عن عيني في ساعة الشـ ـمر وحنبت أوان العويص (٣)
لا تنسين ذكرى على لذة الـ كأس وطوف بالخذوف النحوص (٤)
إنك ذو عهد وذو مصدق مخالف عهد الكذوب اللموص (٥)

في هذا المشهد الزاخر باللوحات الحية المتحركة يرينا الشاعر الجرى وراء الصيد ، والطوف حول الكأس المترعة يمتلها الشارب من الخص حمراء كاون القصوص ، ويظل الشاعر في رسم لوحات المشهد فيرينا في بقية أبيات القصيدة تجمع الشرب في بيت خمار شيد من الدنان الفارغة، وظلل بالخوص والغيد الحسان فيه يمشين رويدا في استحياء كأن في أرجلهن صدوعا ، وقد حسرن عن سواعدهن البضة، وتصاعدت من أردانهن روائح المسك والعنبر والعود . بينما الكأس يدور على الشرب السامر ملاهى مترعا بالخمر الأخضر اللون الممزوج البارد . في قوله :

ياليت شعرى وان ذو عجة متى أرى شربا حوالى أصيص (٦)
بيت جلوف بارد ظله فيه ظباء ودواخيل خوص (٧)
والربرب المكفوف أردانه يمشى رويدا كمشى الرهيص (٨)

---

(١) وتقنصك : تصيدلك ، ومثلها تصطادك،على الحذف والايصال مثل : رحبتك الدار أى رحبت بك . ولا تنكع : لا تمنع

(٢) الخص : حيد الخمر (٣) العويص : الشديد من كل شيء .

(٤) الخذوف :الأتان الوحشية السمينة والنحوص من الاتن:التى لاولدلها ولا لبن.

(٥) اللموص : الخداع .

(٦) وأن : وأنا ، بوصل همزة القطع ، وحذف الألف التى بعد النون ، والعجة بفتح العين : الحين ، والأصيص : أسفل دون مكسور .

(٧) الجلوف بضم الجيم جمع جالف : الدن الفارغ ، والظباء جمع ظبية ويقصد بها هنا الأباريق الضخام، والدواخيل جمع دوخلة:سقيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب.

(٨) الربرب : القطيع من بقر الوحش وتشبه به النساء ، والرهيص : المصدوع .

ينفح من أردانه المسك ، والـ ... منبر ، والغلوى، ولبنى قفوص[١]
والشرف الهنـــدى نسقى به ... أخضر، مطموثا بماء حريص[٢]

ويبدو من جـزالة الألفاظ ، وما تخلل القصيدة من حكم أن الشاعر قالها فى لحظة اجترار للماضى وهو فى سجنه . . أياما كان فلقد عرض الشاعر بخمرياته تلك وغيرها — مما يضيق بذكره البحث—أستاذيته لشعراء الخمر الذين جاءوا بعده سواء فى الجاهلية أو بعد الإسلام مثل الأعشى والأخطل والوليد بن يزيد وأبى نواس وغيرهم ، ويقرر هذا ما ذكره صاحب الأغانى[٣] من أن الوليد بن يزيد شاعر الخمر الأول فى العصر الإسلامى كان على صـلة بشعر عدى بن زيد من نديمه القاسم بن طويل العبادى الذى كان ينشده شعر عدى ، ويغنيه المغنون فى مجالسه ، وأن معبدا غنى القافية أمامه ذات يوم فاستحسنها وأعجب بها ، وجعل يشرب على أنغامها منشرحا منتشيا طربا .

والملاحظ فى خمريات عدى أنها تجمع بين اللوحات المتعددة المشاهد والمواقف . وبين اللوحة التى تعرض الصورة الجزئية فى سرعة خاطفة . . واللونان من الصـــور يشهدان لعدى بالدقة فى جمع أطراف الصورة والتركيز منها على الجانب المطلوب ، فى خفة و، شاقة كما ينبه الدارس أنه أمام مصور عربى نشأ وشب فى بيئة حضارية ناعمة ، ويذكر دائما بأنه فى صحبة رجل مثقف نال من الثقافات المختلفة ما جعـله يتميز على معاصريه فى مختلف الاتجاهات . ونظرة إلى تلك الصورة تعزز ما نقول :

هـــذا ورب مسرفين سقيتهم ... من خمر بابل لذة للشارب
بكروا على بسحرة فصبحتهم ... من ذات كوب مثل قعب الحالب[٤]

(١) الغلوى : أخلاط من الطيب تغلى ، ولبنى : عـود طيب الرائحة ، وقفوص : بلد يجلب منه هذا العود .

(٢) المشرف : أناء كانوا يشربون به ، والمطموث : الممسوس ، وأراد به المزق ، والحريص : البارد .

(٣) الأغانى جـ ٧ ص ٥ ، ٦٦

(٤) القعب . القدح الضخم الجافى .

بزجاجة ملء اليدين كأنهـا قنديل فصح فى كنيسة راهب

* * *

نراه ـ أولا ـ فى دوران القصة حول موضوع واحد . تتسلسل أحداثه ، وترتب ترتيبا منطقيا فى هيئة تبرز القصة متكاملة ، لتؤدى الغاية منها ، وقصصه ـ فى الغالب ـ يقدم العبرة والعظة من خلال واقع تاريخى أو دينى فالقصة فى شعر عدى امتداد لشعره الوعظى أو هى موعظة فى ثوب القصة .

ونراه ـ ثانيا ـ فى منهجه القصصى الذى اعتمد عليه فى تقـديم الحوادث ، فإنه يعتمد فى قصه على ما توفر له من معلومات تاريخية ودينية، وما ناله من ثقافات حضارية عميقة حصل عليها من منابع ثقافية متعددة متباينة جمع فيها بين ثقافات العرب والفرس والروم ، فى حين أعتمد سابقوه ومعاصروه من الشعراء الجاهليين فى شعرهم القصصى على المشاهد الواقعية ، والملاحظ الحسية ، فأصبحت القصة مجموعة من اللوحات الوصفية والاشارات التاريخية التى يعتمد فيها على ذاكرة المتلقى ليتكامل البناء القصصى . ومن أبرز قصصه الدينية قصة الخلق ، التى تناول فيها خلق آدم وحواء وهبوطهما من الجنة ، وفيها يقول :

أسمع حديثا كما يوما تحدثه عن ظهر غيب إذا ما سائل سألا
إن كيف أبدى إله الخلق نعمته فينا ، وعرفنا آياته الأولا
كانت رياح وماء ذو عرانية وظلمة لم تدع فتقا ولا خللا (١)
فأمر الظلمة السوداء فانكشفت وعزل الماء عما كان قد شغلا
وبسط الأرض بسطا ثم قدرها تحت السماء سواء مثل ما فعلا
وجعل الشمس مصرا لاخفاء به بين النهار وبين الليل قد فصلا (٢)
قضـــى لستة أيام خليقتــه وكان آخرها أن صور الرجلا

وهكذا فى تسلسل تاريخى ـ استقاه مما توفر له من كتب دينية، ومعارف ثقافية خصوصا التوراة والإنجيل ـ يحكى قصة خلق آدم وادخاله الجنة هو وزوجه التى خلقها من ضلعه ، وكيف أطلق له حرية الاستمتاع باستثناء شجرة واحدة . . . الخ

---

(١) ماء ذو عرانية ـ بضم العين والراء المخففة ـ ماء كثير مرتفع

(٢) المصر : الحد .

ولولا ما عرفناه عن عدى بن زيد فى نشأته الدينية التى كان لتعمقه فيها أكبر الأثر فى نسبته إلى العباد . . . أقول لولا ذلك لما توقعنا منه أن يقص علينا مثل هذه القصة ، أما وقد نشأ هذه النشأة التى توحى إلى وطيـــد اتصاله برجال الدين اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ، فلا غرابة فيما قدم .

وله قصيدة أخرى رائية يحكى فيها قصة إبليس مع آدم وسعيه لإغرائه وطرده من الجنة متوسلا بحواء .

أما قصصه التاريخية فمن أبرزها قصيدته الرائيـــة التى ذكرنا طرفا منها فى الشعر الدينى والتى يقول فى مطلعها :

أيها الشامت المعير بالدهر أأنت المبرأ الموفور

وفيها يحكى من قصة ملوك الفرس والروم ما يعظ السامع ويعيده إلى الله ،وينأى به عن الاغترار .

ومن قصصه التى ضمنها شعره قصة ابن بختنصر الذى تخير لوزارته من رعى شئون مملكته ونصح له وكتم سره فعاش مهيبا محبوبا منيما ، ولقد ساق هذه القصة فى قصيدة أرسلها إلى النعمان من سجنه وفيها يقول :

ألا فى الأول الماضى اعتبـــار	لذى عقـــل أخى فهم بصير
تخير للوزارة من رعاه	باشفاق ونصح فى الأمور
وحسن سره عملا مهيبا	يجازى القل بالجم الكثير
وواتاه الزمان فعاش دهرا	منيما فى السهول وفى الوعور

* * *

وفى الحق لم يقف عدى فى تميره وسبقه الفنى عند ذلك الحد ، ففيما نسب إليه من الشعر ما يشير إلى أن له سبقا كذلك فى الحكمة الشعرية ، تبدو فى ثنايا صورة شعره الدينى والوعظى على الخصوص ، متناثرة هنا وهناك ، شأنه فيهـا شأن أضرابه من شعراء الحكمة الجاهليين مثل أوس بن حجر وزهير بن أبى سلمى والنابغة .

بيد أننا نجد عديا يبز سابقيه ومعاصريه فى داليته التى خصها للحكمة ، والتى يبدؤها

بتساؤل موجه إلى من تعذله وتلومه على كرمه وانفاقه دون أن يعمل للزمن حسابا، ومن هذا المنطلق يأخذ الشاعر فى الرد على عاذلته موضحا نظرته إلى الدنيا ، وما يترتب عليها من سلوك ، معللا اقباله على انفاق ماله حرصا على أن يظل الكريم الذى يبذل فى غير حرص ولا تردد بالمصير المحتوم الذى لايستثنى منه أحد ، وبأن الانفاق فى الحياة خير من تركه للوارث يستمتع به :

أعاذل : مايدريك أن منيتى إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد
ذرينى فإنى إنما لى ما مضى أمامى من مالى إذا خف عودى
وحمت لميقاتى إلى منيتى وغودرت أن وسدت أو لم أوسد
وللوارث الباقى من المال فاتركى عتابى فإنى مصلح غير مفسد

وليس ذلك هو الدافع إلى الانفاق فحسب ، بل يدفع إلى الانفاق أيضا ما يحققه الكرم للانسان من مركز مقبول محبوب بين أخلائه وأصدقائه :

ولاتلح إلا من ألام ولا تلم وبالبذل من شكوى صديقك فأقتد
وللخلى إذلال لمن كان باخلا ضنينا ، ومن يبخل يذل ويزهد
وللبخلة الأولى لمن كان باخلا أعف ، ومن يبخل يلم ويزهد

كما يدفع إليه حرص الإنسان على البعد بنفسه عن الغى وتجنيبها مواطن الشبهات حتى يكون من الصفوة الذين لايندم من يقتدى بهم :

فنفسك فاحفظها عن الغى والردى متى تغوها يغو الذى بك يقتدى
وإن كانت النعماء عندك لامرىء فمثلا بها فاجز المطالب وازدد

ومن هذا يوجه نصحه ، فيرسم منهجه الذى ترتضيه فى أختيار الأصحاب :

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ولاتصحب الأردى فتردى مع الردى
عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وعلى هذا الدرب يسير عدى فى داليته ، حريصا على أن تكون نفسه هى المعد الذى يأخذ من تجاربه ليكون قريبا من سامعيه ، فيضمن أقبالهم عليه ، على الرغم من طول القصيدة وجفاف معانيها .

وزيادة منه فى الاحتياط حفلت القصيدة بتلك الأصباغ والألوان الجذابة المتناسقة

المتمثلة فى الصيغ المتلونة المتنوعة من استفهام ، وتعجب ، وأمر ، ونهى ، ونداء ، وشرط ، والتفات ، إلى غير ذلك من أسباب الجذب والاقناع العاطفى ، إلى جوار الاقناع العقلى ، من كل ما تضافر مع صدق الشاعر ، وقربه من النفوس ، ليحقق جمال الأداء ، ويمنح المعانى رخاوة ، ويضفى على الأفكار الانسجام والتسلسل .

وليس هذا مقصورا على الدالية الحكمية ، بل أن حكمته المتناثرة فى ثنايا مواعظه التى قدمنا طرفا منها لاتخلو عن بعض ذلك الذى نجده فى داليته[1] .

---

(١) لمزيد من الدراسة النافذه راجع للمؤلف بحث (عدى بن زيد ظاهرة متميزة فى الشعر الجاهلى) المنشور بمجلة كلية اللغة العربية ـ العدد الأول .

(٢)

النابغة الذبياني

نشأته وحياته :

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع ويرتفع نسبه إلى غيظ بن مرة، ثم إلى ذبيان، ثم إلى غطفان . لقب بالنابغة واشتهر به قيل : لقوله في بعض شعره : « فقد نبغت لهم منا شئون »، وقيل : لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنه، ومات قبل أن يهتر ويذهب عقله (١) . وقد يكون تلقيبه بذلك راجعا إلى وصفه بالنبوغ في الشعر والتفوق فيه، ويرشح ذلك أنه قد لقب بذلك اللقب جماعة من الشعراء غيره، مثل النابغة الجعدي، والنابغة الشيباني، والنابغة التغلبي، وهم ليسوا جميعا جاهليين، بل منهم المخضرم ومنهم الإسلامي .

ولم يكن النابغة أحسن حظا من أصحابه الجاهليين؛ إذ لا نكاد نعرف عن نشأته أكثر من أنه عاش في أواخر العصر الجاهلي، وامتد به العمر حتى قبيل ظهور الإسلام، فقد قيل إنه توفي سنة ٦٠٤ م .

أما حياته فيخبرنا الرواة كما يخبرنا شعره أنه قضاها في السياحة بين بلاط النعمان بن المنذر أمير الحيرة، وبلاط عمرو بن الحارث الغساني وأخيه النعمان .

ويبدو أن غايته من تلك السياحة كانت الكسب المالي، والسياسي؛ فقد كان النعمان يجزل له العطاء على مدائحه وكذلك فعل الغساسنة معه، وكان يستغل صلاته تلك في العمل على رفعة قومه، والمحافظة على أمنهم وسلامتهم، ولعل ذلك كان من أسباب انتقاله إلى الغساسنة؛ روى أن ذبيان وأحلافهم من بني أسد تمدوا على وادي أقر الخصيب الذي كان تحت حماية الغساسنة، فنكل هؤلاء بهما تنكيلا عظيما، وأسروا كثيرا من نسائهما، مما آلم النابغة ذلك الألم الذي تلمسه في قوله :

---

(١) الأغاني جـ ١١ ص ٣، الشعر والشعراء جـ ١ ص ١٥٧ وما بعدها .

لقد نهيت بنى ذبيـان عن أقـر ... وعن تربعهـم فى كل أصفار (١)
وقلت : يا قوم إن الليث منقبض ... على براثنـه لوثبة الضارى (٢)
لا أعرفن ربربا حورا مدامعها ... كأن أبـكارها نعـاج دوار (٣)
ينظرن شذرا إلى من جاء عن عرض ... بأوجه منكرات الرق أحرار (٤)
يذرين دمعا على الأشفار منحدرا ... يأملن رحلة حصن وابن سيار (٥)

ولم يجد مفرا من أن يقوم بدوره فى تخليص قومه من هذا الذى وقعوا فيـه ، واسترداد الأسرى ؛ فسعى إلى الغساسنة مقدما بين يديه مدائحـه ، فنزل بعمرو بن الحارث الأصغر ، ومدحه كما مدح أخاه النعمان مدحا رائعا ، فاستجابا لطلبته ، وعفوا عن الأسرى ، وكفا عن ملاحقة ذبيان وأحلافهم وأقام فى ظلال الغسانيين فترة نال فيها منهم الجوائز الثمينة ، وتوجهم فيها من شعره بالقصائد الرائعة ، ولـكن ذلك لم يشغله عن هدفه الأصيل ، وهو حماية قومه وأحلافهم من بطش الغساسنة . بل إنه إلى ذلك حرص على أن ينشر خيره على أصدقاء قومه ، كما كان الشأن مع بنى حن التى كانت تنزل عليها بين الحين والحين بنو يربوع عشيرة النابغة فقد رأى النعمان الغسانى يعد العدة لغزو بنى حن ، فتعرض له النابغة محاولا منعه من ذلك ، لخوفه منعتهم ومنعة ديارهم ، ولـكن النعمان أصر على غزوهم ، فأرسل النابغة إلى عشيرته يدعوها أن تمد نفسها لنجدة حلفائهم بنى حن وإعانتهم فى رد عادية الغسانيين عنهم ، وتحقق له ما أراد فقد منى جيش الغسانيين بالهزيمة ، وفى ذلك يقول النابغة :

لقـد قلت للنعمان يوم لقيتـه ... يريد بنى حن ببرقة صادر (٦)

---

(١) أقر بضم الهمزة والقاف : واد ، تربعهم : إقامتهم وقت الربيع ، أصفار جمع صفر : شهور الربيع .

(٢) البراثن جمع برثن : المخالب ، الضارى : المولع بأكل اللحم .

(٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به ، حورا جمع حوراء : العين الجميلة واضحة البياض والسواد ، النعاج جمع نعجة : إناث البقر ، دوار : اسم صنم .

(٤) النظر الشذر : النظر بمؤخر العين ، عرض بضم العين والراء : جانب .

(٥) الأشفار جمع شفر : هدب العين . (٦) برقة صادر : موضع .

تجنب ـى حن فإن لقاءهم ... كريه وإن لم تلق إلا بصابر (١)

عظام اللهى أولاد عذرة إنهم ... لهاميم يستلهونها بالجناجر (٢)

وهم منعوا وادى القرى من عد ... وهم بجمع مبير للعدو المكاثر (٣)

وهذا الموقف يكشف عما كان يكنه النابغة لقومه وحلفائهم من إخلاص ومحبة وما زال على حاله ذلك ، يرعى مصالح قومه ويوطد العلاقات بينهم وبين الغسانيين حتى توفى عمرو بن الحارث وأخوه النعمان ، فعاد إلى النعمان ثانية

كان النابغة أثيرا عند النعمان خاصا به ، وكان من ندمائه وأهل أنسه ، إلى أن حدث ما أثار عليه النعمان وتهدده — على اختلاف الروايات فى أسباب ذلك — إلى قومه ثم شخص إلى ملوك غسان بالشام فأقام فيهم يمتدحهم ، فانتقل من بلاط ، ثم لما اطمأن إلى عفو النعمان بن المنذر عنه عاد ثانية إلى الحيرة فأمنه وأدناه حتى قال فيه حسان بن ثابت : « حسدت النابغة على ثلاث لا أدرى على أيتهن كنت أشد حسدا ؛ على إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له وإصغائه إليه ، أم على جودة شعره ، أم على مائة بعير من عصافيره (٤) أمر له بها (٥) »

ولقد قدم لعودته إلى الحيرة بقصائد يعتذر فيها إلى النعمان، ويعلن ندمه على ما سلف منه : ورغبته فى العودة إليه مخلصا كما كان ، حتى عفا عنه ، وهو إنما كان راغبا فى النعمان طمعا فى استمرار عطاياه، واستدامة حياة الترف التى كانت تغمره، قال أبو عبيدة قيل لأبى عمرو : أمن مخافته امتدحه وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك ؟ فقال: لا لعمر الله ما لمخافته فعل ، إن كان لآمنا من أن يوجه النعمان له جيشا ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة ، ولكنه رغب فى عطاياه وعصافيره ، وكان النابغة يأكل ويشرب فى آنية الفضة والذهب عطايا وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك (٦)

---

(١) صابر : شجاع فى الحرب .

(٢) اللهى بضم اللام جمع لهـوة : المال الكثير ، اللهاميم جمع لهموم بضم اللام ؛ الجيش العظيم . يستلونها ، يبتلعونها .

(٣) مبير ؛ مهلك .

(٤) العصافير ؛ إبل نجائب كانت للملوك

(٥) الأغانى ج ١١ ص ٢٨

(٦) الأغانى ج ١١ ص ٢٩

وأقام النابغة فى ظلال النعمان إلى أن غضب كسرى على النعمان فاستدعاه سنة ٦٠٢م وألقى به فى غياهب السجن حتى مات ، ورجع النابغة إلى قبيلته وقضى بها آخريات حياته ويبدو أنه مات فى الفترة ما بين عودته من الحيرة سنة ٦٠٢ ، ونهاية حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ م ، وقد ذكر لويس شيخو أنه توفى سنة ٦٠٤م(١) .

ولم تكن شهرة النابغة وقفا على علاقته بالغساسنة والمناذرة ، بل كان له إلى ذلك شهرة طوت شبه الجزيرة مكنت له بين الشعراء ، فكانوا يضربون له قبة من أدم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها ، قال الأصمعى: وأول من أنشده الأعشى ، ثم حسان بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفا لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يا ابن أخى أنت لاتحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف حجن فى حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع(٢)

فخنس حسان لقوله(٣) .

شعره :

واضح من نشأة الشاعر وحياته أنه لم يقض منها بين قبيلته قدر ما قضاه فى الحيرة والشام فى قصور المناذرة والغساسنة ، وأنه جمع من ذلك مالا كثيرا ، ووفر لنفسه

---

(١) شعراء النصرانية ص ٦٤٠

(٢) خطاطيف جمع خطاف بضم الخاء : حديدة حجناء تستخرج بها الدلاء وغيرها ، حجن بضم فسكون جمع أحجن : وهى المعوجة ، نوازع : جواذب ، يقول لك خطاطيف هذه صفتها أجر بها إليك ، على سبيل التمثيل، يريد أنه مشدود إليه بأسباب لايستطيع أن يتخلص منها .

(٣) خنس : انقبض أورجع وتنحى : الأغانى ج ١١ ص ٦

حياة مترفة أدنته من حياة الملوك ؛ إذ كان يأكل ويشرب فى صحاف الذهب والفضة .

وواضح — كذلك — من تلك النشأة وهذا الارتباط ببلاطى آل المنذر وآل غسان أنه أسلم جزءا كبيراً من حريته الشخصية لما يفرضه عليه مقامه فى قصور الملوك من الالتزام بخلق معين ، والوقوف بشعره عند حد معين ، جعله يدور فى محور من يكتنفه منهم ويرعاه ، لايتجاوزه إلى غيره ، فلا يرى غير ما يدور فى محيطه الملكى، ولايحس إلا بما يحدث هناك .

ومن ثم ينظر الدارس فى شعره فيجد لايكاد يتجاوز الحديث عن بنى المنذر وبنى غسان ، مدحا أو رثاء أو اعتذارا .

ومن ينظر فى شعر النابغة يلمس أثر هذا الوسط المتحضر المترف فى شعره .

إذ يجد نفسه أمام شاعر يدرك أثر الكلمة فى سامعيه ، فهو لذلك حريص أشد الحرص على انتقاء عباراته وألفاظه بما لايعطى فرصة لطاعن ، يتقرب إلى النعمان على حساب النابغة .

ويلاحظ أنه مع شاعر لايقول كل ما يفد على خاطره ، بل هو المتحفظ الذى يتروى فى إبراز أفكاره ومعانيه ، وما يزال وراءها بالصقل ومعاودة النظر ، حتى تستقيم له العبارة ، ويصح المعنى ، ويتسق مع متطلبات بيئته .

ويدرك أنه يعايش شاعرا جعل من شعره وسيلة لتحقيق مآربه الفردية أو القبلية فشعره مصنوع بما فيه من مدائح ومراثى واعتذاريات ، إذ قلما تجد فيها تعبيرا ذاتيا عن حس صادق أو شعور أصيل ، فدور العقل فيه أوضح من دور العاطفة ، وهذا لاشك أحد آثار البيئة الحضارية المترفة التى قضى فيها جل سنى عمره ، والتى سلخته عن الفطرة العربية الخالصة ، ونأت به عن البيئة البدوية بأخلاقياتها وقيمها .

ونظرة إلى مدائحه التى خلعها على الملوك المتوجين فى الحيرة والشام تجعلك تقطع بأنه شاعر أجاد الصنعة ، وبرع فى الوقوع من القوم على ما يرضى غرورهم ويستجيب لمفاخرهم ؛ وذلك بحشد طائفة من الصفات العامة وتحليتها ببعض الخصوصيات ،فتبدو كأنها جميعا حلية يخصهم بها من دون غيرهم .

مثال : ذلك بائيته التى قالها فى مدح عمرو بن الحارث الغسانى وآبائه ؛ فقد بدأها

باستهلال يخاطب فيه ابنته ، ويبثها شكواه مما يهتم له ويشجيه ويطيل ليله ، ليخلص من ذلك إلى الحديث عن ممدوحه حديثا مستفيضا يقول فيه :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم　　عصائب طير تهتدى بعصائب(١)

يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم　　من الضاريات بالدماء الدوارب(٢)

تراهن خلف القوم خزرا عيونها　　جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب(٣)

جوانح قد أيقن أن قبيله　　إذا ما التقى الجمعان أول غالب(٤)

على عارفات للطعان عوابس　　بهن كلوم بين دام وجالب(٥)

فالشاعر يمدح الغساسنة بالفروسية والشجاعة التى حملت جماعات الطيور المتوحشة تتبع خطوهم لإيقانها بأنها حاصلة على فرائسها واقعة على زادها من اعدائهم، ولثقتها من ذلك ترى جانحة على استعداد للانقضاض ، ثم يمضى فى إتمام الصورة فيبرز شجاعة القوم من خلال تصوير خيولهم بما عليها من أثر للطعان وجروح دامية ومتجمدة ، ويظل فى انتقالاته تلك حتى تكمل صورة الفروسية ، فينتقل إلى صفات أخرى يمتدحهم بها حيث يقول :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم　　من الجود، والأحلام غير عوازب(٦)

محلتهم ذات الإله ، ودينهم　　قويم فما يرجون غير العواقب(٧)

---

(١) عصائب جمع عصابة : جماعات .

(٢) الضاريات : المتعودات ، الدوارب : المدربة .

(٣) خزر بضم الخاء وسكون الزاى جمع أخزر : الذى ينظر بمؤخر عينه، المرانب ثياب سوداء .

(٤) جوانح : مائلات للوقوع .

(٥) عارفات : صابرات ، كلوم : جروح ، دام : سائل دمه ، جالب : متجمد عليه الدم .

(٦) الأحلام : العقول ، العوازب جمع عازب : الغائب .

(٧) محلتهم : منزلتهم ، ذات الإله : لعله يقصد كنائسهم .

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب(١)
تحييهم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضريج فوق المشاجب(٢)
يصونون أجسادا قديما نعيمها بخالصة الأردان خضر المناكب(٣)
ولايحسبون الخير لاشر بعده ولايحسبون الشر ضربة لازب(٤)
حبوت بها غسان إذ كنت لاحقا بقومى وإذ أعيت على مذاهبى(٥)

فيصفهم بالجود وبالعقل الحاضر ، وبالتمسك بالدين القويم — وكانوا نصارى — والقيام على حلمه ، ثم يعرج من ذلك إلى وصف مظاهر الترف والنعيم التى تغمر حياتهم فهم رقاق النعال ، وهم على عفة ، يحافظون على طقوسهم الدينية فيحيون بالأزهار فى يوم السباسب — ولعله يقصد به يوم الشعانين أحد أعياد النصارى — تحييهم الجوارى والإماء ، ويحفظون أجسادهم الثروة الجمة من قديم بثياب مزركشة من الخز الخالص خضراء المناكب ، ثم يخلص من ذلك إلى صفة عقلهم عقيدته يحرص على مدحهم بها تقريرا لاستعطافهم على قومه ، فيقول إن الغسانيين متفتحو العقول يدركون أن السلوك البشرى لايقف عند الخير لايتجاوزه ، ولايقف عن الشر يتخطاه ، بل لابد من مجاورة الشر الخير ، ولا بد من نهاية الشر بالخير ، وكأنما يهيئه ذلك إلى أن يكشف عن حقيقة مقصده ، فيعلن أنه فى تلك القصيدة لسان قومه الناطق ، وأنه يقدم هذه المدحة وهو وشيك المودة إلى قومه بعد أن ضاقت السبل أمامه بسبب من أسر من أهله وعشيرته

فأنت أمام مدائح عامة لاتخص واحدا من دون غيره ، ولاتقف على جماعة من

(١) الحجزات جمع حجزة بضم فسكون : موضع شد الإزار من الوسط ، وطيب الحجزة : كناية عن العفة ، السباسب جمع سبسب : المفازة

(٢) الولائد : الجوارى والإماء ، الإضريج : الحرير الأحمر ، المشاجب جمع مشجب أعواد تعلق عليها الثياب .

(٣) الأردان جمع ردن بفتح الراء والدال الخز ، وخالصها : صفاؤها وزوال شوبها ، والمناكب جمع منكب بفتح الميم وكسر الكاف : مجتمع رأس العضد والكتف

(٤) لازب : لازم .

(٥) أعيت عليه مذاهبه : ضاقت سبله وسدت .

دون الناس ثم هى لاتكشف عن خصوصية فى السلوك ، ولكن الشاعر بما كساها من جزل الألفاظ ، ومحكم التعبير ، وجميل الصور قد نفث فيها روحا من عنده ، وأبرزها فى معارض حضارية المعنى ، تكشف عن مظاهر الترف والنعيم التى يرفلون فى ثيابها ... وهو بذلك حولها من موات جامد إلى صفات تفيض بالحياة .

* * *

ومثال ذلك بائيته التى يعتذر بها إلى النعمان بن المنذر والتى يقول فيها :

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى ... وتلك التى أهتم منها وأنصب
فبت كأن العائدات فرشن لى ... هراسا به يعلى فراشى ويقشب(١)
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة ... لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولكننى كنت امرأ لى جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب(٢)
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم ... أحكم فى أموالهم وأقرب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
وإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
فلا تتركنى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مطلى به القار أجرب(٣)
ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب(٤)
ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب(٥)
فإن أك مظلوما فعبدا ظلمته ... وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب(٦)

---

(١) الهراس بفتحتين : شجر كثير الشوك ، العائدات : الزائرات فى المرض ، قشب : يجدد .

(٢) جانب من الأرض : متسع ، مستراد : يذهب فيه الإنسان كما يريد ، إيماء إلى إكرام الغساسنة له .

(٣) القار : القطران .

(٤) السورة بضم السين : المنزلة ، يتذبذب : يضطرب ولايصل إليها .

(٥) تلمه : تضمه وتجمعه ، شعث ، فساد .

(٦) العتبى ، الرضا ، يعتب بضم العين وكسر التاء ، يعطى العتبى والرضا .

يقول للنعمان إن أنباء لومك إياى على ما بدر منى جعلتنى مهموما مكدودا لا يكحل النوم عينى ، فأقضى ليلى مؤرقا مسهدا كأنى أنام على شوك . ويحلف له بأنه لم يرتكب ذنبا يسيئه ، فهو ما زال على عهده الوفى الخالص ، أما ما بلغك عنى فهو وشاية الواشين قصدوا به أن يفصموا ما بينى وبينك من علائق . وكل ما صـــدر منى أنى قصدت ديار الغساسنة طالبا صفحهم عن عشيرتى ، فأنزلونى خير منزل ، وأكرموا وفادتى ، وأحسنوا معاملتى ، وأجزلوا لى العطاء ، فلم يكن منى إلا أن رددت لهم هذا الصنيع بمدحهم ، كما يفعل معك من تنعم عليه من الشعراء — محتجا بذلك لمسلكه من واقع ملموس لدى النعمان — وليس معنى ذلك أنى جرحت عليك ، ولا كفرت نعمتك ، ولا انحزت إلى الغساسنة دونك ، وأين هم الغساسنة وغيرهم منك ، وأنت من الملوك كالشمس بين الكواكب ، إذا سطع ضوؤها اختفت أضواء الكواكب — موحيا بذلك إلى أنه يرجو منه أن يسطع عليه بالمزيد حتى يوارى كل من عداه — ثم يصرح باستعطافه ، فيطلب إليه أن يعفو عنه لأن غضبه عليه جعل الناس يتحاشونه كأنه بعير أجرب طلى بالقار وأبعدت عنه الإبل صيانة لها منه . وما ذلك إلا لمنزلتك فى نفوس الناس ومكانتك منهم وتلك إحدى خصوصياتك التى وهبها الله لك . ولكنه بعد إنكاره تهمة الخروج عليه واستقصاء كل ما يزيل آثار تلك الوشاية ينتقل إلى طريق آخر ، فيقول له ، ولو صح أنى ارتكبت هذه الهفوة ، فهل يمكن لإنسان أن ينأى عن الخطأ ، ولن يكون لك صديق إذا عزلت من صداقتك كل من يصدر منه هفوة . وأياما كان صنيعك معى فإنى راض بكل ما تراه لى ، فإن ظلمتنى فعبد ظلمه سيده ، وإن عفوت عنى فذلك أمر طبيعى ؛ إذ مثلك يعتب ويصفح .

ولا شك فى أن البون شاسع بين مدائحه واعتذارياته ؛ إذ هو فى اعتذارياته يعتمد على تصوير ضيقه ومعاناته ، فهو فيها مرهف الحس والشعور ، يقظ العقل ، يلمس بها قلب مخاطبه ، ويقرع عقله بالحجة الجلية والبرهان القاطع ، حتى تمكن فى آخر الأمر من إدارة رأسه ، واستلال الحقد والغضب من صدره ولقد وضح من هذه الاعتذاريات أن النابغة ليس خبيرا بطبائع النفس البشرية فحسب بل هو خبير بطبائع الملوك ، ملم بما يؤثر فيهم ، وأقرب شىء إليهم أن تعترف بضعفك أمامهم ، وتقر بسيادتهم عليك .

وواضح أن النابغة لم يحصل على ذلك إلا من مشاركة القصور ، ومعايشة الأمراء

والملوك ، ومخالطة الحاشية ورجال الدولة والسياسة ، تثقف بثقافتهم ، وتعلم منهم أساليب مخاطبة الملوك مديحا واستعطافا واعتذارا .

وهكذا انسلخ من طبيعته البدوية ، دون أن يحس فى ذلك بغضاضة ، أو يشعر بما يشعر به أهله من ضيق ، بل كان على العكس من ذلك يرى أن ذلك السبيل حقق له السيادة بين قومه — رضوا بذلك أم كرهوا — فهم بحاجة إلى ماله كما هم بحاجة دائما إلى جاهه ومكانه عند المناذرة والغساسنة ولعل من مظاهر ذلك أنهم أكبروه وضربوا له القبة الحمراء فى سوق عكاظ ليحكم فى الشعر والشعراء ، فيقدم هذا ويؤخر ذاك .

* * *

ومن ثم يتضح الفرق بين النابغة وامرىء القيس ، مع اتفاق البيئة الخاصة بهما ؛ فامرؤ القيس كان فى ثروة الأمير ابن الملك الذى يشعر بأصالته فيما هو فيه ، فهو مستقل عن الآخرين ، يصنع ما يروقه ، ويتحرك من منطلق ذاتى ، أما النابغة فيحس بأنه ما حقق ذلك الذى هو فيه إلا باستمداده من غيره ؛ فالنعمان مصدر نعمته ، وهو لذلك مشدود إليه ، لا يستطيع الفكاك من أسره الذى يعلقه فى يدى سيده .

خطاطيف حجن فى حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع

وكان هذا الفارق بين الشاعرين أساس اختلافهم فى الفنون الشعرية التى تناولاها؛ فهما — على الرغم من اتفاقهما فى البيئة الخاصة — مختلفان فيما يلونها ويشكلها ، مختلفان فيما يحدوها وما ينشأ عنها .

ولم يقف اختلاف النابغة عن امرىء القيس عند حد الاختلاف فى الدافع إلى القول وما نشأ عن ذلك من الاختلاف فى الفنون الشعرية . . !

وذلك لأن الناظر فى شعر الشاعرين نظرة موازنة يلاحظ أن من بين الفوارق المميزة لكل حرص امرىء القيس فى تصويره على الصور التفسيرية المدعمة بالتشبيه وغيره من ألوان البيان بينما يحرص النابغة فى تصويره على الصور البيانية القائمة على النظرة الحصية المستقصية لأجزاء الصورة ، والوقوع منها على الجوانب المصورة ، كما رأينا فى تصويره جيوش الحارث الغسانى وما تحققه من انتصارات ، وتصوير الغساسنة فى سلمهم ، فيتحدث عن سجاياهم وشيمهم ومعتقداتهم الدينية حديثا يرسم لهم صورة رائعة فى قوله :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم ... من الجود، والأحلام غير عوازب

إلى آخر ما ذكرنا من ذلك آنفا . ولا يعنى ذلك أن النابغة لا يستخدم — فى تصويره — الصور التفسيرية ، ولكن الذى أعنيه من ذلك أن النابغة لم يكن يحتفل بهذه الصور احتفال امرىء القيس ، ولا كان يعتمد عليه فى تصويره اعتماد امرىء القيس . من ثم ركز النابغة جهده فى الوقوع من ممدوحه على المعانى التى يتمدح بها ، وعرضها فى ترتيب متناسق أخاذ ؛ ورأينا فى صوره — لذلك — معانى حضرية جديدة لم تعرف ولا لشاعر العصر العربى لشاعر البادية الخالص ، تمثل سلوكهم ومعتقداتهم الدينية ، ومظاهر الترف والنعيم فى حياتهم .

بيد أن موازنة النابغة بعدى بن زيد تكشف عن ما بين الشاعرين من علائق تنبىء عما أخذه النابغة من عدى فى ذلك ، خصوصا فى اعتذاراته .

كما يتضح الفرق بينه وبين زهير الذى ارتبط بيئته القبلية ، ولم يخرج عليها على الرغم مما أتيح له من أسباب الترف والنعمة ، فاتجه بمدائحه إلى من يقدم الخير لأهله وعشيرته ، فلم يمدح أشخاصا بقدر ما مدح أفعالا ، على عكس النابغة الذى قصد إلى مدح الأشخاص ليدعوهم من وراء ذلك إلى الأعمال . ومن ثم افترق زهير فى مدائحه عن النابغة ، فاتسمت مدائح زهير بالصدق الواقعى والفنى ، وكانت نابعة من شعور متسق مع الموقف ، أما مدائح النابغة فكانت معتمدة على الفن المصنوع الذى لا يقوم على تجاوب نفسى ، ولا انسياق عاطفى . ولا ريب فى أن ذلك أثر من أثار البيئة الحضرية التى ضمت النابغة .

بيد أن بين الشاعرين تشابها يتمثل فى عزوف كل منهما عن الهجاء ، وتحفظه فيه إذا اضطر له اضطرار ، وهما فى ذلك متأثران بخلق البادية العربية المترفة أو المتحضرة المزوج بالوقار الذى أضفاه على كل منهما مركزه بين عشيرته وتقدمه فى السن ، فلما كان زهير يمتنع من الخوض فى عرض مهجوه ، والإقذاع فى شتمه وسبه ، كان فى قوله يهجو عامر بن الطفيل ردا على هجائه إياه :

فإن يك عامر قد قال جهلا ... فإن مطية الجهل السباب

فكن كأبيك أو كأبي براء ... توافقك الحكومة والصواب(١)
ولا تذهب بحلمك طاميات ... من الخيلاء ليس لهن باب(٢)
وإنك سوف تحلم أو تناهى ... إذا ما شبت أو شاب الغراب(٣)

ولعل هذا الاتجاه المتحفظ فى هجائه كان أحد الأسباب التى مكنت له فى نفوس معاصريه من مختلف القبائل والعشائر فحكموه بين الشعراء فى أسواقهم الأدبية .

(١) أبو براء : عامر بن مالك ، ملاعب الأسنة ، وهو عم عامر بن الطفيل .
(٢) طاميات : فائضات ومرتفعات . ليس لهن باب : ليس لهن مخرج .
(٣) أو شاب الغراب : ضرب النابغة ذلك مثلا لعامر ، وأنه لن يحلم أبدا .

(٤)

العباس بن مرداس السلمى

مولده ونشأته :

أبو الهيثم[1] العباس بن مرداس بن أبى عامر ينتهى نسبه ـ على الخلاف فيه[2] ـ إلى سليم بن منصور بن قيس عيلان بن مضر ، أما مولده ونشأته شأن مولد معاصريه ، لم يكن ميسورا أن يعرف على وجه التحديد متى ولد ، وكل ماتحمله كتب التاريخ من مجموع الروايات التى تتناول نشأته أن حياته توزعتها الجاهلية والإسلام ، وأنه قضى فى الجاهلية من عمره ما مكن منه من أن يكون فارسا ذائع الصيت بين قومه ، وأن يكون شاعرا له شأنه ، فهو بحق مخضرم .

وكان أبوه ـ مرداس بن أبى عامر ـ من سادة سليم وفرسانها ، حضر يوم شعب جبلة مع بنى عامر ، وأبلى فيه بلاء حسناء واشتهر ـ إلى جانب فروسيته ـ بالكرم حتى لقب بالفيض ، وكان شريكا لحرب بن أمية فى « القرية » التى دفن فيها بعد موته وقد ادعاها كليب بن أبى عهمة السلمى لنفسه ، واستولى عليها[3] ، وفى ذلك قال العباس قصيدته النونية يطالب فيها كليبا بالكف عن الظلم ، وإعادة القرية إلى أصحابها ، وفيها يقول[4] :

---

(١) احتلفت الروايات فى كنيته بين « أبو الهيثم » ، و « أبو الفضل » ، راجع الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لأبى عمرو بن يوسف بن عبد البر على هامش الإصابة طبع التجارية ج ٣ ص ١٠١ ، ومعجم الشعراء لأبى عبد الله محمد بن عمران المرزبانى طبع الحلبى ص ١٠٢ (٢) اتفقت الروايات على نسبه حتى جده أبى عامر ، ثم اختلفت فيما بعد ذلك راجع الاستيعاب ج ٣ ص ١٠١ ، ومعجم الشعراء ص ١٠٢ . والأغانى ج ٤ ص ٣٠٢ ، والإصابة ج ٢ ص ٣٦٢ ، وطبقات بن سعد ج ٤ ص ٢٧١ ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٦٣ . (٣) الأغانى ج ٦ ص ٣٤١ طبع دار الكتب.

(٤) انظر ديوان العباس ص ١٠٨ بتحقيق د / يحيى الجبورى طبع بغداد ١٩٦٨ .

أكليب مالك كل يوم ظالما   والظلم أنكد وجهه ملعون
إن القرية قد تبين أمرها   إن كان ينفع عندك التبيين
حيث انطلقت تخطها لى ظالما   وأبو يزيد بجوها مدفون

وقد تزوج مرداس أكثر من زوجة ، كان أشهرهن تماضر الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة ، وكانت تزوجته بعد زوجها الأول رواحة بن عبد العزى ، وبقيت مع مرداس حتى مات فحزنت عليه ورثته .

وكان تعدد زوجات مرداس سببا فى اختلاط الأمر على المؤرخين ، حين أرادوا التعريف بأم العباس بن مرداس ، فقد سبق إلى وهم الكثيرين أن الخنساء هى أم العباس(١) .

لكن الذى تبين لى من البحث أن أم العباس هى هند بنت سنة بن سنان - وكانت زنجية سوداء - وهى إحدى المنجبات على ما ذكره ابن حبيب(٢) ؛ فالخنساء لم يرد فى شعرها مايدل على أن العباس ابنها ولم ترد إشارة فى شعر العباس تفيد أنها أمه . وقد أيد الجاحظ ما ورد عن ابن حبيب ، فقد ذكر فى رسالة فخر البيضان على السودان ما يشير إلى أن أم العباس زنجية ، وذلك فى أثناء القصيدة التى أوردها لسنيح بن رباح الزنجى فى هجاء جرير بن الخطفى حين انتقص الزنج ، وفيها عدد الشاعر أبناء الزنجيات مفتخرا بما لهم من مكانة ، ومنهم : خفاف ابن ندبة ، وعباس بن مرداس ، وابن شداد - عنترة الفوارس وأخاه هراسة - وسليك بن السلكة . ومطلع قصيدته تلك :

ما بال كلب من كليب سبنا   إن لم يوازن حاجبا وعقالا(٣)

وقد ولدت الخنساء لمرداس معاوية ويزيد وعمرا وعمرة وكانت شاعرة - فكانوا إخوة العباس لأبيه على الصحيح ، أما عبد الله بن رواحة بن عبد العزى المعروف بأبى شجرة فليس أخا العباس بن مرداس ، ولكنه ابن الخنساء زوج أبيه ، وكان

(١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ، والأصمعيات لعبد الملك بن قريب الاصمعى بتحقيق احمد شاكر وعبد السلام هارون . ودائرة المعارف الإسلامية ج ١٢ ص ١٤٤ ، ص ١٤٥ .   (٢) انظر المحبر لمحمد بن حبيب ص ٤٥٥ ، ص ٤٥٦

(٣) انظر رسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون ج ١ ص ١٩٠ - ١٩٢ طبع الخانجى بالقاهرة .

قد أسلم مع سليم وارتد مع من ارتد منها، ولحق بطليحة مع صحبه، ويذكر أنه أسلم بعد ذلك ودخل فيما دخل فيه الناس[١]، ومن إخوة العباس أيضا عمارة بن مرداس الذى قتله بنو خولان فى حقل من نواحى صعدة، ورثاه العباس بقصيدة، جاء فيها :

أبعد عمار الخير نرجو سلامة	وقد بتكت آرابه ومفاصله
فلا وضعت عندى حصان حمارها	ولا ظفرت كفى بقرن أنازله
لأن لم أزر خولان فى عقر دارها	بأرعن رجاف تزجى قنابله[٢]

وقد تزوج العباس فى الجاهلية حبيبة بنت الضحاك بن سفيان السلمى — وكانت شاعرة — ، ولكنها فارقته حين علمت بإسلامه، وقالت تهجوه وتتوعده بما ينتظره إذ فارق دين آبائه :

لعمرى لئن تابعت دين محمد	وفارقت إخوان الصفا والصنائع
لبدلت تلك النفس ذلا بعزة	غداة اختلاف المرهفات القواطع[٣]

ثم تزوج بعد إسلامه، لكننا لم نقف على اسمها، وكان له من الولد : كنانة، وسعيد، وعبيد الله، وجاهمة، وقد أسلم جاهمة وكان له صحبة بالنبى صلى الله عليه وسلم، وروى عنه صلى الله عليه وسلم بعض الحديث، وكان تواقا للجهاد فى سبيل الله فقال يارسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك، فقال : هل لك من أم؟ قال نعم . قال فالزمها فإن الجنة تحت أرجلها[٤]

* * *

أما حياة العباس فمن ثنايا الأخبار القليلة المتناثرة هنا وهناك نستطيع أن نقرر

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٦٥، ص ٢٦٦

(٢) الديوان ص ١٣٧، وانظر صفة جزيرة العرب لأبى محمد الحسن بن أحمد الهمزانى ص ٢٨٠، ص ٢٨١ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣، ومعجم البلدان ج ٧ ص ٢٨٧، ص ٢٧٩ .

(٣) الأغانى ج ١٤ ص ٣٠٤

(٤) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٢٧٤

أنه كان ذا مكانة مرموقة فى قومه ؛ لما ضم من شمائل وصفات ؛ فقد كان عاقلا متزنا حرم على نفسه الخمر فى الجاهلية ، ولما قيل له ألا تأخذ من الشراب ، فإنه يزيد فى جرأتك ويقويك ، فقال : أصبح سيد قومى وأمسى سفيهم[1] . واعتزازه بمكانته فى قومه وزعامة أمته جعل منه فارسا مغوارا يشاركهم فى حروبهم، مدافعا عنهم ، ومتعاطفا مع رغباتهم ؛ ولقد صور ذلك فى شعره ، وافتخر بشجعان قومه فى مثل قوله :

وكنا إذا ما الحرب شبت نشبها ونضرب فيها الأبلج والمتقاعسا
فأبنا وأبقى طعننا فى رماحنا مطارد حطى وحمرا مداعسا[2]

وحينما أغارت بنو نصر بن معاوية على ناحيـــة من أرض بنى سليم نهض العباس لمقاومتهم فى جمع من قومه وقاتلهم حتى أكثر فيهم القتل[3] ، وصور ذلك فى ميميته التى منها قوله :

وما زال منهم رائغ عن سبيلها وآخر يهـوى لليـــدين وللفم
لدن غدوة حتى استبيحوا عشية وذلوا فكانوا لحمـة المتلحم[4]

واشترك فى أكثر أيامهم مثل يوم الفيفاء، وبرزة ، والكديد[5] ، ويوم تثليث، وفى هذا اليوم تولى العباس زعامة سليم حين غزت مرادا لجمعهم عمرو بن معد يكرب، فالتقى الجيشان بتثليث ، وصبرا ولم تظفر طائفة منهما بالأخرى ، وفى ذلك قال قصيدته السينية ، وهى إحدى القصائد المنصفات[6] .

كما كان فى كثير من شعره الجاهلى اللسان الناطق بأمجاد قومه، المدافع عنهم ، المفتخر ببلائهم ، وشجاعة فرسانهم . على نحو ما قال فى الرد على خصمهم عبد الله بن جذل غداة يوم برزة :

ألا أبلغا عنى ابن جذل ورهطه فكيف طلبناكم بكرز ومالك

---

(١) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ٢٦٥ ، وانظر قطب السرور فى أوصاف الخمور ص ٤١٦

(٢) الديوان ص ٧١

(٣) الأغانى ج ١٣ ص ٦٦ طبعة ساسى

(٤) انظر الديوان ص ١٤٦

(٥) انظر العقد الفريد ج ٥ ص ١٣٤ ، ص ١٧٤ ، ص ١٧٦

(٦) انظر العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٦٨

غـــداة لجئناكم بحصن وبابه ... وبابن المعـــلى عاصم والمعارك
نذيقـكم والمـوت يبنى سرادقا ... عليـكم شباحد للسيوف البواتك
تلوح بأيدينـا كما لاح بارق ... تلألأ فى داج من الليل حالك
صبحناكم الموج المناجيج بالضحى ... تمر بنـا مر الرياح السواهك(١)

بيد أننا نلاحظ وجود خصومة بينه وبين ابن عمه خفاف بن ندبة من قوله :

وعـل الله يمـكن من خفاف ... فأسقيه التى عنهـا يحيـد(٢)

وترجع هذه الخصومة إلى تنازعهما على زعامة قومهما بعد مقتل صخر بن عمرو بن الشريد فى يوم « ذات الأثل » الذى كان يتولى تلك الزعامة آنذاك(٣) . وقد ولدت هذه الخصومة معارك شعرية بين الشاعرين ، لبست ثوب المناقضات ، وكان للعباس منها إحدى عشرة قصيدة .

وكما يكشف شعره عن هذه المعركة اللسانية بين الشاعر وابن عمه يكشف كذلك عن معركة أخرى حربية نشبت بينه وبين أحـد الصناديد المعدودين فى عصره ، هو عمرو بن معد يكرب ، فى نحو قوله :

ألا أبلغا عمرا على نـأى داره ... فقد قلت قولا جائرا غير مهتد
أتهدى الهجاء لامرىء غير مفحم ... وتهدى الوعيد لامرىء غير موعد
فإن تلقنى تلق امرأ قـد بلونه ... حديثـا وإن تفجر على تفند(٤)

وفى الحديث عن تلك الخصومة يذكر ابن عبد ربه أن عمرا قد فر من العباس فى إحدى المعارك ، وأن العباس أسر ريحانة أخت عمرو الذى أشار إلى ذلك الحدث فى مطلع قصيدته الميلية حيث يقول :

---

(١) الديوان ص ١٣٠
(٢) الديوان ص ٤٢
(٣) راجع أيام العرب فى الجاهلية لمحمد أحمد جاد وآخر ص ٣٩٩ طبع الحلبى
(٤) الديوان ص ٤٧

أمن ريحـــانة الداعى السميع يؤرقنى وأصحابى هجوع(١)

وكان العباس فى جاهليته على علاقة طيبة باليهود ـ خصوصا يهود خيبر ـ الأمر الذى حمله يدافع عنهم ويبكى قتلاهم فى حربهم مع النبى صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة مثل قوله فى إجلاء بنى النضير من ديارهم ، والتحزن لما أصابهم :

لو أن أهـل الدار لم يتصدعوا رأيت خلال الدار ملهى وملعبا(٢)

وقوله فى الرد على خوات بن جبير وما قاله فيهم :

أخوات ادر الدمع بالدمع وابكهم وأعرض عن المكروه منهم وسكبا(٣)

يؤيد هذا ما رواه صاحب الأغانى من تحاور بين العباس بن مرداس وخوات بن جبير أمام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ؛ فقد قال خوات : يا عباس أأنت الذى رثيت اليهود وقد كان منهم فى عداوة رسول الله ما كان ؟ ! فقال عباس : إنهم كانوا أحلائى فى الجاهلية ، وكانوا أقواما أنزل بهم فيكرمونى ، ومثلى يشكر ما صنع إليه من الجميل(٤)

* * *

هذا العباس فى الجاهلية وقبل أن يدخل الإسلام كما صورته الأخبار والإشارات المتناثرة هنا وهناك .

أما حياته فى الإسلام فكانت أوضح منها قبل ذلك شيئا ما ؛ فقد خرج فى قومه عام الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقوه بقديد فأسلموا جميعا ، وقالوا اجعلنا فى مقدمتك ، واجعل لواءنا أحمر ، وشعارنا مقدم ، ففعل ذلك بهم(٥) ؛ ليفتحوا بذلك صفحة جديدة بعد مقاومة وعناد فى مواجهة الدعوة الإسلامية ، وإصرار على عبادة الأصنام وكان لكل صنم يتعصب لعبادته ويكب عليه . روى أنه كان لمرداس وثن يعبده

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٤٦

(٢) الديوان ص ٣٨ (٣) الديوان ص ٤٠

(٤) الأغانى ج ١٤ ص ٣١٨ طبع دار الكتب .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٣٠٧

وهو حجر يقال له « ضمار » — فلما حضر مرداس الموت قال العباس : أى بنى أعبد « ضمار » فإنه ينفعك ويضرك ، فبينا عباس يوما عند « ضمار » إذ سمع من جوف « ضمار » مناديا يقول :

قل للقبائل من سليم كلها　　أودى ضمار وعاش أهل المسجد
إن الذى ورث النبوة والهدى　　بعد ابن مريم من قريش مهتدى
أودى « ضمار » وكان يعبد مرة　　قبل الكتاب إلى النبى محمد(١)

لا يعنينا هنا من القصة وأحداثها أكثر من أن نعرف أن العباس بن مرداس ورث عن أبيه وثنا ، قام بعبادته قبل أن يعتنق الإسلام ، وأن هذا الوثن كان يسمى « ضمار » أما ما عدا ذلك مما يثار حوله الشكوك فلسنا فى مجال تحقيقه وبحث مكانه من الحقيقة .

لقد أسلم العباس بن مرداس بعد هذه الحياة الوثنية ، وحسن إسلامه ، حتى أصبح من جنود الإسلام المدافعين عنه ، والداعين إليه فى كل مكان ، فشهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم فتح مكة ، ويوم حنين ، حمل لواء مرداس يوم فتح مكة هو وخفاف ابن ندبة تحت قيادة خالد بن الوليد(٢) ، أما فى يوم حنين فقد أبلى هو وقومه بلاء حسنا ، وأشرك شعره فى المعركة ، فتغنى فيه بأمجاد المسلمين ، وأوضح دور بنى سليم فى المعركة فى نحو قوله :

ويوم حنين حين سارت هوازن　　إلينا وضاقت بالنفوس الأضالع
صبرنا مع الضحاك لا يستفزنا　　قراع الأعادى منهم والوقائع
أمام رسول الله يخفق فوقنا　　لواء كخذروف السحابة لامع(٣)

بيد أنه فى يوم حنين كان ما يزال خاضعا لمؤثرات الجاهلية ، ولم تكن مبادئه وسلوكياته وأفكاره قد أخذت منه مكان القياد والتوجيه ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الأقرع بن حابس التميمى مائة من الإبل من غنائم حنين ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٤٢٧
(٢) انظر امتاع الأسماع للمقريزى ج ١ ص ٣٧٢ ، ص ٣٧٣
(٣) الديوان ص ٨١

وأعطى عيينة بن حصن الفزارى مائة من الإبل ، وأعطى العباس دون المائة فسخطها فقال يعاتب الرسول صلى الله عليه وسلم :

كانت نهـــابا تلافيتها بكرى على المهر فى الأجرع
وإيقاظى القوم أن يرقدوا إذا هجع النـــاس لم أهجع
فأصبح نهبى ونهب العبيـ ـد بين عيينة والأقرع
وقد كنت فى الحرب ذا تدر ء فلم أعط شيئا ولم أمنع
إلا أفايل[١] أعطيتهـــا عديد قوائمها الأربع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان شيخى فى المجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم : أذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه ، فأعطوه حتى رضى ، فـكان ذلك قطع لسانه[٢] .

ولم يكن موقفه هذا هو أول مواقفه المادية التى تدل على مااستقر فى نفسه من روح الجاهلية ولم يتأثر بعد بالخلق الإسلامى فقد سبق هذا موقف آخر شبيه بذلك ، حين عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رد سبايا هوازن وأموالها إليهم ، فرد المهاجرون والأنصار نصيبهم ، وقالوا ماكان لنا فهو لرسول الله ، أما زعماء الأعراب من المؤلفة قلوبهم فـكان لهم غير هذا الشأن ، فقد قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : بلى ! ماكان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عباس بن مرداس لقومه : وهنتمونى[٣] .

---

(١) أفايل : الأفيل : الصغير من الإبل والغنم ، وجمعه إفال ــ بكسر الهمزة ــ وجمع الجمع أفايل .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٣١٣ طبع المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ ، وإمتاع الأسماع للمقريزى ج ١ ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، والطبقات الكبرى ج ٤ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ والاستيعاب ج ٣ ص ١٠٢ .

(٣) السيرة النبوية ج ٣ ص ٣٠٩ الطبعة السابقة .

لـكن الإسلام ظل يتغلغل فى نفس العباس على مر الأيام حتى أصبح موضع ثقـة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقامه على صدقات بنى سليم ومازن ابنى منصور[1] ، وبعثه مع رجال إلى قومه بنى سليم ليحضهم على الجهاد ويرغبهم فى الصدقة استعداداً لغزوة تبوك[2] ، وهكذا حتى جاء اليوم الذى كان فيه العباس بن مرداس واحدا من رواة حديث النبى صلى الله عليه وسلم — وإن كان مقلا — فقد روى أبو داود وابن ماجه عنه حديثا فى عموم المغفرة للحجاج يوم عرفة[3] ، وقال عنه العجلى : هذا حديث غريب ، وليس يروى عن العباس بن مرداس سوى هذا الحديث[4] ، غير أن الحافظ ابن حجر العسقلانى تعرض لهذا الحديث بالدفاع والتصحيح ، والرد على ابن الجوزى الذى أورده فى الموضوعات وأشار إلى أن له أحاديث أخرى غير هذا الحديث[5] .

* * *

ومع ما مرت به حياة العباس بن مرداس من تقلبات وتغيرات — حيث انتقل من الجاهلية إلى الإسلام — لم يغير مقامه ، فقد ظل يقيم ببادية بنى سليم فى الجاهلية ولزمها فى الإسلام فترة من الزمن يبدو أنها امتدت حتى خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان يحضر من بادية بنى سليم ليشترك مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الغزوة ، ثم إذا فرغ من مهمته عاد إلى بلاده ، ولم يقم فى مكة ولا فى المدينة[6] ، ولما انتقل إلى البصرة حين اختطها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — كان ينزل فى بواديها[7] ، مما يتضح معه مدى تعلقه بأرض قومه ، وارتباطه بالحياة البدوية ، وإيثاره العيش فى أكناف البادية على الحياة فى المدينة أو الحاضرة .

وكما لم تحدثنا المصادر التاريخية عن ميلاد العباس فى جاهليته ، لم تحدثنا كذلك عن وفاته فى الإســـلام إلا الحديث المحتمل الذى لا يدعمه السند القاطع ، فابن حجر

---

(١) راجع تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ٢٥٥ ، وأنساب الأشراف ج ١ ص ٥٣٠

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٤٦ (٣) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠

(٤) القول المسدد فى الذب عن مسند الإمام ص ٤٩ .

(٥) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠ . (٦) الطبقات الـكبرى ج ٧ ص ٣٣

(٧) الطبقات الـكبرى ج ٤ ص ٢٧٣ .

العسقلانى يقدر أنه مات فى خلافة عثمان رضى الله تعالى عنه[1] ، وصاحب الأغانى لم يحدد لوفاته سنة بعينها ، ولكنه ذكر أنه مات فى الإسلام[2] ، أما الزركلى فذكر أنه مات بالشام سنة ١٦هـ[3] ، دون أن يشير إلى المصادر التى استقى منها هذا التحديد.

على أى حال المقطوع به أن العباس بن مرداس مات فى الإسلام ، وقد أثارت وفاته أشجان أخيه سراقة بن مرداس ، وأخته عمرة بنت الخنساء فرثياه بشعر يفيض أسى وحزنا على فراقه ؛ وكان مما قاله سراقة :

أعينِ ألا ابكى أبا الهيثم ... وأذرى الدموع ولا تسأمى

وأثنى عليه بآلائه ... بقول امرىء موجع مؤلم

فما كنت بائنه بامرىء ... أراه يبدو ولا موسم

أشد على رجل ظالم ... وأدهى لداهية ميثم[4]

وقالت أخته عمرة :

لتبك ابن مرداس على ماعراهم ... عشيرته إذ حم أمس زوالها

لدى الخصم إذ عند الأمير كفاهم ... فكان إليه فصلها وجدالها

ويعضله للحاملين كفيتها ... إذا أنهلت هوج الرياح طلالها[5]

شعره :

واضح من حياة الشاعر ونشأته أنه بدوى خالص البداوة ؛ فهو مرتبط بقبيلته ، حريص على مكانته معها ؛ لا يرضى بالحياة بين عشيرته ولا فوق أرض سليم بديلا ، حتى حين تيسر له أن يجد متسعا من الحياة خارج حدود باديته لم يقبل أن يستبدل بها أى موطن آخر ، على الرغم مما فى هذا الموطن الجديد من مغريات ، ومايتوفر له من عوامل الجذب — ويكفى أن يكون من بين ذلك ملازمة الرسول صلى الله عليه وسلم —

---

(١) راجع تهذيب التهذيب حـ ٥ ص ١٣٠

(٢) انظر الأغانى حـ ٤ ص ٣١٨ طبع دار الكتب .

(٣) الأعلام حـ ٥ ص ٢٢٥

(٤) الأغانى جـ ١٤ ص ٣١٩ طبع دار الكتب .

(٥) المرجع السابق جـ ١٤ ص٣١٩ وشرح الحماسة للمرزوقى القسم الثالث ص١٠٩٩ .

فهو تحت إلحاح الضرورة لايجد مندوحة من مغادرة البادية حتى إذا أدى ماعليه من واجب الجهاد عاد إليها . بل إنه حين فكر فى الخروج إلى البصرة على عهد عمر رضى الله عنه ، أبى أن يكون خروجا إلى المدينـــة ، وآثر بادية البصرة ، ليستبدل بادية ببادية .

ولسنا بصدد البحث عن السر فى إيثار العباس بن مرداس حياة البادية على حياة الحاضرة ؛ فهذا له مجال آخر غير بحثنا ، إنما الذى يعنينا هنا أن نحاول التعرف على أثر ذلك فى أدبه .

والذى ينظر فيما وصلنا من شعر العباس يلاحظ أثر هذه البيئة البدوية فيه واضحا كل الوضوح ؛ يلاحظ ذلك فى فنونه الشعرية ، ويلاحظه فى أفكاره ، ويلاحظه فى معانيه وأخيلته ، ويلاحظه فى أسلوبه ومنهجه الفنى فى عرض أفكاره ومعانيه ، ويلاحظ فى معجم ألفاظه والأعلام التى ترد فيه .

فالشاعر يكاد يقصر شعره على الفخر والهجاء . ولا ريب فى أن هذين الفنين هما أبرز فنون الشعر البدوى الخالص من التيارات الأخرى ، وذلك لأن البدوى الفارس الذى استقرت حياته بين قومه فى البادية لايحرك نفسه إلى قول الشعر إلى موقف يتطلب منه الاعتزاز بنفسه وبقبيلته ، فينطلق معددا مفاخره على اختلاف مظاهرها . أو موقف يتطلب منه الرد على من أساء إليه أو إلى واحد من أبناء قبيلته أو تطاول على خلق من أخلاقهم ، أو شذ عن أحد أعرافهم ، فينطلق لسانه عندئذ بتصوير هذه العيوب ، وإبراز تلك المثالب ، حتى يتحاشاها هو ومن على شاكلته . . . أما ماعدا ذلك من فنون الشعر فيلاحظ أن الشاعر لم يقبل عليها إقباله على هذين الفنين ، ولكنه تناول ماتناوله منها فى شعره عرضا وليس باعتباره فنا مستقلا ، وما استقل منها بالتناول فهو قليل نادر ، على ماسنفصله إن شاء الله تعالى .

* * *

١ — لقد كان الفخر — ومازال — من ألزم الصفات للانسان ، بيد أنه يختلف من فرد إلى آخر ، وفقا لظروفه البيئية ، فما يفتخر به الإنسان فى الحاضرة غير مايفتخر به فى البادية ومايفتخر به فى إحدى الحواضر غير مايفتخر به فى حاضرة أخرى ، كما أن لكل بادية مفاخرها التى يعتز بها ساكنوها . بل إن المفاخر فى الوطن الواحد تختلف باختلاف مراحل العمر وأطواره ؛ ففى مرحلة قد يفتخر الإنسان بالطيش والاندفاع وراء

العاطفة ، لكنه فى مرحلة أخرى يمتز بالحكمة والأناة والتروى . وقد تتجه الإنسان بفخره إلى تعداد مناقب قومه ، وقد يكون ذلك بتعداد مناقبه الشخصية ، وقد يجمع بين هذا وذاك ثم إن ما يفخر به الشاعر قد يكون صفات عريضة ومحاسن جسمية ، وقد يكون فضائل نفسية وسجايا خلقية .

ونحن حين نتفحص فخر العباس بن مرداس نلاحظ أنه جمع بين ذاته وقومه ، فكما افتخر بنفسه افتخر بقومه ، وأنه حرص على التغنى بالفضائل النفسية والسجايا الخلقية التى قامت عليها نفسه ، وارتكزت عليها قبيلته .

من ذلك ما قاله فى الفخر على خفاف بن ندبة ، فهو ليث يحمى عرينه ، ولا تفلت من بين براثنه فريسة أتحه إلى قنصها[1]

إن تلقنى تلق ليثـا فى عريلته ... من أسد خفاف فى أرساغه فدع[2]
لايبرح الدهر صيد قد تقنصه ... من الرجال على أشداقه القمع[3]

وقوله لخفاف أيضا إنك حين تشتمنى لاتنال منى ، لأنك لو تبينت لأمر لعرفت أنك ترمى هضبة صلبة وإلى عرض ناصع طاهر لايقبل الذم ولا التجريح ، وإنى فارس أبى من قوم أباة شجعان[4] .

ألا أيها المهدى لى الشتم ظالمـا ... تبين إذا راميت هضبة من ترمى
أبى الذم عرضى، إن عرضى طاهر ... وإنى أبى من أباة ذوى غشم[5]

(١) الديوان ص ٨٧

(٢) الأرساغ جمع رسغ — بضم الراء — والرسغ مفصل ما بين الساعد والكف ، والساق والقدم . والفدع — بفتحتين — عوج فى المفاصل كأنها قد فارقت مواضعها ، وأكثر ما يكون فى رسغ اليد أو القدم .

(٣) القمع — بفتحتين — عظم ناتىء فى الحنجرة من الخارج ، أو طبق الحلقوم وهو مجرى النفس إلى الرئة .

(٤) الديوان ص ١١٠

(٥) الغشم — بفتح فسكون — الظلم ، يقال غشمت الرجل ظلمته أشد الظلم .

وإنى من القوم الذين دماؤهم شفاء لطلاب الترات من الرغم(١)

وقوله يفخر على عمرو بن معد يكرب ، حين افتخر عليه عمرو بحسبه ونسبه وعشيرته ، فقال ناقضا عليه مفاخره ، ومفتخرا بأصوله وأحسابه ؛ فهو ينتمى إلى قيس ابن عيلان المصرى ، وأحسابهم وأمجادهم دائمة لايصيبها الحول(٢) :

وإن تك من سعد العشيرة تلتقى إلى الفرع من قيس بن عيلان مولدى
إلى مصر الحمراء تنمى حدودنا وأحسابنا ومجدنا غير قعدد(٣)
مسائل بنا عليها ربيعة إنها أخونا وإن نقصر عن المجد نردد

وفى ظلال الإسلام بدأ العباس يتجه بالفخر متجها آخر ، فاعتزازه فى فخره بقومه أكثر وضوحا ، وارتكازه فى فخره على شجاعة قومه وإقدامهم ، ليس لإشاعة الظلم ، وفرض السلطان . ولكن لنصرة الإسلام ، والسعى لمرضاة الله ورسوله ، من ذلك قوله مفتخرا بما كان من قومه الذين آمدوا جيش المسلمين يوم حنين بألف فارس لينصروا رسول الله ، فخاضوا المعركة حاملين الراية فى أعلا الرمح يدفعون بها فى ميدان القتال فصبغوها بدماء الأعداء(٤) :

نصرنا رسول الله من غضب له بألف كمى لا تعد حواسره
حملنا له فى عامل الرمح راية يذود بها فى حومة الموت ناصره(٥)
ونحن خضبناها دما فهو لونها غداة حنين يوم صفوان شاجره

وهم خاضوا غمار الحروب فى حنين حاملين أرواحهم على أكفهم فى ثبات وصبر خلف الضحاك بن سفيان الذى أمره الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم فى ذلك اليوم دون أن يجدوا غضاضة ؛ فهم إنما خرجوا لنصرة الرحمن ودينه(٦) :

---

(١) الترات جمع ترة — بالكسر — وهى مصدر وتره يتره إذا قتل حميمه والمقصود الثأر ، والرغم — بتثليث الراء — الكره والذل ، يقال فعل هذا الشىء على رغمه .

(٢) الديوان ص ١٣٠

(٣) القعدد — بضم فسكون فضم — الجبان ، الخامل يقعد عن المكارم .

(٤) الديوان ص ٥٦

(٥) عامل الرمح أعلاه مما يلى السنان بقليل

(٦) الديوان ص ٥٤ ، ص ٥٥

واذكر بلاء سليم فى مواطنها ... وفى سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا ... دين الرسول وأمر الناس مشتجر
ونحن يوم حنين كان مشهدنا ... للدين عزا وعند الله مدخر
إذ نركب الموت مخضرا بطائنه ... والخيل ينجاب عنها ساطع كدر
تحت اللواء مع الضحاك يقدمنا ... كما مشى الليث فى غاباته الخدر(١)

ويظل العباس فى فخره على هذا النهج، فيكرر إلحاحه على أن قومه ودوا للرسول، وناصروه، ودافعوا عن دين الله، حتى عز بهم وتحقق النصر بألف الفارس السلمى الصادقين المخلصين، مثل قوله(٢):

وأنا مع الهادى النبى محمــد ... وفينا ولم يستوفها معشر ألفا
بفتيان صدق من سليم أعــزة ... أطاعوا فما يعصون من أمره حرفا
بنا عز دين الله غــير تنحل ... وزدنا على الحى الذى معه ضعفا
عداة وطئنا المشركين ولم نجد ... لأمر رسول الله عدلا ولا صرفا

ولا ريب فى أن أثر الإسلام – هنا – واضح، حيث حول العباس فى فخره من الفخر الشخصى والفخر القبلى إلى الفخر باشتراكه هو وقومه فى معركة من أخطر معارك المسلمين، ومساهمتهم فى أحداث يوم من أبرز أيام الإسلام الفاصلة، دون غرض شخصى، أو دافع قومى، يوضح ذلك قوله(٣):

رضا الله ننوى لا رضا الناس نبتغى ... ولله ما يبــدو جميعا وما يخفى

وقوله مشيدا بقيادة الضحاك بن سفيان الكلابى الذى ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم قيادة بنى سليم، ومفتخرا باستجابتهم له، كالأسود تأهبت للعراك طاعة لربهم، وحبا لرسول الله فحسب(٤).

---

(١) يقال خدر الأسد لزم عرينه وأقام فيه.
(٢) الديوان ص ٨٩، ٩٠
(٣) الديوان ص ٩٠
(٤) الديوان ص ٩٥، ٩٦

ثم الذين وفوا بما عاهدتهم جند بعثت عليهم الضحاكا
رجلا به ذرب السلاح كأنه لما تكنفه العدو يراكا

* * *

وبنو سليم معنقون أمامه ضربا وطعنا فى العدو دراكا
يمشون تحت لوائه وكأنهم أسد العرين أردن ثم عراكا
ما يرتجون من القريب قرابة إلا لطاعة ربهم وهواكا

ولأن فخر العباس — فى الغالب — يدور على فخره بالشجاعة والإقدام فى الحرب، والتفانى فى طاعة الله ورسوله ... جاء فخره ممتزجا بالحماسة، أو قل إن فخره لون من ألوان الحماسة؛ فأنت لا تكاد تعثر له على منقبة يفتخر بها غير مناقب الفارس المقاتل.

هذا إلى أن فخره أو حماسه ذلك يكاد يدور حول معركة حنين ... ويبدو أن لقرب إسلام العباس وقومه من هذه المعركة أثره فى إبرازها فى شعره، وفخره بما كان من قومه فيها؛ فهى — إلى ذلك — تكشف عن فرحة كامنة فى النفس بالدخول فى الدين الجديد، ومصاحبة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولعل فى هذا تفسيرا لقوله فى يوم حنين وحده سبع قصائد منها قوله(١) :

فجئنا أسد غابات إليهم جنود الله ضاحية تسير(٢)
نؤم الجمع جمع بنى قسيس على حنق نكاد له نطير
وأقسم لوهم مكثوا لسرنا إليهم بالجنود ولم يغوروا(٣)

* * *

٢ — وإذا كان الفخر من ألزم الصفات للإنسان، فإن الهجاء — فى الغالب — مما يستلزمه الفخر أو يستدعيه ويتطلبه، خصوصا فى البيئات البدوية، وذلك لأن الفخر

---

(١) الديوان ص ٥٠، ٥١

(٢) ضحا يضحو: برز للشمس.

(٣) غار الماء يغور: ذهب فى الأرض وسفل فيها، والمقصود: ولم يفروا.

إنما هو امتداح الإنسان نفسه أو قبيلته ، فهو ـ كالمدح ـ فى مقابلة الهجاء ، أى أن الهجاء يحتذى الفخر والمدح تماما ، فإذا كان الفخر ـ كما قررنا ـ يختلف باختلاف الشاعر وبيئاته وملابساته ، فإن الهجاء ـ كذلك ـ يختلف باختلاف بيئات الشاعر وملابساته وثقافاته .

والهجاء فى شعر العباس بن مرادس ينبئك عن أنه دفع إليه دفعا ، فلم يكن بطبعه ميالا إلى هذا الفن الشعرى ، وإنما هو فيه واقع تحت تأثير بعض أترابه ممن كانوا يثيرون غضبه بما يبدونه نحوه من أحقاد ، ويسببونه من عنت وضيق ، مثل ابن عمه خفاف بن ندبة ، وعتبة بن الحارث ، وعمرو بن معد يكرب . والشاعر يوضح ذلك بنفسه ويفسر اتجاهه إليه حين يواجه من يلومه فى الهجاء بالاستنكار عليهم وذلك فى أثناء هجائه سفيان بن عبد يغوث بقوله[1] :

ألام على الهجاء وكل يوم ... تلاقينى من الجيران غول

ويلاحظ أنه فى هجائه اعتمد على سلب الصفات الخلقية ، والفضائل النفسية ، فيصف مهجوه بعدم الوفاء ، ونكران الجميل كقوله لسفيان ابن عبد يغوث[2] :

ألا من مبلغ سفيـان عنى ... وظنى أن سيبلغه الرسول
ومـولاه عطية : أن قيـلا ... حلا منى وأن قد بات قيـل
سئمتم ربكم وكفرتمـوه ... وذلكم بأرضكم جميـل
ألا توفى كما أوفى شبيب ... نحـل له الولاية والشمول

أو يصفه بالغدر ويصمه بالخنا والمخانة ، كما فى قوله يهجو عتبة بن الحارث[3] :

كثر الضجاج وما سمعت بغادر ... كعتيبة بن الحارث بن شهاب
جللت حنظلة المخانة والخنـا ... ودنست آخر هذه الأحقاب[4]

(١و٢) الديوان ص ١٣٥

(٣) الديوان ص ١٣٦

(٤) المخانة : الخيانة . والخنا ـ بالفتح ـ الفحش فى الكلام .

وقد يكون الهجاء فى أثناء الفخر ، فيأتى مزيجا من الهجاء والفخر والحماسة ، كما فى قوله يرد على عمرو بن معد يكرب هجاءه ، ويعيره بالتخاذل أمامه(١) :

ألا أبلغا عمرا على نأى داره — فقد قلت قولا جائرا غير مهتد
أتهدى الهجاء لامرىء غير مفحم — وتهدى الوعيد لامرىء غير موعد
فإن تلقنى تلق امرأ قد بلوته — حديثا وإن تهجر على تفند
ألم تعلمن يا عمرو أنى لقيتكم — لدى مأقط والخيل لم تتبدد
ومازلت أحمى صحبتى وأذودكم — برمحى حتى رحت قطر بمطردى

إنه فارس حتى فى هجائه ؛ فهو عف اللسان ، لايعيب مهجوه بما تتقذى به الأسماع ، وإنما هو إلى الواصف المقرر أقرب منه إلى الذام الشاتم الذى يتصيد المعايب ليصم بها من يهجوه ؛ فلا نجد فى هجائه فحشا يخدش الحياء ، كما فى رده على ابن عمه خفاف ابن ندبة حين هجاه(٢) :

خفاف ما تزال تجر ذيلا — إلى الأمر المفارق للرشاد
إذا ما عاتبتك بنو سليم — ثنيت لهم بداهية نآد
وقد علم المعاشر من سليم — بأنى فيهم حسن الأيادى
فأورد يا خفاف فقد بليتم — بنى عوف بحية بطن واد

ولعل أوسع ميادين هجائه تلك المناقضات التى دارت بينه وبين بعض معاصريه ممن كانوا ينافسونه على الزعامة ، كتلك التى كانت بينه وبين خفاف بن ندبة ، فقد هجاه خفاف بقصيدته التى منها(٣) :

يا أيها المهدى لى الشتم ظالما — ولست بأهل حين أذكر للشتم
أبى الشتم أنى سيد وابن سادة — مطاعين فى الهيجا مطاعيم للجرم
هم مسحوا الضرا أباك وطاعنوا — وذاك الذى يرمى ذليلا ولا يرمى

---

(١) الديوان ص ٤٧ .

(٢) الديوان ص ٤٦

(٣) ديوان خفاف ص ٥٩

فأجابه العباس ناقضا قوله ، رادا عليه قوله(١) :

ألا أيهـــا المسدى لى الشتم ظالما تبين إذا راميت هضبة من ترمى
أبى القدم عرضى ، إن عرضى طاهر وإنى أبى من أباة ذوى غشم
وإنى من القوم الذين دمـــاؤهم شفاء لطلاب الترات من الرغم(٢)

وكـذلك صنع فى مناقضاته مع خوات بن جبير ، وعبد الله بن جذل(٣)

* * *

٣ — وكان إلى جانب هذين الفنيين الأصليين فى شعر العباس بن مرادس شعر فى بعض فنون الشعر التقليدية مثل الرثاء والمدح ، والغزل وشعره فى هذه الفنون قليل .

ويبدو أن ذلك يرجع إلى بيئة الشاعر وطبيعة الفارس فيه ؛ فالبادية بأخلاقياتها تأبى على الشاعر أن يتملق الآخرين ويتمدحهم ، والفروسية تتعارض مع البكاء على الميت ، وهذه وتلك ترى فى المرأة حرما يجب أن يحمى ولا ينزل إلى ميدان القول وحديث اللسان .

من ثم لم يؤثر له شعر فى الرثاء إلا قصيدة رثى فيها أخاه عمارة بن مرادس ، وإلا ما يبكى فيه يهود بنى النضير حين أخرجهم الرسول صلى الله عليه وسلم من ديارهم .

وحتى هاتين المرثيتين لهما من الملابسات ما ينأى بهما عن فن الرثاء .

أما رثاؤه أخاه عمارة فلعل الدافع إليه حب العباس إياه ، والظروف التى أحاطت بمقتله ؛ إذ قتل فى حقل صعدة فى بلاد اليمن بعيداً عن موطنه ، إذ كان قد ترك دياره وذهب إلى أرض اليمن حيث قتل ، ولقـــد أشار العباس إلى ذلك فى رثائه الذى قال فيه(٤) :

---

(١) ديوان العباس ص ١٠٥

(٢) الترات جمع ترة — بالكسر — مصدر وتره إذا قتل حميمه ، والمقصود بالترة الثأر ، والرغم — بتثليث الراء — الكره والذل .

(٣) لمزيد من التفصيل فى هذا الموضوع راجع للمؤلف (المعارضة فى الأدب العربى)

(٤) الديوان ص ١٣٧ ، ص ١٣٨

أبعد عمار الخير نرجو سلامة ... وقد بتكت آرابه ومفاصله(١)
فلا وضعت عندى حصان فمارها ... ولا ظفرت كفي بقرن أنازله
لئن لم أزر خولان فى عقر دارها ... بأرعن رجاف تزجى قنابله(٢)
وأشفى غليلى من سراة قضاعة ... وكل صقيل يملأ الكف حامله
فمن مبلغ عمرو بن عوف رسالة ... ويعلى بن سعد ثؤور يراسله
بأنى سأرمى الحقل يوما بغارة ... لها منكب حاب تدوى زلازله(٣)
أقام بدار الفور فى شر منزل ... وحلى بياض الحقل يزهر خامله

والناظر فى هذه المرثية يجد أنها إلى الحماسة أقرب منها إلى الرثاء، فهو يهدد ويتوعد قاتلى أخيه بالثأر منهم والانتقام .

فإذا نظرنا فى مرثيته يهود بنى النضير وجدناه فيها مدفوعا بالوفاء لما كان بينه وبينهم من علاقات قديمة وصداقات وطيدة ، تلفت فلم يجد أحدا منهم حوله ، فلم يكن له بد من أن يعلن أسفه لبعدهم عنه ، فى قوله(٤) :

ولو أن أهل الدار لم يتصدعوا ... رأيت خلال الدار ملهى وملعبا
فإنك عمرى هل أريك ظعائنا ... سلكن على ركن الشطاة فتيأبا(٥)
عليهن عين من ظباء تبالة ... أوانس يصبين الحليم المجربا
إذا جاء باغى الخير قلن فجاءة ... له بوجوه كالدنانير : مرحبا
وأهلا ، فلا ممنوع خير طلبته ... ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنبا
فلا تحسبنى كنت مولى ابن مشكم ... سلام ، ولا مولى حيي بن أخطبا

* * *

(١) بتكه: قطعه والآراب جمع إرب – بكسر الهمزة وسكون الراء – العضو الكامل .
(٢) الجيش الأرعن : العظيم الجرار ، زجى الشيء رجاه أى ساقة ودمه ، وقنابل – بفتح القاف – جمع قنبل – بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء – الطائفة من الناس ومن الخيل ، قيل هم ما بين الثلاثين إلى الأربعين .
(٣) المنكب – بفتح فسكون – مجتمع رأس العضد والكتف ، وعريف القوم ولعله المقصود هنا ، والحاب ، يقال : حاب يحوب حوبا : أثم .
(٤) الديوان ص ٣٨ ... (٥) تيأب اسم موضع .

وأما مدحه فلم يعرف له قبل الإسلام سوى مدحه قيس بن عاصم وأبى حليس ، ولكل من المدحتين من الدوافع ما جعل العباس ينتكب مذهبه ، ويرغم نفسه على هذا الفن ، وذلك لأن قيس بن عاصم كان من الشخصيات المثالية التى أحذت العباس بما أثر عنها من كريم الخلال ، وطيب الفعال ؛ فلمدحه قيسا قصة ، وذلك أن رجلا(١) من بنى القين من قضاعة جاور قيس بن عاصم ، فأحسن جواره ولم يرمنه إلا الخير ، فلما فارقه ونزل فى جوار جوين الطائى ، أبى عامر بن جوين ، ووثب عليه رجال من طيء فقتلوه وأخذوا ما معه ، فما كان من العباس إلا أن اندفع يمدح قيس ابن عاصم لحمايته جاره ، ويذم رجال طيء على ما بدر منهم من الغدر والخيانة فى قوله(٢) :

لعمرى لقد أوفى الجواد ابن عاصم	وأحسن جارا يوم يحدج بكره
أقام عزيزا مستدى القوم عنده	فلم ير سوءات ولم يخشن غدره
أقام بسعد يشرب الماء آمنا	ويأكل وسطاها ويربض مجره

كما أن وراء مدحه أبا الحليس دافعا أقوى ، وذلك أن أبا الحليس قتل خويلد الذى قتل هريم بن مرداس أخا العباس ، فلم يكن من العباس إلا أن يذكر هذا الصنيع له ، ويشيد بموقفه ، ويثنى عليه ، ويشكر له إقدامه على الثأر من قاتل أخيه فى قوله(٣) :

أتانى من الأنباء أن ابن مالك	كفى ثائرا من قومه من تغيبا(٤)
ويلقاك ما بين الخميس خويلد	أرى عجبا ، بل قتله كان أعجبا
فدى لك أمى إذ ظفرت بقتله	وأقسم أبغى عنك أما ولا أبا
فمثلك أدى نصرة القوم عنوة	ومثلك أعيا ذا السلاح المجربا

---

(١) انظر الأغانى جـ ١٤ ص ٧٢

(٢) الديوان ص ٦١ ، ص ٦٢

(٣) الديوان ص ١١٢

(٤) تغيب فى الأمر : لم يبالغ فيه .

فليس المدح من طبائع العباس ، ولا التكسب بالشعر ديدنه . إنما هو يمدح على صنائع تشد انتباهه ، وتستحوذ على إعجابه ، فيجد أن من واجبه مدح صانعيها على ما صنعوا ، فهو مدح على خلق ، وليس مدحا لذات المدح .

ولما اعتنق الإسلام ، ووجد نفسه أمام المثل العليا تتحرك ، تحركت مشاعره فياضة ، فاندفع بالثناء الصادق ، والمدح الخالص للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما جاء من هداية ونور كشف للناس السبل وأخذ بأيديهم ، من ذلك قوله(١) :

يا خاتم النباء إنك مرسل ... بالحق كل هدى السبيل هداكا
إن الإله بنى عليك محبة ... فى خلقه ، ومحمدا سماكا

ومحمد صلى الله عليه وسلم خير البرية ، نشر كتاب الله الذى جاء بالحق ، وأنار بالبرهان المعقول فبدد ظلام الجاهلية الدامس(٢) :

رأيتك يا خير البرية كلها ... نشرت كتابا جاء بالحق معلما
ونورت بالبرهان أمرا مدمسا ... وأطفأت بالبرهان نارا مضرما

وظل العباس يتتبع مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلما وقف على منقبة جلاها ، وأبرزها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم مخلص فى أداء رسالة ربه بعقل ورشاد، كما يقول(٣) :

من مبلغ الأقوام أن محمدا ... رسول الإله راشد حيث يمما
دعا ربه واستنصر الله وحده ... فأصبح قد وفى إليه وأنعما

وهو صلى الله عليه وسلم خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب(٤) :

يا خير من ركب المطى ومن مشى ... فوق التراب إذا تعد الأنفس

ولم يفته فى هذا الصدد أن يقارن بينه صلى الله عليه وسلم وبين سبقه من الأنبياء فقد جاء بالحق الناطق ، وكان أمينا على الفرقان ، وأول شافع ، وآخر مبعوث تخاطبه الملائكة(٥) :

(١) الديوان ص ٩٥ (٢) الديوان ص ١٤١ (٣) الديوان ص ١٠٩
(٤) الديوان ص ٩٣ ، ص ٩٤ (٥) الديوان ص ١١٦

نبى أتانا بعد عيسى بنـــاطق ... من الحق فيه للنصل منه كذلـكا
أمينا على الفرقان أول شافع ... وآخر مبعوث يجيب الملائـكا

فالمدح فى شعر العباس يعد بحق وليد الحياة الإسلامية ؛ إذ لم يـكن قبل الإسلام حريصا على مدح واحد بعينه حرصه على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما أثر من مدحه فى الجاهلية إنما هو مدح على صنائع بخصوصها،ولولا تلك الصنائع لما سمع له ـ فى هذا الفن ـ صوت .

* * *

وأما غزله فهو ـ على قلته ـ غزل تقليدى ، لايشف عن عاطفة ، ولايـكشف عن ميل ، وكل ما أثر من شعره فى ذلك أبيات قليـلة جاءت فى مطالع بعض قصائده . اللهم إلا ثلاثة أبيات جاءت مستقلة ، وفيها يصف المرأة بحسن الطلعة وجمال العينين ، وأنها شابة مخدومة لاتقوم بشئون نفسها إلا أن تلهو باللعب كالأطفال ، كأنها عليل يجد الراحة فيمن يقوم على رعايته[1] :

قليـــلة لحم الناظرين يزينها ... شباب ومخفوض من العيش بادر
أرادت لتنتاش الرواق فلم تقم ... إليه ، ولـكن طأطأته الولائد[2]
تناهى إلى لهـــو الحديث كأنها ... أخو سقطة قد أسلمته العوائد

وما عدا هذه الأبيات الثلاثة مقدمات غزلية يبتدىء بها بعض قصائده لينتقل منها إلى غرضه ، وفى هذه المقدمات يقف على الأطلال والرسوم ليناجى من عرف من النساء فيها ويمتها بصفات الحسن والجمال ثم ينتقل إلى غرضه ، مثل قوله[3] :

لأسماء رسم أصبح اليوم دارسا ... وأقفر منها رحرحان وراكسا[4]

---

(١) الديوان ص ١١٦

(٢) انتاش الشىء تناوله وأخذه ، والرواق بيت كالفسطاط يحمل على عمود واحد، ورواق البيت مقدمه ، ورواق العين حاجبها ، والولائد جمع وليدة مؤنث الوليد .

(٣) الديوان ص ٦٨

(٤) الرحرحان والرحراح : الواسع المنبسط .

عفتى عسيب لا أرى غير ماثل ... خلاء من الآثار إلا الروامسا(١)

ليالى سلمى لا أرى مثل دلها ... دلالا وأنسا يهبط العصم آنسا(٢)

تضوع منها المسك حتى كأنما ... ترجل بالريحان رطبا ويابسا

فدعها ولكن قد أتاها مقادنا ... لأعدائنا نزجى الثقال الكوادسا(٣)

فالشاعر متأثر ببيئتيه إنما تأثر فى توجهه إلى هذا الفن ، وذلك لأنه فى جاهليته فارس بدوى ، له بين قومه من المكانة والمنزلة ما يرتفع به عن تناول المرأة فى شعره وانتهاك حرمتها التى يرى أن مركزه فرض عليه حمايتها من أى انتهاك ... ثم هو فى إسلامه مشغول بمبادىء الدين الجديد ، حريص على أن لا يخرج على حدوده وآدابه ؛ حفاظا على مكانته التى عرفه عليها المسلمون ورسولهم صلى الله عليه وسلم ، خصوصا أن العمر قد تقدم به ، فلم يكن مقبولا أن يخوض شيخا فيما ترفع عنه شابا .

* * *

تلكم هى أبرز فنون الشعر التى أدار العباس بن مرداس شعره عليها ، وهو فيها جميعا يتوسل بالوصف ، فالوصف فى شعر العباس وسيلة لا غاية ، ولذلك لم يخص الوصف بالقول ، إنما هو فى ثنايا فخره أو هجائه أو مدحه يجد نفسه مضطرا لأن يتوسل بالوصف

ومع ذلك فالوصف فى شعر العباس مقتضب لا استقصاء فيه ، سطحى لا عمق فيه ، بسيط لا تركيب فيه، ساذج يقوم على المرئيات المحيطة به وهيئاتها المادية، فالتأثير فى شعره يقوم على الحقائق قبل أن يقوم على التخييل والتهويل ، والمبالغة فى الوصف والتصوير ، ومن أحفل شعره بالوصف ما جاء فى قصيدته الميمية التى يصور فيها صبر بنى سليم تحت

---

(١) العسيب : الشق فى الجبل ، والروامس جمع رامسة ورامس ، والرامس ، من الطير والدواب ما يطير أو ما يخرج فى الليل ، والرامسة : الريح التى تثير التراب وتدفن الآثار .

(٢) العصم جمع أعصم عصما : الحيوان فى ذراعية أو إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر .

(٣) الكوادس جمع كادس ، يقال : كدس الخيل إذا ازدحمت فى سيرها فركب بعضها بعضا ، والكداس — بضم الكاف وتخفيف الدال — الحب المحصور المجموع .

قيادة الضحاك فى مواجهة هوازن يوم حنين ، ومنها يقول[1] :

ويوم حنين حين سارت هوازن ... إلينا وضاقت بالنفوس الأضالع
صبرنا مع الضحاك لايستفزنا ... قراع الأعادى منهم والوقائع
أمام رسول الله يخفق فوقنا ... لواء كخذروف السحابة لامع[2]
ندود أخانا عن أخينا ولو نرى ... مصالا لكنا الأقربين نتابع
ولكن دين الله دين محمد ... رضينا به فيه الهدى والشرائع
أقام به بعد الضلالة أمر ... وليس لأمر حمه الله دافع

وماذا يرجى من شاعر هو فى جاهليته بدوى لاتمهله الحياة وظروفها حتى يتأنى ويتأمل ويتعمق وينظر فيما حوله ويستقصى ما يقع فى متناول نظره . . . بل إن الزعامة وواجباتها ، والحروب وأهوالها لتعجله عن مثل تلك النظرات، ولولا الفطرة الشاعرة لما تمكن من قول الشعر ، فهو يقول الشعر عن فطرة لم يتمكن من تهذيبها بالصنعة الفنية ثم هو فى إسلامه ممتز بما يقدم له الإسلام من أخلاقيات ومبادىء ،فهو حريص كل الحرص على أن يعيش فى إطار هذا الدين الجديد ، لايند عن آدابه وأفكاره فى كل صغيرة وكبيرة ، فهو يترسم الصدق فيما يقول ؛ ويتوحى الحق فيما يعرض ، فى مثل قوله[3] يصف ما حل بالمشركين من هلاك ودمار على أيدى جنود الله حين راحوا يحصدون هاماتهم ويقطفون أعناقهم بسيوفهم حتى أكثروا فيهم القتل ، فرملوا نساءهم اللائى لم يجدن إلا الدعاء على من أصاب أزواجهن :

غداة وطئنا المشركين ولم نجد ... لأمر رسول الله عدلا ولاصرفا
بمعترك لايسمع القوم وسطه ... لنا رجمة إلا التذامر والنقفا[5]

(١) الديوان ج ١٨ ؛ ص ٨٢

(٢) الخذروف : كل شىء منتشر من شىء

(٤) الديوان ص ٩٠

(٤) الرجمة : الكلمة ، يقال : لم أسمع له رجمة ؛ والتذامر : الغضب والتوعد ؛ يقال : تذمر تغضب ؛ وتذمر عليه تنكر له وتوعده ؛ والنقف ـ بفتح النون وسكون القاف ـ مصدر نقف ؛ يقال : نقف رأسه نقفا ضربه عليها حتى خرج دماغه .

ببيض تطير الهام عن مستقرها ونقطف أعناق الكماة بها قطفا
فلكم تركنا من قتيل ملحب وأرملة تدعو على بعلها لهفا(١)

* * *

والناظر فى أساليب الشاعر وألفاظه ، وفى معانيه وأخيلته لايستطيع أن يغير ما قررته دنونه الشعرية من قبل ، فهو– كذلك – بدوى حضرى ، تمتزج لديه الطبائع البدوية بالطبائع الحضرية .

تقرأ شعره – وهو الذى لم يغادر البادية إلا للضرورة– فتحار فيه أمام تلك السهولة والوضوح التى تتسم بها أكثر ألفاظه ، كما تحار فيه أمام تلك البساطة القوية التى تبدو عليها تراكيبه .

ولكن مع شىء من التروى والتأمل تجد تفسير ذلك قويا واضحا . وذلك لأن الشاعر – كما عرفنا من نشأته – لم يسلم نفسه للبادية تماما ، فهو لم ينطو على نفسه فى بداوته ، ولم يقبع بين صحاريها وجبالها وطبائعها ، بل كان دائم التنقل والترحال ، متخذا من البقاع المرقمة التى يسكنها قومه وسيلة لتلك النجعة الدائمة ، أضف إلى هذا أن مركزه بين قومه فرض عليه أن يكون على رأس الوفود . من كل مامنحه الفرصة ليخرج من نطاق البادية ، وليتعامل مع غير البدو من سكان المدن والحواضر . هذا إلى ما كانت تتمتع به بادية بنى سليم – على امتدادها – من قرب إلى الحواضر العربية شمالا وجنوبا ، إذ كانت تمتد فى غرب الجزيرة من الجنوب إلى الشمال بامتداد الحرة الممتدة من قرب عشيرة إلى قرب مدينة يثرب ، وأوديتها الشرقية مساحة فى عالية نجد حتى حمى الربذة الواقع غربى حمى ضربة : وتمتد بلادهم جنوبا حتى تشمل منزل الدفينة .

فلما كان الإسلام وأقبل على الدين الجديد ، وشرف بصحبة الرسول صلى الله عليه

---

(١) لحب الشىء – بالتضعيف – أثر فيه بالضرب أو القطع ونحوه . واللهف : الحزن والأسى .

وسلم حتى روى عنه بعض الحديث . اجتمع إليه كل أسباب الليونة والسهولة ليكسو بها ما طبع عليه من أخلاقيات البادية ثم الإسلام .

ولقـــد تميز الإسلام بالظهور فى ألفاظه ، ليس بالسهولة واليسر فحسب ، بل بالمصطلحات والألفاظ الإسلامية ، فقد احتوى شعره على طائفة ليست بالقليلة من تلكم المصطلحات والألفاظ ، مثل (دين الله ، والهدى ، والشرائع) فى قوله[1] :

ولكن دين الله دين محمد رضينا به فيه الهدى والشرائع

ومثل (جنود الله) فى قوله[2] :

لفتنا أسد غابـات إليهم جنود الله ضاحية تسير

ومثل (رسول الله) فى قوله[3] :

بذى لجب رسول الله فيهم كتيبته تعرض للضراب

ومثل (الإسلام) فى قوله[4] :

وإن يهدوا إلى الإسلام يلقوا أنوف الناس ما سمر السمير

ومثل (الشرك) فى قوله[5] .

الضاربون جنود الشرك ضاحية ببطن مكة والأرواح تبتدر

ومثل (المؤمنون) فى قوله[6] :

كانوا أمام المؤمنين دريئة والشمس يومئذ عليهم أشمس

ومثل (الكفار) فى قوله[7] :

وإن تبتغى الكفار غير ملومة فإنى وزير للنبى وتابع

---

(١) الديوان ص ٨٢ (٢) الديوان ص ٥٠ (٣) الديوان ص ٣٤
(٤) الديوان ص ٥٢ (٥) الديوان ص ٥٥ (٦) الديوان ص ٧٤
(٧) الديوان ص ٨٠

ومثل (العدل والصرف) فى قوله[1] :

غداة وطئنا المشركين ولم نجد   لأمر رسول الله عدلا ولا صرفا

إلى غير ذلك من الألفاظ القرآنية والمصطلحات الإسلامية التى صبغ بها شعره ، فأصبح مميزا أتم التميز عن شعره فى الجاهلية ، وإن اتسم فى الجاهلية والإسلام بسمة السهولة والوضوح والبساطة .

* * *

فإذا وجهنا النظر إلى معانى الشعر عند العباس وجدناه - خاضعا لبيئتيه - يمتاز بالصدق والصراحة والوضوح ، إلى جانب البساطة والقرب والإيجاز ، مع الاختلاف البين بين معانيه الجاهلية والإسلامية ، وذلك لأن الشاعر الصادق - على وجه العموم - يستجيب فى معانيه لما تضطرب به مشاعره ، وما تفيض به أحاسيسه ، دون تكلف أو تصنع .

ففى شعره الجاهلى تبرز المعانى الجاهلية ليقدم من خلالها الشاعر أفكاره ، من ذلك أنه حين أراد الافتخار بقومه وإظهار عزهم ومنعتهم ، قدم ذلك من خلال معنى جاهلى معروف ، حيث وصفهم بالظلم فى قوله[2] :

أبى الذم عرضى إن عرضى طاهر   وإنى أبى من أباة ذوى غشم

وكما كانوا فى الجاهلية يفتخرون بالأصول والأنساب ، افتخر العباس كذلك ، حين فاخر عمرو بن معد يكرب فى قوله[3] :

وإن تك من سعد العشيرة تلتقى   إلى الفرع من قيس بن عيلان مولدى

إلى مضر الحمراء تنمى جدودنا   وأحسابنـا ومجدنا غـير قمدد

أما فى شعره الإسلامى فأفكاره ومعانيه إسلامية خالصة ، حتى يخيل إليك أنه غسل

---

(١) الديوان ص ٩٠   (٢) الديوان ص ١٠٥

(٣) الديوان ص ١١٩

نفسه تماما من كل ما هو جاهلى الأمر الذى يلفت النظر ؛ إذ كيف يتأتى لشاعر أن يفصل نفسه — هكذا — تماما عن مرحلة النشأة والتكوين الفنى .

فالنصر فى الحرب ليس بالقوة والشجاعة ، وإنما هو بحراسة الله ونصره فى مثل قوله(١) :

فمضى ويحرسنا الإله بحفظه والله ليس بضائع من يحرس

والجهاد والكفاح مع ما يلاقى من عنت وإرهاق ، هو لإرضاء الله ليس غير ، والله وحده يعلم خفايا النفوس وظواهرها ، كما فى قوله(٢) :

رضا الله ننوى لا رضا الناس نبتغى ولله ما يبدو جميعا وما يخفى

إلى غير ذلك مما يمتلىء به شعره . وهكذا تغير تصور الشاعر بإسلامه ، فأصبحت مراثيه غير مراثيه فى الجاهلية .

* * *

وإذا وجهنا النظر إلى خيالاته وصوره وجدنا البيئة البدوية — بكونياتها وحيواناتها وظواهرها الطبيعية — ماثلة تماما فى شعره . فالخيل إذا اندفعت فى الحرب بقوة ، وأراد تصويرها ، لجأ إلى مرائيه المتكررة فى هذه البيئة فانتقى منها مايقرب الصورة ويوضحها ، فلم يجد سوى السيل العرمرم الذى لايكاد يغيب عن ناظر بدوى مثله ، وذلك قوله فى تشبيه الجنود مندفعين بعنف فرسانا ورجاله(٣) :

على الخيل مشدودا علينا دروعنا ورجلا كدفاع الأتى عرمرما(٤)

والجيش إذا كثر جنوده ، وكثف عتاده ، وأصبح يترجرج فى حركته يشبه

---

(١) الديوان ص ٩٠

(٢) الديوان ص ٩٠ (٣) الديوان ص ١٠١

(٤) الرجل — بفتح وسكون — الماشى على رجله ، والأتى — بتضعيف الياء ، السيل يأتى من بعيد ، والعرمرم : الشديد

النجوم المتلألئة فى السماء ، يراها الناظر ولا يحيط بها حصرا ولا عدا، وذلك فى قوله(١):

ورجراجة مثل لون النجو م ، لا العزل فيها ولا الحسر

واللواء الخافق الذى تهفو إليه الأفئدة ، وتتطلع إليه النفوس يشبه طرف السحابة المنتشر فى الفضاء فى شده الأنظار ، وتمكنه منها ، كما فى قوله يشبه لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين(٢) :

أمام رسول الله يخفق فوقنـا لواء كخذروف السحابة لامع(٣)

والسيوف اللوامع فى أيدى الجنود تشبه السحاب البارق المتلألىء خلال الظلام الحالك ، كما فى قوله(٤) :

نديقكم والموت يبنى سرادقا عليكم شبا حد السيوف البواتك
تموج بأيدينا كما لاح بارق تلألأ فى داج من الليل حالك

وإلى جانب مشاهد الطبيعة البدوية ، نرى حيواناتها وطيورها يستمد منها الشاعر أخيلته وصوره ، فجنود المسلمين يوم حنين يشبهون الأسد(٥) :

فكنا أسد لية ، ثم حتى أبحناها وأسلمت النسور

وبنو معاوية بن بكر امام الإسلام يشبهون الأغنام فى قوله(٦) :

كأن بنى معاوية بن بكر إلى الإسلام ضائنة تخور

والخيل فى المعركة تشبه العقبان فى قوله(٧) :

إلا سوابح كالعقبان مقربة فى دارة حولها الأخطار والعكر

---

(١) الديوان ص ٦٥ (٢) الديوان ص ٨١
(٣) الخذروف : كل شىء منتشر من شىء .
(٤) الديوان ص ١٣١ (٥) الديوان ص ٥١
(٦) الديوان ص ٥٢ (٧) الديوان ص ٥٤

واللواء فى المركة يشبه العقاب الذى يحلق فى السماء ثم ينقض على فريسته فيخطفها، مثل قوله(١) :

بمكة إذ جئتنــا كأن لواءنا عقاب أرادت بعد تحليقها خطفا

إلى غير ذلك من الصور المنتزعة من البيئة البدوية التى آثرها الشاعر على الحاضرة حتى بعد إسلامه ، وانتقاله إلى البصرة على عهـــد عمر بن الخطاب على ماسبقت الإشارة إليه .

(١) الديوان ص ٨٩

(٥)

حسان بن ثابت

نشأته وحياته :

حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي ، من بني النجار من قبيلة الخزرج ، ولد بالمدينة ، ونشأ في بيت شرف وجاه . ويكاد يجتمع المؤرخون على أنه عاش مائة وعشرين عاما نصفها في الجاهلية(١) . نشأ بين قومه ، وعاش في مجتمع يثرب الذي يضم الأوس والخزرج واليهود ، والذي كان يئن من الحروب المتصلة بين الأوس والخزرج ، بتأريث اليهود وإشعالهم نار الفتنة بينهم ، حتى تتمكن قبضتهم من السيطرة على مصاير الأمور فيها ، فكان لسان قومه المدافع عنهم في تلك الحروب ، وكان في مواجهته الشاعران الأوسيان : أبو القيس بن الأسلت ، وقيس بن الخطيم(٢) . اتصل في الجاهلية بالغساسنة ومدحهم ، وكان يتردد عليهم ، وقيل إنه اتصل ببلاط الحيرة ، وحل محل النابغة حين كان على خلاف مع النعمان بن المنذر . ولما أسلم بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم أصبح شاعر الإسلام ، الذي يدافع عن النبي وعن المسلمين ، ويتتبع قريشا بهجائه اللاذع ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحثه على هجائهم ويدعو له ، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهجهم وجبريل معك(٣) » . وقد نال منزلة رفيعة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يقسم له في الغنائم ، وأهداه بستانا ، كما أهداه سيرين أخت مارية القبطية ، فأنجب منها ابنه عبد الرحمن ، واستمر الخلفاء من بعده صلى الله عليه وسلم على تقديره وإجلاله ، حتى مات في خلافة معاوية ، بعد أن كف بصره .

شعره :

الناظر في شعر حسان يرى أنه قسمان متميزان ، أحدهما تسري فيه روح

---

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٣٤ وما بعدها ، والشعر والشعراء ج١ ص٣٠٥ ومابعدها .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٥ وما بعدها . (٣) الأغاني ج ٤ ص ١٣٨ ومابعدها .

الجاهلية بقيمها وأحداثها ، والثاني تسري فيه روح الإسلام بمثله وقيمه وأخلاقياته وأحداثه

قال ابن سلام : حسان أشعر شعراء القرى الخمسة ، وهو كثير الشعر جيده، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تعاضهت قريش واستبت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تنقى(١) ، وكان للشعر الموضوع أثره في ضعف شعر حسان الإسلامي ، فهو لا يمثله تماما ، حتى ظن الأصمعي أن إسلام حسان كان من أسباب ضعفه ، وقال : الشعر نكد بابه الشر ، وإذا دخل في الخير ضعف ، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره وقال : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع متنه في الإسلام ، لحال النبي صلى الله عليه وسلم(٢) ، والحقيقة — فيما أرى — أن الذي أضعفه هو ما أدخل عليه مما رواه ابن اسحاق في المغازي ، بل لقد اختلط الأمر على الرواة فنسبوا إلى حسان ما قاله غيره ، كما نسبوا إليهم ما قاله حسان(٣) ، أضف إلى هذا ما فعلته الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان رضي الله عنه في نفوس المتحزبين ، فقد عمل الأمويون على إثارة المسلمين ضد علي رضي الله عنه ، فصنعوا شعرا في مدح عثمان على لسان حسان شاعر الرسول ، كما حملت عليه أشعار في مدح الزبير بن العوام ، وعبد الله بن عباس .

وأيا ما كان الأمر فقيما وصلنا من شعر حسان قصائد جاهلية وأخرى إسلامية وثقها الرواة ، تكشف عن اتجاهات حسان وشاعريته من ذلك ميميته التي يفخر فيها بقومه ومآثرهم ، والتي عرضها على النابغة في سوق عكاظ ، ومطلعها :

ألم تسأل الربع الجديد التكلما بمدفع أشداخ فبرقة أظلما

وفيها يقول :

لنا حاضر فعم وباد كأنه شماريخ رضوى عزة وتكرما

---

(١) تعاضهوا : رمى بعضهم بعضا بالعضيهة وهي الإفك والشتيمة . طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢١٥ .

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٣٠٥

(٣) راجع السيرة النبوية لابن هشام وقارن بالديوان .

متى ما تزرنا من معد بعصبة ... وغسان نمنع حوضنا أن يهدما
بكل فتى عارى الأشاجع لاحه ... قراع الكماة يرشح المسك والدما
لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
أبى فعلنا المعروف أن ننطق الخنا ... وقائلنا بالعرف إلا تكلما

وكان لحسان دور فعال فى الصراع الدائر بين الأوس والخزرج قبل الإسلام فقد شارك بشعره فى هذا الميدان ، حيث شبت نار المناقضات بين شعراء القبيلتين . من ذلك ما قاله فى الفخر حين انهزمت الأوس أمام الخزرج فى يوم الربيع بعد قتال عنيف كاد يفنيهم ، وكان حريصا أن يبدأ قصيدته بمطلع يتغزل فيه بليلى بنت الحطيم الأوسية ، وذلك قوله :

لقد هاج نفسك أشجانها ... وعاودها اليوم أديانها(١)
تذكرت ليلى أنى بها ... إذا قطعت منك أقرانها
وحجل فى الدار غربانها ... وخف من الدار سكانها
وغيرها معصرات الرياح ... وسح الجنوب وتهتانها
مهاة من العين تمشى بها ... وتتبعها ثم غزلانها
وقفت عليها فساءلتها ... وقد ظعن الحى : ما شأنها ؟
فعيت وجاوبنى دونها ... بما راع قلبى أعوانها

ولما اعتنق الإسلام أخلص نفسه للدفاع عنه ، فكان الجندى المتأهب بشعره لكل معركة ، ووقف مع عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك للرد على شعراء المشركين فى هجائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثال عبد الله ابن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص . كما تراه فى همزيته التى يهجو فيها أبا سفيان بن الحارث ، ويمدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيها يقول :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى ... فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

---

(١) أديانها جمع دين : الداء والمراد الحب القديم .

هجوت مباركا برا حنيفا | أمين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم | ويمدحه وينصره سواء
فإن أبى ووالده وعرضى | لعرض محمد منكم وقاء

ولما بكى عبد الله بن الزبعرى قتلى قريش فى معركة بدر بميميته التى يقول فى مطلعها :

ماذا على بدر وماذا حوله | من فتية بيض الوجوه كرام

أجابه حسان بن ثابت ناقضا عليه قوله بقصيدة ميمية على الوزن نفسه والقافية ، جاء فيها :

ابك بكت عيناك ، ثم تبادرت | بدم يعل غروبها سجام
ماذا بكيت به الذين تتابعوا | هلا ذكرت مكارم الأقوام
وذكرت منا ماجدا ذا همة | سمح الخلائق صادق الأقدام
أعنى النبى أخا المكارم والندى | وأبر من يولى على الأقسام
فلمثله ولمثل ما يدعو له | كان الممدح ثم غير كهام

ولما قال ابن هبيرة قصيدته الحائية فى انتصار قريش على المسلمين فى أحد ، أجابه حسان ، ينقض قوله ، ويسفه رأيه وآراء من اتبعوه على حرب الله ورسوله ولا طاقة لهم بذلك ، فالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه جند الله ، والمشركون أعداء الله ، وسوف يخزى الله أعداءه بأيدى جنوده ... ثم ينهى قصيدته بالحديث عن مكارم الرسول وأصحابه ، ومنتهم على قريش فى إطلاقهم أسرى بدر ، وفيها يقول :

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم | إلى الرسول فجند الله مخزيها
أوردتموها حياض الموت ضاحية | فالنار موعدها والقتل لاقيها
جمعتموهم أحابيشا بلا حسب | أئمة الكفر غرتكم طواغيها
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت | أهل القليب ومن ألقينه فيها
كم من أسير فككناه بلا ثمن | وجز ناصية كنا مواليها

ولما بكى كعب بن الأشرف اليهودى قتلى بدر فى عينيته التى قال فيها :

طحنت رحا بدر لمهلك أهله | ولمثل بدر تستهل الأدمع

أجابه حسان بقوله :

أبكى لكعب ثم على بعبرة | منه وعاش مجدعا لايسمع
ولقد رأيت ببطن بدر منهم | قتلى تسح لها العيون وتدمع
فابكى فقد أبكيت عبدا راضعا | شبه الكليب إلى الكليبة يتبع
ولقد شفا الرحمن منا سيدا | وأهان قوما قاتلوه وصرعوا
ونجا وأفلت منهم من قلبه | شغف يظل لخوفه يتصدع

ولما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وفد تميم سنة الوفود — بعد فتح مكة — وفيهم عطارد بن حاجب بن زرارة قام الزبرقان بن بدر فقال قصيدة يفخر فيها بقومه، منها قوله :

نحن الكرام ، فلا حى يعادلنا | منا الملوك ، وفينا يقسم الربع

وكان حسان غائبا فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء وسمع ما قاله الزبرقان قال عينية يعارضه بها ، وفيها يقول :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم | قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته | تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم | أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
فإن فى حربهم فاترك عداوتهم | شرا يخاض عليه السم والسلع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم | إذا تفاوتت الأهواء والشيع

وفى هذه القصيدة يظهر مدى تأثر حسان بالدين الجديد ، إذ فخر بالرسول وبما أتى من أمور الدين التى يجب على كل ذى عقل أن يدين بها ويتبعه فيها .

ومن إسلاميات حسان التى يظهر فيها تأثره بالفكر الإسلامى ، داليته التى يقول فيها :

وقد زعمتم بأن تحموا ذماركم | دماء بدر زعمتم غير مورود
وقد وردنا ولم نسمع لقولكم | حتى شربنا رواء غير تصريد
مستعصمين بحبل الله غير منجذم | مستحكم من حبال الله ممدود
فينا الرسول وفينا الحق نتبعه | حتى الممات ونصر غير محدود

واف وماض شهاب يستضاء به　　بدر أنار على كل الأماجيد

وهكذا واصل حسان بن ثابت رحلته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعوته إلى الإسلام ، يتصدى لكل عدو ، حتى إذا لبى رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء ربه ، وقف حسان يبكيه ، ومما قاله فى ذلك داليته التى يقول فيها مصورا حزنه وألمه لفراق الرسول :

ما بال عينك لاتنام كأنمـــا　　كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعا على المهدى أصبح ثاويا　　يا خير من وطىء الحصى لاتبعد
وجهى يقيك الترب ، لهفى ليتنى　　غيبت قبلك فى بقيع الغرقد
بأبى وأمى من شهدت وفاته　　فى يوم الاثنين النبى المهتدى
فظللت بعـــد وفاته متبلدا　　متـــلددا ياليتنى لم أولد(١)
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم ؟ !　　ياليتنى صبحت سم الأسود(٢)
أوحل أمر الله فينا عاجلا　　فى روحة من يومنا أو فى غد
فتقوم ساعتنـــا ، فنلقى طيبا　　محضا ضرائبه ، كريم المحتد(٣)

ومن يقارن بين شعر حسان فى الجاهلية وشعره فى الإسلام يجزم بأن قائل هذا غير ذاك ، ولولا الصياغة اللفظية لما كان بين الشعرين أدنى صلة . وهذا يدل على مدى تأثر الشاعر بالإسلام ، فقد تحول به إلى إنسان آخر يختلف تماما عنه قبل الإسلام .

بيد أن الناظر فى شعر حسان قبل الإسلام وبعده يلاحظ أن أثر البيئة الحضرية — الحسية والفكرية والدينية — يتضح فى جزالة ألفاظه وسهولتها ، وفى إحكام عباراته ودقتها ، كما يتضح فى معانيه التى تكشف عن بيئتيه الحضريتين فى يثرب وجوار الغساسنة من جهة ، وفى ظل الإسلام وفكره وعقائده ومبادئه من جهة أخرى .

---

(١) المتبلد : من أدركته الحيرة . ومثله المتلدد .
(٢) صبحت : سقيت صبحا　　(٣) الضريبة : الطبيعة والسجية ، والمحتد : الأصل

(٦)
كعب بن زهير

نشأته وحياته :

كعب بن زهير بن أبي سلمى ، أحد حلقات السلسلة الممتدة من شعراء بيت زهير - كما أشرنا من قبل - نشأ في بيت يكتنفه الشعر من كل جانب ، لقنه أبوه الشعر ، فكان هو وأخوه بجير من رواة أبيهما زهير . ويذكر الرواة أن زهيرا كان يخرج بابنه كعب إلى الصحراء ، فيلقي عليه بيتا أو شطرا ويطلب إليه أن يجيزه ، إتدريبا له وتمرينا على صوغ الشعر(١) . وقد ولد في غطفان قبل مجيء الاسلام ، ولم ينقض العصر الجاهلي إلا وله من الشهرة والمكانة في الشعر ما جعل الحطيئة زميله يقول له : قد علمت روايتي شعر أهل البيت وانقطاعي ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعني موضعا بعدك، فإن الناس لأشعاركم أروى ، وإليها أسرع(٢).

أدرك الاسلام كما أدركه بجير أخوه، والحطيئة وكان بجير أسبقهم إلى الاسلام، فهجاه كعب هجاء تألم له رسول الله ، فتوعده وأهدر دمه ، من ذلك قوله :

ألا أبلغـــا عني بجيرا رسالة ... فهل لك فيما قلت ـ ويحك ـ هل لكا

شربت مع المأمون كأسا روية ... فأنهلك المأمون منها وعلكا

وخالفت أسباب الهدى وتبعته ... على أي شيء ـ ويب غيرك ـ دلكا

على خلق لم تلف أما ولا أبا ... عليه ، ولم تدرك عليه أخا لكا

فبعث إليه بجير محذرا ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم متنكرا ، فبدأ بأبي بكر ، فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاءبه وهو متلثم بعمامته،

---

(١) أنظر الأغاني ج ١٥ ص ١٤١ طبع الساسي ، وأمالي المرتضى ج ١ ص ٩٧ طبع الحلبي ، ومقدمة ديوان كعب طبع دار الكتب المصرية .

(٢) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٠٤ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٦ ، والأغاني ج ٢ ص ١٦٥ ، ص ١٦٦ طبعة دار الكتب .

فقال . يا رسول الله هذا رجل يبايعك على الإسلام ، فبسط النبي صلى الله عليه وسلم يده ، فحسر كعب عن وجهه ، وقال هـــذا مقام العائذ بك يا رسول الله ، أنا كعب بن زهير . فأمنه صلى الله عليه وسلم ، واستنشده(١) ، فقال لاميته المشهورة معتذرا عما بدر منه ، ومادحا الرسول صلى الله عليه وسلم، وما جاء به ، ومن حوله من صحابته، ومطلعها(٢) :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفـــد مكبول

وفيها يقول :

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لاتأخـذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت عني الأقاويل
لقد أقـــوم مقاما لو يقوم به ... أرى وأسمع مالو يسمع الفيل
لظل يرعد إلا أن يـكون له ... من الرسول بإذن الله تنويل
حتى وضعت يميني لا أنازعـــه ... في كف ذي نقمات قيله القيل
إن الرسول لنـــور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول(٣)
في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا : زولوا(٤)
زالوا ، فما زال أنـكاس ولا كشف ... عند اللقاء ، ولا ميل معازيل(٥)
شم العرانين أبطال ، لبوسهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيل(٦)

والناظر في هذه القصيدة يرى شاعرية كعب وتفننه في الانتقالات ، ودقة التصوير،

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٤ ، وابن سلام ج ١ ص ٩٩

(٢) الديوان ص ٦ وما بعدها طبع دار الـكتب المصرية .

(٣) المهند : السيف المصنوع من حديد الهند ، وهو أفضل السيوف .

(٤) زولوا : انتقلوا ، يعني : هاجروا .

(٥) الانـكاس جمع نـكس : الضعيف ، والـكشف جمع أكشف : من لا ترس له، الميل جمع أميل : من لا يحسن الركوب ، معازيل جمع معزول : من لا سلاح له .

(٦) العرانين جمع عرنين : الأنف ، والشم : حدة في طرف الأنف مع تشمير .

وحسن العرض ، لكنه مع كل ذلك جاهلي في كل ما قدم ، سواء في مطالعه الغزلي ، أو في مديحه للرسول صلى الله عليه وسلم وللمهاجرين ، بحيث تكاد لاتشم رائحة الدين الجديد ، وهذا دليل صدق الشاعر ، إذ لم يعرف بعد عن الإسلام شيئا ، وإذا مازج الإسلام نفسه ، صدر في شعره عن قيمه وأفكاره ، مثل قوله :

أعلم أنى متى ما يأتنى قدرى ... فليس يحبسه شح ولا شفق[1]
بينا الفتى معجب بالعيش مغتبط ... إذا الفتى للمنايا مسلم غلق[2]
والمرء والمال ينمى ثم يذهبه ... مر الدهور ويفنيه فيلحق
فلا تخافى علينا الفقر واصطبرى ... فضل الذى بالغنى من عنده نثق
إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا ... ومن سوانا ولسنا نحن نرتزق

ومثل قوله :

لو كنت أعجب من شىء لأعجبنى ... سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها ... والنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش ممدود له أمل ... لاتنتهى العين حتى ينتهى الأثر

ومن يردد نظره في ديوانه يدرك الفارق الكبير بين كعب الجاهلي في خلقه وسلوكه ، وبين كعب المسلم الزاهد المتسامح الذى يرد على هجاء من هجاه ، بالحكم والمواعظ ، طالبا منه مقابلة صفحه عنه بالسكوت، حتى لايخرجه عما التزمه من آداب . مثل قوله[3] :

إن كنت لاترهب ذمى لما ... تعرف من صفحى عن الجاهل
فاخش سكوتى إذ أنا منصت ... فيك لمسموع خنا القائل

---

(١) الشفق : الخوف .

(٢) الغلق بفتح فكسر : المستحق ، يقال : غلق الرهن إذا استحق .

(٣) خزانة الأدب ج ٤ ص ١٢ ، والحيوان ج ١ ص ١٥

فالسامع الذام شريك له ومطعم المأكول كالآكل
مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل

ولقد كان كعب أحد الفحول المتقدمين فى الجاهلية والإسلام ، إذ كان فى شعره الفنان الأصيل الصادق ، المدقيق الحس، الرائع التصوير ، الذى يملك أزمة البيان، فيوجهه أنى شاء .

الفصل الثاني

فنون الشعر الحضرى

فى حديثنا عن فنون الشعر البدوى قررنا – من واقع الحياة العربية البدوية – أن شعر البادية كان استجابة صادقة لما أملته البادية على أبنائها من اتجاهات فنية، وقيم خلقية وسلوكية . وكذلك كان الحال فى الشعر الحضرى؛ فقد تطلبت الحاضرة من الشعراء تنازلات عن بعض القيم البدوية ولم يجدوا مناصا من الاستجابة إليها ليحققوا لأنفسهم التلاؤم مع ما يجد عليهم من أخلاقيات .

وفى مقدمة هذه التنازلات استبدال الدعوة إلى السلام بالدعوة إلى الحرب والحض عليها، والتحميس لها، أو على أقل تقدير السكوت عن الحرب وما يتصل بها

وتحول الشاعر من مدح القيم والأفعال إلى مدح الأشخاص لذواتهم سعيا وراء كسب، وطلبا لجزيل عطاء .

وتهالك الشاعر فى سبيل الحصول على الأعطيات والجوائز بالتفنن فى الاعتذار على اختلاف أساليبه واتجاهاته ومعانيه .

واستبداد المتع المادية بالشاعر، مما دفعه إلى تعرية المرأة وتجريدها مما يسترها فى جرأة، لتبدو للأعين مظاهر جاذبيتها وإغرائها، وإلى الحديث عن الخمر ووصف آثارها على شاربها، وتتبع مجالسها ودنانها وكئوسها بالوصف المستقصى

اتخاذ الشعر سلاحا من أسلحة الدعوة الدينية، ووسيلة من وسائل الوعظ، يصل بها الشاعر إلى نفوس سامعية، يقرر العقيدة، ويوضح الفكرة، ويدفع الخصم المهاجم بنقض هجائه، ويبكى قتلى الحروب الناشبة بين الداعين إلى الدين وخصومهم .

فتحقق من ذلك الشعر أغراض جديدة وأخرى مطورة عدلت لتتناسب مع البيئة الحضرية .

ومن ثم أمكن أن نحصر فنون الشعر الحضرى فى فنون ثمانية هى : المدح ، والهجاء ، والاعتذار ، والفخر ، والغزل ، والدينيات ، والمواعظ ، والرثاء ، والوصف .

ولا ريب فى أن أثر الحضر يختلف فى ذلك من شاعر إلى شاعر ، وفقا لدوافعه الفنية ، وطبيعة الحضارة التى تكتنفه .

المــدح :

كان من المدح من أبرز فنون الشعر الحضرى ، ولقد اتجه شعراء الحضر بهذا الفن متباين الدوافع فانشعب الطريق بهم فى المعانى والصور بما يتناسب مع الصفات التى يمدح بها . فبينما نجــد النابغة الذبيانى يمدح النعمان بن المنذر ، ويصلت إشعاعه على الصفات التى يحمدها فيه من كرم وجود فى قوله :

الواهب المائة المعكاء زينها ... سعدان توضح فى أوبارها اللبد(١)
والأدم قد خيست فتلا مرافقها ... مشدودة برحال الحيرة الجدد(٢)
والراكضات ذيول الريط فانقها ... برد الهواجر كالغزلان بالجرد(٣)
والخيل تمزع غربا فى أعنتها ... كالطير تنجو من الشؤبوب ذى البرد(٤)

ونسمع صوت حجر بن خالد يمدح النعمان ـ كذلك ـ مركزا على كرمه وجوده، فى قوله :

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجــد ... كفعل أبى قابوس حزما ونائلا
يساق الغمام الغــر من كل بلدة ... إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فإن أنت تهلك يهلك الباع والندى ... وتضحى قلوص المجد جرباء حائلا(٥)

---

(١) المعكاء ـ بكسر الميم ـ الغلاظ القوية ، ويريد الإبل ، وتوضح : موضع ، والسعدان ـ بفتح السين ـ مراع ، اللبد : ماتلبد من الشعر .

(٢) الأدم ـ بضم فسكون ـ النوق البيض ، خيست ـ بضم الخاء وكسر الياء المضعفة ـ ذللت ، فتلا ـ بضم الفاء ـ كناية عن قوة خلقها ومتانتها .

(٣) الراكضات : الساحبات ، الريط: ثوب طويل ، فانقها : نعمها ، الجرد ـ بفتح الجيم والراء ـ موضع .

(٤) تمزع غربا : تسبح سبحا شديدا ، الشؤبوب : السحاب أو دفعات مطره .

(٥) الباع : الشرف ، والندى : الكرم ، والقلوص : الناقة الشابة ، والحائل، التى حمل عليها الفحل فلم تلقح

فلا ملك مايبلغنك سعيه ولا سوقة ما يمدحنك باطلا

نجد العباس بن مرداس قبل الإسلام مادحا بدويا ، فلا نعثر له إلا على مدحتين إحداهما يمدح فيها قيس بن عاصم ، ويمدح فى الثانية أبا الحليس ، وهما مدحتان على مواقف وأخلاق .

ونجده فى ظلال الإسلام يتجه بمدحه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيركز مدائحه على ما جاء به من هداية ونور كشف للناس السبل وأخذ بأيديهم كما فى قوله :

نبى أتانا بعد عيسى بناطق من الحق فيه الفصل منه كذلكا
أمينا على الفرقان أول شافع وآخر مبعوث يجيب الملائكا

فالشاعر إنما يمدح فيه صلى الله عليه وسلم ما جاء به من الحق ، وأمانته على القرآن ، وشفاعته المأمولة وكان ذلك تمهيدا لنشوء المدائح النبوية ، فقد كان مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أحد مظاهر الحرب الدائرة بين المشركين والمسلمين ؛ إذ كان المشركون يعتمدون على مهاجمة الرسول وهجائه .

أما مدح غير الرسول صلى الله عليه وسلم فكان فى الغالب موجها إلى جماعات ، لا إلى أفراد ، من ذلك ما قاله كعب بن زهير فى مدح الأنصار استجابة لرغبته صلى الله عليه وسلم حين غضبوا لتعريضه بهم فى لاميته الاعتذارية ؛ فذكر بلاءهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإخلاصهم فى الدعوة والدفاع عنها :

من سره كرم الحياة فلا يزل فى مقنب من صالحى الأنصار
ورثوا المكارم كابرا عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيار
والبائعين نفوسهم لنبيهم للموت يوم تعانق وكرار
يتطهرون ، يرونه نسكا لهم بدماء من علقوا من الكفار

(٢)

الهجاء :

عرفنا – مما تقدم – أن الهجاء سلب المحامد عن المهجو .

كما عرفنا أن شعراء الجاهلية البدو لم يفردوا قصيدة بالهجاء، وإنما كانوا يتناولونه في سياق الفخر ، أو كانوا يمزجون بين الهجاء والفخر ، وإنما كان ذلك راجعا إلى أن هجاء خصم يستلزم الفخر عليه بالاتصاف بما يسلب عنه من المحامد ، فهو لون من المقابلة والمطابقة .

والناظر في شعر الحضر – على اختلاف اتجاهاته – يلاحظ أن طائفة من شعراء الحضر لم يشذوا عن المنهج البدوي في فن الهجاء ، فهو يأتي في طوايا الفخر ، ويحرص فيه الشاعر على التلطف والتحفظ ، دون إفحاش أو إقذاع ، على نحو ما رأينا في شعر النابغة من هجاء وفخر دار به حول قبيلته وما كان بينها وبين بني أسد من تحالف ، وما كان بينها وبين بني عامر من حروب . من ذلك قوله :

وإن يك عامر قد قال جهلا ... فإن مطية الجهل السباب
فكن كأبيك أو كأبي براء ... توافقك الحكومة والصواب
ولا تذهب بحلمك طاميات ... من الخيلاء ليس لهن باب
وإنك سوف تحلم أو تناهى ... إذا ماشبت أو شاب الغراب

وغير خفي ما لجأ إليه الشاعر من السخرية من مهجوه ، والتهكم به، دون إقذاع أو إفحاش ، فكل ما وجهه إليه أنه أومأ إلى وصفه بالحمق والجهل ، ويعلق اتصافه بالحلم على مستحيل

وعلى هذا النحو سار أعشى قيس في هجائه يزيد بن مسهر الشيباني ، حين حمس قومه للثأر ممن اعتدى على واحد منهم فقتله ، وكان القاتل واحدا من بني قيس بن ثعلبة ، فهدده الأعشى وهجاه لذلك في قوله :

أبلغ يزيد بنى شيبـــان مألــكة   أبا ثبيت أما تنفك تأتــكل(١)
ألست منتهيا عن نحت أثلتنــا   ولست ضائرها ما أطت الإبل(٢)
كناطح صخرة يوما ليوهنهــا   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل(٣)

فقد لجــأ إلى السخرية بطريق الاستفهام ، قائلا : ألا تنتهى عن السعى بالشر والحقد علينا ، والوقوع فى أعراضنا بالذم والسب ؟! إنك لن تنال منا شيئا ، ولن تضير إلا نفسك ، كما يحدث للوعل الذى ينطح الصخرة قاصدا إضعافها وإيهانها ، فلم ينل منها بقدر ما نال من نفسه .

كما سار فى هجائه علقمة بن علاثة ، معتمدا على التعريض والإيحاء المؤلم فى قصيدتين ، فى أولاهما وازن بينه وبين خصمه ومنافره عامر بن الطفيل فى قوله :

علقم ما أنت إلى عامر   الناقض الأوتار والواتر(٤)
يا عجب الدهــر متى سويا   كم ضاحك من ذا وكم ساخر
ولست بالأكثر منهم حصى   وإنما العزة للــكاثر(٥)
علقم لا تسفه ولا تجعلن   عرضك للوارد والصادر
ولست فى السـلم بذى نائل   ولست فى الهيجاء بالجاسر(٦)

وجاء فى الثانية قوله :

تبيتون فى المشتى ملاء بطونــكم   وجاراتــكم غرثى يبتن خمائصا(٧)

---

(١) مألــكة — بضم اللام — رسالة ، تأتــكل : تسعى بالشر أو تغضب وتغلى حتى لــكأنك تأكل نفسك .
(٢) الأثلة : شجرة ، يقال نحت أثلته : تنقصه وعابه ، أطت : أنت .
(٣) الوعل — بكسر العين — ضرب من الماعز الجبلى .
(٤) الأوتار جمع وتر ، وهو الثأر ، وناقض الأوتار : الآخذ بالثأر ، والواتر : الذى يترك ثأره فى الأعداء فلا يستطيعون نقضه .
(٥) المقصود بالحصى : العدد .
(٦) النائل : العطاء ، والجاسر : الجرىء .
(٧) المشتى : زمن الشتاء ، غرثى : جائعة ، خمائص : ضامرات البطون .

وكان إلى جانب تلك الطائفة التى لم تفرد للهجاء قولها ، طائفة أخرى اضطرت إلى إفراده بالقول اضطرارا ، كما رأينا فى مناقضات العباس بن مرداس التى شبت بينه وبين خفاف بن ندبة ، وخوات بن جبير ، وعبد الله بن جذل ، وقد سبق الإشارة إلى ذلك فى الحديث عن العباس .

ويلاحظ أن العباس — مع ذلك — لم يخرج على المنهج العام، من التزام عفة اللسان، والبعد عن الإفحاش والإقذاع ، وإن مال إلى التصريح فى بعضها كما فى قوله :

أكليب مالك كل يوم ظالما	والظلم أنكد وجهه ملعون
فافعل بقومك ما أراد بقومه	يوم الغدير سميك المطعون
وأظن أنك سوف تلق مثلها	فى صفحتيك سنانها مسنون
قد كان قومك يحسبونك سيدا	وإخال أنك سيد مغبون

وليس البعد عن الإفحاش والإقذاع هى سمة هذا الهجاء، بل إن من سماته كذلك البعد عن المبالغات والتهويل ، فهو قريب إلى الحقيقة كما تقدم ، وكما رأينا فى هجاء حسان أبا سفيان بن الحارث . بل إن روح الإسلام لتتضح فى هجاء الشعراء المسلمين ، حين يضطرون إلى الرد على من هجاهم من المشركين ، كما رأينا فى هجاء كعب بن زهير ، وقصارى ما كان يضمنه الشاعر المسلم أهاجيه تعيير الكفار بالمثالب أو بالكفر ، على ما لاحظه صاحب الأغانى فى قوله : إن حسانا وكعبا كانا لا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، فكان فى ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة(١) .

ولم يكن هجاء المشركين وقفا على هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فقد انبرى كثير من شعراء المسلمين يدافعون عن الرسول وصحبه ودعوته، ويردون عنهم هجاء من يتعرض لهجائهم من شعراء المشركين ، فاتسع فى ذلك الجو ميدان المناقضات .

وهكذا بدا أثر الحضارة الإسلامية واضحا جليا فى فن الهجاء ؛ فكان قصارى

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٣٨ .

الشاعر أن يصف مهجوه بما يعيبه به من خلق ونعوت ينفر منها المسلم والذوق العربى معا . كما نجد فى قول كعب بن مالك الأنصارى الخزرجى يهجو أحبار بنى النضير ، ويذرى بموقفهم المشيد من الرسول صلى الله عليه وسلم مع توفر الأدلة العلمية والدينية لديهم على صدقه صلى الله عليه وسلم(١) :

لقد خزيت بغدرتها الحبور كذاك الدهر ذو صرف يدور
وذلك أنهم كفروا برب عزيز أمره أمر كبير
وقد أوتوا معا فهما وعلما وجاءهم من الله النذير
فقالوا : ما أتيت بأمر صدق وأنت بمنكر منا جدير
أرى الله النبى برأى صدق وكان الله يحكم لايجور
فأيده وسلطه عليهم وكان نصيره نعم النصير
فغودر منهم (كعب) صريعا فذلت بعد مصرعه النضير
فما كره فأنزله بمكر و (محمود) أخو ثقة جسور
فتلك بنو النضير بدار سوء أبارهم بما اجترموا المبير
غداة أتاهم فى الزحف رهوا رسول الله وهو بهم بصير
فذاقوا غب أمرهم وبالا لكل ثلاثة منهم بعير

وشعر الهجاء فى هذا المجال كثير ، يدور فى الغالب حول هذا الاتجاه .

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٠٣

الاعتـذار :

الاعتذار هو تنصل الإنسان مما نسب إليه ، واحتجاجه لنفسه . وهو من شعرى وطيد الصلة بفنى المدح والهجاء ، فالهجاء قد يكون من دواعى الاعتذار ، أما المدح فهو سقيمه وصنوه الذى يشبهه فى كثير من أبعاده ، غير أن المدح ينبع من عاطفة الشكر والرضا والأمل ، بينما الاعتذار تمتزج فيه عاطفة الخوف بعاطفة الشكر والرجاء .

وهو من الفنون التى نشأت فى الحضر ، وندر أن نجد شاعرا بدويا يعتذر . ولعل ذلك يرجع إلى أنفة العربى من أن يضع نفسه فى موضع يضطر معه إلى الاعتذار ، حتى إنهم فى أهاجيهم كانوا يتحفظون ويلجئون إلى التعريض أو الإيمـــاء والإيحاء - على ما رأينا - حتى لا يضطروا إلى الاعتذار والأسف على ما سلف منهم .

ولما طأطأ العربى فى بعض الحضر رأسه تحت إغراء المنح والعطايا ، وجرى لاهثا وراء الملوك والأمراء مقدما بين يديه تملقه ونفاقه فى صورة مدائح يشترى بها ما يجود به عليه من المال .. عندئذ هانت على العربى نفسه ، وضاعت قيمة الأنفة بين ما ضاع فى غمار حياته الجديدة ، فلم يجد فى الاعتذار ما كان يجده البدوى فى باديته .

وحرص على أن يتفنن فى الوصول إلى قلب سامعه طلبا لرضاه عنه ، وعفوه وغفرانه ما قدم من خطأ ، فاختط بعض الشعراء لهم فى الاعتذار أساليب أصبحت فيما بعد مذاهب تنسب إليهم وترتبط بهم ، وذلك بأن يذهب فى اعتذاره مذهبا لطيفا ويقصد مقصدا عجيبا ، يصل من خلاله إلى قلب المعتذر إليه ليستل منه ما انطوى عليه ويمسح أعطافه ، ويستجلب رضاه ؛ وذلك لأنهم وجدوا أن إتيان المعتذر من باب الاحتجاج وإقامة الدليل والبرهان على نفى التهمة خطأ فاحش ، يزيد النار اشتعالا ، لا سيما مع الملوك ، وذوى السلطان . وحق المعتذر العاقل أن يتلطف فى حديثه ، فيكسو - فى أثناء ذلك - برهانه ممتزجا بالتضرع والاستنجاد والدخول تحت عفو الملك ، و الرجا والأمل بمعاودة النظر فى الكشف عن كـذب الناقل ، ووشايه الواشى ، .

أن يلجئه ذلك إلى الاعتراف بما لم يجنه خوف تكذيب سلطانه أو رئيسه فإن ذلك مهلكة ، وإنما عليه أن يحيل الكذب على الناقل والحاسد(1) .

والاعتذار فى الشعر العربى — على ذلك — يتشعب فى اتجاهين :

أولهما : اتجاه الشعراء طالبى العطايا والمناصب فى توجيه اعتذارهم إلى من أدعمتهم الحياة المترفة على أن يكونوا فى ركابهم من ملوك الحيرة والشام ، حرصا على مكانة ، وتطلعا إلى عطية .

وثانيهما : اتجاه الشعراء المسلمين الذين سبوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين فى شركهم إلى الاعتذار عما سلف منهم ؛ والتأسف على ما كان فى جاهليتهم .

ولا ريب فى أن اختلاف الدافع إلى الاعتذار، ينشأ عنه اختلاف المنهج والأسلوب .

وكان على رأس الاتجاه الأول عدى بن زيد العبادى ، وتلميذه فى ذلك النابغة الذبيانى ، وقد وجه الشاعران اعتذاراتهما إلى النعمان بن المنذر على نحو ما ذكرنا فى ترجمتيهما ، وقد أثر عنهما فى ذلك قصائد كثيرة طوال ، ذكرت نماذج منها فى ترجمة كل منهما .

وكان على رأس الاتجاه الثانى كعب بن زهير فى لاميته المشهورة التى قال فى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وهو فيها يكشف عن الفارق بين الاتجاهين ، فبينما يقدم أصحاب الاتجاه الأول اعتذارهم بين يدى آمالهم ، نرى كعبا يقدم اعتذاره بعد أن تحقق مأموله ، ونال عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمينه ، وإلى ذلك يشير فى قوله :

لقد أقوم مقاما لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله تنويل
حتى وضعت يمينى لا أنازعه فى كف ذى نقمات قيله القيل

---

(1) راجع العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٧٦ بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين .

(٤)

الفخـر :

يمتاز الفخر الحضرى من الفخر البدوى بتميز المحامد والنعوت الحضرية من المحامد والنعوت البدوية ، إذ الفخر لايخرج عن تعداد الشاعر ما يشتمل عليه من ذلك ،وكل شاعر يتأثر بوسطه وبيئته فى تقدير الصفات ، وتحديد الفضائل ، إذ كثير منها نسبى ، فليس ما يفخر به ابن البادية ـ بالضرورة ـ مثل ما يفخر به ابن الحاضرة ، ومن هذا المنطلق أقرر أن ما يفخر به ابن الحاضرة المادية لايتفق بالضرورة ـ مع ما يفخر به ابن الحاضرة الإسلامية .

يتضح ذلك إذا نظرنا فى فخر شاعر مثل طرفة بن العبد الذى استملكته الماديات فلم يشعر بكيانه إلا بالإتصاف بكل ما هو مادى فهو الفارس الذى لايضارعه فارس ، الجواد ، السكير المعربد ، المتلاف ، المكب على ملذاته ومتعه على الرغم من عشيرته ، وذلك فى قوله :

إذا القوم قالوا من فتى؟ خلت أننى	عنيت ، فلم أكسل ولم أتبلد
ولست بحـلال التـلاع مخـافة	ولكنى متى يسترفد القوم أرفد
فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى	وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد
وإن يلتق الحى الجميـع تلاقنى	إلى ذروة البيت الشريف المصمد
ندامای بیض كالنجوم وقينة	تروح إلينا بين برد ومجسد
وما زال تشرابى الخمور ولذتى	وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلد
إلى أن تحـامتنى العشيرة كلها	وأفردت إفراد البعـير المعبد

ومن ذلك المورد قدم امرؤ القيس فخره على نحو ما رأينا ، فهو دائما الفتى الأثير عند الفتيات ، الذى فرغ من كل ما يشغل العظيم من عظائم الأمور ليهتم بالتافه من ألوان الحياة ، فليس يعنيه إلا تبكير فى رحلة صيد يمتطى فيها فرسه القوى ، ومن حوله ثلة من الشبان الفارغين ومعهم الجوارى لينتهوا إلى حفل تنحر فيه الذبائح ، وتمد الموائد .

* * *

فإذا قلبنا النظر فى شعر الحضر الإسلامى وجدنا شعراء يفخرون بقيم اصطفاها الإسلام من القيم العربية لتصبح قيما إسلامية ، يحرص عليها المسلم ، ويعتز بالتزامه بها ، واشتماله عليها .

وكان أهم ما يهتم به المسلمون فى العصر الأول لمجىء الإسلام من هـــذه القيم الإخلاص للدعوة ، والوفاء لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإقدام على الموت فى معارك الجهاد طلبا للشهادة ، والخلوص من الشرك وتوابعه ، والوقوف فى وجه المشركين دفاعا عن الرسول والدعوة ... الخ .

من ثم كان الفخر فى هذا الوسط الإسلامى مزيجا من الفخر والحماسة الإسلامية ، كما نجد فى شعر حسان حين وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على صرعى قريش يناديهم : يا أهل القليب بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ثم قال: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فقال حسان بائيته التى يصور فيها هذا المشهد وفيها يقول :

فغادرنا أبا جهـل صريعـــا ... وعتبة قد تركنا بالجبوب
وشيبة قد تركنا فى رجال ... ذوى حسب إذا نسبوا حسيب
ينـــاديهم رسول الله لما ... قذفناهم كباكب فى القليب
ألم تجدوا كلامى كان حقا ... وأمر الله يأخذ بالقلوب؟ !
فما نطقوا ، ولو نطقوا لقالوا ... صدقت وكنت ذا رأى مصيب

وفى غمرة الفرح بنصر الله يوم بدر ينطلق لسان حسان مصورا بطولة القائد العظيم ومن خلفه المسلمون يستعصمون بحبل الله ، معددا ما يفخر به كل مسلم فى مثل هذا الموقف ، فيقول .

مستشعرى حلق الماذى يقدمهم ... جلد النحيزة ماض غير رعديد
أعنى رسول إله الخـلق فضله ... على البـرية بالتقوى وبالجود
مستعصمين بحبل غـــير منجذم ... مستحكم من حبال الله ممـدود
فينا الرسول وفينا الحق نتبعه ... حتى الممات ونصر غير محدود

فأى محامد ونعوت يعتز بها المسلم فوق هذه المحامد والنعوت ؟ !

إنها كما ترى قيم الإسلام التى دعا إليها القرآن الكريم ، وتخلق بها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله تعالى عليهم .

وصفوة القول : إننا هنا أمام فخر حماسى يدور حول انتصار الجماعة ؛ فهو فخر تغلب عليه الروح الجماعية من خلال الأخلاق والقيم والمبادىء الإسلامية ، ولا ريب فى أن الفارق شاسع بين هذا الفخر وفخر أمثال طرفة وامرىء القيس ممن نشأ فى أحضان الحضارة الحسية بمبادئها وقيمها المادية .

الغزل :

من الفنون الشعرية التى يلتقى فيها البدوى مع الحضرى ، لكنهما لايلتقيان إلا على الاسم العام ، أما المنهج والمعانى فهما مختلفان تماما ، فإذا كان الشاعر البدوى يرى فى المرأة حرما لاينتهك ، وإنما يطاف حوله فى خشوع ، فإن الشاعر الحضرى كان يرى فيها متعة الحواس ، ومنهل الغرائز والشهوات فهو حين يتعرض لها إنما يتعرض لمباح ، يمتع نفسه بالنظر إلى ما يخفى من جسمه ، ويمتع غيره بتعريتها مما يسترها ، على نحو ما رأينا فى شعر امرىء القيس الذى يقول فيه مصورا إحدى مغامراته النسائية التى يفخر بها ، ويرى أن ذلك قصارى ما يصبو إليه رجل مثله :

فجئت وقــد نضت لنوم ثيابهــا ... لدى الستر إلا لبسة المتفضـل(١)

مهفهفة بيضاء غــير مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل(٢)

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى ... بناظرة من وحش وجرة مطفل(٣)

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش ... إذا هى نصــته ولا بمعطل(٤)

وفرع يزين المــتن أسود فاحم ... أثيث كقنو النخلة المتعثكل(٥)

---

(١) نضت : خلعت ، والمتفضل : من يلبس ثوبا واحدا إذا أراد الخفة فى العمل .

(٢) المهفهفة : لطيفة الخصر ضامرة البطن ، والمفـاضة : المرأة عظيمة البطن مسترخية اللحم ، والترائب: جمع تريبة . موضع القلادة ، والصقل: إزالة الصدأ والدنس والسجنجل : المرآة .

(٣) تصد: تعرض ، وتبدى : تظهر ، وخد أسيل . فيه امتداد وطول ، ووجره موضع ، ومطفل التى لها طفل

(٤) الرئم : الظبى خالص البياض ، نصته : رفعته ، والفاحش : ما جاوز القدر المحمود من كل شىء ، والمعطل : الخالى من الحلى .

(٥) الفرع : الشعر التام ، والمتن . الظهر ، الأثيث : الكثير ، والقنو : العذق ، والمتعثكل : المتدلى .

ولضحى فتيت المسك فوق ثيابها   نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل(١)

وعلى هذا النحو يسير المنخل اليشكرى فى تصوير واحدة من مغامراته مع المتجردة زوج النعمان ، وفيها يقول(٢) :

ولقد دخلت على الفتا   ة الخدر فى اليوم المطير
الكاعب الحسناء تر   فل فى الدمقس وفى الحرير
فدفعتها فتدافعت   مشى القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتنفست   كتنفس الظبى البهير(٣)
فدنت وقالت يامنخـ   ـخل ما بجسمك من حرور
ما شف جسمى غير حبـ   ـك ، فاهدئى عنى وسيرى

ولم تقف حسية الغزل فى الشعر الحضرى عند حد هذه القصص التى تدور حول مغامرات الشاعر مع المرأة ، بل إنك لتجد الشاعر الحضرى فى ذلك العصر لا تقع عينه من المرأة إلا على محاسنها الحسية ، وأوصاف جسمها المادية ، مما يكشف عن انهماك فى المادية انهما كا يشبه من قريب تهالك بعض الشعراء المحدثين فى البيئات المادية . من ذلك ما قاله الأعشى متغزلا فى امرأة شده جمالها :

غراء فرعاء مصقول عوارضها   تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجل(٤)
كأن مشيتها من بيت جارتها   مر السحابة ، لا ريث ولا عجل
تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت   كما استعان بريح عشرق زجل(٥)
يكاد يصرعها ــ لولا تشددها ــ   إذا تقوم إلى جاراتها الكسل(٦)

(١) البيت كله كناية عن الترف والنعيم .

(٢) الأصمعيات رقم ١٤

(٣) البهير من البهر : وهو ما يعترى الإنسان والحيوان عند السعى الشديد من تتابع الأنفاس .

(٤) الغراء : البيضاء واسعة الجبين ، والفرعاء : طويلة الفرع من شعر وعوارض ، والوجى : الذى رق حافره من كثرة المشى .

(٥) الوسواس : صوت الحلى العشرق ــ بكسر العين ــ شجيرة مقدار ذراع لها أكمام فيها حب صغار إذا جفت فمرت بها الريح تحرك الحب نسمع له خشخشة على الحصى ، والزجل : ذو الصوت المطرب .

(٦) البيت كله كناية عن السمن والترف .

إذا تقوم يضوع المسك أصورة ... والزنبق الورد من أردانها شمل(١)
ماروضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مسبل هطل(٢)
يوما بأطيب منها نشر رائحة ... ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل(٣)

فالغزل الحضرى كما ترى فى الغالب يدور حول الماديات ، سواء فى علاقة الرجل بالمرأة ، أو فى محاسنها التى تأسره ، ومن ثم لا تكاد تجد هذا الغزل خارج الحضر الحسى ، أما الحضر الإسلامى فلم يكن أمام شعرائه مجال لتناول المرأة بأى صورة من صور التناول اللهم إلا الغزل التقليدى فى مطالع القصائد ؛ إذ كان مايشغلهم من أمور الدعوة أعلا صوتا من ذلك ، أضف إلى هذا أن استجابة الشعراء لنهى الإسلام تمنعهم من الخوض فى ذلك ، فلم يكن الكثير منهم قد اتضح أمامه بعد مايرفضه الإسلام ومايقبله من ذلك .

---

(١) ضاع المسك : انتشر ، وأصورة جمع صوار : الرائحة الطيبة، والزنبق: دهن الياسمين ، والأردان جمع ردن ـ بضم الراء ـ الكم .

(٢) الحزن : الأرض الغليظة ، والمراد به هنا موضع من بلاد اليمامة فيه رياض وقيعان .

(٣) الأصل ـ بضم الصاد ـ جمع أصيل ، الوقت من العصر إلى الظلام .

الدينيات والمواعظ:

الحديث عن الدين ومايتصل به من الأفكار والعقائد، والدعوة إليه، والحث على التخلق بقيمه، ولفت القلوب والعقول إلى أسرار الحياة، ونظام الكون، والمصير المحتوم .. إلى غير ذلك من المواعظ من شعرى جد على الشعر الحضرى ؛ فقد تأثر الشعراء فى الحواضر المختلفة بالفكر الدينى ـ على اختلاف مصادره ـ المسيحى واليهودى، والوثنى، ثم الإسلامى ؛ واعتنق شعراء العرب بعض تلك الأفكار، وأخلصوا أنفسهم للدعوة إليها من خلال شعرهم .

وكان فى مقدمة هؤلاء الشعراء شاعر الحيرة عدى بن زيد العبادى، الذى أخلص أكثر شعره لذلك الفن، وتناوله من مختلف اتجاهاته، فقص من أحداث الأمم الغابرة وحكاياتهم وماوقع لهم مايمثل أمام الناظر، فيجرد الإنسان من أدران الحياة وشوائب المادة، ويحميه من الاغترار بها والانخداع بظواهرها . وفيما قدمنا من نماذج شعره مايقرر ذلك

وسار قريبا من مسار عدى شاعر الطائف أمية بن أبى الصلت الذى نسب إليه شعر يتحدث فيه عن إله العالمين، خالق السماوات والأرض، ومنشىء الكون، مستدلا على وجود الله بنظام هذا الكون ويتحدث فيه ـ كذلك ـ عن الموت والفناء، والبعث والنشور، والعذاب والثواب نحو قوله الذى نسب إليه على شك فى صحة تلك النسبة :

إله العالمين وكل أرض ... ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعا شدادا ... بلا عمد يرين ولا رجال
وسواها وزينها بنور ... من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلألأ فى دجاها ... مراميها أشد من النصال
وشق الأرض فانبجست عيونا ... وأنهارا من العذب الزلال
وكل معمر لابد يوما ... وذى دنيا يصير إلى زوال

ويرجع الشك فى نسبة هذا الشعر لأمية إلى معانيه بالمعانى الإسلامية ، وليس هذا بالسبب الذى يشكك فى نسبة الشعر إلى أمية ؛ خصوصا إذا ذكرنا أنه ممن كان يسعى للنبوة ويعد نفسه لادعائها

وقد أوضحنا — فى أثناء حديثنا عن عدى بن زيد — مكان شعر أمية الديني من شعر عدى .

وأياما كان الأمر فإن الشعر الديني فى هذه المواطن لم يخرج عن الأمور العامة ، والقضايا البسيطة التى اجتمعت عليها الديانات السماوية كلها .

فلما كان الإسلام لم يتوقف الشعراء المسلمون عند هذا الحد ، بل تجاوزوه إلى عرض قيمه الخاصة ، والحث على مناصرته . بينما حرص شعراء المشركين على محاربته والصد عنه .

ولعل أوضح مثل لذلك مانجده من شعر كعب بن زهير :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبنى — سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها — والنفس واحـدة والهم منتشر
والمرء ماعاش ممدود له أمـــل — لاتنتهى العين حتى ينتهى الأثر

الرثاء :

فن الرثاء من الفنون المشتركة التى حفل بها شعر الحاضرة كما حفل بها شعر البادية؛ وإن كان فى البادية أكثر شيوعا ، وأشد انفعالا وتفجعا ، وذلك لما يواجه شاعر الحاضرة من مبادىء وقيم تذكره دائما بالمصير المحتوم الذى يتناول كل كائن مخلوق ، بحيث تخف حدة الالتياع والتفجع لزوال المفاجأة فى نزول الموت .

ومن ثم يلاحظ الدارس أن شعر الرثاء فى الحواضر العربية غلب عليه العزاء والتسلى على اختلاف اتجاهات الشاعر فيه ، من تذكر لما نزل بالملوك الغابرين، وتأمل فى سنن الكون ونظام الحياة ؛ فهو فرصة للنظر المتأنى فيما حول الشاعر ، وصوغ ما انطبع على صفحة فكره وعواطفه من إنعكاس لهذا النظر ، يتمثل دعوة الآخرين إلى تقبل مايأتى به القدر بنفس راضية على الرغم من مرارته وألمه .

بيد أن الشاعر لم يكن ليقف عند حد التأسى والتعزية ، بل كان يضطر إلى سرد طرف من سمات الميت وخصائصه الخلقية ، وكأنه بذلك يعلل التعزى بفقد هذا الشخص من دون الآخرين الذين يموتون فى كل يوم ولا ينالون من اهتمام الشاعر مايجعله يرثيهم ويتعزى عن فقدهم ؛ ولذلك دار شعر الرثاء حول الموتى ذوى المكانة فى نفوس معايشيهم .

ولعل ذلك يتضح من رثاء فضالة بن كلدة الذى قال فيه أوس بن حجر، طالبا من نفسه التجمل فى الجزع لوقوع المحذور ، دون أن يفرق فى ذلك بين شخص وآخر ، فقد أودى بمن ضم كريم الأخلاق من سماحة ونجدة وحزم ، وعقل ، كما أودى بمن تجرد عن هذه الصفات جميعا :

أيتها النفس أجملى جزعا ... إن الذى تحذرين قد وقعا
إن الذى جمع السماحة والنجـ ... ـدة والحزم والقوى جمعا

الألمعى الذى يظن بك الظـ ـن كأن قد رأى وقد سمعا(١)
المخلف المتلف المـرزأ لم يمتع بضعف ولم يمت طبعا(٢)
أودى وهل تنفع الإشاحة من شىء لمن قد يحاول البدعا(٣)

ويتضح من رثاء امرىء القيس أباه ، وفيه تأملات حزينة ، ونظرات باكية إلى مايجرى فى السكون ، وذلك فى قوله :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب(٤)
عصافير وذبان ودود وأجرأ من مجلحة الذئاب(٥)
وكل مكارم الأخلاق صارت إليـه همتى وبه اكتسابى
فبعض اللـوم عاذلتى فإنى ستكفينى التجارب وانتسابى
إلى عرق الثرى وشجت عروقى وهذا الموت يسلبنى شبابى(٦)
ونفسى سوف يسلبها وجرمى فيلحقنى وشيكا بالتراب(٧)

ولما كان الإسلام ، تأثر الشعراء بتعاليمه السامية الواضحة التى تأبى على الشاعر المبالغة فى التفجع والتحسر ، واستجابوا لقيمه التى تفرض على الجميع روح الجماعة ، فلم يبكوا ميتا لذاته ، وإنما يبكون فيه تأثر الأمة بفقده .

وصادف ذلك ما كان بين المسلمين والمشركين من صراع بلغ درجة عالية من التحدى

---

(١) الألمعى : حاد الذكاء ، يريد أنه يحدس الأمور فلا يخطىء ، وأنه فطن صادق الظن جيد الفراسة .

(٢) المرزأ : الذى تصيبه الرزايا فى ماله لكرمه ، يمتع : يصاب ، والطبع ــ بكسر الباء ــ اللئيم .

(٣) أودى : مات ، الإشاحة : الجد فى طلب الشىء ، البدع : الأمور الغريبة .

(٤) موضعين ــ بكسر الضاد والعين ــ لأمر غيب : يريد به الموت ، ونسحر : نلهى ونخدع .

(٥) الذئاب المجلحة : المصممة على الشىء التى لا ترجع عما تريد ، يعنى : نحن فى الضعف مثل هذه المخلوقات ، وفى ركوب الإثام أجرأ من الذئاب التى تصمم على ماتريد .

(٦) وشجت عروقى : اشتبكت واتصلت ، يقول : إن أصله فى حسبه ثابت راسخ .

(٧) : الجرم البدن ، والوشيك : السريع .

فألبس الرثاء ثوب الفخر ، ومزج الفخر بالرثاء ، فى بكاء من استشهد من المسلمين ، ومن قتل من المشركين فى الحروب التى دارت بين الطرفين فى مطلع الإسلام . وكان محور هذا الرثاء ـ كما فرضه الموقف ـ تعداد المناقب، ووصف المثوى الأخير ومايلنتظر الشهيد من جزاء .

بيد أننا نلاحظ فى رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم مزيدا من التفجع والتوجع لفقده ، إذا قورن برثاء غيره ، لكننا إذا وضعنا فى الاعتبار مكان الرسول من نفس المسلم لم نجد فى ذلك زيادة ولا مبالغة ، وإنما هو التصوير الصادق لما يحس به الشاعر من فداحة المصيبة ؛ فهى إذن أمور نسبية،لاندرك أبعادها إلا بالنظر المدقق الفاحص.

ومن أبرز المراثى الجماعية ، وبث الأحزان المصائب العامة ماقاله أبو أسامة معاوية ابن زهير حليف بنى مخزوم وهو مشرك حين مر بهبيرة بن أبى وهب فرأى إعياءه من الحرب وبما أصاب قومه من الهزيمة فى غزوة بدر ، مصورا أساه وحزنه لما ألم بهم ، فاخرا بنفسه وقبيلته وشهوده الحرب :

ولما أن رأيت القوم خفوا ... وقد زالت نعامتهم لنفر
وأن تركت سراة القوم صرعى ... كأن خيارهم أذباح عتر
وكانت جمة وافت حماما ... ولقينا المنايا يوم بدر
وأبلغ إن بلغت المرء عنا ... (هبيرة) وهو ذو علم وقدر
بأنى إن دعيت إلى أفيد ... كررت ولم يضق بالكر صدرى

وهذا الأسود بن المطلب ـ وكان قد أصيب له فى بدر ثلاثة من ولده زمعة وعقيل والحارث بن زمعة ـ يسمع نائحة من الليل فيسأل غلامه عمن تبكى، فأخبره بأنها تبكى بعيرا لها ضل ، فانفجر ساخطا غاضبا نائحا يقول :

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكى على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود
وبكى إن بكيت على عقيل ... وبكى حارثا أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمى جميعا ... وما لأبى حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجال ... ولولا يوم بدر لم يسودوا

بينما يقف عبد الله بن الزبعرى السهمى يبكى شهداء بدر ، فيسمى أبطالهم، ويشيد بجراءتهم وحسن بلائهم ، وإقدامهم على الموت فى غير خوف ولا تردد :

ماذا على بدر وماذا حـــوله   من فتية بيض الوجوه كرام
تركوا نبيهـا خلفهم ومنبهـا   وابنى ربيعة خـــير خصم فئام
والحارث الفياض يبرق وجهه   كالبدر جـلى ليـــلة الإظلام

* * *

وإذا بكى باك فأعـول شجوه   فعلى الرئيس الماجد ابن هشام
حيـا الإله أبا الوليد ورهطه   رب الأنام وخصهم بسلام

وهو رثاء ـ كما ترى ـ يمازجه الفخر والمدح ، فهما عنصران يكادان لا يفارقان المراثى فى الشعر الإسلامى ، إذ المراثى فى هذا الوسط البيئى منبثقة من الصراع القائم بين معسكرى الإسلام والشرك .

الوصف :

يكاد شعراء الحاضرة لايقلون عن شعراء البادية اهتماما بفن الوصف ـ على ماسبق الإشارة إليه ـ ولا يخرجون على منهجهم فيه ، من تنوع فى معارضه ، حيث وصفوا الذاتيات والموضوعيات ، ووصفوا المدركات الوجدانية والمدركات العقلية والمدركات الخيالية ، كما وصفوا الماديات والمدركات الحسية .

١ ـ وكان من أهم ما استأثر بفن الوصف لدى شعراء الحاضرة المادية مجالس الخمر ، ومايدور فيها من رقص وطرب ، حيث أفردوا القصائد لذلك ، وقلبوا نظرهم فى مشاهدها ، فوقعوا منها على لوحات كثيرة ، متعددة الأحداث ، وتفننوا فى تلوين كل لوحة بما يناسبها . وكان من المتقدمين فى ذلك عدى بن زيد الذى تناول الخمر بالوصف ، فقدمها فى صورة رائعة من خلال أوانيها وكؤوسها ـ على ماسبق الإشارة إليه ـ وشاركه فى هذا الأعشى الذى برع وأجاد فتمكن من استحضار مجالسها مشخصة مجسمة بما يلتزمون فيها من عادات تشبه الطقوس ، ومايتزيا به السقاة والمغنون من أزياء ، وما يكون عليه الإماء من خلاعة وتثن . يوضح ذلك ماتراه فى معلقته من قوله :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى ... شاو مشل شلول شلشل شول(١)
فى فتية كسيوف الهند قد علموا ... أن ليس يدفع عن ذى الحيلة الحيل
نازعتهم قضب الريحان متكئا ... وقهوة مزة راووقها خضل(٢)
لا يستفيقون منها وهى راهنة ... إلا بهات، وإن علوا وإن نهلوا(٣)

---

(١) غدوت : ذهبت ، شاو : يشوى اللحم ، ومعنى مشل ـ بكسر ففتح ـ شلول، شلشل ـ بضم الشينين ـ شول : أنه خفيف الحركة نشيط .

(٢) قضب ـ بضم القاف والضاد ـ جمع قضيب: الغصن والقهوة : الخمر، والراووق: الوعاء الذى تروق فيه الخمر ، خضل : ندى ، كنى بذلك عن اتصال شربهم .

(٣) علوا : من العلل ـ بفتح العين ـ الشرب بعد الشرب تباعا ، ونهلوا من النهل: أول الشرب ، إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .

يسعى بها ذو زجاجات له نطف | مقلص أسفل السربال معتمل(١)
ومستجيب تخال الصنج يسمعه | إذا ترجع فيه القينة الفضل(٢)
والساحبات ذيول الخز آونة | والرافلات على أعجازها العجل(٣)
من كل ذلك يوم قد لهوت به | وفى التجارب طول اللهو والغزل

وهو كما ترى — وصف لأحد أيام لهوه ، غدا فيه إلى الخمار يصحبه فتية كسيوف الهند — رونقا ومضاء ويلبيهم رفيق خفيف الحركة نشيط ؛ فتجاذبوا فى متكئهم أغصان الريحان ، وكئوس الخمر التى لم يتقطع دورانها عليهم ، دون أن يصيبهم ملل ؛ فشربوا وسكروا ، فإذا أفاقوا طلبوا المزيد من الساقى وكان غلاما حدثا يعلق فى أذنه قرطا ، ويلبس قميصا قصيرا . هذا إلى ذلك العود الذى تتسق ألحانه مع صنج كانت تعزف عليها فى أثناء غنائها قينة فى ثوب واحد رقيق شفاف ، ومن ورائها الفتيات الحسناوات ترفل فى ثياب الخز السابغة .

ولا يقف عند حد وصف الخمر وأوانيها ومجالسها ، بل إنه ليصف فعلها بعقول شاربيها ، وأثرها فى قلوبهم ، وصفا يبلغ من الدقة فيا مبلغا يعلن عن مدى شغفه بالخمر وافتتانه بها ، مثل قوله فى أسلوب قصصى رائع :

أتانى يؤامرنى فى الشمو | ل ليلا فقلت له : غادها(٤)
أرحنا نباكر جد الصبو | ح قبل النفوس وحسادها(٥)

---

(١) ذو زجاجات : يريد الساقى ، نطف جمع نطفة : القرط به لؤلؤة صافية ، ويعنى بمقلص أسفل السربال أنه قصير القميص ، والمعتمل : المطبوع على العمل والنشاط .

(٢) المستجيب : العود ذو الأوتار ، سمى بذلك لأنه يجيب صاحبه كما يجيب الصنج ، من آلات الطرب . وكنى بالشطر الأول عن اتساق ألحانهما . والقينة : الأمة المغنية ، والفضل — بضم الفاء والضاد — اللابسة ثوبا واحدا .

(٣) العجل — بكسر ففتح — جمع عجلة — بكسر فسكون — وهى قربة الماء .

(٤) يؤامرنى : يشاورنى ، الشمول : الخمر ، غادها : انطلق بنا إليها .

(٥) جد — بكسر الجيم — نشاط ، والصبوح : خمرة الصباح .

وقمنا ولما يصح ديكنا ... إلى جونة عند حدادها(١)
تنخلها من بكار القطاف ... أزيرق آمن إكسادها(٢)
وقلت له : هذه هاتها ... بأدماء فى حبل مقتادها(٣)
فقال : تزيدونى تسعة ... وماذاك عدلا لأندادها(٤)
فقلت لمنصفنا : أعطه ... فلما رأى حضر شهادها(٥)
أضاء مظلته بالسرا ... ج والليل غامر جدادها(٦)
دراهمنا كلها جيد ... فلا تحبسنا بتنقادها(٧)
فقام وصب لنا قهوة ... تسكننا بعد إرعادها(٨)
كميتا تكشف عن حمرة ... إذا صرحت بعد إزبادها(٩)
كحوصلة الرأل فى جريها ... إذا جليت بعد إقعادها(١٠)
وجال علينا بإبريقه ... عضب كف بفرصادها(١١)

---

(١) جونة — بفتح فسكون — جرة وحدادها : خمارها .
(٢) تنخلها : تخيرها ، وبكار القطاف : أول ما يقطف ، والأزيرق ، تصغير أزرق ، يعنى به أزرق العينين ، آمن إكسادها — بكسر الميم — لايخاف كسادها .
(٣) الأدماء : الناقة البيضاء ، ومقتاد الناقة : الغلام الذى يرعاها .
(٤) الأنداد : الأمثال .
(٥) المنصف — بكسر الميم وفتح الصاد — الخادم ، والحضر — بفتح الحاء وسكون الضاد — الحضور ، ويقصد بالشهاد هنا : الدراهم .
(٦) المظلة : الحانوت أو الخباء ، والجداد — بضم الجيم وتشديد الدال — الأهداب والأستار .
(٧) التنقاد : العد والنقد وتبين الزائف من الصحيح .
(٨) تسكننا : نسكن إليها .
(٩) الكميت : الحمراء ، صرحت : ذهب زبدها .
(١٠) الرأل — بفتح الراء وسكون الهمزة — فرخ النعام ، شبه الخمر بحوصلته فى الحمرة . جليت: أخرجت ، من جلوة العروس ، والقاعدة : إذا قعدت عن الطلب .
(١١) الفرصاد — بكسر الفاء — التوت الأحمر .

فبانت ركاب بأكورها   لدينا وخيل بألبادها(١)
ورحنـا تنمما نشوة   تجوربنا بعد إقصادها(٢)

* * *

٢ — واستأثر كذلك بفن الوصف — لديهم — مشاهد الطبيعة وتقلباتها، ومظاهر السكون ودقائقه ؛ فرأينا منهم من يستأثر به مشهد الأمطار والسيول التي تلم بالديار فيتبعها من مبتدئها إلى منتهاها ، كما صنع امرؤ القيس في معلقته ؛ إذ خص جزءا كبيرا منها بوصف وميض البرق ولمعانه المتداخل في السحاب المتراكم ، وكيف جلس هو و أصحابه بين حامر وإكام يتأملون سح الماء ، وهطول الأمطار، حتى تحولت في الأرض سيولا تجرف كل ما يصادفها من أشجار ، فلم تترك بها نخلا ولا بيتا ، وما زالت المياه تتزايد ، والسيول تشتد حتى عات آجام السباع فغرقت ، وأصبحت رءوسها فوق سطح الماء كأنها جذور البصل البرى ؛ وذلك قوله :

أحار ترى برقا كأن وميضه   كلمع اليدين في حبى مكلل(٣)
يضىء سناه أو مصابيح راهب   أهان السليط في الذبال المفتل(٤)
قعدت له وصحبتى بين حامر   وبين إكام بعد ما متأمل(٥)

إلى آخر الصورة التي ذكرت أبياتها كاملة في ترجمة الشاعر ، وواضح فيها أنه — على منهجه البياني — يعتمد في توضيح مقصده ، وإبراز الصورة على التشبيه بمختلف أنواعه وأدواته .

---

(١) الأكوار — جمع كور — الرحال ، والألباد — جمع لبد — قطعة الصوف توضع تحت السرج .

(٢) الإقصاد : القصد والاعتدال .

(٣) حار : ترخيم حارث ، وميض البرق : لمعانه،والحبى من السحاب: المتراكم ومثله المكلل .

(٤) السليط : الزيت ، والذبال : الفتائل ، والمقصود بقوله : أهان السليط : أكثر منه .

(٥) حامر وإكام : موضعان ، بعد ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .

ولم تكن هذه الأبيات وحدها هى التى نسبت لامرىء القيس فى وصف الم
ومشاهد الطبيعة ، فقد نسب إليه مقطوعة أخرى فى الغرض ذاته ـ وإن كان أبو عم
ابن العلاء ينسبها لذى الرمة ـ وفى هذه المقطوعة يمضى الشاعر فيصور مطرا قر
الشبه بالمطر السابق ؛ فالمطر ينهمر حتى يعم الأرض ، ويقلع فتبدو الأوتاد من الأر
ولكنه يعود أكثر مما كان فتتوارى عن الأنظار ، وتظل متوالية متدفقة حتى تغ
الأشجار ولا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراءى كأنها رءوس معممة قطعت وبها عمائم
وما يزال على هذا الانصباب والتدفق فترة ، تستدر السحب ريح الصبا الشمالية فيس
المطر فى الهطول ، وتقابلها ريح الجنوب فتنفجر السحب بالمطر كذلك ، وتسيل ا
حتى تضيق بأمواجه الأرض المعروفة باسم خيم وجفاف ويسر :

ديمة هطلاء فيها وطف	طبق الأرض تحرى وتدر(١)
تخرج الود إذا ما أشجذت	وتواريه إذا ماتشتكر(٢)
وترى الضب خفيفا ماهرا	ثانيا برثنه مايمقر(٣)
وترى الشجراء فى ريقه	كرءوس قطعت فيها الخمر(٤)
ساعة ثم انتحاها وابل	ساقط الأكناف واه منهمر(٥)

(١) الديمة : المطر الدائم،وهطلاء: كثيرة الهطل،والوطف:الدنو من الأ
طبق الأرض ـ بالباء المفتوحة ـ تطبقها وتعمها لكثرة مطرها ، تحرى : تعم
الأمكنة وتثبت فيها ، وتدر : يكثر ماؤها وترسل درها .

(٢) الود ـ بفتح الواو ـ الوتد ، وأشجذت : أقلعت وسكنت ، وتشت
تحتفل ويكثر مطرها .

(٣) خفيفا ماهرا : يريد مسرعا فى عدوه ، وبرثن الضب: يقابل الإصبع من الا
وما يمقر : لايصيبه المقر والتراب وذلك لخفته فى عدوه .

(٤) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير،وريق المطر : أوله، يعنى أن
ينهمر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها فتبدو كأنها رءوس قطعت وفيها الخمر وا

(٥) انتحاها : قصدها ، الوابل : المطر الغزير ، والساقط الأكناف: الدا
نواحى الأرض ، واه . متخرق ، المنهمر : المنسكب .

راح تمريه الصبا ثم انتحى   فيه شؤبوب جنوب منفجر(١)
ثج حتى ضاق عن آذيه   عرض خيم فجفاف فيسر(٢)
قد غدا يحملنى فى أنفه   لاحق الإطلين محبوك ممر(٣)

* * *

٣ — كما احتفل شعراء الحاضرة بإيراد إحدى وسائلهم الحيوية بالوصف؛ من حيوان، وآلات حرب، ونحو ذلك. فهذا أبو دؤاد الإيادى يصف فرسه فى قصيدة من روائع شعره تبلغ نحو ثمانية وعشرين بيتا خصها كلها فى وصف الحصان، جاء فيها :

وقد أعدو بطرف هيـ   كل ذى ميعة سكب(٤)
أسيل ساجم المقبـل   لاشخت ولا جأب(٥)
مسح لايوارى العـير   منـه عصر اللهب(٦)

---

(١) راح : عاد بالمطر فى آخر النهار. تمريه — بفتح التاء — تحركه وتدره، والشؤبوب : دفعة المطر، والجنوب : ريح. منفجر : سائل.

(٢) ثج : سال، والآذى : الموج، وخيم — بفتح الخاء وسكون الياء — وجفاف — بضم الجيم — ويسر — بضم الياء والسين : أماكن.

(٣) يحملنى فى أنفه : يريد فى أنف المطر أى فى أوله، ولاحق الإطلين : فرس ضامر الكشحين، المحبوك : الموثق الخلق، ومثله الممر — بضم ففتح — من الحبل الممر وهو المحكم الفتل.

(٤) الطرف — بكسر الطاء، الفرس الكريم، والهيكل : الطويل فى ضخامة، ذوميعة : ذو جرى سائل، ومثله السكب.

(٥) أسيل الخد : مستو، ساجم : طويل، المقبل. يعنى حين تراه مقبلا، والشخت الدقيق، والجأب : الغليظ

(٦) المسح : الذى ينصب فى جريه، والعصر — بفتح العين والصاد — الملجأ، واللهب : شق فى الجبل، يعنى أن الحصان لشدة اندفاعه فى الجرى لايتوارى عنه العير وإن التجأ إلى شق فى الجبل.

له ساقا ظـليم خا　　ضب فوجىء بالرعب(١)
ومتنـان خظاتان　　كزحلوف من الهضب(٢)
يهـز العنق الأجر　　د فى مستأمن الشعب(٣)
ترى فاه إذا أقبـل　　مثل الساق الجـدب(٤)
نبيل سلجم اللجبـين　　صافى اللون كالقلب(٥)
حديد الطرف والمنـكـ　　ـب والعرقوب والقلب(٦)
جواد الشد والإحضا　　ر والتقريب والعقب(٧)

وهذا أوس بن حجر فى وصف القوس، وقد سار فيه على منهج الاستقصاء والتتبع فبدأ بالقوس منذ كان غصنا فى شجرة بعيدة المنال ؛ إيماء إلى ندرة هذا القوس، فهو أحسن الأقواس المعدة للحرب ، صنعه خبير ، حين أبصر شجرته جشم نفسه العناء حتى تمكن من الحصول على هذا الغصن ، وقام بصقله وإعداده ، فأخرجه وسطا بين الطويل والقصير ، ملء الكف ، حين يستعمل يسمع لصوته رنين، فإذا شد النازع السهم عاد إلى القبض ، ثم ابتعد عنها لقوة دفعها وصلابتها :

ومبضوعة من رأس فرع شظية　　بطود تراه بالسحاب مجللا(٨)
على ظهر صفوان كأن متونه　　علان بدهن يزلق المتنزلا
يطيف بها راع يجشم نفسه　　ليكلأ فيها طرفه متأملا

---

(١) الظليم : ذكر النعام ، والخاضب : الذى رعى الربيع فخضبت قوائمه ، وساقا الظليم قصيرتان .

(٢) الخظاة : المكتنزة ، والزحلوف : المكان الزلق .

(٣) الأجرد : قصير الشعر ، والشعب : الوصل المركب فى الحارك وهو موصل العنق مع الكاهل ، يقول : قد ركب فى أصل متين ، وإذا سار هز عنقه .

(٤) الساق — بفتح السين واللام — الأرض المتجردة من النبات .

(٥) القلب — بضم القاف وسكون اللام — السوار يكون نظما واحدا .

(٦) المنكب : مجتمع رأس العضد والكتف .

(٧) كل ما ذكر فى البيت مضافا إلى (جواد) أنواع من الجرى .

(٨) المضبوعة : المقطوعة ، والشظية : الفلقة من الشىء ، والطود : الجبل م

على خير ما أبصرتها من بضاعة ... لملتمس بيعا بها أو تبكلا(١)
فويق جبيل شامخ الرأس لم تكن ... لتبلغه حتى تكل وتعملا
فأبصر ألهابا من الطود دونه ... يرى بين رأسى كل نيقين مهبلا
فأشرط فيها نفسه وهو معصم ... وألقى بأسباب له وتوكلا(٢)
وقد أكلت أظفاره الصخر كلما ... تعيا عليه طول مرقى توصلا
فما زال حتى نالها وهو مشفق ... على موطن لو زل عنه تفصلا
أمر عليها ذات حد غرابها ... رقيق بأخذ المداوس صيقلا(٣)
على فخذيه من براية عودها ... شبيه سفا البهمى إذا ما تفتلا
فجردها صفراء ؛ لا الطول عابها ... ولا قصر أزرى بها فتعطلا
كتوم طلاع الكف لادون ملئها ... ولا عجسها من موضع الكف أفضلا(٤)
إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها ... إذ أنبضوا عنها نئيما وأزملا(٥)
وإن شد فيها النزع أدبر سهمها ... إلى منتهى من عجسها ثم أقبلا(٦)

وصفوه القول : إن شعراء الحضر الجاهلى فى فن الوصف اختلفوا عن شعراء البادية فى أمور من أهمها :

١ — الموصوف ؛ فما يثير اهتمام الحضرى يختلف عن ذلك الذى يثير اهتمام البدوى، ولا ريب فى أن الشاعر إنما يركز مصورته على الشىء الذى يشد نظره دون غيره ، وإلا أصيب شعره بالفتور والوهن .

---

(١) التبكل : الغنيمة . (٢) أشرط نفسه : ألزمها .

(٣) ذات الحد : السكين ، وغراب السكين : حدها ، والمداوس جمع مدوس كمنبر : آلة الصيقل التى يثقف بها القسى .

(٤) الكتوم . التى لايوجد فى عودها شقوق ، وطلاع الكف . ملء الكف والعجس . المقبض .

(٥) الإنباض : تحريك الوتر فى القوس ، والنئيم :صوت القوس، والأزمل الرنين.

(٦) معنى إقبال السهم إلى المقبض وإدباره أن القوس لينة فى صلابة عود ، وإذا شد النازع السهم عاد إلى المقبض ، ثم ابتعد عنها لقوة دفعها وصلابتها .

٢ — المنهج الاستقصائى ، فكل واحد من شعراء البيئتين يعتمد فى وصفه على الاستقصاء ، بيد أن شاعر الحضر فى استقصائه يلجأ إلى الوصف التأملى المتفحص ، كما رأينا فى شعر أوس بن حجر ، وشاعر البادية فى استقصائه يلجأ إلى الوصف القصصى ، فهو يقدم نعوت موصوفه فى تتابع قصصى ، تتكامل بعناصره الصورة كما يراها الشاعر ، على ما رأينا فى وصف زهير ولبيد .

الفصل الثالث

الشعر العربى بين البادية والحاضرة

من المقرر أن الأدب العربى على اختلاف أنواعه وفنونه يلتقى مع آداب الأمم الأخرى فى المشتركات الإنسانية التى لا تتميز فيها أمة عن أمة ، ولا يختلف فيها فرد عن فرد ، ففى الآداب جميعا ترى صورة الإنسان فى صراعه مع ما يصادفه من عقبات فى حياته تعوقه عن مواصلة المسار ، لا يختلف فى ذلك أدب عن أدب ، وفى الآداب جميعا ترى القيم الإنسانية الفطرية تدور حولها الأحاسيس والمشاعر والانفعالات رضا بها أو سخطا عليها ، دفاعا عنها أو برمابها . . .

ومن المقرر كذلك أن البيئات ـ زمانية كانت أو مكانية ـ تباعد كل أمة عن أختها فى أمور كثيرة من أبرزها ـ فى ميدان الأدب ـ الرؤية العقلية والخيالية لما تصادف فى الحياة الواقعية ، والإدراك التصورى للعلاقات القائمة بين عناصر موقف من المواقف المجابهة ، وكيفية نقل هذا المعنى المرئى أو الصورة المدركة إلى الآخرين ، ثم بالأسلوب الأنسب فى عملية النقل هذه .

من هذا يتقرر أن أدب كل بيئة له من الخصائص ما يتميز به عن أدب البيئة الأخرى ، وهو تميز تفرضه عليه ظروف البيئة بكل أبعادها ، ولا يحق ـ لذلك ـ أن يحمد أدب أمة أو جيل لخصائصه ، ويذم أدب أمة أو جيل لخصائصه ؛ إذ هى من ضروريات البيئة التى لا جهد لأحد فيها ، إنما يذم أدباء بيئة ما إذ تجاوزوا ما تمليه عليه بيئتهم أو تجاهلوه ؛ لأن أدبهم عندئذ يكون مسخا مصنوعا لا يعبر عن ذات أصحابه .

فإذا أردنا أن نتعرف على خصائص الشعر العربى الجاهلى فى بيئتيه البدوية والحضرية فمعنى هذا أننا نقصد إلى الكشف عن خصائصه المعنوية والخيالية وخصائصه المضمونية ، وخصائصه الأسلوبية ، وخصائصه الشكلية ، إذ المجال الفنى الذى يميز شعر بيئة من شعر بيئة أخرى يكاد لا يخرج على هذه النواحى الأربعة .

الخصائص المعنوية والخياليه :

المقصود بالمعانى هنا المدركات التى يقف عليها الشاعر فى أثناء تفكيره فى موضوعه، فالمعانى الشعرية هى الحقائق التى تشد انتباه الشاعر فى موضوعه، وعليها يقوم البناء الشعرى؛ لأن الشاعر حين يتناول موضوعا ما من الموضوعات أو حدثا من الأحداث لا يمكن بأى حال أن يستقصيه ويلم بكل أطرافه، وإنما هو بحسه الخاص يقع على جانب منه يتأثر به ويعيش فيه . هذا الجانب المخصوص بجزئياته هو المعنى الشكلى أو الفكرة الأصيلة التى يقدمها الشاعر وهو ذلك خاضع لثقافاته ومماريه الخاصة النابعة من بيئته .

والناظر فى شعر البادية العربية، وشعر الحاضرة العربية يصادف عدة ملاحظات :

١ — فهو يلاحظ أن المعانى فى الشعر البدوى واضحة صريحة صادقة فلا يحول بينها وبين متلقيها غموض؛ وذلك أحد آثار البيئة فى مقومات الشخصية لديهم، فقد فرضت عليهم البيئة الصحراوية المفتوحة التى لا تعتمد فيها الحياة إلا على الضرورى من الحجب، والتى لا يفيد فيها الالتواء والتخفى، والتى لا كيان فيها لجبان أو ضعيف .. فرضت عليهم تلك البيئة أن يتخلقوا بخلق الشجاعة، ذلك الخلق الذى ينطلق به اللسان فى غير مواربة ولا التواء، والذى تنكشف به السرائر فى تحد وتحديد، وكما نرى فى المعانى التى شدت اهتمام الشنفرى فى زوجه أميمة إذ يقول (١) .

لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها ... إذا ما مشت، ولا بذات تلفت
تبيت — بعيد النوم — تهدى غبوقها ... لجاراتها إذا الهدية قلت (٢)
تحل بمنجاة من اللوم بيتها ... إذا ما بيوت بالمذمة حلت
كأن لها فى الأرض نسيا تقصه ... على أمها، وإن تكلمك تبلت (٣)

---

(١) المفضليات رقم ٢٠

(٢) الغبوق : اللبن الذى يشرب فى العشى .

(٣) النسى : الشىء المنسى أو المفقود، تقصه: تتعقب أثره، أمها — بفتح الهمزة — قصدها، تبلت — بفتح فسكون — أو جزت .

أميمة لايخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت(١)
إذا هو أمسى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسل أين ظلت(٢)

فالشنفرى يرى أن محاسن المرأة تقوم على الوقار ، والكرم ، والبعد عن أسباب اللوم والذم ، والحياء ، حسنة السيرة والسمعة لعفتها وجلالها ، يسعد بها زوجها لأنها موضع ثقته

ووقار المرأة فى تصور الشنفرى يعنى أن قناعها لايسقط عن وجهها فى أثناء سيرها ، وأنها لاتتلفت حولها . وكرمها فى تصوره يعنى الإيثار ؛ فهى تؤثر جاراتها فى الجدب بغبوق اللبن ، وبعدها عن أسباب اللوم يعنى حصانة بيتها عن كل لوم أو ذم . وحياؤها يعنى أنها لاترفع رأسها عن الأرض فى مسيرها كأنها تبحث عن شىء فقدته ، وأنها لاتتكلم إلا باقتضاب ، وحسن سيرتها يعنى أن الحديث عنها لايحمل الخزى لزوجها ، وسعادة زوجها بها ترجع إلى اطمئنانه إلى مسلكها وثقته فيها ، فلا يخالج نفسه شك ولا ارتياب

وكما نرى فى تصوير دريد بن الصمة ارتباطه بعشيرته وتعصبه لها ، إذ يقول :

وما أنا إلا من غزية : إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد

فارتباطه بعشيرته غزية يعنى فى تصوره أنه يكون حيث كانت ، فإن ضلت ضل معها ، وإن اهتدت اهتدى معها .

* * *

وليس وضوح المعانى خاصة بدوية ، فإن معانى الشعر الحضرى فى هذا العصر كانت كذلك واضحة ، بيد أنها فى غالبها تتسم بالعلو والمبالغة ، كما يتسم بعضها بالالتواء والمواربة ، وذلك بتأثير البيئة الحضرية ، وما تستلزمه المعيشة فيها من تحفظ فى التعبير ، يلتقى على ذلك الشاعر الحضرى الذى ولد ونشأ فى الحاضرة كعدى بن زيد ، والشاعر البدوى الذى تحضر بجسمه وحسه دون عقله وفكره ، كالنابغة الذبيانى والأعشى .

---

(١) الأصمعيات ص ١١٢ طبع دار المعارف .
(٢) انظر حماسة البحترى ص ٢٠

وسمة الغلو والمبالغة تبرز أوضح ما تبرز فى شعر المدح وما يتصل به من هجاء ورثاء واعتذار ؛ وقد غلبت المبالغة على هذه الفنون لصدور الشعراء فيها عن طمع فى المكافأة وتطلع إلى الجزاء ، كما ترى فى مدائح عدى والنابغة والأعشى وأضرابهم ، انظر من ذلك إلى أعشى قيس يمدح هوذة بن على سيد بنى حنيفة فيمضى يجمع من الصفات ما يفك عقدة الأيدى فتبسط بالعطاء ، وذلك قوله :

إلى هوذة الوهاب أهديت مدحتى — أرجى نوالا فاضلا من عطائكا
سمعت برحب الباع والجود والندى — فأدليت دلوى فاستقت برشائكا(١)
فتى يحمل الأعباء لو كان غيره — من الناس لم ينهض بها متماسكا
وأنت الذى عودتنى أن تريشنى — وأنت الذى آويتنى فى ظلالكا(٢)

تجد المبالغة الممزوجة بالتصريح بالسؤال وطلب العطاء

وانظر إلى النابغة الذبيانى يمدح النعمان بن المنذر فيقدمه فى صورة تملن عن تلك المبالغة التى تجاوز بها الحد وذلك فى قوله :

فما الفرات إذا هب الرياح له — ترمى أواذيه العبرين بالزبد(٣)
يمده كل واد مترع لجب — فيه ركام من الينبوت والخضد(٤)
يظل من خوفه الملاح معتصما — بالخيزرانه بعد الأين والنجد(٥)
يوما بأجود منه سيب نافلة — ولا يحول عطاء اليوم دون غد(٦)

---

(١) الباع : الكرم ، والرشاء : حبل الدلو .

(٢) تريشنى : تميلنى وتغنينى .

(٣) أواذيه : أمواجه ، العبران — بكسر العين الشاطئان .

(٤) مترع : مملوء ، لجب : ذو صوت شديد ، والينبوت : شجر ، والخضد — بفتح الخاء والضاد — المحطم من الأشجار .

(٥) الخيزرانة : سكان السفينة ، والأين : التعب ، والنجد — بالتحريك — الكرب .

(٦) السيب : العطاء ، والنافلة : الزيادة ، يريد أن عطاءه وفر .

فهذه مبالغات لايعرفها البدوى الخالص فرضتها على أمثال هؤلاء ـ مما تجد نماذج بعضه فى ترجمات من ضمناهم بحثنا هذا ـ أخلاقيات الحاضرة ، واستدعاءاتها التى تبيح للشاعر مالا تبيحه البادية .

ومن هذا المعين قدم النابغة اعتذاراته للنعمان ، مثل قوله :

أتانى ـ أبيت اللعن ـ أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب[1]
فبت كأن العائدات فرشن لى هراسا به يعلى فراشى ويقشب[2]

ومثل قوله :

وعيد أبى قابوس فى غير كنهه أتانى ودونى راكس فالضواجع[3]
فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع[4]
يسهد من ليل التمام سليمها لحلى النساء فى يديه قعاقع[5]
تناذرها الراقون من سوء سمها تطلقه طورا ، وطورا تراجع[6]

* * *

---

(١) أنصب : أجهد جهدا شديدا .

(٢) الهراس ، بفتح الهاء ـ شجر كثير الشوك ، والعائدات : الزائرات فى المرض . يقشب : يجدد .

(٣) فى غير كنهه ، يريد على غير ذنب منه ، والكنة : الحقيقة . راكس : واد فى منازل بنى أسد ، والضواجع : منحنى الوادى .

(٤) ساورتنى : لدغتنى ، وضئيلة : أفعى دقيقة الجسم ، والرقش جمع رقشاء : المنقطة نقطا بيضاء وسوداء ، والناقع : القاتل .

(٥) يسهد : يمنع النوم ، وليل التمام ـ بكسر التاء ـ أطول ليالى الشتاء ، والسليم : الملدوغ ، والقعاقع · الأصوات ، كانوا يجعلون الحلى فى يد الملدوغ اعتقادا منهم بأنها تشفيه .

(٦) تناذرها الراقون : خوف بعضهم بعضا منها ، يريد أنها من خبثها لاتجيب الرقى ، بل تجيب مرة ، ولاتجيب مرة .

ومن ثم نجد الشاعر البدوى الذى تحضر بفكره وعقله فى ظل الإسلام لا يخرج على المعانى البدوية فى الوضوح والصراحة والصدق، دون مبالغة أو تهويل، فهو فى ظل القيم الإسلامية صريح واضح صادق، كما كان فى ظل القيم البدوية؛ إذا كانت تلك القيمة من القيم البدوية التى أقرها الإسلام وحرص عليها ودعا إليها بمثله وأخلاقياته، ولعل فى مدائح العباس بن مرداس وكعب بن زهير، وحسان وعبد الله بن رواحة ومفاخرهم الإسلامية ما يؤكد ذلك ويقرره. فهم إنما يفخرون بما هو قائم، وإنما يمدحون بما صدر عن الممدوح من حميد الأعمال، وما يتصف به من كريم الخلال.

فهذا العباس بن مرداس فى إحدى خرياته يعتز بأنه وقومه نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودين الرحمن، فركبوا الموت دون خوف:

واذكر بلاء سليم فى مواطنها ... وفى سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا ... دين الرسول وأمر الناس مشتجر
ونحن يوم حنين كان مشهدنا ... للدين عزا وعند الله مدخر
إذ نركب الموت مخضرا بطائنه ... والخيل ينجاب عنها ساطع كدر

وهذا كعب بن زهير — فى أخريات جاهليته — يعتذر لرسول الله، فيضطر إلى الاستواء فى ذلك، دون أن يخرج إلى التهويل والمبالغة، لعلمه أن هذا النهج ليس مما يستسيغه الرسول صلى الله عليه وسلم.

أنبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فى الأقاويل

وهذا حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان ويمدح النبى صلى الله عليه وسلم فلا يتجاوز الاعتدال، ولا يشد عن ذكر الحقائق:

ألا أبلغ أبا سفيان عنى ... فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركتك عبدا ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركا برا حنيفا ... أمين الله شيمته الوفاء

٢ — ويلاحظ أن المعانى والأفكار فى الشعر الجاهلى — بدوية وحضرية — بسيطة وطرية ، لا تعقيد فيها ولا تركيب؛ فدور العقل فيها دور المحصى المتتبع ،لا دور الصانع المركب ، أى أنها معان حسية لم تخضع لصنعة العقـل ، فهى على حالها لم يطرأ عليها تغيير أكثر من ضم بعضها إلى بعض ، على نحو ما نرى فى تأبى المتلمس على الرضوخ للهوان والضيم، فيقرر أنه لا يقبل الهوان كريم ولا عاقل، ولا يرضى به إلا حمار ذليل أو جماد لا يعقل ، وذلك فى قوله (١) :

إن الهوان حمار الأهـل يعرفه ... والحر ينـكره والرسلة الأجد (٢)
ولا يقيم على خسف يراد به ... إلا الأذلان: عير الأهل والوتد(٣)
هذا على الخسف معقـول برمته ... وذا يشج فـلا يبـكى له أحد

فالهوان لا يقبله إلا من يشبه هـذين — الحمار والوتد — فى الرضا بالذل ، وعدم الإحساس بما يصنع به

إن الشاعر يتمدح بالأنفة وإباء الضيم ، ويرى أنه لا يقبل الضيم عاقل ، وإنما هو أحد اثنين ، حيوان يجهل ما يراد به، أو جماد لا يدرى من أمره ولا من أمر غيره شيئا ، وكل منهما وضع فى موضع التسخير والإذلال ، وواضح أنه استمد هـذا المعنى من بيئته التى يعيش فيها ، دون أن يضيف إليـه من عنده شيئا ، سوى أنه قرن هذا بذاك .

وعلى نحو مارأينا فى تصوير زهير الحرب فى صورة بشعة تدعو العقلاء إلى النفور منها والبعد عنها ، فهى أسد ضار ، ونار مشتعلة ، ورحى تطحن المتحاربين ، وأنثى لا تلد إلا الأبناء المشئوم ، وتجارة لا تربح مالا ، ولا ريب فى أنها معان مطروحة فى البيئة لم يصنعها عقل الشاعر بقدر ما لاحظها وانتقاها من بين غيرها ليصور بها الحرب فيحقق مقصده وينفر منها .

---

(١) انظر حماسة البحترى ص ٢٠

(٢) الرسلة — بفتح فسكون — الناقة الذلول ، والأجد — بضم الهمزة والجيم — الموثقة الخلق .

(٣) العير — بفتح فسكون — الحمار .

وهـذا المنهج فى بساطة المعانى يسير عليه عدى بن زيد شاعر النعمان فى مختلف فنونه الشعرية من خمريات ومواعظه واعتذاريات ، من ذلك قوله .

من رآنا فليحدث نفسـه ... أنه موف على قرن زوال (١)
وصروف الدهر لا يبقى لها ... ولما تأتى به صم الجبـال
رب ركب قد أناخوا عندنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال (٢)
عمروا دهـرا بعيش حسن ... آمنى دهرهم غـير عجـال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم ... وكذاك الدهر يودى بالرجال
وكذاك الدهـر يرمى بالفتى ... فى طلاب العيش حالا بعد حال

فوجودنا هذا وشك الزوال ، ولن يفلت من الموت كائن حتى صم الجبال ، فليس فى هذه الدنيا وأحداثها ما يفتح باب الأمان لها ، ولا ينخدع عن إنسان بما توهمه حياة بعض الناس ، وما عليه إلا أن ينظر فى مصيرهم ، فذاك مصير كل حى .

ولا تكاد تجـد شاعرا - بدويا أو حضريا - يخرج على هذا المنهج ، فهم جميعا لا يصنعون معانيهم ، وإنما يستمدونها من البيئة المحيطة بهم ، فيضمون بعضها إلى بعض لتتحقق المقصود ، حتى فى تلخيص خبراتهم وتقـديمها فى صورة حكم ، لا يلجأ الشاعر إلى تركيب معانيه وتقديمها فى صورة عقلية ، وإنما هو ملاحظ محص ، كما نجد فى حكم زهير بن أبى سلمى ، حين يقول :

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت ... ولـكن حمد الناس ليس بمخلد

وحين يقول :

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه ... وتغرس إلا فى منابتها النخل

وكما نجد فى حكم النابغة إذ يقول :

ولست بمستبق أخا لا تلمـه ... على شعث أى الرجال المهذب

فأنت مع الشعر العربى الجاهلى أمام معان إنسانية حسية يقدمها الشاعر مما يتراءى له فى بيئته ، دون أن يتحول بها إلى معنى ذهنى أو صورة عقلية مركبة أو معقدة .

(١) القرن - بفتح فسكون - الطرف . (٢) الماء الزلال : الصافى .

ويلاحظ أنها قريبة المأخذ ، وهى مع صراحتها وبساطتها لاعمق فيها ، وكيف يتعمق من حرمته بيئته الاستقرار والهدوء ؟ انهو دائم الحركة ، مستمر الرحلة ، لاينزل إلا ليرتحل ، ولا يقيم إلا ليسافر ، سواء كان من ساكنى الحضر أو قاطنى البادية ؟ فظروف الحياة فى شبه الجزيرة دائمة التقلب والتغير .

ولكنهم استعاضوا عن عمق الفكرة بدقة الحس ، فى تتبع الحركة ، واستقصاء المشاهد ، فملئوا من شعرهم لوحات تتجسم فيها المعانى ، وتشخص الأحداث والمواقف كما فى قول زهير بن أبى سلمى يصف ممدوحيه حين يستغاث بهم فيطيرون إليه بخيلهم ، ورماحهم ليفقدوه مما ألم به ، غير هيابين ، فالقتل إحدى أمانيهم من قديم(١) :

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم   طوال الرماح لاضعاف ولاعزل(٢)

فإن يقتــلوا فيشتفى بدمائهم   وكانوا قديما من مناياهم القتل

وكما رأينا آنفا فى وصف البقرة الوحشية التى شبه بها لبيد بن ربيعة العامرى ناقته .

وكما فى قول زهير يصف أحد مشاهد الصيد ؛ فيلم بدقائق الحدث حتى يجعلنـا نعايشه ونحس بإحساسه ، ونتلهف تلهفه .

إذا ماغدونا نبتغى الصيد مرة   متى نره فإننـا لا نخاتـــله(٣)

فبينـا نبغى الصيد جاء غلامنـا   يدب ويخفى شخصه ويضائله

فقال : شياه راتعــات بقفـرة   بمستأسد القريان حو مسايله(٤)

ثلاث كأقواس السراء ومسحـل   قد أخضر من لس الغمير جحافله(٥)

---

(١) ديوان زهير ص ١٠٢ .

(٢) عزل ـ بضم فسكون ـ جمع أعزل : من لاسلاح له ، وفزعوا : نهضوا للاغاثه .

(٣) نخاتله : نمكر به ونصيده دون أن يرانا .

(٤) المستأسد . النبت الذى طال ، والقريان : مجارى الماء ، والحو . النبات الضارب إلى السواد

(٥) السراء : شجر تؤخـذ منه القسى ، شبهها بها فى الضمور ، والمسحل . حمار الوحش ، والغمير : نبت ، ولسه : أخذه بمقدم الفم . والجحافل من الحمير والإبل والخيل بمنزلة الشفاه

وعلى هذا سار شعراء الحضر في معانيهم ، كما نجد امرأ القيس في وصف فرسه وهو يجرى :

وقد اغتدى والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل(١)
مكر مفر ، مقبل مدبر معا ... كجلود صخر حطه السيل من عل(٢)
كميت يزل اللبد عن حال متنه ... كما زلت الصفواء بالمتنزل(٣)

وكما نجد الأعشى في تصوير جيش عمرو بن الحارث الغسانى ، حيث يصور جماعات الطير من النسور والعقبان تتبع الجيش تنتظر زادها من أشلاء القتلى :

إذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدى بعصائب(٤)
يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم ... من الضاريات بالدماء الدوارب(٥)
تراهن حلف القوم خزرا عيونها ... جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب(٦)

ومن هذا المنطلق فى المعانى حرصوا فى أوصافهم على أن لاتخرج عن نطاق الموصوف المحسوس ، وحرصوا فى مدائحهم على أن لاتخرج عن المحمدة التى دعت الشاعر إلى المدح شكرا عليها وعرفانا بها دون مبالغة أو مغالاة ، وأقاموا مراثيهم على تمداد مناقب الميت ، وبكائه والتحميس على الثأر له إن كان قتيلا، دون أن يتعمقوا فى أسرار الموت أو يتجاوزوا سطح الأحداث ، بل إن من تناول الموت فى حديثه لم

---

(١) الوكنات جمع وكنة - بضم الواو - مواقع الطير، المنجرد : الماضى فى السير، والأوابد جمع آبدة : الوحوش ، والهيكل : الفرس العظيم الجرم .

(٢) مكر - مفعل - اسم آلة من كر إذا عطف ، ومفر : اسم آلة من فر ، جمله كأنه آلة الكر والفر ، والجلمود : الحجر العظيم الصلب ، وحطه : ألقاه ، من عل : من فوق .

(٣) الكميت : ما كان لونه بين الأسود والأحمر ، والحال : مقعد الفارس من ظهر الفرس ، والصفواء والصفوان : الحجر الصلب .

(٤) العصائب : الجماعات .

(٥) الضاريات : المتعودات ، والدوارب : المدربة .

(٦) خزر العيون - بضم الخاء - جمع أخزر : الذى ينظر بمؤخر عينه، والمرانب: ثياب سوداء .

يتناوله من الوجهة العقلية الخفية ، إنما تناوله من الوجهة البارزة المكشوفة ، فالموت ضرورى محتوم لايمنع منه مانع ، ولايصح من عاقل أن يفر منـــه ، على ما رأينا فى عينية أبى ذؤيب . وتحـدثوا فى غزلهم عن جمال المرأة ، وما أقاموا من علاقات فى صراحة تـكاد فى بعضها تخدش الحياء ، بيد أن بعضهم قد سار بالغزل مسارا نلمس فيه شيء من التعمق والأناة على ما رأينا فى نونية عنترة .

هذا ويظن كثير من الدارسين أن معانى الشعر الجاهلى ـ بدوية وحضرية ـ ضعيفة التماسك ، واهية الروابط ، فهى معان مفـكـكة ، قائمة على الاستطراد ، بحيث تستطيع أن تقدم فيها وتؤخر ، وتحذف وتضيف ، دون أن تتأثر بذلك القصيدة ، فهى ليست ـ كما يتطلبه النقاد المحدثون ـ بناء عضويا تاما، بقدر ما هى مجموعة مشاهد أو مواقف لايشد بعضها إلى بعض رباط وثيق ، وإن كانت تضمها وحدة عامة ، وإطار محـــدد ؛ فالقصيدة الجاهلية ـ على ما يرون ـ خالية من الوحدة الفنية ؛ فليس فيها وحدة بناء ولا وحدة غرض

ويعلل هؤلاء ما يرونه بعـدم معرفة العرب الجاهليين بالترتيب المنطقى أو النظر الفلسفى ، مما اضطرهم إلى رؤية المشاهد متقطوع بعضها عن بعض ، فلا صلة ولا نظام .

وفى الحق أن هذا الرأى مجاف للصواب ، بعيد عن الواقع ، دفع إليه التعجل فى الحـكم ، أو التسليم بما قرره بعض المستشرقين دون أناة وترو، ومعاودة نظر فيما بين أيدينا من شعر هؤلاء . ولو أننا قبل أن ننظر فى الشعر الجاهلى تعرفنا على دقائق الحياة البدوية ـ على ما فى ذلك من عسر ـ ونقلنا أنفسنا لنشاركهم معيشتهم ونجاورهم فى بيئتهم بـكل أبعادها لما وجدنا فى شعرهم هذا التفـكك المزعوم ؛ فالعيب فينا نحن ؛ لأننا ندرس شعر قوم لانعلم من أحوال معيشتهم ، ومن ظروف بيئتهم إلا النـــزر اليسير ، فـكيف ننصب أنفسنا قضاة يقضون القضاء المبرم فى شعرهم .

على الدارس الصادق النية أن يتوقف عند كل إشارة ترد على ألسنتهم ويبحث عن مدى أثر ذلك فى علائقهم الإجتماعية والشخصية ، وأن لايمر مر الـكرام على تلك الأماكن التى يتحدثون عنها ويقفون عليها ، بل لابد لنا من تعرف على تلك الأماكن

وذكرياتهم فيها ، كما يجب على الدارس أن يقف بالتعرف على حال الشاعر النفسية قبل أن يصدر حكمه على ما يقول

إننا إذا ما نجحنا فى تحقيق ذلك قبل مواجهة شعرهم ضمنا لأنفسنا النجاح فى أن نصدر فى أحكامنا من فوق أرض صلبة لاتهتز من تحت أرجلنا . وهذا ما سوف نحاوله مع بعض شعرائهم إن شاء الله تعالى .

وصفوة القول فى هذا أن ما صدر على الشعر الجاهلى — فى هذا الميدان — من أحكام لايقوم على الدراسة العلمية الموضوعية الخالية من الزيف ، بل هى أحكام لاتخلو من التجنى والارتجال والتسرع .

* * *

أما الخيال فيقصد به الصورة التى يرى الشاعر فيها معانيه بخيـاله بعد تأثره بها ، أو هى الترجمة العاطفية للحقائق العقلية التى يتـكون منها الموضوع .

فإذا كانت المعانى خاضعة لثقافة الشاعر ومعارفه العقلية الخاصة ، فإن الأخيلة خاضعة لعواطفه وتأثراته وانفعالاته الخاصة كذلك ، فليست واحدة منهما من المشتركات العامة ، وإنما كل منهما يختلف من شاعر لآخر وفقا لما خضع له عقله وحسه من مؤثرات بحل أو تدق .

والناظر فى الشعر الجاهلى — بدوية وحضرية — يلاحظ أنه حافل بألوان الخيال — سواء فى ذلك الخيال الابتـكارى والخيال التفسيرى(١) — غير أنه لايخرج عن حدود البيئة الجاهلية ، يمثل ذلك قول عبد العزى الطائى موضحا حرصهم على الثأر :

---

(١) الخيال الابتكارى هو الخيال الذى يقوم على الابتكار ، حيث يعتمد فيه صاحبه على تـكوين مجموعة من العناصر المختزنة فى الذهن ؛ ويلمها من شتات ليصنع منها صورة جديدة تـكشف عن إحساس داخلى تجاه موقف أو مشهد . أما الذى يقوم على التفسير والتصوير فهو ما يقدمه الأديب من إضافة الصورة التى يراها ويعبر عنها إلى صورة أخرى أقرب منها إلى إدراك المتلقين ، وأوضح فى تصوراتهم ، ويعتمد فى هذا النوع من الخيال على فنون البيان من تشبيه واستعارة وكـناية إلى غير ذلك . انظر للمؤلف كـتاب فى الأدب العربى المعاصر القسم الثانى ص ٧٥

إذا ما طلبنا تبلنـــا عنــد معشر　　أبينا حلاب الدر أو نشرب الدما(١)

فالشاعر يرى الحرص على الثأر فى صورة رفض الدية بالغة ما بلغت ؛ لأن قبولها فى الذل والهوان ، ولذا جعل رفضها إباء وليس مجرد رفض .

وعلى هذا النحو يواجهنا تأبط شرا ، حيث يبرز الحرص على الثأر فى صورة الغريزة طارية التى لا يهدأ له بال ، ولا يغمض له جفن حتى ينال ثأره ، وذلك فى قوله :

قليل غرار النوم أكبر همـــه　　دم الثأر أو يلقى كميـا مسقعا

فطالب الثأر ولقاء البطل الذى سفعت وجهه الهواجر أكبر ما يهتم به وينصب له ، والشاعر يرينا هذا الاهتمام والنصب الدائمين فى قلة النوم التى يعانى منها .

كما يمثله قول امرىء القيس فى وصف الدهر :

أزال من المصانع ذا نواس　　وقد ملك الحزونة والرمالا(٢)
وأنشب فى المخـالب ذا حليـل　　وللزراد قد نصب الحبالا(٣)
وخِم كـندة الأخيار طرا　　بعمـــرو واصطفى حجرا فزالا

ومثل قول الشنفرى فى وصف الذئب الجائع :

غدا طاويا يعارض الريح هافيا　　يخوت بأذناب الشعاب ويعسل(٤)
فلما لواه القوت من حيث أمه　　دعا فأجابتـــه نظائر نحلى(٥)

---

(١) التبل — بفتح فسكون — الثأر ، وحلاب الدر : الإبل التى تحلب ويشرب لبنها. حماسة البحترى ص٢٨ طبع بيروت ، والمفضليات القصيدة رقم ٤٢ ، والأصمعيات قصيدة رقم ٤٢ .

(٢) المصانع . الحصون والقصور ، وذو نواس : ملك اليمن ، والحزونة : المواضع عالية ، يريد ملك السهل والجبل

(٣) أنشب فى المخالب : يعنى أنشب الدهر مخالبه فى ملك من ملوك حمير يقال له أصبح . ويقال للـكيد الحليل .

(٤) يعارض الريح : يستقبلها ، وهافيا : مسرعا ، يخوت : ينقض ، والأذناب أطراف ، والعسل : المشى السريع .

(٥) لواه : مطله وامتنع عليه ، أمه : قصده ، نحل جمع ناحل : المهزيل .

مهلهـلة شيب الوجوه كأنها قداح بـكفى ياسر تتقلقل(١)

وكذلك الشأن فى الخيال التفسيرى ، فهو مستمد من البيئة الجاهلية حيث يحلق الشاعر فينتزع من البادية أو الحاضرة الجاهلية الشكل أو الهيئة القريبة التى تبرز رؤيته الخاصة فى صورة تشبيه أو استعارة أو كناية ، وهو فى ذلك دقيق ، يجمع الأطراف من هنا وهناك فتتراءى جلية واضحة ، كما تتميز بالطرافة والروعـــة على الرغم من تـكرارها وتشابهها ليس فى شعر الشاعر فحسب ، بل فى شعره وشعر غيره ، ولقد بلغت بهم دقة التصوير هذه حدا جعل من الميسور علينا أن نتعرف على مواطنهم بما فيها من هضاب وسهول وأودية، وبما تحتويه من حيوانات متوحشة ومستأنسة، ونتعرف على مألوفاتهم وعاداتهم وأعرافهم ، وما كان يدور فوق أرضهم ، كل ذلك نراه ونتعرفه عليه إذا ما نظرنا فى أخيلتهم التفسيرية ، مثل قول الأعشى فى مدح المحلق :

لتشب لمقـــرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

مثل قول عليام بن أرقم فى وصف المرأة :

فيوما توافينا بوجـــه مقسم كأن ظبية تعطو إلى ناضر السلم(٢)

ومثل قول المنخل اليشكرى :

ولثمتهـــا فتنفست كتنفس الظبى البهير

ومثل قول المهلهل فى حديثه عن طول الليل ، يرى النجم فى بطئه يشبه النصال الصغيرة التى تجول فى المطر فتخشى الزلق فلا تسرع :

كأن النجم إذ ولى سحيرا نصال أجلن فى يوم مطـــير

أما الـكواكب نيرانها فى ثباتها وعدم تحركها كأنها نوق حدثات النتاج عطفت على وليدها فهى لاتتركه :

---

(١) مهلهلة : قليلة اللحم ، القــداح : أداة القمار ، والياسر . المقامر ، وتتقلقل : تتحرك وتضطرب .

(٢) المقسم : الجميل المتناسق ، يقال قسم الوجه حسن ، تعطو : تتناول ، والسلم : شجر بدوى .

كأن كواكب الجوزاء عوذ معطفة على ربع كسير[1]

وامرؤ القيس يحدثنا عن طول الليل فيراه بعيرا ثقيلا يتمطى ، ويرى نجومه مشدودة إلى الجبل بحبل متين فلا تتحرك :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل[2]
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل[3]
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل[4]

ولعل ارتباطهم ببيئتهم الارتباط الوثيق فى معانيهم وأخيلتهم هو الذى فرض عليهم المحدودية والحسية فى المعانى والأخيلة

بيد أنهم أكسروا تلك الحواجز وتجاوزوها بما ولدوا من المعانى وما ابتكروا من الأخيلة .

كما أنهم لم يستسلموا لحسية المعانى والأخيلة حتى لاتتحول إلى تماثيل جامدة تشيع الضيق والملل ، بل أمدوها بأسباب الحياة بما حرصوا عليه فيها من دقة التصوير والمستقصية فأصبحت الصور مسرحا لحركة واقعية تتراءى فيها تحركات الكائنات المصاحبة لهم فى عصرهم ، فأنت أمامها كأنك تعيش بينهم ترى ما كانوا يرون وتتعامل كما كانوا يتعاملون معها ، على نحو ما ترى فى مطلع معلقة زهير بن أبى سلمى التى يتحدث فيها عن منازل حبيبته المسكية بأم أوفى :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم[5]

---

(١) عوذ جمع عائذة الناقة حديثة النتاج ، والربع بضم فتح : الفصيل ينتج فى الربيع ، وهو أول النتاج

(٢) تمطى · تمدد ، والأرداف : الأتباع ، والأعجاز · المآخير ، وناء : بعد ، الكلكل : الصدر .

(٣) مغار الفتل : محكم الفتل ، يذبل : اسم جبل بنجد .

(٤) الأمراس : جمع مرسة : الحبال ، والمصام : موضع الوقوف ، والجندل : الصخر ، والصم جمع أصم : الصلب .

(٥) الدمنة : ما أسود من آثار الدار ، وحومانة الدراج ، والمتثلم : موضعان .

ودار لهـــا بالرقمتـين كأنها ... مراجيع وشم فى نواشر معصم(١)

بها العين والآرام يمشين خلفة ... وأطلاؤها ينهض من كل مجثم(٢)

وانظر فيما قدمنا فى فن الوصف من معلقة امرىء القيس يصف البرق والمطر من معلقة لبيد يصف الديار الممشية ، ويصف البقرة الوحشية وما قدمنا من شعر زهير يصف مشهد الصيد ، إلى غير ذلك تجد أمامك التشخيص الحى المتحرك الناطق النابض القلب

وصفوة القول أن الشعر الجاهلى ـ بدوية وحضرية ـ فى معانيه وأخيلته وثيق الارتباط بالبيئة الجاهلية ـ بادية كانت أو حاضرة ـ ؟ فهى النبـع الذى استمد منه الشعراء معانيهم ، ومن أحداثها نسجوا أخيلتهم ، فـكانت صدى صادقا للحياة الجاهلية وما يتردد فى أجوائها ومن ثم تميز شعرهم عن شعر غيرهم ، ففاض بالحركة الواسعة التى لا تـكاد تتوقف منذ مطلع القصيدة حتى منتهاها سواء كان الشاعر فيها موضوعيا أو ذاتيا .

الخصائص المضمونية :

المقصود بالمضمون أو المحتوى الشعرى هو تلك الفنون الشعرية التى يتناولها الشاعر وما يتضمنه كل فن من أحداث ومواقف ، وأنت حين تنظر فى مضمون الشعر الجاهلى ترى الحياة البدوية الجاهلية فى الشعر البدوى ، كما ترى ؟ الحياة الحضرية بمختلف ألوانها فى الشعر الحضرى بكل شخوصها وأحداثها ، فلا يكاد الشاعر يتناول موضوعا خارجا عن بيئته ؟ فصدقهم ليس فى التعبير عن الموقف فحسب ، بل هو كـذلك شامل

---

(١) الرقمتان : مرتان إحداهما قريبة من البصرة والأخرى قريبـة من المدينة ، والمراجيع جمع مرجوع من قولهم رجعه رجعا ، أراد الوشم المجدد، ونواشر المعصم عروقه ، الواحد ناشر ، والمعصم موضع السوار من اليد .

(٢) العين أى البقر العين ؟ واسعات العيون ، والآرام جمع ريم : الظبى الأبيض خالص البياض ، وخلفة : يخلف بعضها بعضا ، إذا مضى قطع منها جاء قطيـع آخر ، والأطلاء جمع الطـلا : وهو ولد الظبية والبقرة الوحشية ، والجثوم للانسان والطير والوحوش بمنزلة البروك للبعير .

للصدق فى تناول الموضوعات ، حتى ما هو قائم على الخيال من تلك الموضوعات لن تجده طارئا على بيئته ، إنما هو موجود بالفعل فيها ، سواء كان وجود الموضوع ملابسا للشاعر أو لغيره ، فموصوفات البدو عربية بدوية جاهلية ، والمرأة التى يتناولونها فى غزلهم عربية بدوية جاهلية ؛ والخلائق التى يتمدحون أو يفخرون بها خلائق ونعوت عربية بدوية جاهليـــة ، وأحاسيسهم ومشاعرهم وتجاربهم التى يضمنونها حكمهم عربية بدية جاهلية كـذلك ، فأنت مع الشعر البدوى إذن مغمور فى الحياة البدوية الجاهلية تمـــاما .

وكذلك الحال مع شعر الحاضرة لايشتد الشاعر فيه على بيئته ، وإنما هو فى كل ما يتناول خاضع لقيمها وأخلاقياتها وأعرافها،ومن ثم لم يكن غريبا أن نجد الشعر العربى الجاهلى يجمع بين التناقضات فى مضامينه أو ما يشبه المتناقضات ، فبينما نجد الشاعر البدوى يتمدح بالعفة والكرم والشجاعة فى مواجهة الأعداء نجد الشاعر الحضرى الذى عاش الحضر بجسمه وحسه يتمدح بالجرأة على التسلل إلى المرأة فى فراش زوجها، واستهلاك المال فى الخمر والقمار والجرى وراء المتع الجسدية،أما الشاعر الحضرى الذى عاش الحضارة العسكرية والعقيدية فى ظلال الإسلام ، فإنه يتجه بفخره اتجاها يخالف اتجاه شاعر البادية الخالصة واتجاه شاعر الحضر المادى ؛ إذ يذوب شخصه فى أمته وقومه ، فهو لايفخر بسلك شخصى إلا أن يكون هو السلك الجماعى، ولايفخر إلا بما يتلاءم مع قيم الإسلام ومبادئه كما رأينا فى شعر العباس بن مرداس، وحسان بن ثابت وكعب بن زهير ، وعبد الله بن رواحة وغيرهم

* * *

وهم فى هذا على خلاف غيرهم من الشعراء،إذ نجد كثيرا من أشعار البيئات الأخرى غير العربية توغل فى الأحداث الخيالية المغربة التى لا واقع لها إلا فى الخيال والتصور، على نحو ما نرى فى أساطير اليونانيين ؛ فالأحداث التى ضمنها اليونانيون أشعارهم أحداث أسطورية غريبة تمثل مرحلة من مراحل الطفولة العقلية ؛ إذ هم يتحركون من منطلق يختلف عن منطلق الشعراء العرب الجاهليين ، بينما ينطلق اليونانيون من بيئة يخضع

أفرادها لقوانين تمنح السطوة والسلطان لطائفة مخصوصة ، ينطلق العرب في بيئة لا سلطان على الفرد فيها إلا لأخلاقه وأخلاق أسرته ، وبينما يتحرك اليونانيون حركة محسوبة عليهم من السادة محـــددة لهم ، يتحرك العرب الجاهليون حركة حرة مطلقة إلا مما يقيد هو به نفسه

ومن ثم لم يكن غريبا على الشعر الأوربى القديم أن يكون مضمونه ملحميا أسطوريا ، كما لم يكن غريبا على الشعر العربى الجاهلى أن يكون مضمونه موضوعيا بدويا ، بل الغريب أن يتضمن أحدهما ما تضمنه الآخر ؛ لأن البيئة هنا كانت تختلف عنها هناك ، فالبيئة الأوربية الخاضعة للنظام الاجتماعى القائم على تقديس طائفة من الناس لذاتهم — هم من يتسنمون كرسى الحكم — كانت تتيح لهؤلاء القديسين أن يفرضوا سلطانهم ويحوطوه بالقسوة والعنف والجبروت، مما ألجأ الناس إلى أن يهربوا من ذلك الواقع الأليم إلى واقع آخر يصنعه لهم الخيال يجدون فيه المتعة إلى جوار بطولات أسطورية مصنوعة تحدث ما يتمنون هم أن يحدثوه ولكنهم يعجزون عنه . إلى غير ذلك مما تجده فى أشعار هؤلاء الاوربيين القدماء . والأمر فى البيئة العربية البدوية الجاهلية كان على خلاف ذلك — كما ألمحنا فى مبتدأ هذا الحديث — لم يكن هناك ما يدفع البدوى إلى أن يلجأ إلى عالم الخيال ينسج فيه شخصيات أبطاله ويصنع الأحـداث والمواقف الأسطورية المثيرة .

نعم الفنون الشعرية مشتركة بين الشعراء على اختلاف بيئاتهم ، لكن الذى يتميز به شعر بيئة عن أخرى هو ما يتناوله الشاعر من حقائق بيئته ، فالوصف مثلا من شعرى تجده فى الشعر اليونانى القديم ، وتجده فى الشعر الرومانى ، وتجده فى الشعر العربى الجاهلى وتجده فى الشعر الفارسى كما تجده فى الشعر الحديث ، لكن الموصوف عند قدامى اليونانيين غير الموصوف عند العرب الجاهليين ، وما تجده عند البدو الجاهليين غير ما تجده عن الحضر الجاهليين وما تجده عند هؤلاء وأولئك لا تجده فى شعر الفارسيين . . وقل مثل ذلك فى كل فنون الشعر بل إن فى الموضوع الواحد اختلف فى شعر البيئة الواحدة تبعا لاختلاف البيئة الخاصة للشعراء ، فالبطولة التى تجدها عنترة فى نحو قوله .

ما استمت أنثى نفسها فى موطن	حتى أوفى مهرها مولاهـــا
وأغض طرفى ما بدت لى جارتى	حتى يوارى جـارتى مـأوها

إنى امرؤ سمح الخليقة ماجـد لا أتبع النفس اللجوج هواها

البطولة التى يعتز بها عنترة هنا هى تمكنه من نفسه ، وسيطرته عليها ، وكبحه جماحها ، فلا ينال من أنثى شيئاً بدون حق مشروع . هذه البطولة لاشك تختلف عن البطولة التى يفخر بها عروة بن الورد ، الذى يؤمن بأنه خلق لرعاية الضعفاء والهلاك من قبيلته ، ويعتقد — لذلك — بأن البطولة هى قيامه على هذا الذى خلق له ، فليس مقبولا لديه أن تهلك عشيرتا (معتم وريد) وهو قاعد فى الحى ، لا يخاطر بنفسه من أجلهما ، فذلك عار أى عار ؛ إذن فالبطولة أن يقتحم مع رفاقه من الصعاليك حمى بعض القبائل ليحصلوا منها على مايشاءون من الغنائم ليقدموا للمحتاجين مايشبعهم ، وذلك فى قوله :

أيهلك معتم وزيد ولم أقـم على ندب يوما ولى نفس مخطر(١)

ستفزع بعد اليأس من لا يخافنا كواسع فى أخرى الوام المنفر(٢)

نطاعن عنها أول القوم بالقنا وبيض خفاف وقعهن مشهر(٣)

ويوما على غارات نجد وأهلـه ويوما بأرض ذات شث وعرعر(٤)

يريح على الليـل أضياف ماجد كريم ومالى سارحاً مال مقتر(٥)

وهذه وتلك تختلف عن بطولة الشنفرى التى يعتز بها فى قوله :

---

(١) معتم — بضم فسكون ففتح — وريد : بطنان من عبس . وندب — بفتح النون والدال — خطر .

(٢) كواسع : خيل تطرد إبلاء وتكسعها . والوام : الإبل السائمة . وأخرى : آخر ، والمنفر : الذعور .

(٣) البيض : السيوف ، وفى البيت على هـذه الرواية إقواء ، ورواية الديوان (ذات لون مشهر) ، وعليها فلا إقواء .

(٤) الشث — بفتح الشين — والعرعر — بفتح فسكون — من أشجار البادية .

(٥) يريح : يرد ، ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبله ، وسارحا : سائما فى المرعى ، ومقتر : فقير مقل

وليلة نحس يصطلى القوس ربها ... والقطعة اللاتى بهـا يتنبل(١)
دعست على غطش وبغش وصحبتى ... سعار وارزيز ووجر وأفكل(٢)
فأيمت نسوانـــا وأيتمت إلدة ... وعدت كما أبدأت والليل أليل(٣)
وأصبح عنى بالغميصاء جالسا ... فريقان : مسئول وآخر يسأل(٤)

فالبطولة هنا فى المقدرة على تجشم الصعاب فى سبيل الفتك والقتل والعدوان ، ولا شك فى أن كلا منهم ضمن شعره ما ضمنته نفسه بتأثير بيئته الخاصة داخل إطار البيئة البدوية ، فأصبح خاصة من خواص شعره التى يتميز بها .

ولا ريب فى أن البطولة البدوية تختلف تماما عن بطولة الحضارة المادية ، والتى يمثلها امرؤ القيس فى قوله :

وبيضة خـدر لا يرام خباؤها ... تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا وأهوال معشر ... على حراص لو يشرون مقتلى
فجئت وقـد نضت لنوم ثيابها ... لدى الستر إلا لبسة المتفضـــل
فقالت . يمين الله مالك حيــلة ... وما إن أرى عنك الغواية تنجلى

وكذلك الشأن على النطاق العام ، تحدث البيئة العربية فى الشاعر العربى ما يوجهه إلى مضامين خاصة يتميز بها الشعر العربى عن غيره من الشعر ، فالحديث عن النياق والظباء ، وحمـر الوحش ، والخيول ، والذئاب ، والنخيل ، والرمال ، والرياح ، والكواكب ، والأمطار ، والسيوف ، والرماح ، والنبال ، إلى غير ذلك من أبرز خواص الشعر البدوى .

---

(١) النحس : الجهد والضر والبرد ، يصطلى القوس ـ ربها . يوقدها ليتدفأ بها ، و الأقطع ـ بضم الطاء ـ جمع قطع بكسر القاف : نصل السهم ، يتنبل ، يتخذ منها النبل .

(٢) دعست : مشيت ، والغطش : الظلمة ، والبغش : المطر الخفيف ، السعار : شدة الجوع ، الإرزيز : البرد الشديد : الوجر . الخوف ، والأفكل : الرعدة والإرتعاش .

(٣) أيم المرأة أفقدها زوجها جعلها أيما ، والأليل : شديد الظلمة .

(٤) الغميصاء : مكان بنجده .

الخصائص الأسلوبية :

الأسلوب هو الصياغة اللفظية التي تشف عن المعاني والأخيلة التي يعبر بها الشاعر عن المضمون ، وهو — كذلك — القالب الفني الذي يصب فيه الشاعر معانيه وأفكاره ، مستجيبا لتكوينه الفني الذي وجهته إليه بيئته . والشاعر الصادق تنساب من بين شفتيه الألفاظ المناسبة لشعوره وأخيلته ومعانيه في الشكل الذي يتلاءم مع البيئة التي نشأ فيها طبيعيا واجتماعيا وفنيا ؛ ولذلك كانت أساليب الشعر مرآة تعكس مضمونه وأخيلته ، فهما متلازمان ، ترى في الألفاظ ما يحس به الشاعر ، وتتعرف من أحاسيس الشاعر على طبيعة الألفاظ .

١ — والناظر في شعر البدو الجاهليين يجد ألفاظه جزلة قوية — على وجه العموم— بيد أنها تتردد بين الوعورة والخشونة وبين السلاسة والعذوبة بما يتلاءم مع المحتوى الشعري ، والجو النفسي الذي يفرضه الموضوع على الشاعر .

فمع الجزالة والقوة ترى الخشونة في ألفاظ الشنفرى ، حين يعزي نفسه عن اعتزال الناس إياه بصاحبة قلبه الشجاع ، وسيفه الصارم وقوسه الجيدة الصنع، وذلك في قوله:

وإني كفاني فقد من ليس جازيا ... بحسنى ، ولا في قربه متعلل(١)
ثلاثة أصحاب . فؤاد مشيع ... وأبيض إصليت، وصفراء عيطل(٢)
هتوف من الملس المتون يزينها ... رصائع نيطت إليها ومحمل(٣)
إذا زل عنها السهم حنت كأنها ... مرزأة عجلى ترن وتعول(٤)

وحين يصور صراع الحياة الذي يخوضه هو وأصحابه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء ، يذكر أنهم يقطعون الغارة في النهار، فإذا جنهم الليل وجدتهم

(١) التعلل : التلهي .

(٢) مشيع — بضم الأول وفتح ما قبل الآخر — شجاع ، والأبيض : السيف ، والإصليت — بكسر الهمزة — المصقول ، والصفراء القوس ، والعيطل — بفتح فسكون ففتح — الطويلة العنق . (٣) الهتوف : ذات الصوت المنغم ، والمتون : الظهور ، والرصائع جمع — صيغة : ما يرصع به ويحلى ، ونيطت به : علقت ، والمحمل —بكسر الميم وسكون الحاء — ما يعلق به القوس على الكتف .

(٤) زل السهم : خرج ، والمرزأة : كثيرة الرزايا والمصائب .

فى مفازة أخرى راكبين ظهور المهالك والمعاطب ، دون رفيق — فى الغالب — سوى أرجلهم التى تعودت العدو السريع ، وهم — لذلك — مفزعون دائما ، حتى فى النوم ، فإذا ناموا لم ينم قلبهم ، بل ظل يكلؤهم ويرعاهم خيفة عدو راصد من وحش أو إنسان، بل إن النوم لايكاد يلم بعيونهم إلا غرارا ، فهى معلقة بسيوفهم التى لاتلبث أن تستقر فى صدور من يهجمون عليهم ، فيضحك الموت ويكشر عن أنيابه الغلاظ ؛ فهم دائما مستوحشون حتى أصبحوا يؤثرون الوحشة لما يرون فيها من الأنس ؛ إذ لايأنسون إلا بالقفار التى تعودوا عليها فعرفوا دروبها ومسالكها معرفة تحملهم لايضلون قصدهم كما لاتضل الشمس قصدها(١) :

يظل بموماة ويمسى بغيرها	جحيشا ، ويعرورى ظهور المهالك(٢)
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحى	بمنخرق من شده المتدارك(٣)
إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل	له كالىء من قلب شيحان فاتك(٤)
ويجعل عينيه ربيئة قلبه	إلى سلة من حد أخضر باتك(٥)
إذا هزه فى عظم قرن تهللت	نواجذ أفواه المنايا الضواحك(٦)
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى	بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك(٧)

كما ترى الخشونة فى ألفاظ زهير بن أبى سلمى حين يصف البقرة الوحشية التى يشبه به ناقته فى سرعتها فى قوله :

---

(١) أمالى القالى جـ ٢ ص ١٣٨

(٢) يظل : يغدو ، والموماة : الفلاة ، جحيشا : منفردا ، يعرورى : يركب .

(٣) وفد الريح : أولها ، ينتحى : يقصد ، والمنخرق : السريع ، والشد : العدو ، والمتدارك : المتلاحق .

(٤) خاط عينيه كرى النوم : نام ، والكالىء : الرقيب ، والشيحان : الجادى الأمر

(٥) الربيئة : الرقيب ، والسلة — بفتح السين — الواحدة من سل السيف ، والأخضر السيف ، والباتك : القاطع .

(٦) القرن — بكسر القاف — الكفء والنظير ، تهللت : تلألأت وأشرقت .

(٧) أم النجوم : يقصد الشمس .

كخنساء سفعاء الملاطم حرة ـــ مسافرة مزءودة أم فرقد(١)
غدت بسلاح مثله يتقى به ـــ ويؤمن جأش الخائف المتوحد(٢)
وسامعتين تعرف العتق فيهما ـــ إلى جذر مدلوك الكعوب محدد(٣)
وناظرتين تطحران قذاهما ـــ كأنهما مكحولتان بإثمد(٤)
طباها ضحاء أو خلاء فخالفت ـــ إليه السباع فى كناس ومرقد(٥)

إلى آخر الأبيات التى ذكرناها فى بحث زهير .

ومع الجزالة والقوة ترى السلاسة والعذوبة فى نحو قول المهلهل بن ربيعة فى رثاء أخيه كليب :

دعوتك يا كليب فلم تجبنى ـــ وكيف يجيبنى البلد القفار
أجبنى يا كليب خلاك ذم ـــ لقد فجعت بفارسها نزار
سقاك الغيث إنك كنت غيثا ـــ ويسرا حين يلتمس اليسار

وتراها فى قول الخنساء ترثى صخرا :

قذى بعينيك أم بالعين عوار ـــ أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار؟
كأن عينى لذكراه إذا خطرت ـــ فيض يسيل على الخدين مدرار

---

(١) الخنساء : بقرة الوحش ، سميت بذلك لتأخر أنفها ، سفعاء الملاطم ، السفع : سواد فى حمرة ، والملاطم : الخدان ، ومزءودة : مذعورة ، ومسافرة : ترحل من موضع إلى موضع ، والفرقد : ولد البقرة .

(٢) يريد بالسلاح قرنيها ، والجأش : الصدر ، والمتوحد ، الوحيد المفرد .

(٣) السامعتان : الأذنان ، والعتق : الأصالة ، ومعرفة العتق فيهما كناية عن أن أذنيها محددتان منتصبتان . إلى جذر : مع أصل ، فإلى بمعنى مع . ومدلوك : أملس ، الكعوب جمع كعب : ما بين العقدتين فى القرن ، يريد أن قرنيها أملسان محددا الرأس .

(٤) الناظرتان : العينان تطحران قذاهما : ترميان به وتنفيانه . والإثمد : كحل أسود

(٥) طباها : دعاها ، ضحاء ـ بفتح الضاد والحاء ـ رعى الضحى ، وخلاء : خلو المكان خالفت إليه : السباع : اختلفت إلى ولد البقرة : والكناس ـ بكسر الكاف ـ بيت فى الشجر تستتر به البقرة أو تستر أولادها من الحر والبرد .

فالعين تبكى على صخر وحق لها ودونه من جديد الأرض أستار

ونراها فى قول زهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف :

يمينـــا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعـد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما : إن ندرك السلم واسعا بمـال ومعروف من القول نسلم

كما نراها فى قول عنترة يفخر بإقدامه وشجاعته

بـكرت تخوفنى الحتـــوف كأننى أصبحت من غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنيـــة منهـــل لابد أن أسقى بـكأس المنهـل

فجزالة الألفاظ وقوتها هى السمة العامة فى الشعر البدوى ، إذ يندر أن تجـد فى شعر بدوى لفظا رقيقا ، وإذا وجد كان — فى الغالب — علامة النحل والتزييف ، أما خشونة الألفاظ على سمع المتلقى فهى سمة تلازم بعض الشعر البدوى ، وينأى عنها البعض الآخر ، ويلاحظ أن الخشونة تغلب على الألفـاظ حين يفتخر الشاعر أو يصف ، كما تغلب السلاسة والعذوبة حين يتغزل أو يرثى أو يمدح ، فهى إذن ليست من أمارات البداوة الخالصة ، بيد أن الجزالة والقوة هى الأمارة الناطقة على البدوى إذ هى الملائمة لاستدعاءات البادية بما تحويه من أسباب الحياة .

* * *

أما الشعر الحضرى فألفاظه تختلف باختلاف منشأ مشاعر ، ولون الحضارة التى تأثر بها ، فبينما يحتفظ الشاعر البدوى المتحضر لألفاظه بالجزالة والقوة ، يميل الشاعر الحضرى الذى نشأ فى الحضر إلى الرقة والليونة فيها إلى الحد الذى يشكك المتأخرين فى صحة ما نسب إليه من الشعر ، كما حدث لعدى بن زيد العبادى ، الذى قال فيه ابن سلام : « عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ، ويراكن الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحمل عليه شىء كثير ، وتخليصه شديد[1] » .

---

(١) طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ١٤٠ بتحقيق محمود شاكر ، ومعنى يراكن الريف : يلازمه ويطيل الإقامة فيه .

ويلاحظ أن شعر البدوى المتحضر مع قيامه — فى العموم — على الألفاظ الجزلة ، اختلف فى بعض حالاته ، ومن حيث الوعورة والخشونة ، فشعر البدو الذين تأثروا بالحضارة المادية فى الحيرة وغيرها من عواصم الإمارات العربية فى الجاهلية ترددت ألفاظه بين الوعورة والسهولة حسبما يستدعيه المقام ، أما شعر البـــدو الذين تأثروا بالحضارة الإسلامية فإن ألفاظه ظلت وسطا بين الوعورة والسهولة، فلم تخشن لدرجة الصعوبة على الناطق والسامع، ولم تلن لدرجة الانحدار والهبوط عن مستوى الفصاحة، لقد تأثر الشعراء فى ظل الإسلام بالألفاظ القرآنية ، وبالأخلاق الإسلامية ، فمالوا إلى القرب من السامعين ، والتناسق بين ما يلفظون وما يتناولون من فنون وأفكار .

٢ — والناظر فى الشعر البدوى يلاحظ أن العبارات فيه تؤدى وظائفها الفنية فى وضوح واستواء ، لاغموض فيه ، ولا اضطراب ، ولا إغراب ، فالشاعر متمكن من لغته ، مدرك مدلولاتها ، مستوعب صيغها ، معايش أطوارها ، ليس غريبا عليها ولامتطفلا طارئا ، يقنعك بأن ما يقدم صنيع عفو الخاطر ، دون معاناة أو كـد ، وإن كان قد ردد النظر فيه مرارا وراجعه ، حتى صحت له صيغه وعباراته بالشكل الذى اتسق مع مزاجه الفطرى ، واستمداده البدوى ، فالنسج محكم . والبناء متكامل ، والعبارات تامة ، والألفاظ مجودة مصقولة .

كما يلاحظ أن صورهم الفنية تعتمد — فى الغالب — على الخيال التفسيرى أو المماثلة البديعية ، والإيماءة الكنائية ، وأنهم فى هذا وذاك دائرون داخل الإطار البـدوى لايشذون عنه ، ولا يتطاولون ، عليه ، بيد أن دورانهم هذا لم يكن دورانا عفويا دون قصد وتعمد ، بل كانوا مدفوعين إليه لتحقيق التجويد ، وإحراز التفوق

ونظرة إلى حكاية عنترة عن جواده فى المعركة :

فازور من وقـع القنـا بلبـانه ... وشـكا إلى بعـبرة وتحمحم
لو كان يدرى ماالمحاورة اشتكى ... ولـكان لو علـم الـكلام مكلمى

وإلى قوله يصف الذباب فى الروض :

وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غـردا كفعل الشارب المترنم

هزجا يحـك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم[1]

ترينا اتجاه الخيال الشعرى واعتماده فى إبرازه على التفسير والمقارنة ، حيث أقامه على الاستعارة والتشبيه .

ونظرة إلى قول عبد الله بن سلمة الغامدى الأزدى :

الا صرمت حبائلنا جنوب فرعنا ومال بنـا قضيب[2]

ترينا كيف جمع فيه بين الاستعارة فى (صرمت حبائلنا) ، والكناية فى (ومال بنا قضيب) فإنه يكنى بذلك عن التفرق ، وابتعاد كل عن الآخر .

ونظرة إلى قول عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقت ، ولكن الرماح أجرت

ترينا — إلى جوار الاستعارة — التعريض الذى يعبر بطريق الإيماء ، والاختصار ، وذلك فى قوله (ولـكن الرماح أجرت) ، أى شقت لسانى . يعنى بذلك أن رماح قومه أسكتته ومنعته الكلام .

وليس ببعيد عنا شعر زهير ، والحارث بن حلزة فى معلقتيهما .

وإلى جوار هذه الصور التى تعتمد على الخيال التفسيرى ، نجـد الصور التى تعتمد على الخيال الابتـكارى ، ويلاحظ أن هذا اللون من الصور يغلب فى شعر الفرسان الصعاليك وغير الصعاليك ، ولعل ذلك راجع إلى اشتغالهم عن المقارنة ، والبحث عن المثيل المشابه لتقدعة ، فلم يكن لهم بد من الاعتماد على عرض الحدث بتفاصيله القصصية فتحقق لهم ذلك النوع من التصوير .

---

(١) هزجا : مصوتا ، والزناد : حجران يضرب أحدهما بالآخر فتخرج منه النار والأجذم : مقطوع اليدين .

(٢) المفضليات ج ١ ص ١٠٠ ، صرمت : قطعت ، والحبائل : جمع حبل ، وهو جمع لم يرد إلا نادرا ، ويقصد بالحبائل المودة ، وجنوب : اسم امرأة ، وفرعنا : علونا فى البلاد ، وقضيب : واد بنجد ، مال بها : سلكته .

ونظرة فى شعر عنترة والشنفرى وعروة بن الورد وغيرهم من الفرسان الأبطال ، تقفنا على هذا الملحظ .

* * *

فإذا وجهنا النظر إلى شعر الحضر لم نجد اختلافا كبيرا بين العبارات الفنية ، والصور البيانية عما وجدنا فى الشعر البدوى ، اللهم إلا فى الحدود التى تفرضها البيئة على الشاعر الصادق الذى يستمد فى عباراته وصوره على ما يحيط به فى بيئته .

ولا ريب فى أن ما يجده الشاعر الذى يقيم فى جوار المناذرة أو الغساسنة من مادة صوره غير ما يجده الشاعر الذى يقيم فى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم وفى ظلال القرآن ومدنية الإسلام من ذلك

ومن ثم لم يكن غريبا أن تسمع صوت الأعشى يستعير من كنـــائس المسيحيين صورة المحراب فى قوله .

كـدميـة صـــور محرابهـا   بـمـذهب ذى مرمر مائر

وأن نجد المرقش الأكبر يشبه صياح البوم بصوت النواقيس فى أوائل الليل فى قوله :

وتسمع تزقاء من البوم حولنا   كما ضربت بعد الهـدو النواقس(1)

ولا كان غريبا أن يعرض النابغة الذبيانى فى مدح الغساسنة لبعض أعيادهم ، كعيد الشعانين (السباسب) ، فى قوله :

رقاق النعــال طيب حجزاتهم   يحيون بالريحان يوم السباسب

كما لم يكن غريبا أن تسمع صوت كعب بن زهير فى اعتذاره لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الرسول لسيف يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم   ببطن مكة لما أسلموا : زولوا

* * *

٣ — والناظر فى الشعر الجاهلى — بدويه وحضريه — يلاحظ أن الموسيقى فيه ناضجة تماما ، سواء فى ذلك ما يحدثه الوزن ، وما تحدثه القافية ، ويبحث عن الصرفى

(١) التزقاء — بفتح التاء — الصياح ، والهدو : أوائل الليل .

ذلك فيجده كامنا فى الوصول بمصدرى الموسيقى الشعرية ـ الوزن والقافية ـ إلى أرقى درجة ؛ فقد تمكنوا فى هذا العصر من النسق الموسيقى ، وبرعوا فى تجزئة الأوزان ، وملكوا زمامها ، ولاءموا بينها وبين القافية ، ثم استطاعوا أن يتخيروا من هذين ما يتسق مع المعنى ، مضمنوا لشعرهم أسلوبا فنيا متميزا يتآزر فيه الشكل المادى مع الإيقاع الموسيقى مع المضمون الشعرى . على نحو ما نرى فى شعر أصحاب المعلقات ، ودريد بن الصمة ، والمتلمس ، والشنفرى ، والمثقب العبدى ، وأبى دؤاد ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وغيرهم كثير ممن لا يحصون عدا .

وقد حاول بعض الدارسين أن يبحث تميز شعراء بعض المناطق عن غيرهم فى الموسيقى الشعرية ، لكن الوسائل إلى ذلك ما زالت محدودة لا تتيح الوصول فى هذا الصدد إلى رأى قاطع واضح ، ولعل فى مستقبل الدراسات الأدبية ما يمكن من تحقيق ذلك .

وممن اشتغل بهذا اللون من الدراسة والبحث الدكتور عوستاف فون غرنباوم ، وقد خرج من دراسته تلك بنتائج خطيرة كان من أهمها ـ مما يتصل بموضوعنا ـ مالاحظه من أن التفنن فى الأوزان الشعرية فى العراق كان أغنى فى هذا العصر مما كان عليه فى أى مكان آخر .

وما لاحظه من نمو بحر الرمل فى الشعر الحيرى ، وإهماله فى سائر المناطق الأخرى من بلاد العرب ، فقد أكثر شعراء الحيرة من هذا البحر ولم يستعمله فى الشعر القديم إلا أبو دؤاد فى ثلاث قصائد ، وطرفة فى ثلاث قصائد ، وعدى بن زيد فى سبع قصائد ، والمثقب فى قصيدة واحدة ، والأعشى فى اثنتين .

ولما بحث عن العلة فى نمو هذا البحر فى شعر الحيرة ـ مع إهماله فى سائر البلاد العربية ـ أرجع ذلك إلى أن الرمل استعير من الوزن البهلوى الثمانى المقاطع كما صوره بنفنيستة (المجلة الآسيوية ٢ : ٢٢١ سنة ١٩٣٠) ، وأنه عدل على نحو يلائم العروض العربى .

وما لاحظه من نزوع مدرسة الحيرة إلى بحر الخفيف ، الذى نجد منه خمس عشرة قصيدة لأبى دؤاد ، وسبعا لعدى بن زيد ، وخمسا للأعشى(١)

---

(١) راجع (دراسات فى الأدب العربى ص ٢٦٥ وما بعدها ترجمة الدكتور إحسان عباس وآخرين .

ولا ريب فى أن هذا اللون من الدراسة ـ على طرافته ـ يحتاج إلى بحث وتقص للشعر الجاهلى فى مختلف بيئاته ، حتى نتحقق من صحة ما يتقرر فى هذا الصدد .

* * *

٤ ـ والناظر فى الشعر الجاهلى يلاحظ أن للشعراء ـ بدوا وحضرا ـ منهجا يكاد يكون ثابتا ، لايختلف إلا فى الندر اليسير ؛ فهم فى مجموعهم يبتدئون قصائدهم بمقدمات تمهد للموضوع ، يغلب عليها أن تكون وقوفا على طلل ، أو دعوة إلى وقوف ، أو تغزلا فى امرأة ، ثم فى براعة فنية يخلصون إلى الموضوع مدحا كان ، أو فخرا ، أو غزلا ، أو رثاء . . !

كما يلاحظ أن الشاعر يعنى بتقديم موضوعه من خلال أفكاره فى أناة وروية ـ على اختلاف بين البدوى والحضرى فى مظهر ذلك ـ فهو لا ينتقل من فكرة إلى أخرى حتى يطمئن إلى تمام عرضها ، مستوعبا فى ذلك الصور المختلفة التى قد تعين فى إيضاحها ، مستقصيا كل الجوانب والأبعاد فيها ، حتى أصبح من ينظر فى القصيدة من معاصرينا يشتغل بالفكرة عن تاليتها ، فيتوهم أن القصيدة مفككة الأفكار ، أو أنها متعددة الأغراض والمقاصد . فأصبح ـ فى تقدير هؤلاء ـ من عيوب الشعر الجاهلى افتقاده إلى الوحدة الموضوعية .

وفى الحق أن هذا ليس عيبا فى الشعر الجاهلى ، وإنما هو عيب فى معاصرينا ممن لا يسيرون فى القصيدة الجاهلية بخطى أصحابها ، ولكن يسيرون بخطاهم فى العصر الحديث .

ومن ثم كان للقصيدة العربية شكل متميز ثابت ، لايكاد يختلف فيه شاعر عن آخر ، اللهم إلا فى بعض الأحوال التى يغفل فيها الشاعر المقدمة ، أو يضطره المقام إلى الإسراع نوعا فى عرض أفكاره ، فيتجاوز الاستقصاء والاستيعاب التصويرى ، كما فى المراثى ، و المواعظ ، وبعض القصص

الباب الرابع

النثر بين البدو والحضر

الفصل الأول

فنون النثر قبل الإسلام وخصائص كل فن

لا أشك في أن العصر الجاهلي قد عرف النثر الأدبي باعتباره وسيلة من وسائل البيان ، ولا أشك كذلك في أن ما عرفه الجاهليون من فنون النثر لم يكن على غرار ما عرفه غيرهم من الأمم ؛ إذ لكل أمة ما يناسبها من فنون المقال وفقا لدواعي القول عندها ؛ فلا يحق لنا أن نطلب في الأدب العربي من فنون النثر ما نجده في الأدب اليوناني أو الروماني أو نحو ذلك .

أقرر ذلك على الرغم من آراء كثير من المستشرقين ومن تابعهم التي يزعمون فيها أن عرب الجاهلية لم يعرفوا النثر الفني ؛ لأن عرب الجاهلية لو كانوا يجهلون النثر الفني لما كان لتحديهم بالقرآن الكريم قيمة ؛ فالتحدي المعجز لا يكون عن فقر ، وإنما يكون عن مقدرة في ذلك المجال . هذا إلى أن عرب الجاهلية لو كانوا غرباء عن النثر الفني لما استطاعوا أن يتذوقوا البيان القرآني ويحلوه المحل المؤثر في نفوسهم ، فيكون سببا في إسلام عمر بن الخطاب ، وعاملا من عوامل التشكك في نفس الوليد بن المغيرة وضربائه من الجاهليين الذين وجدوا في القرآن ما يدعوهم إلى التروي في الحكم ، ومعاودة النظر ، لولا خوفهم من ثورة قومهم ، وخشيتهم من ضعف سلطانهم الموروث .

ولا أشك في أن أكثر نثر هذا العصر لم يصلنا ، لعدم تسجيله في كتاب يحفظه ، ولمصادفته بالقرآن الكريم واشتغال العرب به من أسلم منهم ومن لم يسلم ، مما كان له أبعد الأثر في الانصراف عن أكثر نثرهم الموروث ، وضياعه بمرور الوقت وفقد من حفظوه .

كما لا أشك في أن القليل الذي وصلنا من نثر هذا العصر يمكن أن يلقي الضوء على هذا الفن الأدبي عند الجاهليين ، على الرغم مما قد اعتراه من إضافات وتغيير في بعض عباراته ، وتحريف في بعض أصوله ؛ إذ هو — مع كل ذلك — يطلعنا على فنونه السائدة

بينهم ، ويعرفنا بكثير من قضاياهم التى كانت لشغل تفكيرهم ، كما يقفنا على منهجهم البيانى فى ذلك الفن .

هذا فيما يتصل بالنثر قبل الإسلام . أما بعد مجىء الإسلام ، والحض — فى ظله — على تعلم الكتابة ، واستغلالها فى تدوين المهم من أمور الحياة العربية الإسلامية ، فإن حال الأدب المنثور تختلف عن حاله فيما تقدم ؛ فقد وثقه التدوين ، وقام على حفظه طائفة من الكاتبين كل فى ميدانه الخاص ، ابتداء بالقرآن الكريم .

فالنثر العربى — فى ظل الإسلام — يختلف من هنا عن النثر العربى قبل الإسلام .

ثم إنه يقوم على دعائم مختلفة من ألوان البيان العربى .. واختلاف هذه الدعائم ليس اختلافا فى أساليب الأداء ، ولا اختلافا فى الشكل ، ولا فى الموضوع فحسب ، بل هو فوق ذلك كله يختلف فى المصدر ؛ وذلك لأن دارس النثر العربى فى صدر الإسلام يجد نفسه أمام نثر عربى ليس صادرا عن كائن عربى ، بل هو منزل من رب العرب والعجم رب العالمين ، ذلكم هو القرآن الكريم ، ويجد نفسه أمام نثر عربى صادر عن كائن عربى ، بيد أن له من الظروف ما يجعله فى مركز الريادة والقيادة والقدوة ، تهوى إليه أفئدة العربى وغير العربى من مختلف بقاع الأرض ، وذلك هو الحديث النبوى الشريف ، كما يجد نفسه أمام نثر عربى خاضع لكل ما تخضع له فنون الأدب من تأثر وتطور واحتذاء .

من ثم لايستطيع دارس للأدب العربى فى ظل الإسلام أن يتجاوز فى دراسته القرآن الكريم والحديث النبوى ؛ فالقرآن — وإن كان ليس من صنع بشر — بيان عربى مبين . وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم بيان عربى ، نسجه أول من تتلمذ على القرآن الكريم وتأدب بآدابه ... ومهمة الدارس أن يتناول كل بيان فى بلسان اللغة التى يدرس آدابها .

بيد أن الأمر يختلف فى دراسة القرآن عنه فى دراسة غيره من الآداب ؛ إذ دراسة القرآن الكريم لاتتناول الأطوار الفنية له ولا المؤثرات الخارجية التى خضع لها ؛ إذ كلام رب العالمين لايخضع لمؤثرات خارجية ، ولا يمر بأطوار فنية ، إنما ذلك شأن النتاج البشرى الذى يخضع صاحبه نفسه للتغييرات ، ويمر فى حياته بعديد من الأطوار .

أما من يقول بأن القرآن الكريم ليس نثرا ، كما أنه ليس شعرا ، وإنما هو قرآن(١) ، فهو يتلعب بالألفاظ فى محاولة للتلاعب بالعقول ، وليس ترفعا بالقرآن الذى قال منزله فى وصفه إنه « بلسان عربى مبين » ، واللسان العربى شعر ونثر ، فإذا لم يكن القرآن شعرا ـ وهذا واضح مقرر بالنص القرآنى أيضا ـ كان نثرا دون شك أو جدال . لكنه نثر ذو سمات خاصة فى قيوده البيانية ، وفى شكله ، وفى أسلوبه ، إلى غير ذلك ، كما أنه ذو سمة خاصة فى مصدره .

* * *

والناظر فيما تناقله الرواة من النثر منسوبا إلى من قبل الإسلام يلاحظ أنه يدور فى محورين متميزين :

أحدهما محور التعبير الموجز الذى يعتمد على الإشارات البيانية والذاكرة الحافظة فى حمل الحدث القصصى ، دون إجهاد فى بناء قصصى ، أو فى نقل خبرات الأديب بالحياة وهذا هو المعروف بالمثل والحكمة .

والثانى محور التعبير الخطابى الذى يعتمد فيه صاحبه على وسائل التأثير الفنية فى الوصول إلى عقل المخاطب وحسه ، وهذا هو المعروف بالخطب والوصايا والمحاورات والمنافرات ، فهذا كله تعبير لصوت صاحبه وهيئته ومنهجه فيه دور كبير .

فالفنون الأدبية التى قدمها النثر الجاهلى هى المثل ، والحكمة ، والخطابة ، والوصايا ، والمحاورات ، والمنافرات ، وأما ماروى من القصص الجاهلى فلا أستطيع أن أسلكها ضمن فنون نثرهم ، لأنهـا من صياغة رواتها ، وإن كانت أحداثها جاهلية ، فهى أدب غير جاهلى يعالج قضايا وأحداثا جاهلية ، بيد أنها ـ إلى ذلك ـ تشير إلى أن الجاهليين صاغوا هذه الأحداث فى قصص وتداولوها فيما بينهم ، والناظر فى كتاب الأغانى يجده حافلا بألوان من القصص الجاهلى .

---

(١) انظر من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين ص ٢٥ الطبعة العاشرة

(١)

الحكم والأمثال

الحكمة :

قول بليغ موجز يفيض به لسان حكيم يجمع خلاصة تجاربيه وخبراته بالحياة ، ويقوم على مقررات ثابتة مسلم بها تقبلها العقول ، وتنقاد لها النفوس والمشاعر .

والحكمة من أنسب ما يتداول فى البيئات القبلية التى تميز برجل القبيلة ، ويكبر شبابها شيوخها ، ويلتصقون بهم ، يأخذون عنهم ، ويتأسون طريقهم ، فهم لهم المنارة المرشدة ، والقيادة الموجهة . ومن ثم كثر فى العصر الجاهلى الحكماء ، وكان فى كل قبيلة حكيم – إن لم يكن أكثر من حكيم – تفزع إليه فى الشدائد ، وتلجأ إلى رأيه فى المعضلات ، وتجلس إليه فى وقت السلم تأخذ منه ما يعينها على مستقبل الأيام .

وحفاظا من الحكيم على مكانته ، وحرصا على أن تعلق به القبيلة ، كان يهتم كل الاهتمام بصياغة حكمته ، ويديرها فى رأسه مرارا حتى تكون وافية شافية .

ولذلك كان للحكمة من الخصائص الفنية ما يميزها عن غيرها ، ويضمن لها أداء الغرض منها ، والوصول إلى قلب وعقل متلقيها ، ومن أبرز تلك الخصائص :

اعتناء الحكيم بانتقاء ألفاظه وحرصه على أن تكون تلك الألفاظ الموجزة قادرة على أن تضم المعنى المجرد إلى المعنى الحسى لتصنع منهما صورة قريبة التناول ، واضحة الدلالة ، ذات إيقاع ينسجم مع محتواها .

وحرصه على أن يشحن تلك الألفاظ بخلاصة خبراته وتجاربه الإنسانية ، معتمدا على الصدق والإخلاص والتعميم .

ثم دقته فى نظم تلك الألفاظ نظما يهيئها لتنقل ما تحمل تصريحا أو تلميحا .

ومن أشهر الحكماء الجاهليين .

١ – أكثم بن صيفى التميمى ، وكان من المعمرين ، ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه وركب متوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات فى

الطريق وقد نسب إليه حكم كثيرة منها : شر النصرة التعدى، رب قول أنفذ من صول[1] . رب عجلة تهب ريثا[2] . إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد . رب كلام ليس فيه اكتتام . ليس من العدل سرعة العذل . ويل للشجى من الخلى .

٢ — عامر بن الظرب العدوانى ، وهو من المعمرين كذلك ، ويقال : إنه لما أسن واعتراه النسيان أمر ابنته أن تقرع بالعصا إذا هوفه[3] عن الحكم وحار عن القصد ، وكانت من حكيمات العرب .. وفى ذلك قال المتلمس[4] :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلما

وقد نسب إليه كثير من الحكم والوصايا،منها : رب زارع لنفسه حاصد لغيره . العقل نائم والهوى يقظان . من طلب شيئا وجده .

وكتب الأدب تفيض بالحكم الجاهلية ، لكن أكثرها يذكرغير منسوب إلى قائله ، مما كان عاملا من عوامل اختلاط الحكم الجاهلية بغير الجاهلية ، وإيجار الحكمة لايتيسح لدارس أن يتلمس مصدرها .

المثـــل :

واضح من التسمية الفرق بينه وبين الحكمة ،وإذا كانت الحكمة تعتمدعلى خبرات قائلها وتجاربه ، فإن المثل يعتمد على المماثلة والمشابهة ؛ إذ يلاحظ فيه مشابهة موقف لموقف آخر فيقال فى هذا ما قيل فى ذاك .فالمثل :قول موجز سائريشبه مضربه بمورده.

ويمتاز المثل بأنه يوحى إلى حادثة أو قصة أو خبر تضمنت تلك العبارة السائرة ، بحيث تقترن القصة بها ، فإذا ذكرت العبارة مثلت القصه الأصلية وتراءت فى الأفق ؛ وبذلك يمكن أن نتعرف على كثير من أحداث الجاهلية بالنظر فى أمثالهم .

وكما يشير المثل إلى موقف واقعى ، قد يشير إلى حادثة مفترضه ،يقصد بها الوصول

---

(١) الصول ـ بفتح فسكون ـ الاستطالة فى الحرب .

(٢) الريث : البطء .

(٣) فه : حاد ومال .

(٤) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٨

إلى عقل سامعها وقلبه ، فيتخيل أحداثها واقعة بين حيوانات أو أناسى أو جماد أو نحو ذلك ، ومن ثم كان من الأمثال الحقيقى والافتراضى .

ولعل العرب قصدوا بالأمثال أن تكون وسيلة من وسائل النشر الأدبى ؛ إذ حملوا العبارة القصيرة السائرة قصة ذات دلالة خاصة ، وأصبح من السهل الميسور على كل عربى أن يتداول القصة العربية من غير حاجة إلى كتابة ولا إلى مجهود شاق فى حفظها ونقلها ، فيكفى أن تنثر تلك العبارة فى جمع ليستعيدوا الحدث الأصلى الذى قيلت فيه .

وبذلك يكون للمثل رسالتان يؤديهما ، أحدهما . تشبيه حدث بآخر والإيماء بأن ما جرى هناك جدير بأن يحدث هنا ، ثانيهما : إذاعة القصة العربية ونشرها بأيسر السبل ، وأقربها إلى ذوق كل عربى . من ذلك :

وافق شن طبقة :

قيل إن شنا هذا رجل من دهاة العرب ، خرج يبحث عن امرأة مثله يتزوجها ، مرافقه رجل فى الطريق إلى القرية التى يقصدها ، ولم يكن يعرفه . قال شن : أتحملنى أم أحملك ؟ فقال الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب، فكيف تحملنى أو أحملك؟ فسكت شن حتى قابلتهما جنازة ، فقال شن : أصاحب هذا النعش حى أم ميت ؟ فقال الرجل : ما رأيت أجهل منك ، ترى جنازة وتسأل عن صاحبها أميت أم حى ، فسكت شن ، ثم أراد مفارقته ، فأبى الرجل وأخذه إلى منزله ، وكانت له بنت تسمى طبقة ، فسألت أباها عن الضيف فأخبرها بما حدث منه ، فقالت : يا أبت ما هذا بجاهل ، إنه أراد بقوله أتحملنى أم أحملك : أتحدثنى أم أحدثك ، وأما قوله فى الجنازة فإنه أراد هل ترك عقبا يحيا به ذكره ؟ فخرج الرجل وجلس مع شن وفسر له كلامه ، فقال شن ما هذا بكلامك ، فصارحه بأنه قول ابنته طبقة ، فتزوجها شن ، فقيل : وافق شن طبقة وأصبح يضرب للمتوافقين .

الصيف ضيعت اللبن .

قاله عمرو بن عمرو بن عدس وكان شيخا كبيرا تزوج بامرأة فضاقت به ، فطلقها فتزوجت فتى جميلا ، ولكنها أجدبت ، فبعثت تطلب من عمرو لبنا ، فقال : الصيف ضيعت اللبن ، وأصبح يضرب لمن يطلب شيئا فوته على نفسه .

على أهلها تجنى براقش :

كانت براقش كلبة لقوم من العرب فأغير عليهم ، فهربوا ومعهم براقش ، فاتبع القوم آثار نباح براقش ، فهجموا عليهم فاصطلموهم ، فقيل : على أهلها تجنى براقش ، يضرب لمن يعمل عملا يرجع ضرره إليه .

كيف أعاودك وهذا أثر فأسك :

أصل هذا المثل — على ما حكته العرب على لسان الحية — أن أخوين كانا فى إبل لهما فأجدبت بلادهما ، وكان بالقرب منهما واد خصيب وفيه حية تحميه من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يافلان لو أنى أتيت هذا الوادى المكلىء ورعيت فيه إبلى وأصلحتها ، فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحدا لايهبط ذلك الوادى إلا أهلكته ، قال : فوالله لأفعلن ، فهبط الوادى ورعى به إبله زمنا ، ثم إن الحية نهشته فقتلته ، فقال أخوه : والله ما فى الحياة بعد أخى خير ، فلأطلبن الحية ولأقتلنها أو لأتبعن أخى ، فهبط ذلك الوادى وطلب الحية ليقتلها ، فقالت له الحية : ألست ترى أنى قتلت أخاك ؟ فهل لك فى الصلح فأدعك بهذا الوادى تكون فيه وأعطيك كل يوم دينارا ما بقيت ؟ قال : أو فاعلة أنت ؟ قالت : نعم ، قال : إنى أفعل ، فحلف لها وأعطاها المواثيق لايضرها ، وجعلت تعطيه كل يوم دينارا ، فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالا ، ثم إنه تذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعنى العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى ؟ فعمد إلى فأس فأخذها ثم قعد لها فمرت به فتبعها فضربها فأخطأها ودخلت الجحر ، ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه ، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار ، فخاف الرجل شرها وندم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟ يضرب لمن لايفى بالعهد .

(٢)

الخطابة

الخطابة أحد فنون النثر ، وهى ليست وقفا على أمة دون أمة ، لكنها فى كل وسط تتشكل بما يتناسب مع متطلبات المخاطبين ؛ إذ هى كلام منثور يتجه به صاحبه إلى من يجتمعون إليه ، بقصد الوصول إليهم بما لديه من أفكار .

ولا ريب فى أن أنسب البيئات لازدهار الخطابة ما ظللتها الحرية ؛ حيث يستطيع كل فرد أن يعبر عما فى نفسه ، وأن يخاطب مجتمعه بما يجود ، ويعمل على توجيهه إلى ما يرى .

ولا ريب فى أن البيئة العربية فى العصر الجاهلى كانت من أنسب البيئات لازدهار هذا الفن وتطوره ، بيد أن الشعر كان ـ فى أول الأمر ـ المستحوذ على اهتمام العرب وكان الشاعر يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر(١) بل لقد أصبحت الخطابة ملازمة للسيادة فكانت من أهم ما يتميز به السادة ؛ وما كان يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته ، ولم يكن يتعاطى الخطابة فى هذا العصر ـ غالبا ـ إلا سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدح الفضل ، وسبق إلى ذرا المجد ، ويخصون ذلك بالمواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجاميع الحفيلة(٢) .

فالخطابة ـ كما يتضح من ذلك ـ إنما احتفل بها الجاهليون لأن الشاعر ـ فى رأى بعض السادة ـ انحط بشعره إلى مستوى أنفة العربى الشريف ، وأبى أن يكون واحدا

---

(١) العمدة ج ١ ص ٨٢ ، والبيان والتبيين ج ١ ص ٢٤١ ، ج ٤ ص ٨٣ بتحقيق عبد السلام هارون

(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ج ص

من هؤلاء الشعراء ، ترفعا عن أن يظن فيه التكسب بالشعر وامتهانه . ولم يحفلوا بها لذاتها ولتوفر دواعيها وأسبابها .

ومن ثم يلاحظ الناظر فيما وصلنا من خطابتهم — على تشكك فى صحة نصه — أنه توقف عن التطور والنمو . فلم يكن الخطيب يطمح فى أن يصل من سامعيه إلى أكثر مما يصل إليه الشاعر منهم . وطالت قصاراه أن يستحوذ على قلوبهم ، ويملك مشاعرهم ، دون أن يهتم بأن يتجاوز التأثير إلى الإقناع ، لأن القصد إلى الإقناع يحتاج إلى التدبر قبل الكلام ، ومراجعة ما يقال ، وترتيب الحجج ترتيبا تقع به فى مواقعهـا . . . إلى غير ذلك .

فالخطابة الجاهلية كانت إلى الشعر أقرب ، ولولا تحلل الخطيب من بعض قيود الشعر لكانت شعرا ، لأن أفكارها ومعانيها وأغراضها كانت فى أكثرها شعرية، فإذا ما تحقق فى مبناها البناء الشعرى أصبحت الخطبة قصيدة بكامل مفهومها .



ومن يردد نظره فيما وصلنا من خطابة تعزى إلى هذا العصر يلاحظ أنها تتميز بخصائص بيئية من أبرزها :

١ — ضيق أسلوبها ؛ فقد أصبح يتردد بين أن يكون حكما وأمثالا يسردها الخطيب لتقوم بدور التأثير ، وبين أن يكون أسجاعا ذات قيود إيقاعية تقترب بالخطبة من الشعر خطوات ، وبين أن يكون أفكارا متباينة لايشدها إلى بعضها إلا رابط نفسى . مثال ذلك ما جاء على لسان هانىء بن قبيصة الشيبانى فى قومه يوم ذى قار ، يحرضهم على القتال :

« يا معشر بكر ! هالك معذور خير من ناج فرور إن الحذر لاينجى من القدر . وان الصبر من أسباب النصر . المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من استدباره . الطعن فى ثغر النحور أكرم منه فى الأعجاز والظهور » .

فهى — كما ترى — جملة من حكم شتى ، لايربطها رابط فنى، سوى التأثير النفسى .

— ومثال ذلك — كذلك — قول الأوس بن حارثة يوصى ابنه مالكا :

« يا مالك ! المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد ولا التبلد واعلم

أن القبر خير من الفقر، وشر شارب الشنف . وأقبح طاعم للقنف . والدهر يومان ، فيوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر ، فكلاهما سينحسر » .

وقال أكثم بن صيفي في خطبته أمام كسرى :

« إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطيء . .

« آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة

« إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء »

٢ – ضيق أغراضها : وكما ضاقت أساليب الخطابة الجاهلية ضاقت أغراضها ، وانكمشت ضروبها ، تبعا لما تقتضيه البيئة العربية إذ ذاك ، وحسبما تتسم به حياتهم البدوية من البساطة والسذاجة ، سواء في ذلك حياتهم العقلية والسياسية والإجتماعية .

ومن ثم قصرت أغراض الخطابة على المنافرات والمفاخرات ، والحض على القتال ، والتحريض على الأخذ بالثأر ، وإصلاح ذات البين ، والنكاح ، والإرشاد ، وخطب المحافل والوفود ، والوصايا ، وسجع الكهان .

ومع كثرة هذه الأعراض عدديا ، نلاحظ أنها كثرة لاتثرى ، فليس في هذه الأغراض ما يدفع الخطابة إلى الترقى فنيا ؛ إذ كلها يكاد يدور في محور – إن لم يكن واحدا – فهو أدنى إلى التوحد .

فمجال المنافرات والمفاخرات يعتمد على دقة الملحظ ، واستغلال الصمات في إفحام الخصم ، دون أن يهتم بابتكار المعنى ، وتنميق العبارة ، وتجويد الأسلوب .

وميدان الحض على القتال ، والتحريض على الثأر ضيقته طبيعة العربي المتهيئة للانتفاض ، المستعدة للقتال . فالتحريض يحتاج إلى الابتكار والتنميق والترتيب إذا كان موجها إلى إنسان في حاجة إلى إثارة أو إقناع ، أما إذا كان عربيا جاهليا فهو ليس

فى حاجة إلى شىء من ذلك ، ومن ثم فالتحريض بالنسبة له ليس أكثر من تنبيه ولفت نظر ، ومثل هذا ليس فى حاجة إلى تفنن وتحسين وترتيب

والإصلاح والإرشاد والوصايا أغراض حددتها حياة العربى ، والشكل الإجتماعى الذى يسود بيئته ، فليس شىء من ذلك فى غالب الأمر بموجه إلى جمهور ، وإنما هى أقوال من فرد إلى فرد أو بضعة أفراد لهم فى القبيلة مركز القيادة والتوجيه . ومثل هذا لا يحتاج إلى تشقيق الكلام وإعداده إعدادا خاصا ، فالقائل والسامع فى مركز متقارب من قيادة القبيلة ، وليس بينهما غالبا سوى فارق السنين .. ! فهى أقرب إلى الحكم المنثورة منها إلى الخطابة .

أما خطب المحافل والوفود فتقيدها طبيعتها السياسية ، وشكلها الرسمى الثابت ؛ إذ هى لا تتجاوز تحية فى استقبال وفد ، أو شكرا فى توديع مضيف ، ولاشك فى أن مثل هذا لا يطور من القول ، ولا يسهم فى تطويره بالقدر الذى يحسب له .

وما سجع الكهان بأوفر حظا من تلكم الأعراض السابقة ، بل إنه أضيقها جميعا، وأبعدها عن مباشرة الإثراء لهذا الفن .

إذا فهى أغراض كثيرة ، لكنها — كما رأينا — مع كثرتها لا يتسع ميدان واحد منها لأن يطلق عقال الخطيب ، فيصول ويجول ، ويقلب المعانى على مختلف الوجوه ؛ بل هى جميعا تكاد تصدر عن منبع واحد ، لا تختلف مذاقه وإن اختلفت ألوانه ودواعيه ، فهى إلى الحديث السائر أقرب من أن تكون عملا أدبيا ذا قيم فنية معينة، أو قواعد أسلوبية يرتكز عليها .. بيد أنهم — إلى ذلك — تعارفوا على سنن وتقاليد تتبع فى خطابتهم ؛ فكانوا يخطبون على رواحلهم فى الأسواق العظام ، والمجامع الكبار[1] . وكانوا يلوثون العمائم على رءوسهم ، ويمسكون بالمخاصر[2] والقضبان ، ويعتمدون على الأرض بالقسى ، ويشيرون بالعصى والقنا ، حتى كانت المخاصر لا تفارق

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٧

(٢) المخاصر جمع مخصرة : ما يختصره الإنسان فيمسكه بيده ، من عصا أومقرعة أو عكازة أو قضيب .

أيدى الملوك فى مجالسها(١) . وكانوا يمدحون فى الخطيب ثبات الجنان ، وحضور البديهة ، وقلة التلفت ، وكثرة الريق ، وجهارة الصوت وقوته ، وكانوا يعيبون فيه التنحنح والارتعاش والحصر والتمتم فى الكلام .. إلى غير ذلك مما عنى بتفصيله الجاحظ فى بيانه .

٣ — قصر بنائها ، ولعل ذلك من أهم ما يلاحظه الدارس على خطب الجاهليين ، وهو قصر فرضته طبيعة الحياة الجاهلية على الخطيب ، وليس قصرا مقصودا أراده الخطيب تحقيقا لهدف واضح ؛ فالبيئة لا تستدعى طول الخطبة إلا إذا كانت ذات حياة فكرية نامية ، وإلا إذا كانت ذات حضارة معقدة ، من كل ما يتطلب البسط فى الحديث ، والتفصيل فى المواقف ، والتكرار فى الأفكار بنية التقرير والتأكيد، وبسط الحجة ، وتقوية البراهين لكن البيئة العربية فى ذلك الحين لم تكن تعقدت بها الحضارة، ولم تكن عزتها المدنية ، فقد كانت الحياة فيها بسيطة ساذجة ، ومن ثم كان العربى بعيدا عن الفلسفة والتعقيد ، ولم يتيسر له من العوامل ما يخرجه عن طبيعته الفطرية السائدة التى تدفعه إلى أداء فكرته بأوجز عبارة وأوضح أسلوب . وهذا مرثد الخير أحد أقيال(٢) حمير يخطب فى الصلح بين سبيع بن الحارث أخى ذى جدن ، وميثم بن مثوب بن ذى رعين حين تنازعا الشرف ، وتشاحنا حتى خيف أن يقع بين حييهما شر فيتفانى أصلاهما ، وذلك قوله : « إن التخبط ، وامتطاء الهجاج(٣) . واستحقاب اللجاج(٤) سيقفكما على شفا هوة فى توردها بوار الأصيلة ، وانقطاع الوسيلة . فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد وانحلال العقد . وتشتت الألفة . وتباين السهمة(٥) وأنتما فى فسحة رافهة . وقدم واطدة . والمودة مثرية(٦) . والبقيا

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) أقيال جمع قيل : من ملوك اليمن فى الجاهلية دون الملك الأعظم .

(٣) امتطاء الهجاج : ركوب الرأس وعدم التروى .

(٤) استحقاب اللجاج : التمسك بالخصومة .

(٥) السهمة : القرابة .

(٦) مثرية : متصلة .

معرضة(١) ، وقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطع ، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيور أمورهم ، فتلافوا القرحة قبل تفاقم النأى(٢)، واستفحال الداء ، وإعواز الدواء ، فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء ، وإذا استحكمت الشحناء تقضبت(٣) عرى الإبقاء ، وشمل البلاء » .

هذا مع استثناء بعض الخطب ؛ فقد كانوا يطيلون نسبيا فى خطب النكاح ، وإصلاح ذات البين .

ولا يمكن بحال أن نتصور وصول خطبة من خطبهم كاملة مفصلة كما قالها صاحبها ، لعجز الرواة عن استظهارها كلها ، فهم إنما يحفظون منها ما كان أشد قرعا للسمع ، ووقعا فى النفس ، بعبارة تحمل ذات المعنى الأصيل ، وإن اختلفت عنها شيئا فى بعض اللفظ .

ومع هذا فلا يمكن كذلك أن نتصور خطيبا جاهليا محيط به بيئة الجاهلية بكل أبعادها وأغوارها يخطب فيطيل الإطالة التى نعهدها فى الخطابة بعد ذلك العصر لما قدمنا آنفا ، ولانطباع العرب الجاهليين على الإيجاز ، ولأنها أسهل للحفظ ، وأسرع شيوعاً من الخطب الطوال .

٤ — عدم الاهتمام بالمقدمات ؛ فقد كان الخطيب فى الجاهلية يهجم على أغراضه مباشرة من غير تقديم ولا تمهيد ؛ إذ الخطبة بالنسبة له لا تخرج عن أى عمل يقوم به العربى فى تلك البيئة بما تشتمله من صراحة ووضوح وانكشاف ، وبما تنطوى عليه الحياة فيها من قسوة وخشونة . . فليس شيء مما يقع عليه نظر العربى مرت عليه يد التهذيب والتثقيف إلا أن تكون ضرورة الحياة هى التى تفرض عليه تهذيبه أو تثقيفه ، وليس فى صحرائه المكشوفة الواسعة ما يلفته إلى الالتواء .

---

(١) معرضة : ممكنة .

(٢) النأى : الإفساد .

(٣) تقضبت : تقطعت .

هذا إلى أن شدة الحياة خلعت على نفسه الضيق والتبرم — وإن لم يعرفهما فى نفسه — مما يدفعه إذا قال إلى أن يبدأ بما يريد أن يقول ، وإذا سمع أن يطلب سماع ما يراد أن يقال فحسب .

ثم إن الخطيب العربى — إلى ذلك — لم يكلف نفسه وضع خاتمة ينهى بها كلامه إذا ما انتهى من عرض فكرته لذلك السبب الفطرى ذاته .

ومن ثم لم تكن فى الخطبة الجاهلية أقسام واضحة ، وإنما هى أقوال مباشرة ، كما تبدأ تنتهى ، وفى خطبة مرثد الخير التى قدمناها آنفا ما يشير إلى تلك السمة فى خطابة الجاهليين ويقررها ، فضلا عن أن تلك السمة هى الطبيعة الواضحة التى لو وجد غيرها فى خطابتهم لكان تزيدا أو شذوذا .

٥ — سذاجة الأفكار التى تشتملها الخطبة الجاهلية وبساطتها على العموم ، وذلك لضآلة نصيب العرب فى تلك الآونة من الثقافة الفكرية ، فقد كان جل همهم — فى الثقافة — أن يعرف المرء شيئا أو أشياء عما يحيط به مما تتطلبه الحياة فى بيئته تلك فعلى من يريد الثقافة أن يعرف شيئا عن مواقع النجوم ومطالع الكواكب ، وعن أسرار الرياح فى هبوبها وتنوعها ، وعن تاريخ القبيلة ، وأيام العرب ، أو تاريخ أمته . . . إلى غير ذلك من المعلومات السطحية البسيطة التى لا تخرج عن ذلك الإطار الضيق المحدود ، والتى لا تحوج إلى كد ذهن ، أو إعمال فكر ، أو قصد إلى ترتيب وسعى إلى استنباط ، وإنما هى حقائق مقررة قصارى ما تتطلبه أن يستوعب ويستذكر .

ولم يقف الأمر بالأفكار عند حد السذاجة فى طبيعتها ، بل لقد كانت ساذجة كذلك فى عرضها ، فلم يكن هناك اهتمام بترتيب الأفكار وتسلسلها وارتباط بعضها ببعض .. ولكن الخطيب يرسل أفكاره حسبما تتوارد فى مخيلته ، دون أن يعنى بتنسيقها وترتيبها ، حتى ليعسر على القارىء فى كثير من الأحيان أن يحدد موضوع الخطبة الذى يقصد إليه الخطيب .

٦ — التزام السجع ؛ فقد التزموه فى خطبهم ، ليكون بديلا من موسيقى الشعر فلا تتسع الهوة بين الفنين ، ولتكون الخطبة أسهل فى السمع ، وأقرب من القلب ، ولتكون الخطبة أسرع فى الشيوع وأبعد فى الذيوع .

وفى مقدمة من التزام السجع فى الخطابة كهان العرب ، بيد أنهم يمتازون عن غيرهم من الخطباء الجاهليين فى إضافتهم إلى السجع غرابة اللفظ ، واستعمال صيغ فى القسم غريبة ... ولعل ذلك كان منهم بقصد إضفاء الغموض على أنفسهم ، والمبالغة فى السيطرة على نفوس السامعين ، وتأكيد ما سيطر على الأفكار من مقدرتهم على السحر . والساحر – كما يستعين بالطلاسم – يستعين بالإيقاع الصوتى ، والألفاظ الغريبة ليتمكن من التأثير فى الجماعة ، فهو من وسائل الإيحاء التى يعتمد عليها الكهان ، ونظرة إلى مثال من الخطاب المسجوعة لغير الكهان ، وآخر مع سجع الكهان تقرر لدينا ما نقول .

قال علقمة بن علاثة فى منافرة له مع عامر بن الطفيل : « إنى لبر وإنك لفاجر . وإنى لودود وإنك لعاقر ، وإنى لواف وإنك لغادر » فأجابه عامر بقوله : « إنى أنشر منك أمة[١] ، وأطول منك قمه ، وأحسن لمة[٢] ، وأجعد جمة[٣] .

وقالت الزبراء كاهنة بنى رئام تنذر قومها ، وتنبئهم بمباغتة عدوهم لهم : « واللوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادى ليأدو ختلا[٤] ، ويحرق أنيابا عصلا[٥] ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لاتجدون عنه معلا[٦] » .

ويقرر ذلك ما ذكره عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاش حين سئل عن السر فى إيثاره السجع على المنثور فقال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه

---

(١) يعنى أكثر قوما .
(٢) اللمة : ما تجاوز شحمة الأذن من الشعر .
(٣) الجمة : مجتمع شعر الرأس .
(٤) يأدو ختلا : يميل خداعا .
(٥) يحرق بضم الراء وكسرها : يحك بعضها ببعض حتى يسمع لها صوت . وعصل جمع أعصل : الناب المعوج فى صلابة .
(٦) المعل : الملجأ . انظر الأمالى ج ١ ص ١٢٦ .

أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره »(١) .

أضف إلى هذا أن هذا الاتجاه يرجع إلى أنهم قوم فطروا على قول الشعر ، فتأثرت لذلك لغة النثر عندهم واتجهت — عن قصد منهم أو عن غير قصد — إلى محاكاة لغة الشعر فى مجازها وخيالها ، وموسيقى ألفاظها .

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٨٧ .

الفصل الثاني

حضارة الإسلام وأثرها فى العرب وآدابهم

(١)

أثر الإسلام فى الحياة العربية

جاء الإسلام فقلب نظم الحياة الأساسية فى شبه الجزيرة العربية رأسا على عقب، ثم امتد منها إلى العالم أجمع؛ ففى سنة ٦١٠ م بعث محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه إلى عشيرته بمكة، ثم إلى العرب جميعا والناس كافة، فبدأ يصل الناس بالدين الجديد، ويأخذهم بمبادئه، ويتعهدهم بقيمه، حتى أصبح الناس غير الناس حسا وشعورا، واعتقادا وتفكيرا، وخلقا وسلوكا.

ولا أعنى بذلك أن كل ما جاء به الإسلام كان جديدا أو غريبا على الإنسان، وإنما هو عقيدة هادفة ومبدأ قاصد أقر من عادات الجاهليين وأخلاقهم ما يوائم منهجه، وعدل مما ينحرف منها عن طريقه، وهدم ما يتنافى منها مع قيمه ومثله، مقيما مكانه مبادىء تحقق ما يهدف إليه، وتقرر ما يريده للانسان من كرامة وعزة.

جاء الإسلام فلم يكن مغايرا لما كان عليه العرب فى حياتهم من كل الوجوه؛ فهو دين جاءت به السماء فى اللحظة المناسبة، بعد أن أعدت لاستقباله النفوس، وأحست بالحاجة إليه المشاعر، وبحثت عنه العقول فتاهت وضلت، ودعت إليه دواعى الفطرة المتبلورة فى الأحياء من بنى البشر .. فهو دين الفطرة المستقيمة.

* * *

لفت الناس إلى الروحانية، وكانوا مستسلمين لأوهام وعادات جمدت مشاعرهم، وسدت الطرق فى وجوههم، فربطهم بالله الذى يجدر بهم أن يطيعوه، ويأمنوا له، ويؤمنوا به، .. إنه ليس إلها خاصا، ولكنه إله الجميع (رب العالمين)، وهو لا يغيب، ه

شيء ، (لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض)(١) ، وهو واحد لاشريك له ، ولا ولد (الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد .) ، وهو خالق الكون وما فيه ومن فيه : يحيط علمه بكل شيء ، ويمتد سلطانه إلى كل شيء (على كل شيء قدير) ، وهو يريد الخير للناس جميعا (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)(٢) ، (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم)(٣) ، ومن هذا المنطلق يأخذ بأيديهم مبتعدا بهم عن السوء ، لتسمو نفوسهم ، وتترقى مشاعرهم ، ويحضهم على التمسك بعباداته التى يريدهم عليها ، مقررا أن ذلك سبيل فوزهم بحبه لهم ، ورضوانه عليهم (إن الله يحب المتقين)(٤) ، (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)(٥) ، (إن الله يحب المحسنين)(٦) ، (والله لايحب المفسدين)(٧) ، (والله لايحب الظالمين)(٨) ، (إن الله لايحب المعتدين)(٩) . مؤسسا هذا الحب على على ما هو مذخور فى الحياة الآخرة من جنة ونار يجازى بالجنة من استقام بعد أن يبعث من موته ويحاسب ، ويجازى بالنار من ضل وانحرف كذلك .

وأقام عقيدتهم على الفكر والتدبر ، فجعل للعقل دورا فى الحياة هو من أهم الأدوار ؛ إذ به يبحث ويفحص ويوازن ، ليصل إلى ما يعتقد ؛ ومن ثم أخذ الإسلام بيد الإنسان فى جولات كونية بين الأرض والسماء ، ينبهه فيها إلى ما تنطوى عليه مفردات هذا الكون من دلائل تقفه على الحقيقة ، وتهديه إلى الصواب ، فتمنحه بذلك الثقة ، وتفتح له أبواب الانطلاق ، فيجاوز آفاقا بعد آفاق . « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار(١٠) » ، « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت(١١) » ، فأسقط عنهم أغلال التبعية والتقليد الأعمى ، ودعاهم إلى أن يسيروا فى طريقهم على هدى وبصيرة ، منبها إلى أن

(١) سبأ : ٣ (٢) البقرة ١٨٥ (٣) المائدة . ٦ (٤) التوبة : ٤
(٥) البقرة : ٢٢٢ (٦) البقرة : ١٩٥ (٧) البقرة : ٢٠٥
(٨) آل عمران : ٥٧ (٩) البقرة : ١٩٠ (١٠) آل عمران : ١٩١
(١١) الغاشية : ١٧ — ٢٠

الجزاء مبنى على العمل « ولا تزر وازرة وزر أخرى »[1] ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »[2] .

وأسس حياتهم على الاجتماع والألفة ، ووطد دعائم الأخوة ، وقوى روابط الوحدة ، فنبههم إلى وحدة الأصل البشرى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا[3] .. » ، وأرشدهم إلى أهمية الوحدة القائمة على وحدة العقيدة : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون[4] » ، ثم وجههم إلى دعائم ذلك المجتمع الموحد المثالى فأوضح أن المجتمع القائم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله . « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . »[5] ، فانتقل بهم من البيئة الفردية التى يعيش فيها الإنسان لنفسه ، والتى يدعوه فيها إلى نوع من حميد الصفات حرصه على نفسه فحسب ، إلى مجتمع يقوم على الحب والتكافل والتضامن فى مختلف مظاهر الحياة ومسالكها ، وخلصهم بذلك من عادات وتقاليد كادت تصبح عرفا وقانونا يلتزمون به ، من معاملات ربوية ، وانكباب على الميسر والقمار ، وهضم لحقوق طائفة من مواليهم أو جنس من أجناسهم وصل بهم فى بعض الأحيان إلى وأد البنات ، وقتل الأبناء . وهكذا تحول العرب من ذر منثور إلى مجتمع متلاحم الخيوط ، محكم النسج .

وأنهض مجتمعهم على مبادىء الحرية والكرامة ، والعدل والمساواة ؛ فليس لإنسان على آخر من سلطة موروثة ، وإنما الجميع سواء ، لافضل لعربى على عجمى ، ولا إكراه على عقيدة ، ولا اغتصاب لحق ، ولا عدوان على مسالم .



وهكذا جاء الإسلام قوما ـ أول ما جاء ـ هيأتهم الحياة لاستقباله ، وسار ـ حين تابعوه ـ مبتعدا بهم شيئا فشيئا عما ألفوه واعتادوه من أعراف وعادات ، حتى تلفتوا بعد حين فوجدوا الطريق غير الطريق ، والحياة غير الحياة ، ونظروا فرأوا كل شىء قد تغيرت معالمه وتبدلت ألوانه وظلاله .. واختلفت مذاهبه واتجاهاته .

(١) الأنعام : ١٦٤
(٢) الزلزلة : ٧ ـ ٨
(٣) الحجرات : ١٣
(٤) الأنبياء : ٩٢
(٥) آل عمران : ١١٠

وهكذا كان الإسلام تغييرا جـــذريا وعرضيا لمجرى التاريخ الديني والأدبي والإقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى ... وغير ذلك من الجوانب التى تواجه الإنسان وتوجهه . ولـكنه ــ مع كل هذا ــ قد لقى مقاومة عنيفة ، وحربا لاهوادة فيها ، شملت الحرب النفسية والمادية والمعنوية ، وكل ما يمـكن أن تقع به حرب من قوم استبدت بهم الشهوات ، وسيطر عليهم حب الذات ، وجرفتهم الماديات ، فأضلتهم عما هم فى حاجة إليه .

وكان هذا التغيير المنظم ، وتلك المقاومة العنيفة سر إقبال الشعوب الأخرى ــ غير العربية ــ عليه فى مدى بضع عشرات من السنين .

(٢)

أثر الإسلام فى الادب العربى

من يتابع الأدب العربى فى العصر الجاهلى ، ويقارن بينه وبين الأدب العربى فيما بعد مجىء الإسلام يجد الفرق الكبير ، والبون الشاسع بين الأدبين بحيث لا يكون متعسرا أن يميز باحث بين أدب كل من المرحلتين مع ما يبدو هناك من أصول أدبية ثابتـــة ، وقوانين مشتركة تربط بين أدب الجاهليين وأدب الإسلاميين .. وتلك الأصول والقوانين هى التى تضفى على الأدبين صفة العربية . وهذه سمة مشتركة بين جميع الآداب الإنسانية ، حيث تتأثر بكل ما يعرض للانسان من تغيرات، وما يطرأ على بيئته من مؤثرات .

وتأثر العرب بالإسلام أمر لاشك فيه ولا جدال ، بل إن كلمة تأثر هذه قد لاتعطى حقيقة ما كان ، إذ شمل تأثرهم به كل مناحى حياتهم ، ولايدل على ذلك إلا أن نقول : إن العرب تغيروا بالإسلام فأصبحوا ناسا غير الناس السابقين .

وبدأ تأثر العرب بالإسلام أول ما بدأ حين سمعوا القرآن الكريم فى أول علاقتهم به، وهم ما يزالون على دين آبائهم ، وما يزالون على إصرارهم وعنادهم ، ولكنهم حين صكت أسماعهم بعض آيات القرآن الكريم سرت فى كل أجسامهم كانت كالرعـــدة تصيب الإنسان فتذهله عن التبصر السريع؛ فلقد ذهل العرب حين سمعوا القرآن وشملتهم حيرة لم يكن واحد منهم ليتوقعها ، فهم مالكو ناصية القول ، وهم أرباب البيان ، والكلمة فيهم هى كل شىء ، هى القلب النابض ، وهى الخيال السابح ، وهى المشاعر الجياشة ، وهى ــ إلى ذلك ــ العقل المفكر فيها .

لقد أذهل العرب روعة نظم القرآن ، وحيرتهم قوة أسره ، فانطلق لسان الشانىء المبغض قبل المادح المحب معبرا عن ذلك التسلط الذى يلمسه بحسه ووجدانه فى آياته الكريمة . وهذا عتبة بن ربيعة أحد زعماء قريش يكشف عن بعض نواحى الذهول والحيرة فى قوله حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الآيات من أول سورة فصلت ، وقد سأله قومه حين عاد إليهم عما وراءه .

« ورائى .. أنى سمعت قولا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة يا معشر قريش أطيعونى ، واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه » .

ثم هذا الوليد بن المغيرة أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ ، فقرأ عليه:

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »[١] .

فقال : أعد . فأعاد صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر[٢] .

فالدارس لتاريخ الأدب العربى يلاحظ أن من أهم عوامل التحول فيه على مدى تاريخه الممتد ظاهرتين لاتكادان تفارقانه منذ ظهور الإسلام ، والتقاء العرب بكتابه الكريم ، واجتماعهم على مبادئه وقيمه .

١ — أما أولى هاتين الظاهرتين فهو القرآن فى ذاته ، ذلك الكتاب العربى الذى توارى أمامه كل ما أنتج العرب من أدب ، وما قدموا من بيان ، فتمت له الصدارة ، وخلصت له الريادة والقيادة ، وأصبح هو المثل الذى يحاول كل عربى ومسلم أن يحتذيه فى حياته كلها أدبية كانت أو سلوكية أو إجتماعية أو تشريعية .. إلى غير ذلك من شتى مجالات الحياة التى قنن لها القرآن ، وقاد إليها ، ووجه نحوها .

لقد رأى العرب فى القرآن ضالتهم التى طالما بحثوا عنها فلم تسعفهم مقدرتهم حتى على تصورها .. رأوا فيه ما افتقدوه فى آدابهم ، وما تمنوه ولكنهم لم يدركوه ... رأوا فيه الكمال التعبيرى الذى اشتمل الأسس الثلاثة بتمامها، والتى حاولوا أن يضمنوها كلامهم فوقفوا دون ثالثها عاجزين فقد أسس العرب بلاغة النسق على ثلاثة ، لايغنى واحد منها عن الآخرين .. هذه الأسس الثلاثة هى :

---

(١) النحل : ٩٠ .

(٢) الرسالة الشافية للجرجانى ص ١٢٥ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الطبعة الثانية .

(ا) الوسيقى التى تحدثها الحروف بترتيبها ومخارجها ، وحركاتها ومناسباتها لما معها من كلمات ، حتى تصبح الكلمة مصدر نغم ورنين يهز النفس، ويستأثر بالمشاعر، وتهيء وجدان المتلقى لاستقبال ما تتجه له الكلمة من معنى ، وما يفيض به المعنى من مضامين .

(ب) المعنى الذى تحمله الكلمة لتصل به بين مشاعر الإنسان وبين عقله .

(ج) الدقة فى التصوير المعنوى وما يترتب عليه من الإبداع فى تلوين الخطاب ، وترديده بين ألوانه المختلفة ، فيوادع النفس مرة ، ويجاذبها أخرى، ويعمد إلى طرائف المعانى فيسوقها إليها وإلى شتى وجوه البيان فيوردها عليها ، حتى يتمكن من السيطرة التامة الكاملة على جوانبها ، وحتى تصبح تلك النفس — من تفضيلها له وموافقتها إياه — كأنها هى الراغبة فيه ، القاصدة إليه التى تحاول أن يتصل أثرها بالكلام، وليس الكلام هو الذى يجىء إليها بهدف معالجتها والتأثير فيها(١) .

ثم أن النسق البليغ يجب أن يشتمل على هذه الأسس الثلاثة، إلا أنه يرقى فى ميدان البلاغة تبعا لوضوح الأساس الثالث فيه ، حتى إذ كانت الدقة فى التصوير المعنوى والإبداع فى التلوين البيانى شائعا فى كل جوانب الكلام بحيث لا نفتقده فى جهة واحدة من جهاته ، بل بحيث لا يقل فى جهة عنه فى جهة أخرى .. أحس الإنسان أمام مثل ذلك الكلام بالعجز الذى لا أمل فى اجتيازه ، إلى جواز إحساسه بالافتتان به .

وإنما كان لهذا الأساس الثالث تلك الأهمية لأنه فى الحقيقة هو الذى كان يتراءى للعربى ولا يتمكن من الوصول إليه فى تعبيراته . فصوت الموسيقى — وهو الأساس الأول — من الأصوات الطبيعية فى تركيب لغة العرب، وإنما هو يتفاوت بين الكمال والنقصان .

وصوت الفكر — وهو الأساس الثانى — لم يكن صعبا عليهم أن يفنوا عليه فى كثير مما جادت قرائح أدبائهم .

أما البعيد القريب منهم فهو هذا الصوت الثالث، فقد كانوا يرونه فى تصوراتهم أملا،

---

(١) انظر البيان والتبين ج ١ ص ٧٥ ، ص ٨٨ ، ودلائل الإعجاز ص ٤٥ وما بعدها بتحقيق المراغى .

ولكنهم لا يجدونه فى كلامهم وانشائهم، وإذا هم حاولوا الوصول إليه تبين لهم قصر باعهم عن أن يمتد إليه ليتمكن منه .

حتى إذا جاء القرآن الكريم فوجئوا باشتماله على ذلك الأساس — بالإضافة إلى تسنمه القمة فى الأساليب الأولين — فلم يجدوا بدا من الخضوع أمامه ، والاستسلام لروعته ومن ثم أصبح قصارى جهد كل عربى ومسلم أن يتعرف على شيء مما فى التعبير القرآنى ويبنى عليه أدبه ، ويروض عليه لسانه .

٢ — والظاهرة الثانية هى أن المسلمين اتجهوا بكل ما أوتوا من ثقافة ومعرفة يبحثون عن نواحى الإعجاز البيانى القرآنى ، ويكشفون عن مظاهرها ، ويربطون بين ذلك وبين الآداب — خصوصا الأدب العربى — فكان ذلك الاتجاه ميدانا لقدح زناد الفكر السليم ، واستثمار ما أوتوا من أدوات وأسباب فى ذلك الميدان ، وحرص على أن يتزودوا بكل ما يعين حتى يكشفوا عن شيء من هذه النواحى البلاغية المعجزة فى النص القرآنى .. مما خلف لديهم فنا جديدا فى مقتناته وفى اتجاهاته .. ذلك هو فن القول ، ولم يكن من قبل علما مؤصلا ولا فنا يعتمد على المنهج المدروس والقوانين الممدة . وهذا من غير شك له فى التحول الأدبى أثره البعيد . ولقد أشار البطليوسى إلى هاتين الظاهرتين فى قوله :

إن العرب طلبوا الأدب واهتموا بمدارسته وترويض أنفسهم عليه لغرضين: أحدهما يقال له الغرض الأدنى . والثانى الغرض الأعلى ؛ فالغرض الأدنى : أن يحصل للمتأدب بالنظر فى الأدب والشعر قوة فيه يقدر بها على النظم والنثر . والغرض الأعلى : أن يحصل للمتأدب قوة على فهم كتاب الله تعالى . وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وصحابته ، ويعلم منها الأحكام وتفرع الفروع . وتنتج النتائج، وتقرن القرائن على ماتقتضيه مبانى كلام العرب ومجازاتها لما يفعل أصحاب الأصول(١) .

وهكذا أصبح القرآن الكريم منذ بدء الحياة الإسلامية رائد كل أديب، ومنار كل قائل ، ومنهل كل متعلم ، وميدان كل دارس — هذا إلى كونه وحى السماء المشتمل على كل أسس التشريع، والمحتوى على كل قوانين السلوك — فكان ملء عيون العرب

---

(١) البطليوسى فى (الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب) لابن قتيبة ص ١٤ ط بيروت سنة ١٩٠١ .

وأسماعهم ، لا شريك ينازعه هذا المركز ، ولا صارف من شعر أو أدب أو فكر أو فن يصرفهم عنه ، ولا شاغل من شواغل الحياة أيا كانت ألوانها يشغلهم عن البحث فيه ، والأخذ منه .

هذا ولقد جمع الإسلام أصحاب آدابه ، ووحدهم فى تجربتهم الوجودية، وأصبحت أحاسيسهم ومشاعرهم غير أحاسيس الجاهليين ومشاعرهم .

وهذه المغايرة تتناول مايؤثر فى الأحاسيس والمشاعر ، كما تتناول الوحدة فى الاستجابة لتلك المؤثرات ؛ إذ الفارق كبير بين إنسان يشعر بالتيه ، ويحس بأنه يعيش فى فراغ ، تخيفه الهواجس ، وتفزعه المواقف ؛ تكسف الشمس فينخلع فؤاده ، ويضطرب فكره . وتثور الريح فيتوقع الانتقام ، ويقف موقف الاستسلام . وبين إنسان يعرف مكانه فى هذا الوجود ، ويعرف علاقته بكل كائن فيه ، ويدرك أبعاد تلك العلاقة ؛ فهو يسير على هدى وبصيرة .

ثم إن هذه المعرفة ليست مقصورة على فرد أو أفراد لذاتهم ، ولكنها معرفة عامة شائعة ، تمتد جذورها فى نفس كل مسلم باسم الإسلام ، وفى ظلال تعاليمه وقيمه .

ولقد وحد الإسلام أصحاب آدابه فى منازعهم الفكرية الأساسية ، فجعلهم جميعا يدينون بدين واحد ، ويعتقدون عقيدة واحدة ، ومن ثم فتفكيرهم يسير فى مخطط موحد ، لا يختلف فى موضوعه أو أساسه من شخص إلى آخر ، ولكنه يعتمد على أسس ثابتة واحدة .

وعلى العكس من ذلك كان أصحاب الآداب فى الجاهلية ، فقد كان لكل منزعه الذى يوجه فكره ، ويملك حسه ، ويهيج وجدانه ، ويحرك ضميره .

وكذلك وحد الإسلام أصحـــاب آدابه فى الاستجابة الخارجية ، فجعلهم جميعا يخضعون لسلطان مبادىء واضحة محددة ، تنص على الشكل وعلى طريقة التعبير؛ لأن مبادىء الإسلام التى شملت كل مسلم ليست مبادىء مهوشة ، ولا مبادىء تقتصر على العموميات ، كما أنها ليست مبادىء طافية تعيش على السطح .. ثم هى ليست مبادىء فلسفية تبحث عن الأغوار لتختفى فيها ، دون أن تعنى بالظواهر .

إن مبادىء الإسلام تتسم بالشمول ، وتمتاز بالاستقصاء ، فهى فى الأعماق تهتم بالظواهر وتذكر بها ، وهى فوق السطح تبحث عن الخفايا .

ومن ثم فإن هذه المبادىء كما وجهت الإنسان إلى الفكرة والعقيدة ، حرصت على أن تتدخل في توجيهه إلى الشكل وطريقة التعبير، فكان أن وسمت آدابها بالوحدة في ذلك كله .

أضف إلى هذا أن أصحاب آداب الإسلام جميعا يشتركون فى الخضوع لنظـــام سياسى وإجتماعى واحد، يرتبط بمبادئهم الموحدة،ويعتمد على عقيدتهم ، ويقوم عليها .

وليست سمة الوحدة مقصورة على الآداب ، ولكنها تتناول كل ما يمكن أن ينشأ من التطورات المحلية المتولدة عن الإسلام وأخلاقه وأعرافه فى كلأجيال الحياة التى تجد بعد ذلك .

وصفوة القول : إن الناقد الدارس يلاحظ أن من أهم ما طرأ على العرب بمجىء الإسلام قيمتان إحداهما قيمة فنية ، وثانيتهما قيمة سلوكية ، ومن كلا القيمتين اتخذ الأدب العربى سمته الجديدة ، واكتسب مميزاته ، ظهر ذلك فى مجالات الأدب المختلفة من ألفاظ اللغة وأسلوبها ، وفنون الأدب وطرائقه وأغراضه .. إلى غير ذلك .

الفصل الثالث

أعلام من الناثرين المسلمين

من المقرر أن دراسة الأعلام الفنية فى ثنايا دراسة الأدب ليس مقصودا بها الدراسة التاريخية الخالصة ، وإنما المقصود بها التعرف على الوجهة الفنية لهذا العلم ، وللمؤثرات التى خضع لها منذ نشأته ، ليتمكن الباحث من الوقوف على سر موافقته أو مخالفته معاصريه أو غيرهم فى اتجاهه الفنى ، وليتعرف الدارس على أطوار الأدب ومؤثراته فى وسط أو بيئة أو عصر من العصور من خلال تعرفه على ذلك فى العناصر التى تتمثل بها الحياة الفنية فى ذلك الوسط أو البيئة أو العصر .

ودراسة الأعلام البشرية ليست مقصودة لذاتها ، وليس ضروريا أن توجه هذه الدراسة إلى أعلام بشرية ، بل قد تكون تلك الأعلام كيانا فنيا بارزا ، لايدرك من خلال المخلوق البشرى وماتعرض له فى نشأته وحياته من مؤثرات ، وإنما يدرك من خلال العمل الفنى ذاته والنظر فى أساليب عرضه ، ومناهج تقديمه .. إلى غير ذلك ، وذلك إنما ينطبق - فيما بين أيدينا - على القرآن الكريم ، والبيان النبوى الشريف ، وذلك لأن القرآن الكريم بيان رب العالمين أنزله على الناس معجزة لنبيه ؛ فمكانه من أدب العرب إذن مكان الصدارة والمثل الذى يحتذى ، كما أن البيان النبوى - وإن يكن بيانا بشريا - لاينظر إليه فى مجال الدراسة الفنية ، بصفته بيان كائن مخلوق خضع لأطوار الحياة التى مرت به ، واستجاب فيه للمؤثرات الفنية المختلفة ، وإنما بصفته بيانا فطريا وجه إليه صاحبه للقيام بمهمة مخصوصة هى مهمة الرسالة الدينية .

من ثم لم يكن غريبا على أن أجعل التعريف بالقرآن الكريم والحديث النبوى على رأس أعلام الناثرين المسلمين ، إذ هما بالنظرة المتقدمة يؤديان فى دراستنا تلك دور العالمين الفنيين .

(١)

القرآن الكريم

هو معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التى قدمها بين يديه ليثبت صدقه فى دعوته لمن يحتاج فى تصديقه إلى شاهد ودليل . «وقالوا: لولا أنزل عليه آيات من ربه. قل : إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم »(١) .

وهو هدى للناس ، يأخذ بأيديهم إلى الطريق السوى والشاطىء الأمين . « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »(٢) . « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد »(٣)

وهو يحمل دعوة الحق ، ويقرر ماتقدمه من كتب سماوية . « الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان »(٤)

وهو تذكير للناس ، وتنبيه إلى مسئولياتهم ومايتعلق بهم من واجبات . « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »(٥) .

ثم هو كتاب قوى الجانب ، تهواه الأفئدة ، لا يساميه كتاب ، ولا يدنو منه كلام ، معصوم من الباطل . «وإنه لكتاب عزيز *لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(٦) . « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله »(٧) .

---

(١) العنكبوت : ٥٠، ٥١
(٢) البقرة : ٢
(٣) إبراهيم : ١
(٤) آل عمران : ٢ ، ٤
(٥) الزخرف : ٤٤
(٦) فصلت : ٤١ ، ٤٢
(٧) الزمر : ٢٣

وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : « إن هذا القرآن مأدبة الله فى أرضه فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، وإن هذا القرآن هو حبل الله ، فهو نوره المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لايعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا ينعد عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد »(١) .

نزوله وحفظه .

أنزل القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منجما على حسب الأحوال والمواقف ، بحيث تم إنزاله فى ثلاث وعشرين سنة وكان هذا المنهج الإلهى فى إنزال القرآن مثيراً لدهشة الجاهليين واعتراضهم ظنا منهم أن ذلك وسيلة يمكن بها مضايقة الرسول الكريم ، فطالبوه بأن ينزل عليه جملة ، ولكن كان فى إجابة القرآن مايسكت « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا »(٢) . وقال جل شأنه فى ذلك أيضا : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا »(٣) . فإنزال القرآن على تلك الهيئة أحد مظاهر الإعجاز البيانى فيه ؛ إذ لا يمكن لكائن مخلوق أن يصوغ بيانه على مدى ثلاث وعشرين سنة ليتجمع فى النهاية على تلك الهيئة من الإحكام والاتساق ، دون أن تنبو عبارة عن جارتها — مع فارق الزمن الممتد بينهما — أو تتناقض فكرة مع أخرى ، أو يختلف مستوى الصياغة فى موطن عنه فى موطن آخر ، وأنى لكائن مخلوق أن يكون على حال واحدة يوما واحدا ؟ إن طبيعة المخلوق خاضعة للتغير والتبدل لحظة بعد لحظة ، ومن ثم فنتاجه لا يستقيم على هيئة واحدة ثابتة .

ومنذ بدأ نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم وجه المسلمين إلى حفظ ما يأتى به الوحى واصطفى من صحابته من يقومون بكتابة الوحى على حسب مايوجهه ربه ؛ ضمانا لحفظه على الهيئة التى يريده الله تعالى عليها ، حتى إذا أكمل الدين ،

---

(١) رواه الحاكم عن ابن مسعود

(٢) آية ٣٢ سورة الفرقان .

(٣) آية ١٠٦ سورة الإسراء .

وأتمت النعمة ، ورفع الرسول إلى الرفيق الأعلى ، كان القرآن فى صدور المسلمين وبين أيديهم مرتبا على هيئته المحكمة : « إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه »(١)

ولما اشتدت الحرب بين المسلمين والمرتدين على عهد الخليفة الأول ، وقتل كثير من القراء حفظة القرآن الكريم ، خشى عمر رضى الله تعالى عنه على القرآن من الضياع ، فدعا أبا بكر إلى جمع القرآن من صدور الحفظة ومن العسب واللخاف قبل أن يفنى الحفظة فيضيع وينسى ، ولكن الصديق أبى فى أول الأمر ، وبعد إلحاح من عمر وافق أبو بكر ، وعهد إلى زيد بن ثابت - أحد كتبة الوحى على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بجمعه ، فجمعه من العسب واللخاف وصدور الحفظة مثل أبى بن كعب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى هريرة ، وأبى الدرداء ، متحريا فى ذلك الدقة والحيطة ، فكان لايقبل من حافظ شيئا حتى يشهد شاهدان عدلان بصحته وأنه كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما أتم جمع القرآن الكريم حفظ فى بيت أبى بكر ، ثم انتقل إلى عمر حين تولى الخلافة بعد وفاة الصديق ، وبعد وفاة عمر انتقل إلى حفصة أم المؤمنين . ومن ثم كانت عملية جمع القرآن عملية الأمة فى ذلك الحين . تضافر عليها أفرادها ، كل يقدم ما يستطيع فى سبيل إتمامه حتى إذا تم لم يجد جمع القرآن ، وجدناه موثقا أتم التوثيق ، متواترا لا شبهة فيه ، ولا شك يدنو منه

وعلى ذلك المصحف اعتمد عمر رضى الله تعالى فى إقراء المسلمين القرآن بعد أن اتسعت البلاد ، وكثر المسلمون ؛ فقد بعث إلى الشام ثلاثة ممن جمعوا القرآن حفظا ؛ هم معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، ليقوموا بهذه المهمة متنقلين بين حمص ودمشق وفلسطين(٢) .

ولكن انتشار الإسلام ، واتساع الدولة الإسلامية ، وكثرة عدد المسلمين كان أسرع وأقوى من جهد هؤلاء الثلاثة ، فلم يتمكنوا من توجيه كافة المسلمين الجدد إلى

---

(١) القيامة : ١٧ - ١٩ .

(٢) أنظر الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٥٦

القراءة الصحيحة ، فظهرت حاجة الأمة إلى مصحف إمام مكتوب يضبط القراءة ، ويلتزم به المسلمون فى كل مكان فاستنسخ للمصحف الذى جمع على عهد أبى بكر وجعل منه أربع نسخ ، أرسل واحدة إلى كل من الكوفة والبصرة والشام ، واحتفظ بالنسخة الرابعة عنده(١) . وعلى هذا المصحف مضى القراء يقرئون الناس القرآن فى بلاد المسلمين المختلفة .

من ذلك — على إجماله — يتضح أن القرآن الكريم أصدق بيان ، وأدق وثيقة تناقلتها البشرية فى شتى أبعاد الحياة زمانا ومكانا ، وقد تعاونت كل أسباب الحفظ ، ووسائل الصيانة على الإبقاء عليه بعيدا عن أى زيف ، وفوق كل اشتباه ، سواء كان ذلك بالكتابة فى الصحف أو الحفظ فى الصدور ، أو التلاوة الدائبة ليلا ونهارا فى الصلاة وشتى ضروب العبادة ، أو مراجعة آياته وتمحيصها والبحث فيها عن أحكام الشريعة وسنن الحياة ، أو كان ذلك عن ترداد النظر فيه من أهل الديانات الأخرى وغيرهم ، بحثا عن سقطة وجريا وراء عثرة يشنون بها الحرب عليه . « وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(٢) .

طبيعته :

يتكون القرآن الكريم من أربع عشرة ومائة سورة ، تقوم جميعها على منهج واحد ، ويربط بعضها ببعض نسق واحد ، ويضمها جميعا سياج واحد .

لكنها — إلى تلك الوحدة — تختلف طولا وقصرا ؛ إذ تتضمن أطول سورة ستا وثمانين ومائتى آية ، وتتضمن أقصر سورة ثلاث آيات فقط .

وتختلف منزلا ؛ إذ نزل جزء من القرآن قبل الهجرة فى مكة ، ونزل الجزء الآخر بعد الهجرة فى المدينة ، ومن ثم أصبحت السور إما مكية وإما مدنية ، ولكل سماته وخصائصه .

وتختلف غرضا ؛ إذ خوطب ببعضها المسلمون فى أول الدعوة ، فدارت حول

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ج ١ ص ٢٤٠ .
(٢) فصلت : ٤١ — ٤٢ .

العقيدة ومايقررها فى النفوس ، وخوطب بمضها المسلمون بعد الهجرة حين أصبحت لهم دولة ، فدارت حول العلاقات الاجتماعية ومايتصل بذلك من تنظيمات سياسية ، وتشريعات مالية وجنائية .. الخ ؛ بيد أن سوره — مع هذا الاختلاف — تقوم على الوحدة العامة ، ولا تخرج على الإطار المحيط بها جميعا .

وأعراض القرآن الأساسية متعددة المظاهر دون تعارض ؛ فهو ذكر ، وهو هدى ، وهو موعظة ، وهو نور ، وهو — مع هذا وذاك — كتاب مبين ، أو قرآن مبين : فهو يقوم فى كل أغراضه على الإبانة ، ومن ثم كان البيان والإبانة من أبرز خواص القرآن الكريم ؛ تصاحب كل عرض من أغراضه — قارئا كان المتلقى أو سامعا — فإن كان الغرض تذكيرا فهو مصحوب بالإبانة ، وإن كان هداية فهو مقرون بالإبانة ، فالإبانة هى القاسم المشترك بين كل أغراض التعبير القرآنى .

والناظر فى البيان القرآنى يلاحظ فيه خصيصة لا يمكن بحال أن تطلب أو تنتظر من بيان أديب مخلوق أيا كانت إمكاناته الأدبية لديه ، ومهما أوتى من القدرة التعبيرية وآلاتها ؛ فالبيان القرآنى لايقتصر على جنس من أجناس التعبير ، وإنما هو يستعين بكل ماعرف من أجناس الأدب المنثــور على حسب مايتطلبه الموقف ، موضوعا ، وأشخاصـا ، ومكانا ، وزمانا . وغاية(1) . ثم هو فى كل جنس يتردد بين الإيجاز والإطناب والمساواة ، بحيث تراه فى كل حالة البيان الأمثل ، والتعبير الأسمى الذى لايدانى .

هذا ويلاحظ من يتصل بالقرآن اتصال درس أنه ميسر «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»(2) . فالقرآن يسر يتلى ، وخير ينساب ، لاعسر فيه ، ولاحوائل تمنع عنه مريدا ، فهو قريب من كل نفس ، قريب من كل قلب وعقل . هو كتاب كل إنسى وجان ، ليس للخاصة دون العامة ، ولا للعامة دون الخاصة ، فليس فيه مافى العلوم والفنون من مستغلقات ومصطلحات لايعرفها إلا أربابها ، ولايعلمها إلا من راض نفسه على تعلمها ، ليس فيه مافى كتب العقائد والفلسفات من لف ودوران ، وإقدام وإحجام ، وتحليق فوق الحقائق ، وتشتيت للذهن .. مما يرد على القرآن وارد إلا أصاب منه

---

(1) راجع بتوسع للمؤلف : البيان القصصى فى القرآن الكريم .

(2) القمر : ١٨ .

خيرا ، وتزود منه بزاد طيب كريم ؛ فهو ليس كتاب العلماء وحدهم ، وليس كتاب الفقهاء ورجال العقائد وحدهم، وليس كتاب من اهتدى ومن آمن وحده، وليس كتاب من يهفو إلى الاهتداء والإيمان وحده . ليس كتاب طبقة أو طائفة من الناس دون باقى الناس ... إنما هو كتاب رب العالمين للعالمين من إنس وجان ، كل يأخذ منه على قدر مايبلغ جهده وتتسع له نفسه وقلبه .



فالقرآن الكريم نمط فريد فى الأساليب العربية ؛ له سماته وخصائصه التى تميزه عن أساليب المخلوقين ، ولهذا التميز والتفرد مظاهر كثيرة من أبرزها : تميزه فى نظمه ، وتميزه فى أسلوبه ونهجه ، وتميزه فى تناسقه وتلاؤمه ، وتميزه فى القيــام بأغراضه التعبيريه المختلفة ، وهــذا التميز والتفرد الذى يتسم به القرآن الكريم يلمسه كل من يلتقى به على أية هيئة .

أنظر إلى قوله تعالى فى تصوير أبى لهب وزوجه « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » ، تجد وحدة تعبيرية كاملة ذات مطلع وموضوع وقرابه ، وذات النساق فى الجو الموسيقى والموضوع والألفاظ ، وذات مشاهد مصورة ، وصورها ذات ألوان وظلال . كل هذا وذاك ينشئه فى روعة ودقــه تلــك الثلاث وعشرون كلمة فى خمس آيات

وانظر إلى قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث » تجد ــ كذلك وحدة تعبيرية كاملة ــ على نحو ماذكرنا ــ تقدمها أربعون كلمة فى إحدى عشرة آية .

ثم أنظر التعبير القرآنى فى سورة المسد ــ حيث الحرب والإيعاد ــ وفى سورة الضحى حيث التطمين والتهدئة ، تجد اختلافا فى كل شيء .

فسورة المسد نموذج من نماذج التحدى ، وسلسلة من سلاسل الدفاع عن الدعوة

ورسولها ، ومن ثم حمل مطلعها فى أوله دعاء بالهلاك والبوار ، وختم بتقرير هـذا الدعاء وتأكيده . وعلى هذا النسق سارت السورة ، حتى قدمت امرأة أبى لهب فى صورة حية تنذر بالهلاك والبوار ـ كذلك ـ وتثير السخرية منها والاستهزاء بها ، حيث نرى حاملة وسيلة إحراقها هى وزوجها ؛ فإذا كان هو أبو اللهب وحامله ، فهى صاحبة الحطب وحاملته .. فإذا كانا قرينين رأيناهما ناراً فى صـورة إنسان تشتعل وتسعى بين الناس ، وتجر وراءها زادها الذى يمدها بالوقود

وسورة الضحى نموذج من نماذج التسلية والتسرية ، والترويح والتطمين ، ومن ثم نسج مطلعها إطاراً شفافاً رقراقاً صافياً ، من الضحى الرائق . والليـل الساجى ؛ إذ هما أصفى أوقات الليل والنهار وأشفها ، فيهما تسرى الروح ، وتنطلق النفوس فإذا هى مستغرقة فى التأملات . وفى داخل هذا المطلع ينشىء البيان القرآنى صورة من نسمات رقيقة فيها الحب الصادق ، والحنان اللطيف ، والإقبال العاقل ، والرضا الشامل ، والرحمة الوديعة ، والشجى الشفيف ، والوعد القاطع . فأنت هنا أمام لوحة منتشية أتم الانتشاء ، وظلال تسرى منها الإيحاءات الصادقة ، ليتسق المشهد مع حقائق الواقع ، مع الجو النفسى ، مع أصداء الأحداث .

وفى معرض آخر انظر إلى قوله تعالى يفند مزاعم المشركين فى شأن العقيدة : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة قل : هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين » . تجد البيان المتسق مع موضوعه ، فهو يقلب الأمور على شتى وجوهها ، بحيث لايترك لدى مشتبه شبهة ، ولا أدنى فرصة لإثارة من شك . فأنت هنا ـ فى مجال المناقشة العقلية ـ مع بيان هادىء يعمـل على تفتيح الآفاق المختلفة أمام المشركين ، إنقاذاً لهم من الردى والهلكة . فإذا نقلت نظرك إلى موطن آخر من مواطن العقيدة

مع قوله تعالى . « قل : هو الله أحـــد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » . وجدت الأسلوب القاطع المقرر ، الذى لا يناقش ولا يحتمل أدنى مراجعة أو تفـكير .

وهكذا كلما رددت نظرك فى آيات القرآن وسوره وجدت البيان الذى لا يدانى ، والنسق المعجز ، الذى أقر بروعته العدو الجاحد له مع المؤمن به المطمئن إليه ، والذى أخـــذ العرب الأدباء أنفسهم به فى نثرهم وشعرهم ، فتحولوا عن طريق أسلافهم ، وقدموا لنا أدبا جديدا على مدى الأجيال المتلاحقة .

(٢)

الحديث النبوى

والذى نقصده بالحديث النبوى هنا هو ما أثر من كلامه صلى الله عليه وسلم ، وتواترت بنقله الروايات أو نص العلماء على أنه روى بلفظه، فهذا الذى يتصل بدراستنا فى الأدب العربى . أما ماعدا ذلك من جمهرة أحاديثه صلى الله عليه وسلم التى حرص فيها الرواة على المضمون دون اللفظ ، فاختلفت ألفاظها من راو إلى آخر ، فهذه لاتتصل بما نحن فيه ؛ فهى من صياغة الرواة على اختلاف أزمنتهم .

والحديث النبوى ـ على عمومه ـ نسق بيانى جديد على الأدب العربى إذ لم يسبق صلى الله عليه وسلم أحد إليه ، ولا عرف مثاله لأحد قبله ، حتى قال له الصديق مرة : لقد طفت على العرب، وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك ؟ قال: أدبنى ربى فأحسن تأديبى . فإذا ذكرنا مع هذا أن أبا بكر هذا كان فى علم العرب وأنسابها وأخبارها ولغاتها وآثارها الغاية التى ينتهى إليها ويوقف عندها ، حتى لايعدل به عدل استطعنا أن نضع هذا الحكم موضعه .

وأهم ما يتميز به الحديث الشريف أنه بيان عربى موحد الغرض ، محكم النسق ، يوضح تشريعا ، أو يوجه إنسانا ، أو يصور موقفا من مواقف الإيمان أو الكفر .. إلى غير ذلك . فى إيجاز وإعجاز ، تحول به إلى حكم مأثورة ، وأمثال سائرة . قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه . وفى رواية أخرى عنها أيضا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لوعده العاد لأحصاه . وهذا يعنى أن منطقه صلى الله عليه وسلم يمر بالفكر قبل أن ينطلق إلى الفم ، وأن العقل فيه من وراء اللسان ، فهو غالب عليه،مصرف له ، حتى لايعتريه لبس، ولايتخونه نقص . ومن ثم قال كلامه صلى الله عليه وسلم ، وخرج قصدا فى ألفاظه ، محيطا بمعانيه ، تحسب النفس قد اجتمعت فى الجملة القصيرة والكلمات المعدودة بكل معانيها ، فلا ترى من الكلام ألفاظا ، ولكن حركات نفسية فى ألفاظ . ولهذا كثرت جوامع كلمه ، وخلص أسلوبه ، فلم يقصر فى شىء ، ولم يبالغ فى شىء ، وتم له من هذا الأمر

على — كمال الفصاحة والبلاغة — مالو أراده مريد لعجز عنه ، ولو استطاع إنسان بعضه لما تم له فى كل كلامه ، ويكفيه أنه كان تلميذ القرآن ، يوحيه الوحى، ويرشده إلى القول الفصل بمثل قوله تعالى : « وجادلهم بالتى هى أحسن » ، و « خــذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « قل يا أهـل الـكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينـكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

ونظرة إلى نماذج من مأثور حديثه صلى الله عليه وسلم تنطقك بما نطق به الجاحظ من قبــل فتقول : « لم يتـكلم إلا بـكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق »(١) . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم للأنصار : « ما علمتـكم إلا لتقلون عند الطمع ، وتـكثرون عند الفزع » . وقوله : « المسلمون تتـكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . وقوله : « لا تزال أمتى صالحا أمرها مالم تر الأمانة مغنما ، والصدقة مغرما » . وقوله : إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنـكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضـكم إلى وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون » ، وقوله : « إن الله يرضى لـكم ثلاثا ويكره لـكم ثلاثا ، يرضى لـكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم . ويكره لـكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . وقوله : « يقول ابن آدم : مالى، مالى. وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو وهبت فأمضيت » . وقوله : « أوصانى ربى بتسع : أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، وبالعدل فى الرضا والغضب ، وبالقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فـكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرا » ، وقوله : « إن قوما ركبوا سفينة فى البحر فاقتسموا فصار لـكل رجل موضع ، فنقر رجل موضعه بفأس ، فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع به ماشئت ، فإن أخذوا عليه نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلـكوا » .

وعلى الإجمال يستطيع الناظر فى الحديث النبوى أن يلمس أثره فى الأدب العربى

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٧

منذ صدر الإسلام إلى العصر الحديث، بما أدخل على الأدب من تراكيب بيانية جديدة، فرفع منزلة النثر وخطابه خطوة أبعدته عن سجع الكهان، وفتحت له آفاقا جديدة من فنون الأدب. هذا إلى أنه كان إلى جـــوار القرآن الكريم مساعدا على توحيد اللهجات العربية، والحفاظ على لغة العرب وذيوعها، وتوسيع مادتها، بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص، كما أنه فتح أبواب دراسات جديدة لم يكن للعرب عهد بها، مثل علوم الحديث وما تفرع عنها من تراجم المحدثين، وكتب الحديث، وما عليها من شروح وتعليقات واستنباطات بيانية وتاريخية وتشريعية .. إلى غير ذلك.

(٣)

أبو بكر الصديق

تولى زمام الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، فعمر بن الخطاب ، فعثمان بن عفان ، ثم على بن أبى طالب ، فحرص كل منهم على أن تظل الدولة الإسلامية كما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم دون تغير كبير ، فكانت البيئة امتدادا لعصر الرسول ، لا تكاد تشذ عنه فى شىء ، وكان أثر القرآن الكريم وبيان الرسول عليهم ما زال قويا ، والصحابة جميعا ينهلون من معينهما البيانى والأخلاقى والعقيدى ، لا يشاركهما معين آخر فيه ، فكانوا - فى مجملهم - مظاهر متحركة يتمثل فيهم البيان القرآنى والنبوى ، حيث سريا فى نفوسهم بما يتضمنان من ترغيب وترهيب ومواعظ وتشريعات ؛ فبدا ذلك فى سلوكهم خلقا رفيعا ، وعلى ألسنتهم بيانا ناضجا تراءى فى خطاباتهم وكتاباتهم

* * *

أما الصديق أبو بكر فكان وثيق الصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحى بالإسلام ، وكان أول من أسلم من الرجال ، وظل الرفيق الملاصق لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والصديق المؤازر له فى كل مراحل الدعوة ، حتى تولى الخلافة وقام على أمر المسلمين ، فكان أثر البيان القرآنى والبيان النبوى فيه واضحا ، تجلى فى ذلك البيان الإسلامى المتدفق من لسانه تدفق السيل ، دائرا فى إطار المعانى الإسلامية وقيمه الروحية ، كما نرى فى خطبته حين تمت البيعة له ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ، ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »[1] .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٤٥٠

وأهم ما يلفت نظر الدارس فى هذه الخطبة إيجازها ، والدقة فى اختيار ألفاظها ، والصرامة فى القوة فى عباراتها ؛ فإذا عرفنا ملابساتها أدركنا وعيه رضى الله تعالى عنه بالموقف وما يستدعيه ، وحرصه على أن يتلاءم فى خطبته مع الموقف . وذلك أنه قال هذه الخطبة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد ووجه باضطراب المسلمين فى مواجهة الصدمة اضطرابا حمل الكثيرين منهم — وفيهم عمر بن الخطاب — يرفضون التسليم بهذا النبأ ويقولون إن الرسول لم يمت ، فأقبل فى حزم وكشف عن وجهه صلى الله عليه وسلم وقال . بأبى أنت وأمى طبت حيا وطبت ميتا ، وخرج إلى الصحابة فألقى فيهم خطبته المشهورة التى ارتكز فيها على القرآن الكريم ليقطع على كل شاك شبهاته ، وفيها قال : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » ، ثم أخذ فى تلاوة الآيات الكريمة التى ترد عليهم شبهاتهم مثل قوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » ، وقوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ، ثم تلا قوله عز وجل : « كل نفس ذائقة الموت » ، وقوله تعالى : « كل شىء هالك إلا وجهه » فثاب الجميع إلى الرشد ، ورجعوا إلى الصواب[1]

كما ووجه فى الموقف نفسه ببوادر اختلاف المسلمين حول قيادة الأمة ، فقد بلغه أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة يقولون : منا أمير ومن قريش أمير ، فراعه ذلك ، وخشى على الأمة من الفرقة والطمع فى الملك ، فبادر إليهم هو وجمع من الصحابة حتى يقضى على هذه الفتنة فى مهدها ، فلما انتهت بتوليه أمر المسلمين ألقى خطبته تلك .

ولا ريب فى أن مثل هذا الموقف لا يتحمل خطبة أطول من ذلك ، ولا يتسع المجال لمزيد من التفصيل والإفاضة .

فإذا نظرنا فى خطبة أخرى له ، وجدناه رضى الله تعالى عنه ملتزما بمنهجه التزاما بينا ، حيث يحرص على مراعاة الموقف واستدعاءاته ، كما نرى فى إحدى خطبه الوعظية التى يقول فيها :

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٤٥ وما بعدها

« إن الله عز وجل لايقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتم به، وضرائب أديتموها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم الآن ؟ أين الجبارون ؟ أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . ألا إن الله لاشريك له ، ليس بينه و بين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرا ولا يصرف عنه به سوءا إلا بطاعته واتباع أمره ، واعلموا أنكم عباد مدينون وأن ما عنده لايدرك إلا بطاعته، أما إنه لاخير بخير بعده النار ، ولاشر بشر بعده الجنة »(١)

والخطبتان تختلفان إطنابا وإيجازا بمقدار اختلاف الموقفين ، والإطناب فى الخطبة الأخيرة يقوم على التصوير المشخص ، والخيال المقرب الذى ينقل المشاهد من عوالم غيبتها السنون ليراها السامعون من خلال آذانهم فإذا هم يجمعون بين ما كان ومايكون، لتتضح العظة ، ويقتنع بها العقل ، وينبض لها القلب نبض الاستجابة والقبول .

أما مادة الخطبتين فمستمدة من القرآن الكريم والبيان النبوى ، وروح الإسلام .

ولم يقف الصديق بخطابته عند حد الموعظة والدعوة ، وبيان السياسة والمنهج الحكومى ، بل أضاف إلى ذلك غرضا آخر استغل الخطابة فيه ، وذلك أنه كان يخطب فى الجيوش الخارجة للدفاع عن دين الله موصيا الجيش وقادته ، مستقيا وصاياه من روح الإسلام ، مقتبسا قدر الاستطاعة من وصايا القرآن الكريم والنبى صلى الله عليه وسلم حيث يدعوهم إلى التمسك بسماحة الإسلام ، فى معاملة المغلوبين ، ويحذرهم من الخيانة والغدر ، وينهاهم عن التمثيل بالقتيل ، وعن قتل الصغير والشيخ الكبير والنساء الآمنات . . الخ ، تلك الوصايا المقررة فى ظل الإسلام ، كما نرى فى وصيته جيش أسامة بن زيد حين سيره إلى الشام ، وفيها يقول :

« أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى . لاتخونوا ولا تغلوا(٢) ،

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٦٠

(٢) غل : خان فى الفىء .

ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفـــلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا[1] نخـلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له »[2] .

ولعل أبرز سمات الصديق فى خطابته تأبيه عن السجع ، وحرصه على جـزالة الألفاظ ، ووضوح المعانى . وتمـكنه من الـكشف عما يختلج بنفسه . ويريد أن ينقله إلى سامعية .

---

(١) عقر النخلة ــ بفتح القاف والعين ــ استأصلها وقطعها .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٤)

عمر بن الخطاب

وأما الفاروق عمر بن الخطاب فقد كان أحد العمرين اللذين دعا الرسول ربه أن يعز بأحدهما الإسلام، وكان هو الذى استجاب الله بإسلامه دعوة نبيه وكان منذ أسلم المقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، المصطفى لمشورته وما زال على ذلك حتى توفى صلى الله عليه وسلم، فظل على مكانه من خليفة رسول الله الأول، فكان له الوزير والمعين والناصح والمستشار، ولم يكن الاختلاف بينهما كبيرا، فقد كان الفاروق قريب الشبه بالصديق صدق عزم، ووضوح رؤية، وصحة بيان، وبلاغة لسان، ورجاحة عقل، ونفاذ بصيرة، وقوة شكيمة. وقد طبقت شهرته الخافقين حكمة، وعدلا، وحلما، وعزما، وحسن سياسة، فأقبلت البلاد والممالك على الإسلام ودولة الإسلام فرارا من ظلم الملوك والحكام، حتى اتسعت فى عهده الدولة الإسلامية اتساعا لم يعهد فى التاريخ مثله، فقد فتحت بلاد فارس والشام ومصر.

ولهذه الخلال مجتمعة كان له من التأثير فى عقول وقلوب سامعيه مايكشف عن مدى صدقه، وقوة بيانه، وفصاحة لسانه، كما يطلعنا على ذلك مثل قوله فى إحدى خطبه الوعظية:

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر، واتخذ عليكم الحجج آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له، ولا رغبة منكم فيه إليه، خلقكم تبارك وتعالى - ولم تكونوا شيئا - لنفسه وعبادته .. وسخر لكم مافى السماوات وما فى الأرض، وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة وحملكم فى البر والبحر، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون. ثم جعل لكم سمعا وبصرا، ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بنى آدم، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم؟ ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها فى دولتكم وزمانكم وطبقتكم، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرىء خاصة إلا لو قسم ماوصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها، وفدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله، فأنتم مستخلفون فى الأرض، قاهرون لأهلها، قد نصر الله دينكم .. والله المحمود مع الفتوح العظام فى كل بلد .. فنسأل الله الذى لا إله إلا هو الذى أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته».

ومن أهم مايلاحظه الناظر فى هذه الخطبة وغيرها من خطبة رضى الله تعالى عنه خلوها من السجع الذى كان يكلف الكهان به فى ذلك العصر ، ويحرصون عليه كل الحرص ، والفاروق فى ذلك ومن قبله الصديق متأثران بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الكريم ، حتى لقد أثر عنه أنه أنكر على صحار العبدى استخدامه السجع دون حاجة إليه ، فقد روى الطبرى أن الفاروق سأل صحارا عن (مكران) الفارسية أثناء غزو المسلمين لها ، فقال صحار : « يا أمير المؤمنين أرض سهلها جبل ، وماؤها وشل[1] ، وتمر دقل[2] ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل ، إن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلوا بها ضاعوا » . فقال عمر : « أسجاع أنت أم مخبر ؟ ! فقال صحار : بل مخبر »[3] .

كما يلاحظ أنه يسير فيها سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبه من الافتتاح بحمد الله وتمجيده ، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف .

وتمتاز خطبة الفاروق هنا بطول عباراتها ، حرصا منه على تفصيل الحجة ، وتوضيح البرهان ، وبسط القول ، بنوع وقسم ، وصور وشخص ، وهو فى كل ذلك يدور فى محور نعم الله على الإنسان وماتستوجبه من شكر الله عليها .

وكما كان الصديق يخطب فى الجيوش الخارجة للغزو موصيا وموجها . كان كذلك الفاروق ، ومما أثر عنه فى ذلك أنه لما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد — وهو أبو عبيد بن مسعود — وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أشركهم فى الأمور ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث[4] الذى يعرف الفرصة والكف » .

وله إلى ذلك وصايا كثيرة يوصى فيها الأوصياء والقادة ، ومن ذلك ما أوصى به الخليفة من بعده ، وهى وصية طويلة جاء فيها :

« أوصيك بتقوى الله لاشريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا : أن

---

(١) الماء الوشل . القليل .   (٢) التمر الدقل : الردىء .

(٣) راجع البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٥ .

(٤) المكيث : الرزين المتبصر فى الأمور .

تعرف سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيرا ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيك بأهل الأمصار خيرا فإنهم ردء[1] العدو ، وجباة الأموال والفيء ، لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم . وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام : أن تأخذ من حواشي[2] أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم . وأوصيك بأهل الذمة خيرا ؛ أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ، ومخافة مقته أن يطلع منك على ريبة . وأوصيك أن تخشى الله في الناس ولا تخشى الناس في الله ، وأوصيك بالعدل في الرعية ، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم[3] ، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم . وآمرك أن تشتد في أمور الله وحدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، واجعل الناس سواء عندك لاتبالي على من وجب الحق ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين ، فتجوز وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ماقد وسعه الله عليك » .

فالوصية كما ترى دستور ضمنه عمر نظام الحكم الذي يجب أن يكون في ظل الإسلام ، تناول فيها كل مايحتاج الحاكم والمحكوم إيضاحه وتقريره ، في أسلوب واضح بين ، لا فضول فيه يضل معه السامع ، ولا إيجاز فيه يختل معه المقصود ، والكلام - كما ترى - ينساب انسيابا لا تشعر معه بتكلف ، ولا تضيق الأذن بسماعه ، فهي عبارات سهلة مع جزالتها وقوتها ورصانتها ووضوح المقصود منها .

---

(١) الردء : المعين ، فهم يعينونك على العدو .

(٢) حواشي الأموال في البادية : صغار الإبل والغنم .

(٣) الثغور جمع ثغر : وهو هنا الخلة والحاجة .

(٥)

على بن أبي طالب

على بن أبي طالب ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أول من أسلم من الصبيان، تربى فى بيت النبوة ، ونشأ فى كنف الوحى ، فكان القريب للقرب منه صلى الله عليه وسلم ، عايش القرآن ، وجاور الرسول ، متخلق بخلق الإسلام ، ودان به فى كل تفكيره وتصوره ، فلم يقل عن سابقيه شأوا فى خطابته وبيانه ، بل لقد أتيح له من دوافع الإثابة ما لم يتح لغيره ، فأثر عنه خطب كثيرة تصدى منها الخارجين عليه ، مما أتاح الفرصة للدس عليه ، ونسبة مالم يقل إليه مما ضمنه كتاب « نهج البلاغة » المنسوب إليه كرم الله وجهه . ولقد تصدى لذلك كثيرون من المؤرخين والأدباء ، فنفوا أن يكون هذا الكتاب كله من صنع على رضى الله تعالى عنه ، وإنما هو فى أكثره محمول عليه ؛ لما تتضمن خطبه من السب الصريح فى السيدين أبى بكر وعمر ، والحط من شأنهما ، ولما ينطوى عليه من التناقض ، ولما فيه من العبارات الركيكة ، والجمل الضعيفة التى يجزم من له معرفة بنفس القرشيين الصحابة ، وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين . . بأنها نسبت إليه باطلا وزورا(١) .

ومن ثم كان على الدارس أن يتحفظ فى الأخذ من كتاب « نهج البلاغة» وغيره من كتب المتأخرين ، ويرجع فى ذلك إلى المصادر الأولى مثل البيان والتبيين للجاحظ فقد روى طرفا من خطبه ، مثل خطبته التى وجهها حين تقاعس بعض جنده، وأخذت جنود معاوية تغير على أطراف العراق ، ومنها يكشف عما فى نفسه من ألم وضيق بصنيع هؤلاء المتقاعسين ، كما فى قوله(٢) :

---

(١) انظر (لسان الميزان) لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣ طبع حيدر آباد ، وميزان الاعتدال الذهبى ج ٢ ص ٢٠١ طبع لكهنو، وشذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ٢٥٧ طبع القاهرة ، ومرآة الجنان لليافعى ج ٣ ص ٥٥ طبع حيدر آباد .

(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٣

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومنع النصف[1] ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، وسرا وإعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فو الله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، حتى شنت عليكم الغارات .. فياعجبا من جد هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم .. حتى صرتم غرضا يرمى ، وفيئا ينتهب ، يغار عليكم ولاتغيرون ، وتغزون ولاتغزون .. قد وريتم[2] صدري غيظا ، وجرعتموني الموت أنفاسا[3] ، وأفسدتم على رأيي بالعصيان والخذلان » .

والخطبة من أولها تعلن عن حالة كرم الله وجهه وحال الجيش ؛ ويكفي النظر إلى ما طلع به عليهم من تعريف بالجهاد حيث لم يطل الوقوف مع ما ينتظره المجاهدون ، قدر إطالته الوقوف مع ما ينتظره المتقاعسون الفارون ، فاكتفى في الإخبار عن الجهاد بخبر واحد ، وأخبر عن من ترك الجهاد بخمسة أخبار متعاطفة في سلاسة حتى لتبدو كأنها خبر واحد يضم خمس صور من صور البلاء الذي يتوقع لمن يقعد عن الجهاد .

كما يعلن عن البراءة مما أوقع هؤلاء أنفسهم فيه ، فقد قام بدور القائد البصير ، فلم يترك لحظة تمر إلا حث فيها جنده على مواصلة القتال حتى لاتدور عليهم الدائرة ، ويقع بهم المحذور .

فالخطبة كما ترى إعذار منه رضى الله تعالى عنه ، وتبرؤ من التقصير أو الإهمال ، وضيق بموقف الجنود المتخاذل ، وشعور بالمرارة لما حدث .

وقد اضطرته حروبه مع الأمويين إلى الإكثار من هذا اللون من الخطب ، بيد أنه لم يقف على ذلك ، بل أثرت عنه كثير من المواعظ في مناسبات مختلفة ، منها قوله[4] .

---

(١) النصف ـ بفتح النون والصاد ـ الإنصاف .

(٢) وريتم : ملأتم ، من ورى القيح جوفه إذا أكله .

(٣) الأنفاس جمع نفس ـ بالتحريك ـ الجرعة من الماء ونحوه .

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٢

« إن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وإن المضمار[1] اليوم والسباق غدا ، ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يضرره أمله ، ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله خسر عمله ، وضره أمله ، ألا فاعملوا لله فى الرغبة ، كما تعملون له فى الرهبة ، ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها » .

وهكذا نجده رضوان الله تعالى عليه فى كل خطبه ـ على اختلاف المواقف والدواعى ـ خاضعا لقيم الإسلام ومبادئه ، سائرا بحذاء القرآن الكريم والبيان النبوى الشريف لا يشذ عنه ولا يخرج عليه ، فى أساليبه وعباراته وألفاظه وأخيلته ومعانيه .

(١) المضمار : الزمان الذى تضمر فيه الخيل للسباق .

الفصل الرابع

فنون النثر الإسلامي وخصائصه

(١)

الخطـــابة

عـــوامل تطورها :

ظلت الجاهلية بمؤثراتها مسيطرة على الفكر والتصور والسلوك فى المجتمع العربى ، وبدأ هذا التسلط فى شق أعمالهم وأقوالهم ، حتى إذا جاء الإسلام بحضارته أخـذت عوامل التحول تتتابع من حولهم ، وتهزهم المرة بعد المرة ، حتى إذا غمرتهم مؤثرات الإسلام رأينا تحولا تاما فى الفعل وفى القول وفى التفكير وفى التصور والتخيل .

ونستطيع أن نلمس هذه المؤثرات الإسلامية إذا نحن نظرنا النظرة الفاحصة المقارنة . . أولا : إلى العربى فى عهـــديه (الجاهلية والإسلام) ثانيا . إلى الزاد الفكرى والعاطفى والوجدانى الذى قدمته البيئة الجاهلية لأهلها ، ثم الذى قدمته البيئة الإسلامية لأهلها .

ومن النظر فى تلك المؤثرات نستطيع أن نقف على أهم عوامل التحول التى كان لها أكبر الأثر فى تطوير الخطابة العربية ، وتتلخص تلك العوامل فى :

١ — أمثلة الخطابة التى قدمها القرآن الكريم ، فقد وجد العربى فى تلك النماذج الخطابية شيئا غير ما اعتاده — وربما كان هذا الشىء فى نفسه لكنه ما كان ليجد لديه القدرة عليه — لما إن سمع العرب القرآن حتى فتنوا به ، وذهلوا عن الأخذ منه والانتفاع به ، فلما أنصتوا إليه وقرأوه أنسوا له ، فأقبلوا عليه ، فإذا بهم أمام نمط آخر من الخطابة يغاير ما عرفوا من أنماطها ، فهو يقصد إلى التأثير والإقناع معا فى أسلوب تربطه وحدة أقوى من الوحدة النفسية ، مع اشتماله — كذلك — على الوحدة النفسية .

فألزموا أنفسهم ترسم خطاه ، وانتهاج سبيله ، والسير على هداه ، وأخذ ألسنتهم بقوانينه الأسلوبية ، وترويضها عليها حتى تمتاد على ذلك السبيل الجديد .

وذلك أنهم قرأوا الخطاب القرآن الكريم الموجه إلى بنى إسرائيل فى سورة البقرة :

« يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به . ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون . واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون .

« يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون »(١) .

ويتتابع الخطاب على هذا النمط حتى يقطع أكثر من ثمانين آية(٢) . ومن أبرز ما يلمسه دارس هذا النص عمق الأفكار التى يعرضها ، وترتيب هذه الأفكار ترتيبا لاقلق فيه ولا تكرار ، ومسار النص ومنهجه فى عرض المواقف ، والنص ـ كما ترى ـ يسير فى اتجاهه واضحا مستقصيا كل ما يتعلق بالموضوع من جزئيات تدفع الخطاب فى طريقه ، وتنميه ، متجاوزا كل جزئية تجمد الموقف ، أو تحول الأنظار عنه هذا إلى أن الدارس يلحظ حرص النص على إدانة ما قد ينشأ عن طول الخطاب من الملل أو الانصراف والتحول .. وذلك بجعل الأسلوب مزاجا من الخطاب والغيبة والتكلم (الالتفات) ـ مع الحرص على أن يكون لذلك الالتفات وظائف أخرى أسلوبية ليس هنا مجال الحديث عنها ـ وجعله مزاجا من التذكير والمن ، والوعـد والوعيد ، والتساؤل المتهكم الساخر ، والوصف الشامل .. إلى غير ذلك .

وهكذا بلغ الإعجاز حدا جعل الخطاب قضية من قضايا الفكر ، ذات مقدمات

---

(١) البقرة ٤٠ ـ ٤٨

(٢) البقرة ٤٠ ـ ١٣٢

ونتائج يصل إليها المتلقى ، وتقر فى ذهنه بمجرد سماعه لذلك الخطاب . وما كذلك كانت خطابة العرب ، ولا وقع فى أسماعهم من قبل خطبه تسير هذا المسار[1] .

٢ — استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لمنهج الدعوة الذى أمره إليه ربه فى قوله . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم هى أحسن » . وهذا المذهب فى الدعوة يتيسر أكثر ما يتيسر فى الخطابة ، فهى خير ما يستعين به الدعاة إلى العقائد والمذاهب الجديدة ، وهى خير ما يستعين به الأنبياء والمصلحون فى الدعوة إلى دياناتهم ؛ لأنها أمثل وسيلة تيسر الاتصال بالجماهير ، وتتيح الفرصة لمناقشة أفكارهم ، والإجابة على ما يطفو فوق سطح أذهانهم من حجاج ، ولأنها تمكن من التأثير فى الجماعات ؛ ولذلك اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة يبث بها دعوته فى نفوس العرب وغير العرب ، ويعتمد عليها فى إقناعهم بصدق ما جاء به ، ولذلك — كذلك — اتخذها أداة يؤكد بها مبادىء الإسلام ، ويقررها فى نفوس المسلمين . ومن ثم أصبحت الخطابة وسيلة العمال والولاة الذين يبعثهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأمصار ، حيث يقوم الوالى أو العامل خطيبا فى الناس حين يصل إلى مصيره ،ليبين لهم منهجه ، ويوضح لهم طريقته التى سيسير عليها معهم ، حتى أصبحت سنة يتبعها كل خليفة ، ويستهل بها عهده الجديد كل وال .

ومن ثم أهتم المسلمون بتعديل منهج الخطبة بما يتلاءم مع وظيفتها الخطيرة التى وظفوها فيها ، فجعلوا للخطبة أجزاء لها ابتداء واختتام ، وبين هذين يعرض الموضوع متماسكا ، مرتبا ، واضحا ، مقنعا مغريا ، صادقا . واشترطوا فى المقدمة شروطا أملاها عليهم إحساسهم بجليل شأن الخطبة ، وتقديرهم الأبعاد التى يغزونها بها من نفوس السامعين ، فالتزموا فيها — إلى كونها ممهدة للموضوع ،موطئة لأكنافه — الافتتاح بالتحميد والتمجيد لله ، والصلاة والسلام على النبى .

٣ — ما استلزمه مجىء الإسلام من صراع بين من يدعون إليه ومن يرغبون عنه ويقفون فى وجهه ، كان عاملا فى انتعاش الخطابة ، وبابا واسعا ينفذ الدعاة منه إليها ؛ سواء فى ذلك المسلمون الداعون إلى الإسلام ، والمشركون المناوئون له .

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر للمؤلف (أثر الإسلام فى الخطابة العربية) ص ٥٥ وما بعدها .

وهكذا نتج عن ذلك الصراع حرب كلامية تساقطت فيها عن الخطابة عيوب الجاهلية ، وزادت بها — على الأيام — قوة وتأصلا .

٤ — اتجاه الأدباء العرب نحو القرآن الكريم .. يحاكون أسلوبه ، ويقتبسون من آياته ، ويتابعون منهجه وأفكاره ؛ أكبوا على القرآن بكليتهم ، ونقلوا عنه فيما كتبوا وخطبوا ، لا فرق فى ذلك بين المظاهر من حيث الأسلوب والصياغة ، وبين الحقائق من حيث الأفكار والمعانى ، ومن حيث الصور والأخيلة . هذا إلى توشيح خطبهم وكتاباتهم بآيات من آياته يقتبسونها ، حتى قال الجاحظ : إن الخطبة إذا لم توشح بآيات من القرآن الكريم سميت شوهاء[1] . وقال كذلك : كانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل ، وفى الكلام يوم الجمع آى من القرآن ، فإن ذلك يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الوقع[2] .

وتأثر النقد الأدبى بذلك فأصبح عيبا فى الخطيب ألا يتحلى بالثقافة القرآنية ، وأصبح عيبا فى الخطيب ألا تبدو تلك الثقافة القرآنية فى خطابته ولم يقف عند حد العيب ، بل لقد كان ذلك دليل عجز ، وعنوان خواء ، فقد أشار الجاحظ إلى عجز الأعراب الجفاة الذين لم يتفقهوا فى الدين عن إجادة الخطابة[3] . ويحدثنا عمران بن حطان خطيب الخوارج المشهور فيقول : خطبت عند زياد خطبة ظننت أنى لم أقصر فيها عن غاية ، ولم أدع لطاعن علة ، فمررت ببعض المجالس فسمعت شيخا يقول : هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شىء من القرآن[4] .

ومعروف أن الأديب محرك الناقد وموجهه ، وعلى عليه ما يكتب ومالا يكتب ، إلا أن يكون الأديب متفوقا على معاصريه . سابقا مناهجهم فيكون رائد تجديد . فلا يلتزم بإملاء الناقد لأنه حينئذ يكون قد شآه .. ومن ثم نهضت الخطابة الإسلامية

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٦ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١١٨ .

(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ١١٨ .

بروح غير الروح التى كانت تتحرك بها الخطابة الجاهلية .. استمع إن شئت إلى هذا الجزء من خطبة للصديق أبى بكر :

إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أديتموها ، وسلف قد متموها ، من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم . أين كانوا بالأمس ، وأين هم اليوم !! أين الجبارون ؟ ! أين الذين لهم ذكر القتال والغلبة فى مواطن الحروب ؟ ! وقد تضعضع بهم الدهر ، وصاروا رميما ، قد تركت عليهم القالات ، الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات .

وهكذا كان للقرآن الكريم بنسقه وأسلوبه وصياغته ، ومعانيه وأفكاره ، وأخيلته ، ذلك الأثر البالغ فى توجيه العرب المسلمين حيث ترسموه وساروا على هداه ، وضمنوا أعمالهم الأدبية من آياته ، واقتبسوا منها ما ترقى بفن الخطابة ، وبث فيها روحا تنبض بالفاعلية والحياة .

أو استمع إلى هذا الجزء من خطبة للامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه : أما بعد ، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وأن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وأن المضمار اليوم وغدا السباق . ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل ، فمن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله . ألا فاعملوا لله فى الرغبة كما تعملون له فى الرهبة . ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها . ألا وإنه من لم ينفعه الحق ضره الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى جار به الضلال ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ، ودللتم على الزاد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل(١) .

ثم انظر — مع الأفكار والمعانى — إلى هذا النسق الذى قدم فيه الإمام على خطبته وإلى تلك الانتقالات الرشيقة ، وإلى ذلك العرض الواضح المترابط ، تجد التأثر بالقرآن الكريم بينا ، والتمثل بأسلوبه وطريقته فى العرض مقصودا إليه .

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ٢٣٥ .

٥ – ما جاء به الإسلام فى ضمن أنظمته من حرية فى إبداء الرأى ، وشورى فى نظام الحكم ، مما جعل طائفة من الأمة تتحرك مع الكلمة وتتحرك معها الكلمة ، لا على وجه الإباحة ولكن على وجه الإلزام ، فمجلس الشورى ميدان ثر للخطابة الواجبة ، ومحك نضال للأفكار والعقول ، ينعقد المجلس ، حيث يعرض الأمر، ينافش من شق جوانبه ، ويبحث بكل أسباب البحث ، ويمحص كل قائل ما يقول حتى يضمن لما يقول السداد ، وينصت كل مستمع حتى لايترك هنة يقرها من غير أن يستوضح ويستبين .

وأول من بدأ السير فى ذلك الطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان كثيرا ما يجمع صحبه يستشيرهم فيا يعرض من الأمور الهامة ، مثل أحد والخندق وكذلك كان شأن خلفائه من بعده حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليقول : « لا خير فى أمر أبرم من غير شورى » .

وإبان الأحداث الهامة كان المسلمون يعقدون مجالس الشورى يتبادلون فيها الرأى ، ويستعرضون الموقف ، فيقوم كل صاحب رأى خطيبا يقدم للآخرين مايرى ، ويدعمه بالحجج ، ويقويه بكل ما يرى من أسباب القوة ، سواء كانت مادية كالحكم والأمثال والوقائع ، أو كانت صوتية بما تحمل من مؤثرات . من ذلك ما حدث يوم السقيفة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما كان من اختلاف حول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد كانت ميدان شورى من أخطر ميادين الشورى بما طرح فيها من الموضوعات ، وبما قدم فيها من الآراء حتى إذا تكلم أبو بكر قدم الحجة المسكتة ، والبينة الصريحة الواضحة ، وذلك قوله : « نحن المهاجرون . . أول الناس إسلاما ، وأوسطهم دارا ، وأكرمهم أحسابا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثر الناس ولادة فى العرب . وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أسلمنا قبلكم، وقدمنا فى القرآن عليكم ، فأنتم إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفيء ، وأنصارنا على العدو، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيرا ، نحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لاتدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، وأنتم محقوقون ألا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم »[1] .

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٣٤

ومن ذلك أنه لما كانت فتنة أصحاب الجمل انعقد مجلس الشورى فى مدينة الكوفة، ووقف بعض أعضائه داعيا إلى عدم المشاركة فى الفتنة كأبى موسى الأشعرى ، ووقف آخرون يدعون إلى نصرة على وقتال أصحاب الجمل كالقعقاع بن عمرو(١)

وهكذا يتراءى الإسلام أمام عيوننا فى الخطابة العربية من خلال ذلك المبدأ الذى أقام عليه دولته ، وأفسح المجال لارتقاء الخطابة وازدهارها :

٦ - الصراع بين المسلمين بعضهم مع بعض - على ما حدث بين على ومعاوية - كان من عوامل نمو الخطابة الإسلامية ، لما يحتاج إليه هذا الموقف من تلوين الخطابة بألوان أخرى غير التى عهدت . تحوج - من غير شك - إلى تفكير وبحث ودرس وأناة ، حتى يتمكن القائل من الحجج التى يسهل بها على المسلم أن يحارب أخاه المسلم ، ولم تكن الحاجة إلى الخطابة أمس منها فى ذلك الحين، وقد كان قادة كل فريق يحرصون على تقوية ، الروح المعنوية ، وخلق الإيمان فى نفس أتباعهم بإسلامية عملهم هم دون غيرهم ، وإقناعهم بأنهم يحاربون من أجل إقرار الحق ، ونشر دين الله . ثم إن القادة والزعماء ليقدرون الموقف حق قدره ، ويعلمون أنهم فى حاجة إلى الإكثار من القول، وإعادته وتكراره ، لأن تكرار القول يدخل فى النفوس توهم صدقه وصحته . ومن ثم نستطيع أن نقف على السر فى كثرة ما وصلنا من خطب هذه الفترة وما تلاها .

ويلاحظ على خطب هذه الفترة - مع كثرتها - أنها تتسم بالطول والإطناب ، وذلك مراعاة من قائلها لمقتضى الحال ، فالموقف يستدعى البسط والتفصيل ، وقرع الحجة بالحجة ، من كل ما يقتضى الإطالة .

وهكذا أصبحت الفتنة الكبرى التى وقعت بين على ومعاوية مصدر إثراء للخطابة العربية الإسلامية ؛ فالإمام على خليفة بايعه المسلمون وخرج عليه معاوية ، ومن ثم فهو يعمل على ملء قلوب مناصريه بالحماسة والبسالة ، ويبذل كل مايستطيع من قوة الكلمة فى أن ينتزع من قلوبهم عاطفة الأخوة الدينيةالتى توشجت أواصرها بينهم وبين إخوانهم الذين انضووا تحت لواء معاوية وناصروه، فلا يجد بدا من أن يلجأ إلى العاطفة الدينية

---

(١) انظر تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٣٩٣

نفسها فيثيرها فى نفوس أصحابه ، ويظهر الآخرين فى مظهر المارقين على الدين، والهادمين لأسسه ومبادئه؟. استمع إليه فى إحدى خطبه إذ يقول : «وايم الله ماوتر قوم قط بشىء أشد عليهم من أن يوتروا بدينهم . وإن هؤلاء القوم لايقاتلونكم إلا عن دينكم ليميتوا السنة ، ويحيوا البدعة ، ويعيدوكم فى ضلالة قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة ، فطيبوا عباد الله أنفسا بدمائكم دون دينكم ، فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات النعيم . وإن الفرار من الزحف فيه السلب للعز ، والغلبة على الفىء ، وذل المحيا والممات ، وعاب الدنيا والآخرة ، وسخط الله وأليم عقابه » .

وفى الجانب الآخر يقف معاوية ومناصروه يصنعون نفس الصنيع ، استمع إليه يخطب محرضا على قتال على وصحبه : « انظروا يا أهل الشام ، إنكم غدا تلقون أهل العراق ، فكونوا على إحدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله فى قتال قوم بغوا عليكم فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا بيضتكم، وإما أن تكونوا قوما تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم ، وإما أن تكونوا قوما تذبون عن نسائكم وأبنائكم، فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل ، واسألوا الله لنا ولكم الصبر » .

وفى هذا الميدان ظهرت جماعة من النساء ثارت فى نفوسهن عاطفة الحب لآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فقمن خطيبات يعاون بسلاح الكلمة عليا كرم الله وجهه ، فتسير خطبهن مسار النار فى الهشيم، مثل عكرشة بنت الأطرش، وأم الخير بنت الحريش، والزرقاء بنت عدى . وبهذا اتسع مجال الخطابة ، وازدادت ثراء ، سواء كان مظهر ذلك .. الغرض ، أو الداعى لها ، أو القائل الخطيب .. !

٧ — إيجاب الخطابة على المسلمين فى بعض حالات العبادة ، واستحبابها فى بعض آخر ، مع تحديد الخطيب فى ذلك بغاية، وربط الخطبة بأسباب ووسائل كان لها أكبر الأثر فى نمو الخطابة وتطورها ؛ فصلاة الجمعة من كل أسبوع لاتتم بدون خطبة ، وفى كل مناسبة أو داعية خطبة يواجه فيها الإمام أو الخليفة جمهور المسلمين . وكل تلك الخطب غير محدودة الموضوع ، بل هى مطلقة على حسب ما يناسب الزمان والواقع والموقف . بيد أن غايتها محدودة ، وكيفيتها تكاد تكون كذلك وأوضح نموذج لذلك النمط من الخطابة ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع . قال صلى الله عليه وسلم بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس ، اسمعوا قولى فإنى

لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون . قضى الله أن لا ربا ، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . . أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم » .

* * *

وهكذا اجتمع للخطابة العربية بمجىء الإسلام كل أسباب النمو والترقى ، وباستطاعتنا أن نجمل تلك العوامل فى ثلاثة : أحدها جذرى ، والثانى عرضى ، والثالث تهذيبى .

فالأول يعمل على تعميقها وتأصيل أسبابها بعد أن كانت مقصورة على خطاب المشاعر والوجدانات ، كما بدأ ذلك فى الحجاج الموضوعى ، والمناقشة الموضوعية ، والدعوة المذهبية .

والثانى يوسع أبعادها ، ويعدد ميادينها ، وذلك بتكثير الأغراض التى تستخدم فيها ،

والثالث يحدد لها المنهج ، ويرسم لها الطريق ، ويقسم لها الخطوات ، ويربط بين عناصرها وأفكارها .

ومن ثم تهيأ للخطابة — مع الإسلام — من أسباب الذيوع والانتشار مالم يتهيأ لها من قبل ، فقد أصبحت الوسيلة الأولى ، والأداء المعبرة عن الدعوة ، تنطق بمحاسنها ، وتشرح للناس أسرارها ، ويواجه بها أصحاب الآراء والأفكار الجديدة معارضيهم بالتوضيح والتشقيق والتفنيد .

أهم خصائص الخطابة الإسلامية :

تحت تأثير هذه العوامل وغيرها نمت الخطابة وتطورت، فاكتسبت سمات وخصائص ميزتها عن الخطابة الجاهلية ، كان من أبرزها :

١ — أن الخطيب أصبح يميل إلى الطول ، حيث مست الحاجة إلى الإطناب فيها ؛ عرضا لجوانب الفكرة التي يقدمها الداعي ، أو تعليلا وتفسيرا لما اتخذه من المواقف ، أو بسطا لما يأخذه على الخصم من أخطاء وانحرافات ، أو استطرادا في ذكر الحجج والبراهين على قوة ما يرى وتوهين ما يراه غيره . . إلى غير ذلك من دواعي الإفاضة ، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك في قوله : إن جملة القول في الترداد أنه ليس فيه حد ينتهى إليه ولا يؤتى على وصفه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص ، وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى ، وهود ، وهارون ، وشعيب ، وإبراهيم ، ولوط لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم[١] . وقد روى الباقلاني أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يطيل الخطبة أحيانا إلى ساعات ، غير أن ما وصلنا من خطبه صلى الله عليه وسلم إنما هو بقايا تلك الخطب ، فقد سقط منها الكثير قبل أن ينقذها التدوين ، مثال ذلك خطبته صلى الله عليه وسلم في أول جمعة له بالمدينة ، وفيها يقول .

« الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمد عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه . ولا أفضل من ذلك نصيحة . وأفضل من ذلك ذكرا ، وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه ، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية لاينوى

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠٥

بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا فى عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا، ويحذركم الله نفسه . والله رءوف بالعباد ، والذى صدق قوله ، وأنجز وعده لا خلف لذلك ، فإنه يقول عز وجل : « ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله ، فى السر والعلانية : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما ، وإن تقوى الله يوقى مقته ، ويوقى عقوبته ، ويوقى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا فى جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم » وسماكم المسلمين « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة » ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم ، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم .

٢ ـ أن الخطيب يحرص على تقسيم الخطبة ، حيث تبدأ بمقدمة توحى بالموضوع ، ثم عرض للموضوع يستخدم فيه كل ما يمكن من وسائل العرض ، ثم خاتمة يلخص فيها ما بسط ، ويجمل ما فصل . ولقد كان للخطاب القرآنى أكبر الأثر فى توجيه العرب إلى ذلك النهج فى خطابته ، حتى إذا اطلع النقاد العرب على خطابة أرسطو وجدوه يطلب من الخطيب السير على هذا المنوال ، فلما رجعوا إلى ما بين أيديهم من الخطابة العربية الإسلامية وجدوها تسير فى نفس الطريق .

٣ ـ وكما حرص الخطيب على تقسيم خطبته حرص على أن يكون العرض قائما على الترتيب المنطقى الصحيح الذى يعتمد على استخلاص النتائج من مقدماتها ، سواء بدأ بالمقدمات وثنى بالنتائج أو عكس . ونظرة إلى ما قدمنا من نماذج تقرر ذلك .

٤ ـ قوة الأفكار التى تتناولها الخطابة ، فلقد أصبحت هى أداة التعبير الأولى لديهم ، وكان عليها أن تحمل ما جد فى المجتمع الإسلامى الجديد من مضامين . ومن ثم أصبحت أفكارها فى مستوى المخاطبين بها ، قوة وعمقا وكشفا

٥ — إرسال أسلوبها ، وعدم التزام لون أسلوبي معين فيها ، فجملها تتردد بين الطول والقصر على حسب الحاجة إلى ذلك ، والسجع فيها غير ملتزم ولا مقصود إلا أن يجيء عفوا ، إذ الخطيب من جلال موضوعه ، وترتيب أفكاره ما يشغله عن الاهتمام بالتحسين اللفظي والقصد إليه .

٦ — توشيح الخطبة بآيات القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والحكم والأمثال السائرة ، تزيينا وإقناعا

(٢)

الـكتابة

معرفة العرب بالـكتابة سابقة على مجيء الإسلام ؛ لـكن هذه المعرفة لم يصلنا من مظاهرها ما يدل على أنهم توسعوا فى استخدامها ، أو تفننوا فى موضوعاتها ، والتصور العقلى لحياة العرب فى العصر الجاهلى يحدد مجالات استعمالهم الـكتابة وسيلة من وسائل الإبانة ؛ فقد كان معتمدهم الأصيل على الشعر الذى يقوم على الإنشاد والمشافهة ..

ولما جاء الإسلام ، واتسعت الدولة ، وتوحدت الأمـــة ، وتشابكت المصالح ، وتوطدت الصلات على البعد المـكانى ... فى هذه البيئة الحضارية الجديدة مست الحاجة إلى الـكتابة ، وأصبحت من أهم مقومات الدعوة الجديدة؛فهى مطلوبة لحفظ القرآن الـكريم ، ولتوثيق العهود والاتفاقات ، ولتبليغ الملوك والرؤساء الدعوة الإسلامية ، ولمخاطبة العمال والولاة بشئون الحـكم ، ولتوصية الرسل والقضاة بالحفاظ على مبادىء الإسلام .. إلى غير ذلك مما جد على العرب المسلمين ، ودعاهم إلى مزيد من الحرص على الـكتابة ، والإقبال عليها تعلما وتعليما وتنمية

ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن بمـكة سوى سبعة عشر كاتبا(١) أسلم أكـثرهم فى مبتدأ الدعوة مثل أبى بكر الصديق ، وسعد بن أبى وقاص ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعامر بن فهيرة ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ..ومن بين هؤلاء الصحابة تخير الرسول صلى الله عليه وسلم كـتاب الوحى، وكـتاب الرسائل والعهود(٢) . ولما أصبح للمسلمين دولة بعد الهجرة إلى المدينـة وزادت الحاجة إلى الـكتابة وإلى الـكاتبين ، أقبل المسلمون على تعلم الـكتابة ، وكان فى مقدمة هذا التحرك التعليمى ما فرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم على العاجزين عن دفع الفدية من أسرى بدر ، فقد عادل الفدية بتعليم عشرة من فتيان المسلمين ..

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٧١ ، ص ٤٧٣

(٢) الوزراء والـكتاب للجهشيارى ص ١٢ طبعة الحلبى .

وهكذا وجدت الأرض الخصبة والجو المناسب تماما لانتشار الكتابة فى عصر صدر الإسلام ، ومع انتشار المسلمين فى أرجاء الجزيرة العربية وما جاورها انتشرت الكتابة العربية ، حتى أصبحت معلما بارزا من معالم الحضارة الإسلامية الممتدة فى تلك الفترة . وكان فى مقدمة الدوافع المباشرة إلى الإقبال على تعلم الكتاب ، أن أول ما نزل من وحى السماء تضمن من الله سبحانه وتعالى على الإنسان بنعمة القلم والتعليم بالقلم : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » . وأتبع ذلك بقسمه جل وعلا بالقلم وما يكتب بالقلم ، وبالكتاب .. إلى غير ذلك مثل قوله تعالى : « ن والقلم وما يسطرون » . وقوله : « والطور وكتاب مسطور فى رق منشور » . كما أن القرآن الكريم أمر المسلمين أن يستعينوا بالكتابة والتسجيل منعا لما قد يقع من اختلاف ، فقال سبحانه : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق .. »(1) .

وهكذا ارتبطت الكتابة بالإسلام وبالدولة الإسلاميـــة ، كلما ازداد الإسلام انتشارا ، وازدادت الدولة اتساعا ، ازدادت الكتابة نموا وازدهارا ، ونبتت عن الغصن العطوى أغصان ، وتفتقت عن تلك الأغصان أزهار وثمار ، أينعت وبدا نضجها سريعا ، فقدمت للأدب العربى جنى طيبا شهيا ، كان نواة صالحة لما أنتجت البيئة العربية بعد ذلك من فنون النثر المكتوب .

* * *

والناظر فيما أثر من كتابة هذا العصر يجد فيها — منذ أول العصر — الكتابة الفنية ذات السمات والخصائص التى تتميز بها عن غيرها بما أضفته البيئة ومتطلباتها عليها من مناهج أسلوبية وبيانية خاصة ؛ فهى ليست — كما يتوهم بعض الدارسين — حديثا عاديا يسجل فى كتاب موجه إلى شخص معين ، خاليا من الفنية والصنعة الأدبية . وإنما هى عمل فنى ، صادر عمن يقدر البيان التعبيرى قدره ، وهو يقدم بين يدى دعوته الجديدة

---

(1) البقرة : ٢٨٢

كتاب السماء يتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله مجتمعين متآزرين ، ومن أبرز مظاهر فنية الكتابة فى ذلك العهد :

١ ـ أن الكتب والمراسلات لم يكن يلتزم فيها بشكل معين ولا صورة واحدة . فقد كان صلى الله عليه وسلم يلونها على حسب المرسل إليه ، فإن كان المرسل إليه غير عربى حرص صلى الله عليه وسلم على أن يكون موجزا ، مختار الكلمات بحيث يسهل ترجمتها فى بيان قاطع . كما ترى فى كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل فارس :

« من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . وأدعوك بداعية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الخلق كافة لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإثم المجوس عليك » .

وإن كان المرسل إليه عربيا انتقى من الألفاظ ما يتناسب مع وسطه البيئى ، كما ترى فى كتابه صلى الله عليه وسلم المرسل إلى وائل بن حجر الحضرمى :

« من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب(١) . . » ثم يقول . « وفى التيعة شاة لا مقورة الألياط ولا ضناك ، وانطوا الثبجة(٢) ، وفى السيوب الخمس(٣) ، ومن زنى مم بكر فاصقعوه مائة ، واستوفضوه عاما(٤) ، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم(٥) ، ولا توصيم فى الدين ، ولا غمة فى فرائض الله تعالى(٦) ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترفل على الأقيال »(٧) .

---

(١) الأقيال جمع قيل بفتح فسكون : الملك من ملوك حمير وحضرموت . والعباهلة : المقرون على ملكهم ، والأرواع : الذين يرعون بالهيبة والجمال . والمشابيب جمع مشبوب : الجميل الزاهر اللون .

(٢) التيعة : أربعون شاة ، وهى نصاب الزكاة فى الضأن . والمقورة الألياط بضم الميم وسكون القاف وفتح الواو : المسترخية الجلود . والضناك بكسر الضاد : السمينة ، وانطوا : اعطوا بإبدال العين نونا فى لغتهم . والثبجة بفتحتين : الوسط .

(٣) السيوب جمع سيب : العطية والمراد به الركاز

(٤) مم : من بإبدال الميم نونا فى لغتهم . والصقع : الضرب ، والاستيفاض : التغريب .

(٥) الأضاميم . جمع إضمامة : الحجارة الصغار . (٦) التوصيم : التوانى .

(٧) يترفل : يترأس .

وقد سار الصحابة فى الطريق ذاته ، فاهتموا بتجويد الكتابة ، وحرصوا على اختيار من يتولى الكتابة لهم ، روى الجهشيارى أن عمر رضى الله عنه دعا زيادا فقال له يبغى أن تكتب إلى خليفتك بما يجب أن يعمل به ، فكتب إليه كتابا ودفعه إلى عمر ، فنظر فيه ثم قال أعد ، فكتب غيره . فقال له أعد ، فكتب الثالث . فقال عمر : لقد بلغ ما أردت فى الأول ولكننى ظننت أنه قد روى فيه ، ثم بلغ فى الثانى ما أردت فكرهت أن أعلمه ذلك ، وأردت أن أضع منه لئلا يدخله العجب فيهلك »(١) .

٢ ـ الميل إلى الأسلوب التصويرى القائم على التحبير والتجويد ، استجابة لما شب فى أخريات ذلك العصر من فتن وجهت الحكام والكاتبين إلى تضمين رسائلهم وسائل الترغيب فى الحظوة عند الحكام والترهيب من الخروج عليه ، والتحذير من الإهمال على ماتجد فى رسائل عثمان رضى الله عنه إلى عماله وولاته ينبه فيها إلى ماشب فى البلاد من فتن تعتمد على الشائعات . ويبين سياسته الجديدة . مثل رسالته إلى معاوية حين قام أبو ذر يدعوته فى الشام ، وفيها يقول : « إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، فلم يبق إلا أن تثب فلا تنكأ القرح »(٢) .

٣ ـ اتجاه الكتاب إلى الإطناب والإطالة : فالعصر فى مرحلته الأخيرة ملىء بالصراع السياسى الذى لم يترك فيه المتصارعون وسيلة من وسائل الحرب إلا استخدموها ، ومن بين وسائلهم فى ذلك كانت الكلمة المكتوبة ، يفندون فيها مزاعم الخصوم ، ويستعرضون آراءهم ، ويتتبعونها فى استقصاء يقنع ، وهذا دون شك يعتمد على الإطناب والإطالة ، وقد احتذوا فى ذلك بالقرآن الكريم ؛ فهم فى ذلك خاضعون للبيئة وأحداثها ، متأثرون بالقرآن الكريم ومنهجه .

٤ ـ سهولتها ووضوح أفكارها ، وبعدها عن التكلف ، وتأثرها بالقرآن الكريم ، وتحليتها بآياته ، كما ترى فى كتاب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله وفيه يقول : « أما بعد . . فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جزاه ؛ فاجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصيرتك ، فإنه لا عمل

---

(١) الوزراء والكتاب ص ١٩

(٢) الجمهرة لأحمد صفوت ج ١ ص ٢٩٦ .

لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا مال لمن لا رفق له ، ولا جديد لمن لا خلق — بفتح الخاء واللام — له » .

* * *

ويلاحظ الدارس لما أثر من كتابات ذلك العصر أنها رسائل أو عهود ومواثيق ، وأن الرسائل تتنوع بتنوع أغراضها ، فمنها رسائل الدعوة التي وجهها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته إلى الملوك والحكام غـــير المسلمين يدعونهم إلى الإسلام ، ومنها الرسائل السياسية التي تتضمن توجيها سياسيا يتعلق بأمور الحكم — وقد رأينا فيما أسلفنا نماذج لهذين الغرضين — ومنها الرسائل الإخوانية التي تقوم على الإنسانيات ، كما جاء في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل ، يعزيه في وفاة ابن له مات ، وفيها يقول : « من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصـبر ، ورزقنا وإياك الشـكر ، ثم إن أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنية ، وعواريه المستودعة ، نمتع بها إلى أجل معدود ، وتقبض لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى ، والصبر إذا ابتـــلى . وكان ابنك من مواهب الله السنية ، وعواريه[١] المستودعة ، متعك به في غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير ؛ الصلاة والرحمة والهدى إن صبرت واحتسبت ، فلا تجمعن عليك يامعاذ خصلتين : أن يحبط جزعك صبرك ، فتندم على مافاتك ، فلو قدمت على ثواب مصيبتك قد أطعت ربك وتنجزت موعوده عرفت أن المصيبة قد قصرت عنه ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتا ، ولا يدفع حزنا ، فأحسن الجزاء ، وتنجز الموعود ، وليذهب أسفك ماهو نازل بك ، فكأن قد »[٢] .

ومنها رسائل المواعظ والنصح والتوجيه ، وهي تختلف عن الإخوانيات ؛ إذ ليس ضروريا أن يكتب بالنصح لآخر ممن تربطه به علاقة أخوة أو صلة قربى ، فقد يكتب بذلك إلى فرد من عامة الناس ، أو إلى أمير أو عامل أو خليفة . ثم هي قائمة على هذا الغرض المحدود استجابة لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ماتبادله سلمان الفارسي وأبو الدرداء .

---

(١) العوارف جمع عارفة : المعروف .

(٢) الجمهرة ج ١ ص ٦٥

يقول سلمان فى إحداها : « أما بعد فإنك لن تنال ماتريد إلا بترك ماتشتهى، ولن تنال ماتأمل إلا بالصبر على ماتكره، فليكن كلامك ذكرا ، وصمتك فكرا، ونظرك عبرا ، فإن الدنيا تتقلب ، وبهجتها تتغير ، فلا تغتر بها ، وليكن بيتك المسجد » .

ومما كتبه أبو الدرداء إلى سلمان : « سلام الله عليك . أما بعد فإنى أوصيك بتقوى الله . وأن تأخذ من صحتك لسقمك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن فراغك لشغلك ، ومن حياتك لموتك ، ومن جفائك لودتك ، واذكر حياة لا موت فيها فى إحدى المنزلتين ؛ إما فى الجنة وإما فى النار ، فإنك لاتدرى إلى أيهما تصير »[1] .

ومنها كتب العهود والمواثيق ، وهى كتب تعتمد على الدقة فى التعبير ، والوقوع على اللفظ المناسب ، دون الحاجة إلى المؤثرات العاطفية من تصوير أو تخييل ؛ فالدقة الفنية فيها تتطلب اليقظة للفظ الذى يؤدى الغرض منه .

ولا ريب فى أن هذا النمط البيانى لم يكن وليد الحضارة الإسلامية ، فقد كان للعرب فى الجاهلية معاهداتهم واتفاقياتهم المكتوبة ، وكان من عادتهم أن يودعوا المهم منها جوف الكعبة توثيقا لها وحفظا ، كما حدث يوم واجهت قريش بنى هاشم الضغط عليهم وتسليم محمـد إليهم ، فاتفقوا على مقاطعتهم ، ودونوا هذا الاتفاق فى صحيفة أودعوها الكعبة .

بيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدخل على المعاهدة من التحفظات والاشتراطات والتوضيحات ماينظمها فى سلك العمل الفنى ، حتى أصبح الناظر فيها يجد نفسه أمام لون بيانى يكشف فيه صاحبه عن كثير من الجوانب السياسية والاجتماعية القائمة والمتوقعة ، ويبين عن طبائع من يتعامل معهم وأفكارهم، ويواجه الشاذ منها بالتقويم ، مثال ذلك معاهدته صلى الله عليه وسلم مع من كان بالمدينة التى جاء فيها : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، والمهاجرون من قريش على ربعتهم[2] يتعاقلون[3] بينهم ، وهم يفدون

---

(١) الجمهرة جـ ١ ص ٣٢٤ ، وحلية الأولياء جـ ١ ص ٢١٤ .

(٢) على ربعتهم : على استقامتهم ، يعنى على أمرهم الذى كانوا عليه .

(٣) يتعاقلون : يعقل بعضهم بعضا ، ويدفع دية جنايته الخطأ .

عانيهم(١) بالمعروف والقسط(٢) بين المؤمنين ، و بنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين - ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار : بنى الحارث ، وبنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى النجار ، وبنى عمرو بن عوف ، وبنى النبيت ، وبنى الأوس - وإن المؤمنين لايتركون مفرحا(٣) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقــل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . . .

ويسير صلى الله عليه وسلم فى المعاهد على هــذه الوتيرة من تحديد واجبات المتعاهدين قبل الآخرين ، ثم فى النهاية ، يحدد معالم الواجبات العامة فى قوله : « وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأن الله على أتقى مافى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلتبسونه فإنهم يصالحونه ويلتبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنهم لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق مافى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا آثم ، وأن من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

والناظر فى محتوى هذا الكتاب يلاحظ أن النبى صلى الله عليه وسلم التزم فيــه سبيل الدعوة إلى الدين والإبانة عن مبادئه ، إلى جوار المقررات السياسية التى تستدعيها نظم الحكم ، واستقرار الحياة فى الدولة الناشئة ، فلم يغفل جانبا لحساب الجانب الآخر ،

---

(١) العانى : الأسير . (٢) القسط : العدل .

(٣) المفرح - بضم الميم وسكون الفاء وفتح الراء - الذى أثقله الدين والغرم . يقال : أفرجه إذا أثقله ، ويروى (المفرج) بالجيم ، وهو القتيل الذى لايدرى من قتله أو الذى لا ولد له ولا مال ولا عشيرة .

ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج بين كل هذه الغايات فى كتابه ، بحيث يجد المتأمل أنه أمام وثيقة سياسية بما تتضمنه من مقررات محددة، وأنه أمام رسالة تكشف عن أبرز مزايا الدين الجديد بما يشد الناس إليه ، ويجتذبهم نحوه(١) .

وصفوة القول : إن الكتابة فى ظل حضارة الإسلام توفر لها ـ بالقرآن الكريم، وبالإسلام ومبادئه ونظمه ، وبرسول الإسلام وصحابته ، وبما جد من أحداث فى ظلال الإسلام ـ من أسباب النمو والترقى مامنحها القدرة على النهوض ، وأتاح لها فرصة القيام والتحرك فى مجال النمو والترقى فى مختلف الاتجاهات .. أسلوبا ، وموضوعا ، وفكرا ، ومنهجا ؛ فأصبح للكتابة كيان أدبى يؤرخ له فى هذا العصر ، فأضيف لفنون النثر فن جديد .

(١) لمزيد من التفصيل راجع للمؤلف (تأملات فى البيان النبوى) ص١٢٦ ومابعدها.

الفهـــرست

رقم الإيداع ٤٧٠١ / ٨٢